ديوان ابن زيدون ورسائله

شرح وتحقيق

الأستاذ علي عبدالعظيم

تقديم ومراجعة

الدكتور محمد إحسان النص

ديوان ابن زيدون ورسائله شرح وتحقيق: الأستاذ علي عبدالعظيم

تقديم ومراجعة: الدكتور محمد إحسان النص



الناشر

الكويت 2004

ديـــــــوان

ابـــن زيـدون

ورســـائـــلـه

شـــرح وتحـــقـــيق

الأستاذ علـــي عبدالعـظيم

تـقـديم ومـراجـعـة

الدكتور محمد إحسان النص

الكويـت 2004

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحث
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
سيـدي ولـد الأمجاد

بإشـراف

عبدالعزيز محمد جمعة

الصف والإخراج والتنفيذ

محمد العلي

أحمد متولي **أحمد جاسم**

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

ردمـك: ISBN : 99906 -72 - 10 - 5

رقم الإيداع : Depository Number: 2004 / 00284

الطبعـة الثالثة

من منشورات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الكويت ٢٠٠٤

الطبعـة الأولى عام ١٩٥٧

الطبعة الثانيـة عام ١٩٨٠

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail < Kuwait@albabtainpoeticprize.org >

تصديـــــر...

ابن زيدون شاعر كبير، تجري قصائده على ألسنة الناس، ويتبوأ مكانة سامقة في ديوان العرب وربما يكون هو أعلى تجليات الإبداع الشعري العربي في الأندلس.

وقد اختارت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، أن تطلق اسمه على دورتها التاسعة التي تنعقد في رحاب الأندلس، وقررت أن تكون مدينة قرطبة الجميلة ملتقًى للشعراء والأدباء والوفود المشاركة لأنها مسقط رأسه الذي أطل منه على الوجود. بيْدَ أنَّ هذا الاهتمامَ بالشاعر لا يقف عند هذا الحد، فقد أردنا إعادة نشر ديوانه الكامل من جديد، جامعاً لكل إنتاجه الشعري وما كتبه من رسائل نثرية ومطارحات أدبية، وكانت أمامنا عدة طبعات لهذا الديوان، بتحقيق جهابذة وعلماء بارزين، خَلُصْنا في النهاية إلى اعتمادِ النسخة التي حققها الأستاذ الجليل الدكتور علي عبدالعظيم رحمه الله، لما تتميز به من جودة علمية وشروح وافية، ولكون صاحبها قد كرس الكثير من عمره لدراسة ابن زيدون وآثاره، وقد صدرت دراسته أول مرة عام ١٩٥٧م في القاهرة.

وقد عانت الأمانة العامة للمؤسسة الكثير من الصعوبات في الوصول إلى أثر أو عنوان لمحقق هذه الطبعة الأستاذ علي عبدالعظيم، فقد تُوفي الرجل منذ فترة طويلة، إلى أن تمَّ العثور على أرملته وهي القريبة الوحيدة له الباقية على قيد الحياة أطال الله في عمرها، وقد تم الاتفاق معها على الإذن بإصدار هذا الديوان - المحقق من طرف زوجها الراحل الذي لم يترك بنينَ ولا إخوةً له من بعده - في طبعة خاصة بمناسبة

انعقاد دورة ابن زيدون التي تنظمها مؤسستنا في إسبانيا في الفترة من ٤-٨ أكتوبر من العام الحالي ٢٠٠٤.

ويسرني هنا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور إحسان النص نائب رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، الذي قام بمراجعة الديوان وقراءته، حيث وضع الكثير من التصويبات الهامة والملاحظات المفيدة على متنه وهامشه كما قدم له بمقالة فنية أفادتني وأسعدتني، والشكر موصول للإخوة الباحثين والعاملين في المؤسسة على جهودهم المثمرة والمخلصة وأخص بالشكر الباحث الأستاذ عبدالعزيز جمعة والباحث الأستاذ سيدي ولد الأمجاد لإشرافهما على الطباعة ولقسم الكمبيوتر في الأمانة العامة.

وفي الختام أتمنى للقُرّاء الكرام أن يجدوا في عوالم هذا الديوان المزيد من المتعة والفائدة وأن ينهلوا من معينِهِ الفياض رائقَ الشعرِ وأعذبَهُ لذةً للشاربين.

ورحم الله ابن زيدون الذي يقول:

ويا نسيمَ الصَّبا بلغ تحيتنا
من لو على البُعْدِ حَيًّا كان يُحيينا

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في جمادى الأولى 1425هـ

الموافق يوليو 2004م

****

آفاق الإبداع في

شعـــــر ابن زيـــدون

الأستاذ الدكتور إحسان النص

أجمع النقاد والباحثون في الأدب الأندلسي، من العرب والغربيين، على أن ابن زيدون هو أعظم شعراء الأندلس وأكثرهم إبداعًا وتجديدًا في شعره. فما هي العوامل التي كانت وراء إبداعه، وما هي فنون الشعر التي تجلّى فيها هذا الإبداع؟

من المحقق أن الشعر الأندلسي عامة غاير في كثير من سماته وفنونه أنماط الشعر في المشرق، وإن كان شعراء المشرق قد قدّموا لشعراء الأندلس فيضًا من المعاني والأفكار نهلوا منها وكانوا النموذج الأرقى الذي تشوّفوا إلى محاكاته، فالشعراء، مهما سعوا إلى التجديد ومغايرة النماذج الشعرية السابقة عليهم ليس في قدرتهم التخلّي عن موروثهم ومحفوظهم من تلك النماذج، فهي جزء من محصلتهم الثقافية وهي مستكنّة في أعماق وجدانهم وذاكرتهم، ولا سبيل أمامهم لمحوها من كيانهم الشعري، فكذلك نجد أن مورّثات (جينات) شعراء كل عصر تولّد أجنّة حيّة في أشعار من يليهم. فإن زعم شاعر من الشعراء أنه أوجد شعرًا منبت الأسباب بشعر سابقيه فهو يجانب الحقيقة ويخالف سنن الخلق الفني، فهذا الخلق لا يكون من عدم بوجه من الوجوه، فلابدّ للأحق من اقتفاء السابق على نحو من الأنحاء. فالفن الشعري قائم على المحاكاة، ولا يخلو نسيج أي عمل إبداعي من خيوط للمحاكاة، تقلّ أو تكثر.

وسمة أخرى من سمات الشعر الأندلسي عامة، هي فقره بالنظرات العقلية، فلم يكن لشعراء الأندلس ثقافة فلسفية متعمقة. وقد أشار إلى هذه الخصيصة المستشرق الشاعر الإسباني غارثيا غومث في كتابه عن الشعر الأندلسي، وهو يجيد اللغة العربية وترجم شعرًا عربيًا إلى الإسبانية، قال: «ولا بدّ أن ننبه من أول الأمر إلى أن الشعر الأندلسي

عامة – فيما خلا بضع شواذ – فقير جدًا من الناحية الذهنية التفكيرية، ومن دلائل ذلك أن الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير»[1].

ومن المحقق أن مجالات الإبداع في الشعر الأندلسي تغاير تلك التي نجدها في شعر المشارقة، فهي تبرز في فنون من الشعر ربما فاقوا فيها شعراء المشرق، ومن تلك الفنون وصف الطبيعة والغزل ووصف مجالس السّمر والشراب ووصف البلدان التي أصابها الدمار والعفاء. وابن زيدون يمثّل في شعره الجوانب الثلاثة الأولى إضافة إلى موضوع الاعتذار والاستعطاف.

وإذا تقصينا العوامل التي كانت وراء إبداعه في هذه الفنون الثلاثة نجدها تتجلّى في الجوانب الآتية:

١ – ثقافة الشاعر.

٢ – الطبيعة الأندلسية.

٣ – المجتمع الأندلسي.

٤ – تجارب الشاعر والأحداث التي مرّ بها.

٥ – نشأته وطبيعته ومزاجه.

أولاً - ثقافة الشاعر:

من خلال قراءتنا شعر ابن زيدون يتجلّى لنا ما كان يتحلّى به من ثقافة واسعة تتناول شتى آفاق المعرفة. وقد زوّدته بهذه الثقافة مصادر شتى، منها ما أخذه عن أبيه، وكان هو معلمه الأول، وكان والده من العلماء المعروفين، ولكن تتلمذه لوالده لم يطل لأنه توفي وابن زيدون في الحادية عشرة من سنّه. وقد تلمذ لعالم آخر هو أبو بكر مسلم بن أحمد، وكان من علماء العربية، ولابن زيدون رسالة وجّهها إليه حين كان في سجن ابن جهور، وهو يصف فيها حاله في السجن ويعاتبه عتابًا رقيقًا لأنه تخلّى عنه في محنته،

---

(١) غارثيا غومث: الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ص ٢٥.

ويطلب إليه أن يشفع له عند ابن جهور بعد أن تخلّى عنه أصدقاؤه[٢].

ولكن مورد ثقافته الأوسع إنما كان مطالعاته في الكتب التاريخية والأدبية واللغوية والفقهية ودواوين الشعراء. ويبدو أنه كانت لوالده مكتبة حافلة بمجموعة كبيرة من كتب الفقه واللغة والأدب والفلسفة. فأكبّ عليها يطالعها بشغف الباحث عن المعرفة، وقد تركت هذه الثقافة صدى واسعًا في أشعاره ورسائله، فاستفاضت فيها الإشارات التاريخية والإحالات الأدبية والاقتباسات الشعرية والمعاني الفقهية، ولا نجد شاعرًا أندلسيًا يجاري ابن زيدون في سعة ثقافته وغزارة معارفه.

ثانيًا - الطبيعة الأندلسية:

حين دخل الفاتحون العرب الأندلس وجدوا أنفسهم في بيئة تغاير كل المغايرة بيئاتهم في المشرق، فليس في هذه البيئة الجديدة بواد قاحلة وموارد مياه شحيحة ولا بيوت شعر وخيام وأطلال دارسة، وإنما وجدوا بلادًا عامرة بالحدائق النضرة والمياه المتدفقة والأشجار الباسقة. ومع أن العرب وجدوا في الحواضر التي استقروا فيها بعد الفتوح الإسلامية طبيعة تختلف عن بيئة أهل البادية القفر، بيد أن هذه الطبيعة لا تماثل بيئة الأندلس في روعتها. وقد عبّر الشاعر الأندلسي ابن خفاجة عن روعة الطبيعة الأندلسية فقال:

يا أهل أندلس لله دركمُ
ماءٌ وظل وأنهار وأشجارُ
ما جنَّة الخلد إلا في دياركمُ
ولو تُخيِّرتُ هذا كنتُ أختار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقرًا
فليس تُدْخلُ بعد الجنة النارُ

فالشاعر الأندلسي سحرته طبيعة الأندلس وبهرته مشاهدها الرائعة وخلبت لبّه، فوقع في أسرها، وامتزجت بروحه وعواطفه، فهو يصفها من داخله، فيتفاعل معها ويحسّ نبضها، في حين أن شعراء المشرق كانوا يصفونها كما تبدو لهم من خارج، ولا يتفاعلون

معها صنيع الشاعر الأندلسي.

وقد تركت هذه الطبيعة الخلاّبة أثرها العميق في نفس ابن زيدون ولا سيما أنه كان يقوم بنزهات في ربوعها الفاتنة بصحبة ولادة، فكانت ذكرياته لهذه النزهات ترتبط عضويًا بحبّه لولادة وتغزله بها، ووصف الطبيعة في شعره لا تكاد تخلو منه قصيدة من قصائده.

ثالثًا - المجتمع الأندلسي:

مثلما اختلفت طبيعة الأندلس عن طبيعة المشرق اختلف مجتمعها عن مجتمعه، فكان أهل الأندلس، مع كثرة الأحداث التي كانت تنتابهم، منكبيّن على لذائذ الحياة ومتعها، فمجالس اللهو والشراب كانت قائمة في كل حاضرة من حواضر الأندلس، وأكثر الأمراء والولاة والرؤساء - ولا سيما في عهد ملوك الطوائف، وهو عصر ابن زيدون - كانوا منغمسين في هذه المجالس، يعكفون على تعاطي الراح ويستمتعون بسماع الغناء وينكبون على لذائذ الحياة بمختلف صورها. ولم يكن المجتمع الأندلسي يعرف التزمت الديني والقيود الاجتماعية التي كانت تهيمن على مجتمع المشرق. وكان للمرأة في الأندلس من الحرية ما لم يكن للمرأة في المشرق مثله، ولا سيما نساء الطبقة الراقية. ومثال هذا الانطلاق والانعتاق من القيود الاجتماعية سيرة ولادة بنت المستكفي التي كان لها مجلس (صالون) يغشاه الرجال، فيتسامرون ويتناشدون الأشعار، ولولادة شعر تصرّح فيه بمنحها عاشقيها ما يشتهون، وهو قولها:

وأمكن عاشقي من لثم خدّي

وأعطي قبلتي من يشتهيها

ولم تكن للنساء في المشرق العربي مثل هذه الجرأة في التصريح بعواطفهن وعلاقتهن بالرجال.

رابعًا - تجارب الشاعر والأحداث التي مرّ بها:

شعر ابن زيدون يواكب مراحل حياته ويصوّر بأمانة وصدق كل ما عاناه الشاعر في حياته من هموم وآلام وما تعرّض له من خطوب، ولا يسع الباحث أن يدرس شعره بمعزل

عن حياته، خلافًا لما ذهبت إليه طائفة من النقاد المحدثين الغربيين ومن تابعهم من النقّاد العرب من إمكان دراسة النص الشعري بمعزل عن المؤثرات الخارجية والعوامل البيئية، فلم يكن ابن زيدون من أولئك الشعراء الذين اتخذوا شعرهم وسيلة لكسب المال بمديح الخلفاء والأمراء والأشراف، فهؤلاء ربما مدحوا رجالاً لا يضمرون لهم الولاء والود، فشعرهم لذلك لا يمثل حقيقة عواطفهم. أما ابن زيدون فلم يمدح إلا من أخلص الولاء لهم، فشعره يمثل حقيقة شعوره.

وإذا نظرنا في شعر ابن زيدون نجد أن ثمة أمرين استأثرا بمعظم شعره وكان لهما أعمق الأثر في حياته، وهما: حبّه لولادة بنت المستكفي، وسجنه الذي استمر خمسمئة يوم. فمن المحقق أنه أحبّ ولادة حبّاً لم تخب وقدته طوال حياته، وكان غزله صدى هذا الحب العنيف، أحبها في أيام الوصل وظل يحبها بعد القطيعة والهجر، وفي ديوانه عشرات من المقطعات المقولة بعد هجرها إياه وكلها تنبض بصدق العاطفة، وغزله يستغرق الحيز الأكبر من شعره.

أما سجنه فقد كان محنة عانى منها معاناة شديدة، ولا سيما حين وضع مع اللصوص والسفلة، وقد حاول الشاعر استعطاف أبي الحزم بقصائد عدة وبرسالته الجدية ولكن ابن جهور أصم أذنيه عن هذا الاستعطاف، ولم تفلح وساطات أصدقاء ابن زيدون في حمل ابن جهور على إطلاقه، فلمّا لم تجد محاولاته هذه كلها نفعًا اضطر إلى الفرار من سجنه واللجوء إلى بني عبّاد بإشبيلية، في رحلته الأولى إليهم، فشعره صورة صادقة عن حبه لولادة وسجنه.

خامساً - نشأته وطبيعته ومزاجه:

كانت أسرة ابن زيدون من الأسر ذات المكانة الرفيعة في قرطبة، وكانت ذات ثراء عريض، فنشأ ابن زيدون في أكناف الرفاهية والنعمة. فلما شب نمت في نفسه دواعي الطموح إلى تبوؤ المناصب العليا في الدولة وإلى أن يغدو من أولي الأمر والنهي. وقد تحقق له ما يصبو إليه من رفعة في ظل دولة أبي الحزم بن جهور في بادئ الأمر، ويبدو

أنه كانت تراوده آمال أوسع مدى مما وصل إليه، ونحن لا نبعد أن يكون له يد في الفتنة التي نشبت في قرطبة إبان حكم أبي الحزم، وشعره يبرزه في صورة الرجل المتعالي البعيد الهمة، وهو يصور، إلى جانب ذلك، ورغبته في أن ينال حظوة لدى ملوك الطوائف وأمرائها، وقد لقي في سفارته لديهم وإقامته عندهم حفاوة وإكراماً بالغين، بل إنه، مع حبه الصادق لولادة ومحاولته استرضاءها لم يستطع مغالبة كبريائه في بعض مواقفه منها، فأظهر إعراضه عنها، ورسالته الهزلية التي جعلها على لسان ولادة تمثل مدى اعتزازه بمكانته ورفعة شأنه.

****

آفاق الإبداع في شعره

عملت المؤثرات التي أوردناها على إنضاج عبقرية ابن زيدون وموهبته الشعرية، فأنتج شعرًا شهد النقاد بمستواه الفني الرفيع وإبداع قائله المتفوق، وهذا الإبداع يصدق أيضًا على نثره في رسائله التي بعث بها إلى أبي الحزم والأمراء الذين اتصل بهم وأصدقائه.

وسنقف هنا عند إبداعه الشعري فحسب، نتقصى مواطنه ومظاهره في إيجاز شديد. وهذا الإبداع يتجلى أوضح ما يتجلى في الفنون التي استغرقت الحّيز الأوفى من ديوانه، وهي الغزل والوصف والمديح والاستعطاف.

وإبداع ابن زيدون في هذه الفنون نلقاه في جوانب شتى، في ابتكار المعاني والأداء والأسلوب والصياغة والفن التصويري والجرس الموسيقي.

أولا - الإبداع في المعاني:

على وفرة ما أبدعه شعراء الغزل المشارقة من معانٍ جديدة في شتى العصور، ولا سيما في العصر الإسلامي، فإن ابن زيدون استطاع أن يضيف إلى هذه الثروة الوفيرة معاني مبتكرة لم تخطر في بال من سبقه من المتغزلين. وقد ألهمه هذه المبتكرات حبه المتوقد لولادة، سواء في حال الوصل والمساعفة أو في حال القطيعة والهجر، ولم يكن ابن زيدون من الشعراء الذين ينقلون هواهم من امرأة إلى أخرى، فقد استحوذت ولادة على جماع عاطفته وسويدائه، ويصدق عليه قول أبي تمام:

نــقل فــؤادك كــيف شــئت من الــهــوى

مــــا الحبّ إلاّ الحــــبــــيب الأول

وأول ما نلحظه في غزله امتزاجه بوصف الطبيعة امتزاجًا عضويًا، فالمرأة والطبيعة كانتا مصدرين للجمال في أبدع صوره، وابن زيدون موكل بالجمال ينساق إلى سحره حيثما وقعت عليه عينه، تستهويه العيون النُّجل والقدود الممشوقة وسائر مفاتن المرأة الحسناء، كما تستهويه مشاهد الرياض الغنّاء والأشجار الباسقة والثمار الجنيّة والأنهار المتدفقة وسائر مشاهد الطبيعة، فالارتباط وثيق بين وصف الطبيعة ووصف المرأة، والحب والطبيعة هما نسيجا شعره، فمشاهد الطبيعة كانت تذكّره بولّادة، وغزله كان يستوحي من الطبيعة ما يذكّره بمحاسن المرأة، من نحو قوله:

إنّي ذكرتك بالزهراء مشتاقًا
والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنه رقّ لي فاعتلَّ إشفاقا

وابن زيدون يجعل هنا الطبيعة تشاركه أحاسيسه وعواطفه، فاعتلال النسيم مرتبط باعتلال الشاعر، وهذا التلاحم بين الطبيعة وعواطف الشاعر مستفيض في سائر غزله، نحو قوله:

ولطالما اعتلّ النسيم فخلته
شكواي رقّت فاقتضت شكواكِ

وهو يستعير من الطبيعة رموزًا تمثل الطبائع الإنسانية والقيم الخلقية نحو قوله:

لا يكن عهدكَ وردًا
إن عهدي لك آسُ

فعهد صديقه أبي حفص بن برد غير ثابت، فهو يحكي الورد في سرعة ذبوله، في حين أن عهده ثابت دائم شأن نبات الآس الذي لا يسرع إليه الذبول، فالورد هنا رمز للذبول السريع والآس رمز للديمومة. ونلاحظ هنا أن التشبيه بالآس لم يكن معهودًا قبله في الشعر بهذه الدلالة. وعهود ولّادة كانت رياحين لروح الشاعر:

لُـيـسقَ عـهـدكم عـهـد الـسّـرور فـمـا
كـنـتـم لأرواحـنـا إلاّ ريـاحـيـنـا

والشاعر يستنبط من صورة التفاح معاني يلبسها ممدوحه ابن جهور، فثماره في حسن منظرها هي الدنيا في إقبالها على ابن جهور، ولكن حسن التفاح حائل وحسن ممدوحه باق:

لـهـا مـنـظـر حـسنٌ في الـعـيـون
كـدنـيـاك لـكـنـه مـنـتـقـل

وطعم التفاح لذيذ لذائقه لذة ذكرى ممدوحه، ورائحته تثني على ممدوحه، ولين ملمسها يحكي لين زمانه:

وطـعـمٌ يـلـذّ لمـن ذاقـه
كـلـذّة ذكـراك لـو لم يُـملْ
وريًّـا إذا نـفـحت خـلـتـهـا
تُـملّ ثـنـاءك أو تـسـتـهلْ
يُـمـثِّل مـلـمـسُـهـا لـلأكـفْ
ـف، لـين زمـانك أو يمـتـثلْ

وهذا المزج بين مجالي الطبيعة وأخلاق الممدوح من أبرز مجالات الإبداع في شعر ابن زيدون.

وغزل ابن زيدون حسيّ ماديّ، فالشاعر يقف في وصف الشعراء الذين ينظرون الى المرأة على أنها جسد جميل يثير في محاسنه الأشواق والرغبات الجنسية، وهذا الاتجاه طبيعي في بيئة الأندلس المتحضرة المترفة ومجتمعاتها المنغمسة في اللهو والمجون والشراب وكل المتع التي لم تكن في متناول شعراء البادية القدامى الذين كانوا إذا وصفوا مفاتن المرأة فغايتهم تسويغ تعلقهم بها، في حين أن هذه المفاتن كانت وراء تعلّق الشاعر الأندلسي بالمرأة، فنسمع ابن زيدون يقول في وصف صاحبته:

يـــجـــول وشـــاحـــاهـــا عـــلـــى خـــيـــزرانـــة
وتُـــشــــرق في بــــرديّــــتــــين الخلاخلُ

ويقول في نونيته المشهورة في وصف ولاّدة:

ربــــيـب مــــلـك كــــأن الــــلـه أنــــشــــأه
مــسـكًــا وقــدّر إنــشــاء الــورى طــيــنــا
أو صــــاغه ورِقًــــا مــــحــــضًــــا وتــــوّجه
من نــاصع الــتــبــر إبــداعًــا وتحــســيــنــا
إذا تــــــأوّد آدتــه رفــــــاهـــــــيـــــــةً
تُــومُ الــعــقــود وأدمــتْه الــبُــرى لــيــنــا
كــأنمــا أُثــبــتت في صــحن وجــنــتــه
زُهــر الــكــواكب تــعــويــذًا وتــزيــيــنــا

وهو إذا تغزل شاقته المفاتن الجسدية وتشوق إلى الاستمتاع بها:

مــا لــلــمُــدام تُــديــرهــا عــيــنــاكِ
فــيــمــيل في سُــكــر الــصــبــا عــطــفــاكِ
هلاّ مــزجت لــعــاشــقــيك سُلافــهــا
بــبَــرود ظَــلــمك أو بــعــذب لَــمــاكِ
بل مــا عــلــيك وقــد مــحــضتُ لك الــهــوى
في أن أفــوز بــحــظــوة الــمِــســواكِ
يـــدنـــو بـــوصـــلك حـــين شطّ مــزاره
وهــمٌ أكـــــاد بــه أقــــــبّــل فــــــاكِ

ويتجلى إبداعه في فن الغزل في قصيدته الفائية خاصة، وهي من قصائده الطوال الدالة على طول نفسه الشعري، فنسمعه يقول فيها:

وفي الــسِّــيَــراءِ الــرَّقْمِ وسط قــبــابــهم
بــعــيــدُ مــنــاط الــقــرط أحــورُ أوطفُ

تــبــايـن خــلــقــاه، فــعَــبلٌ مــنــعَّمٌ

تـــأوّد في أعلاه لَــدْنٌ مُــهــفــهفُ

فَـلِـلْـعـانكِ المـرتجّ مـا حـاز مـئـزرٌ

ولـلـغُـصُن المـهـتـزّ مـا ضمّ مِـطْـرفُ

فَـدَيْـتُكِ أنَّى زرتِ نـوُركِ واضحٌ

وعـطـركِ نمّـام وحَـلـيُكِ مُـرجفُ

ومشاهد الطبيعة وهديل الحمام الورق ومذاق الخمرة، كل ذلك يذكّره بولاّدة ويثير شوقه إلى الاستمتاع بمحاسنها:

وإنّي لـيسـتـهـويـنيَ الـبـرقُ - صبـوةً -

إلى بـرق ثـغـر إن بـدا كـاد يـخـطفُ

ومـا ولـعي بـالـرّاح إلاّ تـوهّمٌ

لـظَـلـمٍ به كـالـرَّاح لـو يُـتـرشَّفُ

وتُـذْكِـرُني الـعِـقْـدَ الـمُـرِنَّ جُـمـانُه

مُـرنّـاتُ وُرْقٍ في ذرا الأيك تـهـتفُ

فكذلك نتبين مدى اندماج الغزل بالطبيعة في شعر ابن زيدون.

وابن زيدون لا يكتفي بوصف مشاهد الطبيعة في الأرض بل يرفع بصره إلى السماء متطلعًا إلى نجومها وأفلاكها وبروجها، تردفه في ذلك معارفه الفلكية، وهو لا يصف هذه المشاهد السماوية والآثار العلوية لإبراز معارفه الفلكية وإنما ليلتمس مشابهها في أخلاق الناس وحركاتهم نحو قوله:

إلى أن بـدت في دُهـمـة الأفق غُـرّةٌ

ونُـفّـرَ من جُـنح الـظلام غُـرابُ

وقـد كـادت الجـوزاء تـهـوي فـخـلـتُـهـا

ثـنـاهـا من الـشِّـعْـرَى الـعَـبـورِ جِـذابُ

كأنَّ الثريّا رايةٌ مشرعٌ لها

جبانٌ، يُريد الطّعن ثمَّ يهابُ

كأنَّ سهيلاً في رباوة أفقه

مُسيمُ نجوم حان منه إيابُ

كأنّ السُّها فاني الحُشاشةِ شَقَّهُ

ضنًى فخُفاتٌ مرّة ومَثابُ

كأنّ الصباح استقبس الشمس ضوءَها

فجاء له من مُشتريه شِهابُ

☆☆☆☆

فكذلك نقف على مواطن الإبداع في معاني ابن زيدون، وقد يغير في بعض شعره على معاني الشعراء في المشرق، واقتباس الشاعر من معاني سابقيه أمر فاش في الشعر، قديمه وحديثه، فالشاعر حين يحفظ أشعار سابقين تختزن ذاكرته معاني أشعارهم، فترد في خاطره حين يتصدّى لنظم الشعر، فيقتبسها. وقد كثر الحديث عن هذه الظاهرة لدى نُقّاد الشعر القدامى، في سياق الحديث عن السرقات الشعرية وصورها (الاقتباس والتضمين وغيرهما). وفي العصر الحديث وضع النقاد الغربيون هذه الظاهرة في نطاق نظرية أطلقوا عليها مصطلح «التناص» وواضعة هذه النظرية الناقدة جوليا كريستيفا، فمن نماذج هذا التناص في شعر ابن زيدون قوله مخاطبًا ممدوحه:

فثق بهزبر الشِّعر واصفحْ عن الورى

فإنهم - إلا الأقلَّ - ذُبابُ

ولا تعدل المُثْنينَ بي فأنا الذي

إذا حضر العُقمُ الشَّواردُ غابوا

ينوبُ عن المُدّاح منّي واحدٌ

جميعُ الخصال ليس عنه مَنابُ

ففي هذه الأبيات ينظر ابن زيدون إلى قول المتنبي:

أجــزني إذا أُنــشــدت شــعــرًا فــإنمــا
بــشــعــري أتــاك المــادحــون مُــردّدا
ودع كلّ صــوت غــيــر صــوتي فــإنــني
أنــا الــطــائــر المحــكيُّ والآخــر الــصَّـدى

على أن ابن زيدون حين يستعير معاني الشعراء يتصرف في الأداء ويأتي بصور جديدة فيصدق عليه مذهب الفيلسوف والناقد الفرنسي درّيدا Derrida، مبدع المدرسة التفكيكية، فهو يفكك المعنى المستعار ويعرضه في لبوس جديد، فيصدق عليه قول الجاحظ: «إن المعاني معروضة في الطريق وإنما الشأن للألفاظ». وأمثال هذا التناص مستفيضة في شعر ابن زيدون، وهي تدل على سعة ثقافته الأدبية ومعارفه الشعرية.

وفي شعره اقتباسات قرآنية في المعاني والصور، من ذلك قوله في قصيدته التي رثى بها أم المعتضد بن عباد:

خــفــضــت جــنــاح الــذلّ في الــعــزّ رحــمــة
لــهــا وعــزيــز أن تــذلّ وتــخــضــعــا

فهو ينظر إلى قوله تعالى: (واخفض لهما جناح الذُّلّ من الرحمة). (الإسراء٢٤).

بيد أن ما استعاره ابن زيدون من معاني الشعراء الآخرين لا يُعدُّ شيئًا مذكورًا بالقياس إلى ما أبدعه من معانٍ جديدة لم يسبق إليها وكان أبا بجدتها، ومن العسير استقصاء كل ما أبدعه فكره الثاقب من المعاني البكر في مختلف الأغراض التي طرقها، على أن إبداعه المتميز يتجلى في فنّي الغزل والمديح خاصة. وحسبنا أن نحيل على طائفة من القصائد تبرز إبداعه في مجال المعاني، وتأتي في المقدمة قصيدته الرائعة:

أضــحــى الــتــنــائي بــديلاً من تــدانــيــنــا
ونــاب عن طــيــب لــقــيــانــا تجــافــيــنــا

فقد استحوذت هذه القصيدة على إعجاب النُقّاد والشعراء وعامة الناس، فحفظوها وعارضها كثير من الشعراء. ومن عيون قصائده القافية التي مطلعها:

إني ذكــرتكِ بـــالــزهـــراء مـــشــتـــاقَـــا
والأفقُ طـــلـقٌ ومــــرأى الأرض قــــد راقـــا

وقصيدته الفائية التي أولها:

أمـــا في نـــســـيم الـــرّيح عَـــرْفٌ مُـــعَـــرِّفُ
لـــنـــا: هل لـــذات الـــوقف بـــالجـــزع مـــوقفُ؟

وقصيدته التي أولها:

مـا جـال بـعـدكِ لحـظي في سَـنـا الـقَـمَـرِ
إلاّ ذكــــرتُكِ ذِكْــــرَ الــــعَـــــيْنِ بــــالأَثَـــرِ

وسينيته التي مطلعها:

مــــــا عـــــــلى ظـــــــنِّيَ بـــــــاسُ
يـــــجـــــرحُ الــــدهـــــر ويـــــاســـــو

وقصيدته اللامية التي أولها:

ألمْ يَــأْنِ أنْ يــبـكي الـغـمـامُ عـلـى مـثـلي؟
ويـطـلـبَ ثـأري الـبـرقُ مُـنْـصَـلِتَ الـنَّـصلِ؟

ففي هذه القصائد، وفي مخمسيته، وفي سائر شعره معانٍ بكر تستأثر بالإعجاب.

وآفاق ابن زيدون الثقافية والمعرفية قد رفدت شعره بقدر واسع من مصطلحات الفقه والحديث والمنطق والفلسفة وأمثال العرب. من ذلك قوله في سينيته التي وجهها إلى أبي حفص بن برد، فذكر مصطلحي النص والقياس:

ووِدادي لـــــــــــــــك نـــــــــــــــصٌّ
لـم يـــــخـــــالـــــفـه قـــــيـــــاسُ

وفي قصيدته التي وجهها إلى ابن عبدوس يرد مصطلحا الجوهر والعرض:

عَمِدْتَ لشعري ولم تتّئبْ
تُعارضُ جوهَره بالعَرَضْ

وفي قصيدة أخرى يذكر مصطلحي الكون والفساد:

كان الرضى، وأُعيذه
أنْ يعقبَ الكونَ الفسادُ

ونحو هذا مستفيض في شعره.

ولابن زيدون اطلاع واسع على الأحداث التاريخية وأخبار العرب وأمثالها، فهو يكثر من تضمينها في شعره، والإشارة إليها، من ذلك قوله:

سأبكي على حظي لديك، كما بكى
(ربيعةُ) لمَّا ضلّ عنه (ذؤابُ)

وهو يشير في هذا البيت إلى خبر ذؤاب بن رُبيعة الأسدي، قاتل عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي، وكان رُبيعة قدم الموسم لافتداء عتيبة فلم يجد الربيع بن عتيبة وظن أنه قتل ابنه ذؤابًا فرثاه بأبيات.

ومن تضمينه أمثال العرب قوله من قصيدة مدح بها أبا الوليد بن جهور:

لا يزل من حاسديه مكثرٌ
أو مقلٌّ، (سبق السيفُ العذلْ)

✡✡✡✡✡

ثانيًا - الأداء:

فإذا انتقلنا من أفق المعاني إلى أفق الأداء اتسع مجال الإبداع في شعر ابن زيدون، وتحقق قول الجاحظ في أن الشأن للألفاظ لا للمعاني، فالأداء هو مجاله الإبداعي المتألّق،

فلابن زيدون ذائقة مرهفة في اختيار الألفاظ المناسبة للموضوع الذي يعالجه.

ولو تقصينا معجمه اللفظي لوجدنا أنه يكثر من إيراد أسماء الرياحين والورود والحدائق والحلي والعطور والنجوم والثمار والطير. وكثرة ورود هذه الألفاظ في شعره أثر من آثار الطبعية الفاتنة الروعة التي عاش في ظلالها، والبيئة الحضرية المترفة التي عاش في ربوعها. والأمثلة على ورود هذه الألفاظ في شعره مستفيضة يعسر حصرها،ولا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده. وحسبنا إيراد نموذجين لهذه الظاهرة هما قوله يعاتب ولاّدة:

هذا الصباحُ على سُراك رقيبًا
فَصِلي بفرعكِ ليلَكِ الغربيبا
ولديك أمثالَ النجوم قلائدٌ
ألفتْ سماءك لبّةً وتريبا
لينبْ عن الجوزاء قُرطُكِ كُلّما
جنحتْ تحثّ جَناحَها تغريبا
وإذا الوشاحُ تعرّضت أثناؤه
طلعتْ ثُريّا لم تكن لتغيبا
ولطالما أبديتِ إذ حيَّيْتِنا
كفّاً هي الكفُ الخضيبُ خضيبا

وقوله في لاميته:

ألمْ يأنِ أن يبكي الحمامُ على مثلي
ويطلبَ ثأري البرقُ مُنْصَلِتَ النَّصلِ
وهلاّ أقامتَ أنجمُ الليل مأتمًا
لتندبَ في الآفاق ما ضاع من ثَكْلِي
ولو أنْصَفَتْني - وَهْيَ أشكالُ همّتي -
لألقتْ بأيدي الذُّلِّ لمّا رأت ذُلّي
ولافترقتْ سَبْعُ الثُريّا وغاضَها

بمطلعها ما فرّقَ الدهرُ من شملي

وابن زيدون مصور ماهر يفتنُّ في إبراز المعاني في حُلة قشيبة تثير الإعجاب، وهو يستعين في صوره هذه بشتى ضروب الأداء البلاغي، يجنح إلى التشبيه أو المجاز أو التشخيص والتجسيم أو التعبير الكنائي. وهو ينتزع صوره في أغلب الأحيان من طبيعة الأندلس المزدانة بشتى الألوان والأشكال، وقد ينتزعها من الآثار العلوية: من الكواكب والقمر والشمس والأفلاك والسّحب، فخياله المبدع يسعفه في النفاذ إلى كل ما يحيط به من مشاهد ورؤى، فهو يؤلف بين الحسِّي والحسِّي، أو بين الحسِّي والمعنوي، ويشخّص المجردات، ويضفي على موصوفاته الألوان البهيجة فتغدو لوحة رائعة تأخذ بالألباب.

ولا يتسع المجال هنا لاستيفاء الأمثلة على براعته التصويرية، فقصائده تزدحم بمختلف الصور، وحسبنا أن نستشهد بنماذج قليلة تبرز هذه البراعة، يقول في إحدى قصائده:

وغُصنٍ ترشّف ماء الشبابِ
ثَراه الهَوَى، وجناه الأملْ
بدتْ في لداتٍ – كزُهرِ النُّجوم –
حِسانِ التحلّي مِلاحِ العَطَلْ
مَشَيْنَ يباهينَ روضَ الرُّبا
بيانعِ روضِ الصِّبا المُقْتَبَلْ
فمن قُضُبٍ تتثنى بريحٍ
ومن قُضُبٍ تتثَّنى بدلّ

ومن صور التشبيه قوله من قصيدة في مدح المعتضد بن عبّاد:

أغَرُّ إذا تجهَّمَ وجهُ دهرٍ
تبلّجَ فيه كالقمر اللِّياحِ
هو المُبقي ملوكَ الأرض تَدْمَى
قلوبُهمُ كأفواه الجِراحِ

أبَـــحْـــرَ الجـــود في يـــوم الـــعـــطـــايـــا
ولـــيثَ الـــبـــأس في يـــومِ الـــكـــفـــاحِ

وهو ينتزع صوره من الطبيعة:

شِـيَمٌ هي الـزَّهْـرُ الجَـنِيُّ، تـبـسّـمتْ
عـنه الـكـمـائمُ في الـضّـحـاءِ المـانعِ

ومن نماذج تشخيص المجردات قوله في رثاء أم المعتضد:

لـقـد أجـهش الإخلاص بـالأمس بـاكـيًـا
عـلـيكِ، كـمـا حَنَّ الـيـقـينُ فَـرَجَّـعـا

وقصيدتاه النونّية والقافيّة زاخرتان بالصور المبتكرة نحو قوله:

والـروض عن مـائه الـفـضّي مـبـتـسمٌ
كـمـا شَـقَـقْتَ - عن الـلّـبـاتِ - أطـواقـا
وردٌ تـــألَّقَ في ضـــاحي مـــنـــابـــته
فـازداد مـنه الـضُّـحى في الـعـين إشـراقـا
سَــرَى يــنــافِــحُهُ نَــيْــلــوفَــرٌ عَــبِقٌ
وَسْــنــانُ نــبّهَ مــنه الــصُّــبحُ أحــداقـا

ولا تقتصر عناية ابن زيدون على حشد الصور البيانية في قصائده بل يضيف إليها شتى ألوان الزخارف البديعية، ولا سيما صور التماثل والتشابه (الجناس)، والتضاد المعنوي والطباق والمقابلة، فهو مولع كل الولع بإيراد هذه الزخارف، وهذا الولع سمة من سمات الترف الحضاري عرفها المشرق العربي منذ القرن الرابع الهجري واستفاضت بعده، وعرفها المغرب العربي والأندلس منذ ذلك الحين أيضًا. ومن نماذج هذا الإسراف في إيراد الزخارف قوله في النونية:

أضـحـى الـتـنـائي بـديلاً من تـدانـيـنـا
ونـاب عن طـيب لـقـيـانـا تجـافـيـنـا

ألا - وقد حان صبح البين - صبّحنا
حَيْنٌ، فقام بنا للحَيْنِ داعينا

من مُبلغُ المُلبسينا بانتزاحهمُ
حزنًا مع الدهر لا يَبْلى ويُبلينا

أنَّ الزَّمانَ الذي مازال يضحكنا
أنسًا بقربهمُ قد عاد يُبكينا

☆☆☆☆☆

وابن زيدون حريص على أن يوفر لشعره قيمًا إيقاعية موسيقية تجعل وقعه في الأسماع والنفوس أشد إطرابًا وتأثيرًا، وتتأتى موسيقاه من اختيار الألفاظ العذبة الحلوة الجرس، فهو يختارها اختيار الصائغ الحاذق جواهره ويواقيته. ولهذا أطلق عليه النقاد لقب «بحتري المغرب». ولا تفارق شعره هذه السمة المميزة حتى حين يتصدى للنظم في الأغراض التي تتطلب فخامة الألفاظ كالمديح ووصف القتال والفخر. واسمعه يقل في أروع قصائده المدحية، وهي الفائية التي مدح بها المعتمد بن المعتضد بن عبّاد والتي ذكر فيها إيقاعه بأعدائه:

طلاقة وجهٍ في مضاءٍ، كمثل ما
يروقُ فرندُ السَّيْفِ والحدُّ مرهفُ

على السَّيفِ من تلك الشهامةِ ميسَمٌ
وفي الرَّوضِ من تلك الطلاقةِ زُخرفُ

سجايا لمن والاه كالأَرْيِ تُجْتَنَى
تعودُ لمن عاداه كالشَّرْيِ يُنقفُ

أليس «بنو عبّادٍ» القبلةَ التي
عليها لآمال البريّةِ مَعْكَفُ

بِهِمْ باهتِ الأرضُ السَّماءَ: فأوجهٌ
شُموسٌ وأيدٍ من حيا المُزنِ أَوْكَفُ

وتمضي بنا سائر أبيات القصيدة على هذه الشاكلة من رقة الألفاظ وعذوبة الجرس،

وينبغي ألاّ يذهب بناالظنّ إلى أن هذه الألفاظ صدرت عن شاعر مطبوع بعيد عن تكلّف الصنعة، فابن زيدون شاعر ماهر في صنعته، يتأنق في اختيار ألفاظه غاية التأنّق.

وتتأتّى موسيقا شعره كذلك من اختيار الألفاظ المتجانسة أو المتماثلة في الوزن ضمن البيت الواحد (الموسيقا الداخلية)، ومن نماذج هذا الاختيار قوله:

وتــبــرزُ خــلــفَ حــجــاب الــعَــفــافِ
وتَــسْــفِــرُ تحتَ نــقــابِ الخــجلْ

ونحو قوله معاتبًا ولاّدة:

عـلامَ أطَّـبَـتْكِ دَواعي الـقِـلَى
وفـيـمَ ثَـنَـتْكِ نَـواهي الـعَـذَلْ
ألـم ألـزَمِ الـصَّـبْـرَ كـيْـمـا أخفَّ
ألـم أُكْـثِـرِ الـهَـجّـرَ كي لا أُملْ
فـمـا عُـوفِـيَتْ مِـقَـتي من أذًى
ولا أُعْـفِـيَتْ ثِـقَـتي مـن خَـجَلْ

ونحو قوله:

فـانـحلّ مـا كـان مـعـقـودًا بـأنـفـسـنـا
وانْـبَتَّ مـا كـان مـوصـولاً بـأيـديـنـا

ونحو قوله:

أبـرز الجِـيـدَ في غَـلائِلَ بـيضٍ
يَـتَـغَـلْـغَـلْنَ في حـدائق خُـضْـرِ

وهذا الضرب من الصنعة الموسيقية مستفيض في شعره.

وقد يقطّع البيت إلى فقرات صوتية متساوية ليحدث إيقاعًا للسامع، نحو قوله:

إلى أنْ تناهتْ شفاءَ العليلِ
وأُنْسَ المَشوقِ، ولَهْوَ الغَزِلْ

ونحو قوله في السينية:

والمحاذيرُ سهامُ
والمقاديرُ قياسُ

ونحو قوله في المديح:

طريقتُكم مُثلى، وهدْيُكُمُ رضًى
ومذهبُكم قصدٌ، ونائلُكم غَمْرُ
عطاءٌ ولا مَنٌّ، وحُكمٌ ولا هوًى
وحِلمٌ ولا عجزٌ، وعزٌّ ولا كبرُ

وهو ينوّع في الأوزان والقوافي، ويؤثر في المقطعات البحور المجزوءة، وخاصة مجزوء الكامل ومجزوء الرمل، وله ميل إلى اختيار القوافي الساكنة الرويّ.

وفي الجملة إنه يراعي في قصائده الموسيقا الداخلية والموسيقا الخارجية معًا.

تلكم في إيجاز شديد أبرز آفاق الإبداع في شعر ابن زيدون، والاتساع في بيانها يفتقر إلى سفر كامل، ويكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

د. إحسان النص

****



نحمد الله على جزيل إحسانه، ونستمد منه التوفيق والتأييد،
ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه، وعلى من اقتدى بسنته واهتدى بهداه.

مقدمة

الأندلس أيكة وارفة الظلال، دانية القطوف، يانعة الثمار، غردت عنادلها فترة من الزمان، فملأت القلوب والأسماع، وبهرت النفوس والألباب، ولكن صداها تبدد في غياهب الزمان وغمار الأحداث، ولم يبق من هذه الألحان الساحرة إلا أنغامٌ شاردة مهومة خلدها الزمن في طياته، وسجلها الخلود على صفحاته، فتهادت إلينا خلال القرون تثير كوامن الوجدان، وتحرك سواكن الأشجان.

ويمتاز الشعر الأندلسي بأنه - في الأغلب الأعم - يعبر عن العواطف العميقة والمشاعر القلقة المشبوبة، ويصور معالم الطبيعة الخلابة الساحرة في هذه البقعة الرائعة، متجافياً عن المشكلات الفلسفية ومزالق التفكير العميق.

وقد ظهر بالأندلس شعراء أفذاذ أبدعوا في الشعر آيات خالدات، باروا فيها شعراء المشرق فقاربوهم أحياناً، وكادوا يبزونهم في بعض الأحايين. ولكن معظم آثارهم تحيفها الزمان، وطمسَتها الأحداث، وبددها التعصب الذميم، وما بقي منها اعتورته عوامل التصحيف والتحريف فغيرت معالمه وشوهت محاسنه، وكادت تصرف عنه الأدباء والباحثين، ولكن سمو ألحانه، ورقة أنغامه، وعمق إلهامه، تهوِّن ما يبذل في سبيل كشفها من جهود.

وإذا درسنا شعراء الأندلس وجدنا ابن زيدون زعيمهم بلا مراء، وهو - إلى هذا - يعد في الرعيل الأول من شعراء العربية في جميع المواطن والأزمان. ومكانته في النثر قريبة من مكانته في الشعر فاستحق أن يجذب إليه قلوب الأدباء في عصره وما تلاه من عصور.

ولكن آثاره الشعرية والنثرية وردت إلينا ناقصة مليئة بالتحريف والتصحيف، على الرغم مما يتمتع به من صوت ذائع ومكان مرموق.

وقد لمسنا هذا في دراستنا لتاريخ حياته وفنون آدابه، فاضطررنا قبل هذه الدراسة النقدية المسهبة إلى أن ندرس آثاره باحثين عن أصالة نسبتها إليه، جامعين ما تبدد منها في شتى المصادر، مصححين ما اعتراها من تشويه وأخطاء، وقد خرجنا من هذا البحث المجهد بصورة من آثاره قريبة إلى الصحة دانية إلى الصواب بقدر ما وسعه الجهد وأسعفت به الآثار.

وقد رأينا قبل أن نتحدث عن هذه الآثار الفنية، ووسائلنا لإبرازها، أن نلقيَ على عصر الشاعر ثم على حياته بعض الأضواء.

فمما لا شك فيه أننا لا نستطيع أن ندرس آثار فنان دون أن ندرس أحداث حياته التي ألهمته ما أبدعه من آيات، كما أننا لا نستطيع أن ندرس حياة عبقري دون أن ندرس العصر الذي أنبته والبيئة التي نجلته، فالإنسان مع صنع بيئته، وإن حلَّق في أجواز الفضاء.

وقد لخصنا هذا البحث بإيجاز من كتابنا المسهب (ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه. مطبعة الرسالة سنة ١٩٥٥)(١).

[علي عبدالعظيم]

****

(١) بحث مسهب في ٥٧٨ صفحة من الحجم الكبير، درسنا فيه الأدب الأندلسي بعامة وأدب ابن زيدون بخاصة، ورجعنا فيه إلى عشرات المراجع المخطوطة ومئات المراجع الأصيلة بالعربية والإنكليزية والألمانية واللاتينية والتركية. نشرته مكتبة الأنجلو المصرية.

عصر ابن زيدون

(القرن الخامس للهجرة)

ملوك الطوائف:

عاش ابن زيدون في عصر ملوك الطوائف، وهو عصر انحدرت فيه الدولة بعد صمود، وضعفت بعد قوة،، وانكمشت بعد امتداد.

فقد وقعت الأندلس فريسة للعصبية العنصرية بين القبائل العربية ثم للعصبية الجنسية بين العرب والبربر والصقالبة(١)، ثم للمذاهب السياسية ما بين عباسية وعلوية وأموية، ثم للحزازات الدينية ما بين اليهودية والمسيحية والإسلام، مما أضعف الدولة، وجعلها فريسة سهلة للأمراء المسيحيين بالشمال، فاستطاعوا أن يتحيفوا أطرافها وأن يفرضوا سلطانهم على كثير من حكام الأقاليم.

وانقسمت الأندلس نتيجة لهذه الأحداث إلى أقاليم عديدة يحكمها أمراء عديدون، بأسهم بينهم شديد، يعتدي بعضهم على بعض، ويستعين كل منهم بحماية الأعداء المتربصين، ولسنا الآن بسبيل تأريخ هذا العصر أو الحديث عن أمرائه المتناحرين، وإنما يعنينا في هذا المقام التحدث عن إمارتين من هذه الإمارات هما قرطبة وإشبيلية، فقد طوى الشاعر في الأولى شطر حياته، وطوى في الثانية الشطر الأخير.

بنو جهور بقرطبة:

سقطت الخلافة بالأندلس نتيجة لما اعتورها من ضعف وانحلال، وقامت على

---

(١) هم الأرقاء الذين اشتراهم الخلفاء من أنحاء أوروبا أو استرقوهم في غزواتهم المتوالية، وقد استكثر منهم الخليفة الناصر، ودربهم خير تدريب، وسما ببعضهم إلى أكبر المناصب، استشرى أمرهم من بعده، واستقلوا ببعض الولايات، وهم في هذا يشبهون عنصر الأتراك بالخلافة العباسية ببغداد، وعنصر المماليك في الدولة الأيوبية.

(*) في الأصل (الجمهوري) ولعل هذا خطأ مطبعي، وواضح أنها (الجهوري) نسبة إلى (آل جهور).

أنقاضها عدة دويلات، فاجتمع أهل قرطبة سنة ٤٢٢هـ وأعلنوا الحكم الجمهوري(*) ونادوا بأبي الحزم بن جهور حاكماً لهذا الإقليم، وكان شيخاً وقوراً، وعالماً جليلاً، اشتهر بتمسكه بأهداب الدين، فكان يصلي التراويح ويشهد الجنائز، ويؤذن على باب المسجد وهو حاكم لهذا الإقليم، وكان بعيد النظر فلم يبارح داره إلى قصر الخلافة، ونادى بأنه أمين مؤقت على الحكم حتى يجتمع الناس على إمام، وأعلن أن الحكم شورى، ولكنه ضبط الأمور بحزمه، وساس الرعية بدهائه، وقام بإصلاحات عديدة، وتحامى أن يشتبك مع حكام الأقاليم المجاورة، في المنازعات والحروب، وطالما تحرش بنو عباد بإشبيلية، ولكنه كان يتفادى الاشتباك معهم بكل السبل، ولما نادوا بالخليفة هشام الثاني المزعوم واستعدوا لتأييده بقوة السلاح بادر بالاعتراف به، ولكنه ظل يكشف للناس زيفه حتى تهيأت الأذهان للانصراف عنه، فأعلن سقوط بيعته، وجنب بلده التعرض للأخطار.

وكان ابن زيدون من وزرائه المقربين، ثم تغير عليه نتيجة لبعض الدسائس فألقى به في السجن، ولكن الشاعر استطاع أن يفر من سجنه بعد أن مكث به خمسمائة يوم وتذرع بولي العهد حتى عفا عنه الأمير، وسنعرض لهذه المحنة في دراستنا لحياة الشاعر بالتفصيل، وتوفي أبو الحزم بن جهور سنة ٤٣٥هـ.

فتولى الأمر بعده ابنه أبوالوليد، وكان من أصدقاء الشاعر المقربين، فأدناه منه وولاه وزارته وناط به السفارة بينه وبين ملوك الطوائف، فخف الشاعر على قلوبهم، وأحضروه مجالس أنسهم، ورفعوا بينهم وبينه الكلفة، فطالت إقامته لديهم حتى ضاق الأمير بهذا التصرف، وأصغى فعزله من منصبه، ثم رضي عنه بعد عدة أعوام، ولكن الدسائس عادت ثانية، فهجر الشاعر أميره وانتقل إلى بني عباد بإشبيلية، وقد ظل ابن جهور يحكم قرطبة حتى تقدمت به السن وأساء ابنه التصرف فوقعت قرطبة في أيدي بني عباد سنة ٤٦٢هـ فضموها إلى إشبيلية، وكانت للشاعر مشاركة في هذا التدبير.

بنو عباد بإشبيلية:

استقل أبوالقاسم بن عباد بحكم إشبيلية سنة ٤١٤هـ فاستطاع بدهائه وثرائه وحزمه

أن يقوي دعائم الحكم ويوطد أركانه في هذا الإقليم، وجه همته إلى تقوية جيشه وضرب بعض أعدائه ببعض مما أضعف شوكتهم وأوقع كثيرين منهم فريسة له. وامتدت مطامعه فوقع على شخص يشبه هشاماً الأموي فنادى به خليفة، ودعا حكام الأقاليم للدخول في طاعته، فاستجاب له بعضهم وتأبى عليه الآخرون، واستطاع من وراء هذه الدعوة أن يضم إليه بعض البلاد، وتوفي سنة ٤٣٣هـ، فخلفه ابنه المعتضد بن عباد، وكان قوي الشكيمة طاغي الإرادة صارم العزمات ميالاً لسفك الدماء مشغوفاً بالحروب، فشن حروباً متوالية على البلاد المجاورة، فوسع رقعة إقليمه إلى أضعاف ما كانت عليه، وكان مع قسوته وجبروته شاعراً رقيقاً يصوغ الشعر ويجزل عليه الصلات فاجتمع في بلاطه عدد كبير من الشعراء كان شاعرنا زعيمهم بلا مراء، وقد استعان الأمير بخبرة الشاعر السياسية فولاه وزارته، واستعان به في أهم شؤون دولته فساسها أحكم سياسة ودبرها خير تدبير، وتوفي المعتضد سنة ٤٦١هـ فخلفه ابنه المعتمد بن عباد، وكان من أصدقاء الشاعر الحميمين، فأقره في مناصبه، وعرف له قدره، واستطاع أن يفتح بتدبيره قرطبة، وكانت مطمح أنظار الطامحين من حكام الأقاليم، وكان المعتمد من أرق شعراء الأندلس شعراً، ومن أبرعهم صياغة، فجمع حوله طائفة كبيرة من الشعراء وفي عهده اشتد العداء بين الأمراء المسيحيين بالشمال وأمراء المسلمين بالجنوب، وأوشك الإسلام أن يندثر بالجزيرة، فاستغاث المعتمد بن عباد والأمراء المسلمون بيوسف بن تاشفين أمير الملثمين بالمغرب فأغاثهم، ولكنه التهمهم بعد أن رد عنهم كيد المسيحيين، فمات المعتمد في أسره بعد أن قاسى ما قاسى من عذاب وتنكيل.

الحضارة العربية بالأندلس:

بينما كانت الفوضى السياسية منتشرة بالأندلس كانت الحضارة الإسلامية بها قد أينعت وازدهرت وبلغت غاية النماء، وأصبحت الأندلس مقصد طلاب العلم ومهبط رواد المعرفة من أنحاء أوربا المختلفة، وقامت حركة ثقافية كبرى لترجمة الروائع العربية إلى اللغة اللاتينية (لغة العلم والأدب السائدة بأوروبا في هذه العصور) وانتشرت التقاليد العربية في كثير من البقاع الأوربية وكان معظم الأمراء الغربيين إذا احتاجوا جراحاً أو مهندساً أو مغنياً أو خياطة وجهوا طلبهم إلى قرطبة التي ذاع صيتها في أوربا حتى

وصفتها راهبة سكسونية بأنها جوهرة العالم.

وكانت خصبة التربة ووفرة المعادن من أسباب الرخاء الشائع في الأندلس، وإلى هذا يشير ابن حوقل بقوله: «وأما جزيرة الأندلس فتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك الفاشية فيهم، لما هي فيه من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته» ولهذا كانوا يكرهون السائلين فإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يستعطي سبوه وأهانوه، وازدهرت التجارة تبعاً لازدهار الزراعة والصناعة داخلياً وخارجياً، فكانت أساطيل الأندلس التجارية تمخر عباب البحر الأبيض والمحيط الأطلسي، وكانت السلع الأندلسية رائجة بأسواق الإسكندرية والقسطنطينية ودمشق وبغداد.

قرطبة:

هي درة الأندلس وإحدى حواضر العالم المعروف في القرون الوسطى، افتن العرب في تشييدها وعمرانها، فناهزت قصورها ستين ألف قصر وحماماتها سبعمائة حمام ومساجدها ١٦٠ مسجداً، وقارب سكانها المليون، ولم تكن مدينة بأوربا يأوي إليها في زمن ازدهار قرطبة أكثر من خمسين ألفاً، ومن أشهر ضواحيها الزهراء، وقد افتن الخليفة الناصر في بنائها، وجلب إليها الرخام والتماثيل من القسطنطينية، وأنفق في زخرفتها ومد الماء إليها أموالاً طائلة استمرت عشرات السنين، وقد اشتهرت قرطبة بمسجدها الجامع حيث كان موطن عبادة ومجمع سياسة وندوة علوم، وكان يتسع لثمانين ألف مصل، وقد أفاض المؤرخون في وصف قرطبة وضواحيها ومساجدها ومنتزهاتها وقنواتها وجسورها بما يبهر الخيال، وسنرى في آثار ابن زيدون صدى هذا الجمال الفتان.

إشبيلية:

كانت حاضرة الأندلس قبل قرطبة، ثم عاد إليها ازدهارها في عصر بني عباد، حيث زاحمت قرطبة فزحمتها، وتقع على شاطئ الوادي الكبير، ولها جميع خصائص الثغور لأن النهر عندها بطيء التيار، ويصل مد البحر إلى ما بعدها، وتقوم في أجمل بقاع الأندلس

وأعدلها هواء في جبل الشرف الدائم الخضرة الممتد مسافة أربعين ميلاً في اثني عشر ميلاً تظللها أشجار التين والزيتون، ولا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف أشجاره واشتباك غصونه، وفيه ثمانية آلاف قرية عامرة بالحمامات والديار الحسنة، وفيها يقول ابن مفلح: (إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس لأن تاجها الشرف، وفي عنقها سمط النهر الأعظم، وليس في الأرض أتم حسناً من هذا النهر، يضاهي دجلة والفرات والنيل، تسير فيه القوارب للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغريد الأطيار...) وقد اشتهرت بمجالس اللهو والشراب، ومن آثارها البديعة الباقية من عهد بني عباد القصر ويسمونه الآن (الكازار) ومن أروع ما فيه قاعة السفراء وارتفاعها عشرون متراً وطول كل ضلع منها اثنا عشر متراً، وهي من أروع التحف في جلالها وفخامتها ونقوشها الذهبية الموشاة بالألوان الحمراء والزرقاء والخضراء. وسنرى آثارها الرائعة مشعة في شعر ابن زيدون حيث طوى في ظلالها شطر حياته الأخير.

الحياة العقلية:

ازدهرت الحياة العقلية في عصر الطوائف خير ازدهار، وفي هذا يقول تريند: «لم ينبغ أعلام مفكري إسبانيا الإسلامية في عصر خلافة قرطبة الزاهر، بل في عصور الفوضى السياسية التي أعقبت ذلك العصر، وكان الطالب الإنجليزي أو الأسكتلندي الذي يرغب في أن يظفر بنصيب من العلم بأرسطو أوفر من غيره يشد رحاله إلى الأندلس حيث يتعلم كيف يقرأ المؤلفين اليونانيين بالعربية».

أما انتشار التعليم فحسبنا ما قاله دوزي: «كان كل فرد بالأندلس يعرف القراءة والكتابة، على حين كانت أوربا المسيحية تتخبط في دياجير الجهالة إذا استثنينا منها رجال الدين» ولا عجب فقد كان العرب إذا فتحوا بلداً بادروا بإنشاء مسجد ومدرسة فيه، وكان تعليم البنات شائعاً عند الأندلسيين، وكان كثيرات منهن يحفظن عدة دواوين من شعر العرب وينظمن ويترسلن، وبلغ بعضهن درجة الأستاذية في اللغة والآداب، وكانت للطب أربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والأجناس في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية، أما المدارس العامة فكان بقرطبة وحدها ثمانون مدرسة عامة، وكان

للعلماء والشعراء والمؤرخين مجامع علمية وأدبية أشبه بالأكاديميات في العصر الحديث، وكان هناك قول مأثور ينقشونه على أكثر معاهدهم العلمية هو: «إن العالَم يقوم على أربعة أمور: علم الحكماء، وعدل العظماء، ودعاء الصلحاء، وشجاعة الشجعان».

الحركة الفكرية:

نلاحظ فيها أن العلوم الدينية كانت صاحبة المقام الأول، وكان الفقهاء يتمتعون بمنزلة سامية تقرب من منزلة الأمراء، بل كانوا كثيراً ما يهددون عروشهم ويؤلبون العامة عليهم إذا آنسوا منهم انحرافاً عن القصد وجنوحاً عن السداد، وتأتي علوم اللغة وفنون الآداب في المرتبة الثانية، وقد ازدهرت بالأندلس ازدهاراً عظيماً لأنها صادفت بيئة صالحة وطبيعية موحية ومواهب ملهمة، وقد أسهم الأندلسيون بنصيب وافر في العلوم المعاشية من طب وهندسة وفلك، ولكن عامة الشعب نفروا من العلوم الفلسفية وناهضوا المهتمين بها حتى أحرقوا كتبهم، وإن كانت العقول بدأت تتحرر بعض التحرر من هذا الغل الثقيل في عهد الطوائف وما تلاه من عصور، وقد نبغ في عصر ابن زيدون عدد كبير من أفذاذ العلماء والشعراء والأدباء، من أبرزهم ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ وكان واسع الثقافة حر الرأي مع تدين وتصون، ويقال إن مؤلفاته بلغت ٤٠٠ مجلد تناهز ثمانين ألف ورقة في الفقه والحديث والجدل والنسب والمنطق والفلسفة والشعر، ومن أشهر كتبه طوق الحمامة وهو أول كتاب في فلسفة الحب، وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، ويؤهله لمقام عال بين العلماء باعتباره أول عالم عني بدراسة الأديان والموازنة بينها، وأنه وصل إلى نتائج لم ينتبه إليها أحد حتى ظهور المدرسة النقدية الحديثة في القرن السادس عشر. ومن أشهر علماء اللغة ابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ صاحب المخصص والمحكم، ومن أشهر المؤرخين ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩هـ وهو أعظم مؤرخي الأندلس وله في تاريخها كتاب المبين في ستين مجلداً، وقد بقيت من هذا الكتاب آثار متفرقة في كتب المؤرخين، يُروى أنه ألف خمسين كتاباً آخر لم يبق منها إلى الآن إلا بعض كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس، ومن أشهر الأدباء المظفر بن الأفطس حاكم بطليوس المتوفى سنة ٤٦٠هـ ألف كتاب المظفري في خمسين مجلداً، ومن أنبغ مؤلفيهم في الطب الزهراوي المتوفى سنة٥٠٠ هـ صاحب كتاب

التصريف لمن عجز عن التأليف، وقد طبع هذا الكتاب باللاتينية في القرن الخامس عشر، فأمد أوربا بمرجعها الأكبر في تجبير العظام والأعمال الجراحية وبخاصة فتح المثانة وإخراج الحصاة، وله كتيب صغير في الآلات الجراحية مع توضيحها بالأشكال وطرائق الاستخدام.

وكتب الأدب والتراجم غاصة بالحديث عن وفرة هؤلاء العلماء الأفذاذ في عصر ملوك الطوائف، ومن أمتع كتب التراجم الأدبية في هذا العصر الذخيرة لابن بسام وهو في أربعة أقسام ضخمة طبع بعضه وما زال معظمه مخطوطاً، ومن كتب التراجم القيمة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي والصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار، وقد طبعت بمدريد ويعاد طبعها الآن بالقاهرة[1].

المكتبات:

عنيَ الأندلسيون بالكتب عناية تامة، وبذلوا جهداً مشكوراً في التأليف كما بذلوا أموالاً طائلة في نسخ الكتب وتغليفها والرحلة في طلبها، وقد أنشأ الحكم مكتبة جامعة بقرطبة بلغ عدد كتبها ٤٠٠ ألف كتاب، وكانت فهارسها في ٤٤ كراسة في كل كراسة خمسون ورقة ليس بها غير أسماء الكتب وحدها، ويروعنا هذا إذا علمنا أن عدد الكتب الخطية بدار الكتب المصرية بالقاهرة أقل من مائة ألف كتاب حتى الآن. وأصبح اقتناء المكتبات شارة من شارات الرئاسة والشرف حتى عند الجهال، ويروى أن الأندلس كان بها ستون مكتبة عامة أنشأها الخلفاء الأمويون، بل يقال إن غرناطة وحدها كانت تحوي سبعين مكتبة عامة في عهد الطوائف، ولما انهارت الخلافة الأموية نهبت خزائن الكتب بقرطبة فبيعت كتبها بأبخس الأثمان، ولكنها انتقلت إلى الحواضر الأندلسية الأخرى فأوجدت بها نهضة علمية أذكتها حركة المنافسة بين الملوك والأمراء، ويروي المقري أن ما جمعه أحمد بن عباس الوزير بالمرية بلغ أربعمائة ألف مجلد كامل أما الكتب الناقصة فلم يوقف على عددها لكثرتها، وكان محمد بن إبراهيم جد أم الشاعر من أضبط الناس لكتبه، وأجمعهم لذخائر الرواية، وله تأليف جمع فيه كلام أبي زكريا يحيى بن معين في ثلاثين

(١) يقوم بتحقيقها ونشرها صديقنا العلامة السيد عزت العطار الحسيني وتطبعها مطبعة السعادة بالقاهرة.

جزءاً ويحدثنا ابن شكوال أن عبدالرحمن بن فطيس كان جمّاعة للكتب وله ستة من الوراقين ينسخون له دائماً، وقد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً، ومتى علم بكتاب قيم عند غيره طلبه وبالغ في ثمنه فإن تمسك به صاحبه انتسخه منه ورده عليه، حتى النساء كنَّ مشغوفات بجمع الكتب، يقال إن عائشة بنت قادم كانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتُعْنَى بالعلم ولها خزانة كتب عامرة بأعظم المصنفات.

الحياة الأدبية:

كان الأدباء الأندلسيون يتلقون التوجيه من إخوانهم المشارقة، فكانوا يشدون إليهم الرحال، ويستقدمون نابغيهم، ويبذلون في الحصول على مؤلفاتهم أغلى الأثمان، ولكنهم في عصر الطوائف أخذوا يتحررون من هذه التبعية ويشعرون باستقلالهم الفكري، وشرعوا في مباراة المشارقة ومعارضتهم فبزوهم حيناً وقاربوهم في معظم الأحايين، وإلى هذا يشير الدكتور فيليب حتي بقوله (كانت الثقافة الشرقية في القرون الأولى التي مرت على السلطة الإسلامية في الأندلس تسري إليها من مستوى عال... غير أن الآية انعكست في القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) والقرون اللاحقة كما يستدل من مسير ابن زهر والباهلي إلى الشرق لإفادة أهله، وقد فاض سيل المعارف الأندلسية في القرن الثاني عشر بحيث طما على أوربا نفسها).

وفي عصر الطوائف ظهرت طائفة من أفذاذ الكتاب والشعراء الخالدين مثل ابن حزم وابن شهيد وابن دراج وابن برد وابن زيدون والمعتمد بن عباد وابن عمار وابن حمديس وابن خفاجة وابن بسام من أعلام الكتاب والشعراء، وإلى هذا يشير ليڤي بروڤنسال بقوله: «كان القرن الحادي عشر الميلادي عصر ملوك الطوائف عهداً عرفت فيه إسبانيا أكبر إشراق شعري من غير شك». ولا عجب فقد كان النثر يعبر عن أغراضه بأسلوب مصقول متموج أقرب إلى الأوزان الشعرية منه إلى الانسيابات النثرية، ويقرر الدكتور أحمد ضيف أنهم وصلوا في النثر أحياناً إلى درجة لا تفرق بينها وبين الشعر إلا في الوزن وقواعد العروض، ولعل هذا ما عناه ابن بسام في حديثه عن رسائل ابن زيدون، بأنها كتب هي بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور.

وكثيراً ما كان الشعر يستخدم في الرسائل بدلاً من النثر، وقد ظهرت في هذا

العصر تجديدات وابتكارات في الشعر والنثر لا نكاد نجد ما يشبهها في الأدب القديم، منها نظم الأراجيز التاريخية التي اعتمد عليها (ربيرا) ليقول بوجود أدب قصصي أندلسي سابق على ظهورها، ومنها ازدهار الموشحات التي كان لها فيما بعد صدى بعيد، ومنها الرحلة الخيالية إلى وادي عبقر وهي ملحمة نثرية شعرية أبدعها خيال ابن شهيد وسماها (التوابع والزوابع) وسبق بها رحلة المعري في (رسالة الغفران) كما سبق (دانتي) في رحلته السماوية و(ملتون) في فردوسه المفقود. والإنصاف يقتضينا أن نقرر أن الشعراء والكتاب الأندلسيين لم يتحرروا كل التحرر من الأدب القديم الموروث، شأنهم في هذا شأن إخوانهم المشارقة، فقد استمر الأدب الجاهلي يهيمن بأوضاعه وتقاليده على الأدب العربي في شتى العصور.

وكانت محاولات التجديد دائماً في نطاق محدود فقد ظل الشعر غنائياً والنثر معتمداً على الخطب والرسائل، ولم يعرف الأدب العربي القصص أو الملاحم بمعناها الحديث.

وكانت محاولات التجديد في الشعر مقصورة على محاولة التحرر من قيود الوزن والقافية فظهرت الموشحات، وحاول كثيرون أن يفلتوا من قيود العربية الفصحى وحركات الإعراب فظهرت الأزجال.

ونلاحظ أن الشعر الأندلسي خلا من التأملات الفكرية العميقة، ولعل هذا راجع إلى تزمت الأندلسيين المذهبي، ونفورهم من العلوم الفلسفية، وإن كان شعراء الأندلس قد برزوا في وصف الطبيعة، وأبدعوا فيها آيات رائعة جديرة بالخلود، وإننا لنلمس الطبيعة حية نابضة في شعر ابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس، وكان لطبيعة الأندلس الرائعة أثر بارز في هذا الإلهام، وأروع ما يطالعنا عندهم وبخاصة عند ابن زيدون أنه مزج حبه للطبيعة وحبه للمرأة بحبه للوطن، فأبدع في هذا روائع بهرت النفوس وملأت الأسماع.

ولقد افتتن الأندلسيون بالشعر افتتاناً عظيماً فشغل به الخاصة والعامة على السواء.. فكان الملوك والأمراء وعلية القوم يقرضون الشعر ويتساجلونه ويجزلون عليه الصلات، كما كان العامة يهتزون له وينظمونه على اختلاف مراتبهم وتباين طبقاتهم، حتى

الخدم والجواري وعصابات اللصوص والفتاك كانوا يقرضونه في شتى المناسبات، وكان الأدب كفيلاً برفع صاحبه إلى أسمى الدرجات، وكتب الأدب والتاريخ غاصة بشتى الروايات في هذا المضمار، وحسبنا ما رواه القزويني في حديثه عن مدينة شلب «قل أن ترى بمدينة شلب من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني أدباً، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر لقرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه» واشتهر بعض الأميين بقرض الشعر مثل ابن جامع الصباغ ويحيى القصاب، وكانت أبيات من الشعر كفيلة بالتجاوز عن كل ذنب ونسيان كل إساءة، حتى أنهم كانوا أمام روعة الشعر وفتنته يغضون أحياناً عن إقامة بعض الحدود.

وكان الأندلسيون على تزمتهم الفكري متحررين في حياتهم الخاصة، وفي بعض فنونهم الأدبية، فكانوا يعاقرون الراح ويعقدون مجالس اللهو والطرب والغناء، وظهر أثر هذا واضحاً في مراسلاتهم الشعرية والنثرية وسنرى منه آثاراً رائعة في هذا الديوان.

****

حياة ابن زيدون

(٣٩٤ - ٤٦٣هـ/ ١٠٠٣ - ١٠٧٠م)

أسرة الشاعر

تمهيد:

ينتمي الشاعر من جهة أبيه إلى بني مخزوم فهو أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، وبنو مخزوم بطن من لؤي بن غالب من بطون قريش، وكانت لقريش مكانتها عند العرب في الجاهلية والإسلام، وكان بنو مخزوم من بطونها الممتازة، ومن هاماتهم خالد بن الوليد المخزومي كانت إليه القبة والأعنة، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فهي قيادة الفرسان في الحروب.

ولا نعرف شيئاً عن أجداد الشاعر ولا عن طريق وفودهم إلى الأندلس، وكل ما نعرفه ما وصفه به ابن حيان المؤرخ الكبير المعاصر له من أنه «ذو الأبوة النبيهة بقرطبة» وأنه كان «من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة أيام الجماعة والفتنة» ونحن نعلم مكانة الفقهاء في الأندلس ونفوذهم الخطير وسلطانهم على العامة والأمراء، وكان لا يتسم بسمة الفقيه إلا عالم خطير، فقد كان الأندلسيون لا يقدمون أحداً للفتوى حتى يطول اختباره، وتعقد له مجالس المذاكرة، ويكون ذا مال حتى لا يميل به الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس، وكان الخليفة نفسه لايستطيع أن يخرق هذه القاعده، فلا يقدر أن يمنح إنساناً لقب الفقيه أو المفتي إلا بعد موافقة العلماء الأعلام على جدارته لهذا المنصب وثبوت يساره، وحينئذٍ تباح له الفتوى أو الشهادة، وتكون له علامة تميزه بين الناس هي لبس القلانس والرداء، ولا بد من توافر شروط عديدة فيه إلى جانب علمه وثرائه لا نرى داعياً للإطالة في سردها، وهي مسطورة في كتب الفقهاء، وكان شاعرنا ينتمي إلى هؤلاء الفقهاء من جهتي أمه وأبيه، وسنلقي ضوءاً على كل منهما مع مراعاة الإيجاز.

والده:

كان من فقهاء قرطبة وأعلامها المعدودين، وكان إلى هذا ضليعاً في علوم اللغة بصيراً بفنون الآداب، ويذكر القاضي عياض في تراجمه لأعلام الفقهاء أن والد الشاعر «كان متفنناً في ضروب العلم جم الرواية والمعرفة فصيحاً جميل الأخلاق» ومن هذا يتضح أن ثقافته كانت عميقة متنوعة، وكان على قسط وافر من الثراء، وهذه الصفات جميعها جعلت له شأناً خطيراً في حاضرة الخلافة، فكان الحكام يستشيرونه في الخطير من أمورهم، ويستفتونه في المشكل من شؤونهم، وكانت المشورة والفتوى محصورتين في عدد قليل من أكابر الفقهاء، وكان وثيق الصلة بالأمراء والعظماء وكان أنيقًا في مظهره لبقًا في تصرفاته، ولهذا نجا من المحن المتلاحقة والفتن الثائرة التي أودت بكثير من ذوي المكانة في عصره، وتوفي أثناء تفقده لضيعة له في البيرة، فنقلت جثته إلى قرطبة ودفن بها سنة ٤٠٥هـ وقد جاوز الخمسين فرثاه صديقه أبوبكر بن عبادة بن ماء السماء بأبيات تدل على منزلته العالية ومكانه المرموق.

جده لأمه:

ليس لدينا من الآثار ما يلقي ضوءاً على أم الشاعر، ولكننا نعرف أن جدها محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي كان من العلماء المرموقين وأنه ذو بصرٍ بالحديث ورجاله، يحسن التقييد والضبط في ما يكتب، وكان من أضبط الناس لكتبه وأجمعهم لذخائر الرواية، وله تأليف جمع فيه كلام أبي زكريا يحيى بن معين في ثلاثين جزءاً وكان يتولى النظر في الأوقاف بقرطبة، وظل في منصبه حتى مات سنة ٣٩١هـ.

ونعرف أن أباها أبا بكر محمد بن محمد بن إبراهيم... كان من العلماء المرموقين، ولي القضاء بمدينة سالم ثم أحكام الشرطة والسوق بقرطبة، وهو منصب جليل لا يقل عن منصب وزير، وكان من أهل الصرامة، ونستطيع أن نقرر أنه كان ثرياً فإننا نعلم أن الثروة من شروط ولاية القضاء، وكان شديد العناية بالعلوم، وقد نعته شاعرنا في ديوانه بالوزير الفقيه صاحب الأحكام، وقد أشرف على تربية الشاعر بعد أن ثكل أباه طفلاً، وظل يرعاه حتى جاوز الشاعر الأربعين، فقد توفي أبوبكر محمد بن محمد بن إبراهيم سنة ٤٣٢هـ أثناء محنة سبطه.

ومن هذا نرى الأم سليلة أسرة كريمة لا تقل عراقة عن أسرة الأب، وهي تنحدر من قبيلة قيس عيلان، وكان لهذه القبيلة شأن خطير بالأندلس، وكانت تتولى أحياناً زعامة المضريين جميعاً بمن فيهم قريش، مما يدل على ما بلغته هذه القبيلة من عز وشأن في هذه البلاد، ومن هنا نستطيع أن نقرر أن الشاعر نَجَلَهُ والدان كريمان، وأن الجو الذي درج فيه مهد له عوامل العظمة والنبوغ.

مولده:

ولد شاعرنا في أوائل سنة ٣٩٤هـ (أواخر سنة ١٠٠٣م) بالرصافة من أرباض قرطبة، وهي ضاحية متصلة بقرطبة أنشأها عبدالرحمن الداخل وسماها الرصافة تشبيها برصافة جده هشام، واتخذها مقراً له ومتنزهاً في معظم أوقاته، ونقل إليها غرائب وكرائم الشجر من كل ناحية فسار ذكرها في الآفاق واتصلت عمارتها من بعده، وقد اشتهرت بجناتها الفيحاء ومياهها الجارية، وقد لهج بذكرها الشعراء، وشدا بجمالها شاعرنا في مواطن عديدات، وحسبنا أن نشير إلى إحدى مخمساته فيها حيث يقول:

ويومٍ بجَوفيِّ الرُّصافة مُبهجِ
مررنا بروض الأُقحوان المدبَّجِ
وقابَلنا فيه نسيمُ البنفسجِ
ولاح لنا ورد كخدٍّ مُضَرَّجِ
تراه أمام النَّور وَهْوَ إمامُ

****

نشأته

تمهيد:

انحـــدر الشاعر كما ذكرنا من أســرة كريـمة مرمـــوقة المكــان، وقد فقد أباه وهو فــي الحاديــة عشــرة من عمره، فكفله جده لأمه، وكان عالماً جليلاً تقلب في مناصب الإدارة الرئيسية من شرطة وقضـاء، وكان شديد الصرامة في أحكامه، ولهذا نعتقد أنه كان حازماً في تربية سبطه، وأن هذا الحزم جنبه مزالق السقوط التي يتعرض لها الأيتام من ذوي الثراء.

وكان لوالد الشاعر أصدقاء من ذوي المكانة الرفيعة والعلم الغزير، ومثل هؤلاء الرجال الأعلام جديرون أن يرعوا حقوق صديقهم الراحل في ابنه العزيز وأن يوالوه بالرعاية والتثقيف.

ولهذا تهيأت لشاعرنا عوامل النبوغ من ثروة مناسبة، وعقول حانية حازمة، وبيئة جميلة فتانة، وعصر مزدهر بالمدنية والحضـارة، حافل بأفذاذ العلماء والأدباء، هذا فضلاً عن الموهبة الفطرية والاستعداد الخصب والوراثة الصالحة والتوجيه السديد.

ثقافته:

ليس أمامنا ثبت بالعلوم التي درسها الشاعر فكونت ثقافته وبوأته مكانه الرفيع، ولكننا نعرف «أن مناهج الدراسة الأولى في التعليم عند الأندلسيين كانت تتناول كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف ورواية الشعر، أما التعليم العالي عندهم فيقوم على تفسير القرآن الكريم ودراسة علوم الدين والفلسفة وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية». ومن الطبيعي أن شاعرنا سلك هذه السبل، والدارس لآثاره الأدبية يرى صدى لشتى المعارف والفنون في هذه الآثار، فيرى كثيراً من التعبيرات

القرآنية وإشعاعاً من الأحاديث النبوية، كما يرى فيها إلماماً بأصول الفقه وعلوم الدين، كما يلمس فيها إدراكاً للطب والعلوم الفلسفية، أما التاريخ فقد كان دارساً له مولعاً به يستشهد دائماً بحوادثه، ويرجع دائماً إلى عبره، وقد ألف كتاباً لم يبق لدينا منه إلا بعض النصوص، وأما علوم اللغة وفنون الآداب فهي ميدانه الرحب ومجاله الفسيح، ولهذا حق له أن يقول:

وَنَجَّذَني علمٌ توالتْ فنونُهُ

كما يَتَوالى في النِّظام سِخابُ[1]

أساتذته:

نعتقد أن ثقافة الشاعر الواسعة العميقة نتيجة لتتلمذه على أساتذة عديدين، ولكن المصادر الباقية بين أيدينا لم تذكر أسماء هؤلاء الأساتذة إلا واحداً سنعرض له بعد قليل، ولكننا نرجح أن أستاذه الأول كان أباه، وهو أمر طبيعي، فإن القرائن ترجح أن الشاعر كان وحيده فمن الطبيعي أن يُعنَى به كل العناية ويهتم به كل الاهتمام وبخاصة إذا علمنا أن هذا الوالد كان أستاذاً لبعض الأدباء، كما نرجح أن جده لأمه كان من أساتذته الأولين.

ومن آثار الشاعر الخالدة رسالة كتبها إلى أستاذه أبي بكر مسلم وقد بحثنا طويلاً عن هذا الأستاذ وانتهى بنا البحث إلى أنه أبوبكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي، يقول ابن بشكوال في ترجمته: «إنه كان رجلاً جيد الدين، حسن العقل، متصاوناً، لين العريكة، واسع الخلق، مع نبله وبراعته وتقدمه في علم العربية واللغة، راوية للشعر وكتب الآداب، كان لتلاميذه كالأب الشفيق، والأخ الشقيق، مجتهداً في تبصيرهم متلطفاً في ذلك سَنِيّاً ورعًا، وافر الحظ من علم الاعتقادات سالكاً فيها طريق أهل السنة، يقصر اللسان عن وصف أحواله ولد سنة ٣٧٦ وتوفي سنة ٤٣٣هـ وكان إمام مسجد السقاء.. وكان متمسكاً فاضلاً».

ويظهر أن صلات الشاعر به ظلت وثيقة حتى قارب الأربعين، ولهذا فزع إليه في محنته عقب فراره من سجنه، ومن عوامل حبه للشاعر أنه كان تلميذاً لأبيه معتزاً بهذه

(١) نجذني: حنكني، السخاب: العقد.

التلمذة معترفاً بها، ولهذا توطدت بينهما الصلات.

ومما لاشك فيه أن الشاعر تأثر في دراساته بكثير من أعلام عصره كما تأثر بكثير من الأدباء السابقين، ولعل لوفرة الكتب في عصره ولسعة ثروته أثراً في ثقافته العميقة وعلمه الغزير.

صداقات مبكرة:

اتصل الشاعر بكثير من عظماء عصره وأعلامه، وسنرى هذا ماثلاً في آثاره الشعرية وفنونه النثرية، ومن أبرز الأدباء الذين توطدت علاقة الشاعر بهم في سن مبكرة أبوالوليد بن جهور وأبو بكر بن ذكوان.

أما الأول فكان ولياً للعهد ثم حاكماً وقد تحدثنا عنه وعن أبيه في ما سبق، وكان كما قال ابن بشكوال: «حافظاً للقرآن العظيم مجوداً لحروفه كثير التلاوة له، وكان معتنياً بسماع العلم من الشيوخ وروايته عنهم» وكانت فيه رحمة ورقة ولين ظهر أثرها أثناء حكمه فقد كان يدرأ الحدود بالشبهات، ويبالغ في ذلك، حتى لا يكاد يقيمها ارتكاناً على أنه ليس هناك إمام مجمع عليه، وقد ظهرت آثار هذه الرقة في معونته للشاعر إبان محنته، وظلت صداقتهما قوية على الدسائس والفتن حتى ناهز الخمسين، وفي هذه الصداقة يقول ابن خاقان: «وكان له مع أبي الوليد بن جهور تآلف أحرما بكعبته وطافا، وسقياه من تصافيهما نطافا).

وأما الثاني فقد وُليَ منصب الوزارة واشتهر أمره فصار كما يقول ابن بسام: «أحوذياً نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته». ثم وُلي القضاء بقرطبة وهو منصب كبير جليل يفوق منصب الوزارة، فأظهر الحق، ونصر المظلوم، وفجع الظالم، وحمد الناس أحكامه، وكان إلى هذا صلب القناة حميّ الأنف، رفض أن يوافق الحاكم على التصرف في مال الأوقاف لإنفاقه في المصالح، واعتزل القضاء، وتوفي دون الأربعين فحزن الناس لفقده، وشيع ابن جهور جنازته ورثاه جماعة من الشعراء ولشاعرنا فيه قصيدة تنطق بالبث وتفيض بالأشجان.

وكان لهؤلاء الأصدقاء في مستهل شبابهم صبوات ونزوات، يطرحون فيها التزمت

والوقار، ويلقون عن كواهلهم أعباء المناصب فينسى ابن زيدون أنه وزير وينسى ابن جهور أنه ولي للعهد وينسى ابن ذكوان أنه من أعلام القضاة، فقد سمعوا أن القاضي التنوخي كان ينادم الوزير المهلبي مع القاضيين ابن قريعة وابن معروف، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، فإذا طاب لهم المجلس ولذ السماع وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتناول كل منهم كأساً من الذهب مملوءة خمراً فيغمس فيها لحيته بل ينقعها حتى تتشرب أكثر الشراب ثم يرش بعضهم بعضاً ويرقصون بأجمعهم وعليهم المصبغات.... فإذا أصبح الصباح عادوا إلى عادتهم في التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء.

سمع الأصدقاء الثلاثة هذه النادرة فاستجابت لها نفوسهم الشابة الفتية فقضوا أمسيات تفيض بالمرح والبهجة والصفاء، يقول فيها ابن بسام: «وكان القاضي أبوبكر ابن ذكوان أجل من اشتمل عليه أَوَانٌ مجداً وشرفاً، وتفننًا في العلم وتصرفًا، مع دعابة حين خلواته تحل حُبا المحتبي، ورقاعة عند نشواته كالتنوخي والمهلبي، فإذا أصبحوا بكر أبوبكر إلى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته، وأنكر ما كان عليه من فكاهته فكأنما في برديه الإمام... مع عدله في قضائه.....

حتى إذا راح الرواح عادوا إلى القصف وتجاوزوا في ميدانهم كل وصف، إلى أن اختُلِسَ أبو بكر منهما وتقلص ذيل مؤانسته عنهما فاعتاضا عنه بسواه وأفاضا في ما كانا فيه وما تعدياه».

****

في غمار الأحداث

رجل ثورات:

لا نعرف متى ابتدأ الشاعر يسهم في أحداث عصره، ولكننا نعلم أنه كان في الصفوة المرموقة من شباب قرطبة، ونعرف أن الرأي العام بقرطبة كان يقظاً قوياً يعزل الحكام ويوليهم ويفرض آراءه، ويراقب التنفيذ، أما دور الشاعر في هذه الأحداث فلا نعلم عنه شيئاً بالتفصيل، وإنما نعرف أنه قام بدور رئيسي في إلغاء الخلافة الأموية بقرطبة، وفي تأسيس حكومة جهورية بزعامة ابن جهور، وإلى هذا يشير ابن خاقان في حديثه عنه بأنه: «زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجهورية» ويقرر ابن دحية أنه «زعيم الوزارة القرطبية ونشأة دولتها السنية» ومن الطبيعي أنه لم يشترك بسيفه في هذه الثورة فإننا لا نعلم عنه أنه رجل حرب وقتال، وإنما هو رجل سياسة وبيان، ولعله استغل جاهه وثراءه وبيانه، وهي أسلحة ماضية في توجيه الرأي العام، ولما وقع الجفاء بين الشاعر وأميره أخذ يذكره بأياديه السابقة في تأسيس دولته في رسالته الجدية حين يقول: «ففيم عبث الجفاء بأذمتي؟ وعاث العقوق في مواتيَّ؟ وتمكن الضياع من وسائلي؟ ولم ضاقت مذاهبي؟ وأكْدَتْ مطالبي؟ وعلام رضيت من المركب بالتعليق؟ ومن الغنيمة بالإياب؟».

نصيب متواضع:

أكرم الحاكم الجديد الشاعر ورفعه إلى منصب الوزارة واعتمد عليه في السفارة بينه وبين الملوك المجاورين، ولكن الشاعر لم يقنع بما ناله، ولا ندري مدى أطماعه، ولعله كان يطمع أن يكون هو الحاكم الفعلي، أو يكون موقفه من ابن جهور موقف الحجاب من الخلفاء.

ولكن ابن جهور كان حازماً بعيد النظر، يحكم ولا يتظاهر بالحكم، ويتواضع للعامة ويعلن أنه يباشر الحكم مؤقتاً حتى يجمع الناس على إمام، وإذا درسنا نفسية كل من ابن

جهور وابن زيدون فإننا نجدهما على طرفي نقيض، فالأمير متواضع متعفف والشاعر مغرور طموح، والأمير متزمت وقور والشاعر متحرر متهور، هذا إلى فوارق السن بينهما، وقد لعبت الدسائس بينهما دورها، وكان للشاعر خصوم أقوياء ينفسون عليه مكانته السياسية، كما ينفسون عليه حُظْوتَه عند ولادة الأميرة الحسناء سليلة البيت الأموي الكريم، فبدأت العلاقات تفتر بين الشاعر والأمير حتى انتهت إلى مصيرها المحتوم.

حب عاصف:

لعب الحب دوراً خطيراً في حياة الشاعر وفي تلوين فنه، ولما كان تعلق الشاعر بولادة قد ألهمه أروع ما صاغه من الشعر، فضلاً عن أنه خلق له خصوماً أقوياء شوهوا العلاقات بينه وبين أميره، وأفلحوا في دسائسهم حتى ألقى به الأمير في السجن، فقد رأينا أن نلقي ضوءاً على تدرج هذه العاطفة المشبوبة، وما مرت به من أطوار، ولكننا نحب أن نتقدم بكلمة عن شخصية حبيبته تكشف عن نفسيتها وما تفور به من بواعث ونزوات.

ولادة:

زهرة من زهرات البيت الأموي الكريم فهي ابنة الخليفة محمد بن عبدالرحمن الملقب بالمستكفي بالله، وكان أبوها ساقط الهمة ضعيف الرأي مشهوراً بالتخلف والضعة والانغماس في الشهوات، ثار عليه أهل قرطبة ففر متخفياً بين امرأتين إلى مدينة إفليج فدس له أحد ضباطه السم فمات، وكان قد تزوج من أمة مسيحية حبشية هي بنت سكرى المورورية، ولعلها أم ولادة، وجاءت ولادة على العكس من أبيها «رئيسة الطبع كريمة النفس شريفة الأصل جميلة الشكل، وكانت لا تترك أحداً يتصرف في مجلسها ولا بالدرهم الفرد». ومع أنه للوراثة أثرها المحتوم فليس من الضروري أن يرث الابن صفات أبويه بل قد يرث صفات أجداده الأبعدين، ومما لاشك فيه أن أجداد ولادة كانوا من أفذاذ الرجال، على أن للزواج المختلط أثره في نجابة البنين، وكانت أمها أجنبية وجدتها لأبيها أجنبية، فلا عجب إذا جاءت «نادرة زمانها ظرفاً وحسناً وأدباً» وفي هذا يقول المقري «وكان أبوها جاهلاً ساقطاً وخرجت هي على نهاية الأدب والظرف» ويقول ابن بسام: «إنها كانت واحدة

أقرانها حسن منظر ومخبر» وقد أثنى عبدالله بن مكي - وكان معاصراً لها - على فضلها وسرعة بادرتها ونباهتها وفصاحتها، أما مواهبها فيقول فيها الضبي: «أديبة شاعرة جزلة القول مطبوعة الشعر، تمالط الشعراء، وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء» ويقول ابن بسام: «وأما ذكاء خاطرها وحرارة نوادرها فآية من آيات فاطرها». ويروي ابن نباتة أنها كانت ذات خلق جميل وأدب غض ونوادر عجيبة ونظم جيد. ويحدثنا بدر الدين الصديقي أنها أجيزت بالإفتاء والتدريس. أما جمالها ورقتها فحسبنا ما ذكره ابن خاقان: «وكانت من الأدب والظرف وتنعيم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب». وكانت لها مع هذا موهبة في الموسيقى والغناء، وكثيراً ما كان العظماء يحضرون مجالسها فينعمون بسمرها ويطربون لأحاديثها ويسكرون بموسيقاها وألحانها.

وكانت قد تحررت من التقاليد بعد سقوط الخلافة الأموية ففتحت أبهاء قصرها للعظماء والأدباء، وبهذا فتحت (صالونًا) أدبياً سبقت به شهيرات فرنسا بعدة قرون، فتهافت على ندوتها الشعراء والوزراء مأخوذين برقتها المغرية وجمالها الخلاب، فتعشقها الكبراء منهم، ولكنها كانت متصاونة فزادتهم انجذاباً إليها، وإلى هذا يشير ابن بسام بقوله: «يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب». وقد أشارت هي إلى ذلك بقولها:

إني - وإن نظر الأنام لبهجتي -
كظباء مَكّةَ صيدهُنَّ حَرامُ
يُحْسَبْنَ من لِين الكلام فواحشًا
ويصدّهنَّ عن الخَنا الإسلامُ

وأنشدها أحد زوارها قول بشار:

لا يُؤئسنّك من مُخَدَّرةٍ
قولٌ تُغلِّظُهُ، وإن جَرحا

عُـــسْــرُ الـــنـــســـاء إلى مُـــيـــاســـرةٍ

والــصَّــعب يُــركَبُ بــعــدمــا جَــمَــحَــا

فقالت إلا من ولادة، ولكنها كانت تبدر منها بوادر تطمع فيها المتهافتين، من ذلك ما كتبته على عاتقي ثوبها:

أنـــا والـــلـه أَصْـــلُـحُ لـــلـــمـــعـــالي

وأمــشي مِــشــيــتي وأتــيـه تِــيــهــا

وأُمْـــكِنُ عـــاشـــقي من صـــحن خـــدّي

وأعــطي قُــبــلــتي من يــشــتــهــيــهــا

ومن نزواتها أنها كانت تقول شعراً ماجنا خليعاً سنعرض له بعد قليل، ومما يؤخذ عليها تعلقها بمُهجة بنت التيّاني القرطبية، وكانت من أجمل نساء زمانها وأخفهن روحاً، فعلقت بها ولادة، وكانت مهجة مكشوفة الوجه وقاح اللسان، مما حمل كثيرين من المستشرقين على إساءة الظن بهذه العلاقة المريبة.

ويحدثنا (نيكل) أن نزواتها لا تكاد تختلف عن النزعات التحريرية بين النساء الجامعيات ونجوم المسرح والخيالة في العصر الحديث، ويشبهها بـ(جورج صاند) في مغامراتها العاطفية.

على أن بعض معاصريها ضاق بتحررها فقال ابن مكي إنها: «لم يكن لها تصاون يطابق شرفها». وقال ابن بسام بعد أن أثنى عليها: «على أنها – سمح الله لها وتغمد زللها – اطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها....».

أما صفاتها الجسمية فديوان الشاعر حافل بوصف جمالها الرائع وسحرها الخلاب. كانت بيضاء الوجه صفراء الشعر، وبهذا يصفها فيقول:

أو صـــاغه وَرِقًـــا مـــحـــضًـــا وتـــوَّجَهُ

من نـــاصعِ الـــتِّـــبـــرِ إبـداعًـــا وتـحـسـيـنـــا

وكانت ممشوقة القوام طويلة العنق بارزة الصدر دقيقة الخصر رابية الردف مع عينين حوراوين وأهداب وطف:

وفي السِّيَراءِ الرَّقْمِ وَسْط قبابهمْ
بعيدُ مَناط القرط أحورُ أوطفُ
تباين خلقاه فعبلٌ منعَّمٌ
تأوَّدَ في أعلاه لدْنٌ مُهَفْهَفُ
فلِلْعانِكِ المرتجّ ما حاز مئزرٌ
وللغُصُنِ المهتزّ ما ضمَّ مِطْرفُ

وهي إلى هذا رقيقة البشرة لينة الملمس:

إذا تأوَّدَ آدتْهُ رفاهيةً
تومُ العقود، وأدمته البُرى لينَا

☆☆☆☆☆

يا ألينَ النّاسِ أعطافًا، وأفْتَنَهُمْ
لحظًا، وأعطر أنفاسًا وأردانًا

وكان لها خال أسود بخدها:

مفضَّضُ الثَّغر له نقطةٌ
من عنبرٍ في خدّه المُذهب

وكانت تجمع إلى جمال الخلقة جمال التزين وعذوبة الحديث:

له خُلُقٌ عذبٌ وخَلْقٌ محسَّنٌ
وظرفٌ كعرف الطيب أو نشوة الخمرِ
يُعلِّلُ نفسي من حديثٍ تَلَذُّهُ
كمثل المُنَى والوصلِ في عُقُبِ الهجرِ

ومما يروى من خفة روحها أنها مرت يوماً على دار ابن عبدوس فرأته جالساً وأمامه بركة متولدة من كثرة الأمطار، فلما رأى ولادة «نشر كُميه ونظر في عطفيه وحشد أعوانه إليه: فقالت له: أبا عمر:

أنت الخَصيبُ وهذه مصرُ
فتدفّقا، فكلاكما بحْرُ

فتركته لا يحير حرفًا، ولا يردُّ طرفًا».

شعرها:

نرى من المناسب هنا أن نسرد ما وصل إلينا من شعرها ومعظمه يدور حول ابن زيدون:

١ – كتبت إلى ابن زيدون:

تَـــــرقَّبْ إذا جنّ الـــــظلام زيــــــارتي
فــإني رأيتُ الــلــيلَ أكــتمَ لــلــسّــرِ
وبي مـنك مـا لـو كـان بـالـشـمس لم تَـلُحْ
وبـالـبـدر لم يـطـلُعْ وبـالـنـجمِ لم يَـسْرِ

٢ – وكتبت إليه:

ألا هل لــنـــا من بــعــد هــذا الــتــفــرّقِ
ســبــيلٌ فــيـشــكـو كلٌّ صَبٍّ بمــا لــقي؟
وقــد كــنتُ أوقــات الــتَّــزاور في الــشِّــتــا
أبــيتُ عــلـى جَــمــرٍ منَ الــشَّــوقِ مُــحــرِقِ
فــكـيف وقــد أمــسـيت في دار قــطــعــةٍ؟
لــقــد عَــجَّلَ المــقــدارُ مـــا كــنتُ أتــقي
تَـمُـرُّ الــلـيــالي لا أرى الـبَــينَ يـنـقـضي
ولا الــصــبــرَ من رِقِّ الــتـشــوّقِ مُـعْـتِـقي
ســقى الــله أرضًـــا قــد غــدت لك مــنــزلاً
بــكل ســكــوبٍ هـــاطلِ الــوَدْقِ مُــغْــدِقِ

٣ – سأل ابن زيدون جاريتها (عتبة) إعادة الغناء في مجلسها بغير إذنها، ولحظت منه بعض الميل إلى هذه القينة فكتبت إليه:

لَـوْ كـنتَ تُـنـصفُ في الـهـوى مـا بـيـنـنـا
لم تَــهْــوَ جــاريــتي ولم تَــتَـخَــيَّــرِ
وتــركتَ غُــصــنًـــا مــثــمــرًا بــجَــمــالهِ
وجَـــنَــحْتَ لــلــغــصنِ الــذي لم يــثــمــرِ

ولـقـد عـلـمتَ بـأنـني بـدرُ الـسَّـمـا
لـكن دُهـيتُ لـشِـقْـوَتي بـالـمُـشـتـري

٤ – وقالت تهجوه:

إن (ابـن زيـدونَ) لـه فـقـحـةٌ
تـعـشقُ... الـسـراويلِ
لـو أبـصـرتْ.. عـلى نـخـلـةٍ
صـارت من الـطَّـيْـرِ الأبـابـيلِ

٥ – ولها في هجائه وهجاء غلامه علي:

إن (ابنَ زيـدون) – عـلى جـهـلـه –
يـغـتـابـني ظـلـمًـا، ولا ذنبَ لي
يـلـحـظـني شـزرًا إذا جـئـتُهُ
كـأنمـا جـئتُ لأخـصي (عـلي)

٦ – وكانت تُلقبِهُ بالمسدس حيث تقول:

وَلُـقِّـبْتَ المـسـدّسَ، وَهْـوَ نَـعْتٌ
تـفـارقك الحـيـاة، ولا يُـفـارقْ
فـلـوطيٌّ ومـأبـونٌ وزانٍ
وديُّـوثٌ وقـرنـانٌ وسـارقْ

٧ – ولها تهجو الأصبحي:

يـا أصـبـحيُّ اهـنـأ فـكم نـعـمـةٍ
جـاءتك من ذي الـعـرش ربِّ الـمِـنَنْ
قـد نـلت بـ .... ابـنك مـا لم يـنلْ
بـ .... (بـوران) أبـوهـا (الحـسن)

ونلاحظ أن ما بقي من شعرها يقل عن مدى شهرتها، وأن فيه إسفافاً قد يقبله عصرها، ولكننا نضيق به في العصر الحديث، على أن في بعضه عاطفة قوية صادقة وإن خلا من التجديد.

منافسة عنيفة:

ولقد تنافس في التودد إليها الشعراء والأدباء وكان من أبرز المتوددين إليها أبو عبدالله بن القلاّس وأبو عامر بن عبدوس وشاعرنا ابن زيدون، وقد زجر ابن زيدون منافسه الأول بقصيدة لاذعة يقول فيها:

أعد نظرًا فإن البغيَ مما لم يزل يصرَعْ
ولا تُطعِ التي تغويك فهي لغَيِّهم أطوعْ
ولا تكُ منك تلك الدار بالمرأى ولا المسمعْ
فإن قصارك الدهليزُ حيث سواك في المضجعْ

فما كاد يتلوها حتى ازدجر وانسحب من الميدان، أما ابن عبدوس فقد ظل يزاحم ابن زيدون في حبها منافسة عنيفة فزجره بقصيدة أخرى قاسية يقول فيها:

أثرتَ هِزبرَ الشَّرى إذ ربضْ ... ونبَّهتَهُ إذ هدا فاغتمضْ
حَذارِ حذارِ فإنَّ الكريمَ ... إذا سيم خسفًا أبى فامتعضْ
فإنَّ سكونَ الشُّجاع الهمو ... س، ليس بمانعه أن يَعضّ
أعيذك من أن ترى منْزَعي ... إذا وتري بالمنايا انقبضْ

فلم يزدجر ابن عبدوس وغالى في التودد إليها، وأرسل إليها امرأة تستميلها إليه، وعلم ابن زيدون بهذه الوفادة فكتب إليه رسالته الخالدة على لسان ولادة وهي الرسالة

المعروفة بالهزلية، مزقه فيها كل ممزق، وجعله مضغة في الأفواه وسخرية للأنظار، وقد أحدثت هذه الرسالة أثرها، فكف ابن عبدوس عن ملاحقة ولادة حتى حين، وانصرف بجهده كله إلى تأليب الأمير على ابن زيدون وأفلح في إثارة الأمير عليه فقذف به في السجن، وهنا عاد ابن عبدوس إلى ولادة فاسترد مودتها وظلت صلاتهما قائمة حتى جاوزا الثمانين، وكانت ثروتها قد تبددت فكان يواسيها بماله وتوفي سنة ٤٧٢هـ وتوفيت هي سنة ٤٨٤هـ وقد قاربت المائة.

مد وجزر:

عرف شاعرنا ولادة بعد أن بلغ أشده وتبوأ منصب الوزارة ونضجت مواهبه، وكان يغشى ندوتها مع من يغشاها من العظماء مدلاً بمكانة أسرته ووفرة ثروته وعلو منزلته وذيوع شهرته في فنون الشعر والنثر والشؤون السياسية، وكان الشاعر عزباً كما نفهم من رسالته الهزلية، وصادفت ولادة فيه فتى وسيم المحيا حلو الحديث قوي العارضة رقيق الشعر نابه المكان، وصادف هو منها رقة وانعطافاً وأنوثة صارخة وجمالاً فتاناً فانبعث فيهما ميل قوي تدرج إلى حب عنيف.

أما الضَّنَى فَجَنَتْهُ لحظةٌ عَنَنٌ
كأنَّها والرَّدى جاءا على قَدَرِ
فهمتُ معنى الهوى من وحي طرفك لي
إن الحوار لَمْفهومٌ من الحَوَرِ

ولقد قوّى هذه العاطفة اتفاق ميولهما ومشاربهما الفنية وصفاتهما الجسمية فكلاهما كان شاعراً مفتوناً بالموسيقى والغناء، ميالاً إلى معاقرة الشراب، وكلاهما كان وسيماً ظريفاً حاضر البديهة عذب الحديث، وكلاهما من صفوة الطبقة الراقية وسنهما متقاربة، وكلاهما عزب، فلا عجب إذا جذب الهوى شبيهاً إلى شبيه، فاندفعا مع الحب في تستر وتصون عبر عنهما الشاعر بقوله:

أصونُكِ من لحظات الظُّنونِ
وأُعليكِ عن خَطَراتِ الفِكَرْ
وأحذرُ من لحظات الرقيبِ
وقد يُستدامُ الهوى بالحَذَرْ

وقد وصف لنا الشاعر أول لقاء تم بينهما، وسنذكره في آثاره، ويكفينا الآن أنها كتبت إليه ليترقب زيارتها في المساء، وأنهما قضيا ليلة حافلة في حديقة غناء تساقيا فيها كؤوس الراح، وأنه بات معها «يجني أقحوان الثغور ويقطف رمان الصدور».

ولكن هذه العاطفة المشبوبة الثائرة، لم تلبث أن اشتهرت وطار ذكرها على كل لسان، فلم يجد الشاعر بعد هذا حاجة إلى التستر فقال:

يا من غدوتُ به في الناس مُشْتَهِرًا
قلبي عليكَ يقاسي الهمَّ والفِكَرا
إن غِبْتَ لم ألقَ إنسانًا يؤانسني
وإن حَضَرْتَ فكلُّ الناس قد حضرا

فضاقت ولادة بهذا الإعلان، ووجد الخصوم الفرصة سانحة فأوغروا صدرها عليه فاعتذر إليها:

والله ما ساءني أني خفيتُ ضَنًى
بل ساءني أن سرِّي بالضَّنى علَنُ
لو كان أمريَ في كتم الهوى بيدي
ما كان يعلم ما في قلبيَ البَدنُ

ولكن خصومه لم يكفوا عن إذكاء حفيظتها عليه، واندفع هو في مخاصمتهم فمس حبيبته مسّاً عنيفاً في قصيدتيه لابن القلاس وابن عبدوس، ثم ازداد في اندفاعه فصورها بصورة البغي الهلوك في رسالته الهزلية، وهنا ضاقت به ولادة وانكشف عن عينيها الغطاء، فرأت غروره وصلفه، وتذكرت إعجابه بجاريتها عتبة، ومر بخاطرها نقده لشعرها[1] فصدت عنه، وفي فورة من فورات غضبه الجنونية اعتدى عليها بالضرب، وإن كان قد ندم على فعلته وحاول عنها الاعتذار:

---

(١) نقد الشاعر بيتها:

سقى الله أرضًا قد غدت لك منزلاً
بكل سكوب هاطل الودق مغدق

فقال إن هذا أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، وأما المستحسن فقول الآخر:

فسقى ديارك - غير مفسدها -

إن تــكنْ نــالــتكِ بــالــضَّــرب يــدي
وأصــابــتكِ بمــا لـم أُرِدِ
فـلـقـد كـنت لَـعـمـري فـاديًـا
لكِ بــالمــال وبــعض الــولــدِ
فــثــقي مــني بــعــهــدٍ ثــابتٍ
وضــمــيــرٍ خــالصٍ الــمُــعــتــقَــدِ
ولــئن ســاءك يــومٌ فــاعــلــمي
أن ســيــتــلــوه ســرورٌ بــغــدِ

والواقع أنهما – على تقاربهما في الميول والأهواء – كانا على أهبة للجفاء، فكلاهما كان طاغي الشخصية عارم الغضب مندفعاً، وهذه الصفات تجعل صاحبيها متوازيين لا متكاملين، ولما زادت في دلالها عليه ثارت ثورته فكتب إليها:

قـد عـلـقـنـا سـواكِ عِـلـقًـا نـفـيـسـا
وصـرفـنـا إلـيه عـنكِ الـنُّـفـوسـا
ولـبـسـنـا الجـديـد من خِـلَعِ الحُـبْ
ـبِ، ولم نَـأْلُ أن خـلـعـنـا الـلـبـيـسـا
لـيس مـنكِ الـهـوى ولا أنتِ مـنه
اهـبـطي مـصـر أنتِ من قـوم مـوسى[1]

وهنا نجح خصوم الشاعر في حمل الأمير على سجنه، فهدأت نفسه في السجن وأخذ يناجيها منه بأبيات عاطفية رقيقة، ثم فر من سجنه إلى إشبيلية ومنها كتب إليها النونية الخالدة التي مطلعها:

أضـحى الـتـنـائي بـديلاً من تـدانـيـنـا
ونـاب عن طـيب لـقـيـانـا تجـافـيـنـا

(١) كناية عن أنها مبتذلة مباحة، ويشير بهذا إلى قول أبي نواس:
أظــنك من بــقــيــة قــوم مــوسى
فــهم لا يــصــبــرون عــلى طــعــام

ولما عفا عنه الأمير وعاد إلى قرطبة بالغ في التودد إليها، ويظهر أنها عادت معه إلى مودتهما السابقة، ولكن إلى حين، فقد انصرفت عنه بقية الحياة، وإن كان حبه لها ظل يعتلج في حنايا صدره، ويتردد في ألحان شعره زهاء ثلاثين عاماً حتى طوته المنون.

دراسة تحليلية:

لا يزال الغموض يعتور موقف ولادة من ابن زيدون وموقفها من غيره من المحبين فإنها على جمالها ورقتها ظلت عانساً طول الحياة، مع كثرة الراغبين فيها المتهافتين عليها، وإنها لتقبل على ابن زيدون، ثم تصد عنه، ثم تعود إليه لتنصرف عنه انصرافاً تاماً، وتقبل على ابن عبدوس، ثم تعبث به وتسخر منه، ثم تعود إليه عودة أشبه بالصداقة منها بالمحبة وقد حار فيها معاصروها، فوصفوها بالتصون والعفاف ثم نعتوها «بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها» كما حار فيها المستشرقون فرموها بالجنسية المثلية Homosexuality وهي ميل المرأة إلى المرأة والرجل إلى الرجل، واتهموها بمهجة بنت التياني القرطبية وشبهوها في هذا بالشاعرة الإغريقية سافو، ولكن هذا الاتهام يدفعه أن مهجة هجت ولادة فاتهمتها بالجنسية المغايرة Heterosexuality حيث قالت:

ولادة قد صرت ولّادةً
من غير بَعْلٍ فُضِح الكاتمُ
حكت لنا مريمَ، لكنما
نخلة هذي... قائمُ

وصلاتها بابن زيدون تقطع بأنوثتها الطبيعية، وحسبنا قراءة وصفه لأول لقاءٍ تم بينهما وما حدث فيه.

ولكننا نستطيع أن نجد تعليلاً مقنعاً لجميع تصرفاتها. هذا التعليل هو أنها مصابة بالسادية Sadism وهي حب إيقاع التعذيب على الجنس الآخر، وتنغرس بذور هذا المرض في المرأة منذ الطفولة حين تشعر بأنها تنقص عن الطفل بعض الأعضاء فتشعر بحسد وغيرة يسمى حسد الذكورة Penis Envy ويظل هذا الحسد ينمو، حتى يؤول إلى مرض خطير بعد البلوغ، ويرجح بعض الباحثين أن يكون هذا المرض أثراً وراثياً لفساد النطفة الناتج عن التسمم بالخمر، ونحن نعلم أن أباها كان من المدمنين.. ومن مظاهر السادية أن

تنصب المرأة شراكها للرجل حتى يقع فريسة هواها فتذيقه أنواع الصدود، وتجلب عليه صنوف الشقاء وضروب الحرمان، وقد اعترفت إحدى السيدات للعالم النفسي (اشتكل) (Stekl) فقالت: «إن اللذة الجنسية ضعيفة إذا قيست باللذة التي أستشعرها من العمل السادي، فهي لذة لا يحدها الوصف ولا تصورها الألفاظ، فإنني أشعر بشخصي يسمو ويعلو ويملأني الزهو والكبرياء والجلال، وتبلغ بي النشوة أوجها كلما شعرت أنني بسطت سيطرتي على هؤلاء الرجال دون أن أشبع لهم رغبة أو أطفئَ لهم شهوة، فهم عبيدي يظلون يجرون خلفي طمعاً في أن يتذوقوا حلاوة وصالي بعد أن ذاقوا مرارة قسوتي وكبريائي، فهم أتباع لي دائماً يحدوهم الأمل في نعيمي فلا يدخلون إلا جحيمي» وفي هذا يقول شاعرنا:

علّلتِني بالمُنى حتى إذا علِقتْ
بالنفس لم أُعطَ من أسبابها طَرفا
غُيِّرْتَ عن خُلُقٍ قد لان لي زمنًا
لينَ النَّسيم، فلما لَذَّ لي عَصَفا

وأشعاره حافلة بمثل هذا العتاب.

ومن مظاهر السادية حب التلويث، وقد لوثت ولادة سمعة كل من اتصل بها فقد عبثت بابن عبدوس (وكانت كثيرة العبث به) ولوثت سمعة ابن زيدون وقد مر بنا هجاؤها الفاحش له، ثم لوثت سمعة الأصبحي وابنهُ ومزقت عرضهما كل تمزيق، وإلى هذا يشير العمري بقوله: «وكانت ولادة ذات بوادر يشيب لها رأس الوليد....» ويقرر نيكل (Nykl) أن سلوكها كان متسماً بالخشونة المتطرفة والاتجاه المادي الطبيعي الذي يذكرنا بجورج صاند، وأنها ورثت عن أبيها بعض ملامح الخشونة، والمريضة بهذا المرض لا تدوم صلاتها إلا برجل ذي انحراف مقابل لانحرافها تسيطر عليه نزعة قبول التعذيب Masochism وهي النزعة المقابلة للسادية، ولعل ولادة صادفت هذا الشخص في ابن عبدوس حيث كانت تكثر من العبث فيرضى بعبثها، ثم تنصرف عنه إلى ابن زيدون فيظل يترامى على قدميها راضياً مغتبطاً، ثم تسخر منه فيرضى عن هذه السخرية، ولهذا دامت علاقتهما حتى جاوزا الثمانين.

✸✸✸✸

عواصف وأنواء

قاض واتهام:

حشد خصوم الشاعر قواهم، وأحكموا أمرهم، فأدخلوا في روع الأمير أن الشاعر يتآمر على حكمه وأنه ضالع في الدعوة لهشام الخليفة المزعوم بإشبيلية، وكان الأمير قد نقض بيعته بعد إبرامها، ثم أوهموه بأن الشاعر أطلق لسانه في هجائه، وزعموا أن غشيانه مجالس ولادة غشيانٌ مريب قد يُخفي خلفه مؤامرات سياسية مع أقاربها الأمويين المخلوعين فاستجاب الأمير لهذه الدسائس، ولكنه لم يرد تقديمه للمحاكمة بهذه التهم، فإن من العسير إثباتها عليه بل استطاع الشاعر في قصائده ورسائله أن يوهن ما قامت عليه من أساس. فأوحى الأمير إلى حاشيته فدبرت له تهمة اغتصاب عقار، ولما كانت التهمة ملفقة فقد عين الأمير قاضياً خاصاً أعده للحكم في هذه القضية هو عبدالله بن أحمد بن المكوى ويحدثنا عنه ابن بشكوال: «أنه لم يكن من القضاء في وردٍ ولا صدر لقلة علمه ومعرفته، وإنما كانت أثرة أثر بها». ومن الطبيعي أن تكون هذه الأثرة لهدف خاص يحرص عليه الأمير، ولم يطلق عليه لقب القاضي لأنه غير جدير به، ولهذا نعته ابن حيان بأنه أحد حكام قرطبة وقال فيه ابن سعيد: «ولم يكن في نصاب القضاء، وهو ممن آثر الخمول للدعة، والفلاحة على الدراسة... ولم يطلق عليه اسم القضاء» أما صفاته بعد ولاية القضاء فقد «اكتسب صرامة وإعجاباً حتى استخف بكثير من وجوه الناس، فجرت له بذلك خطوب.... من رجل قليل العلم نكد الخلق.. وقد ألح الناس في صرفه حتى صرفه أبوالوليد بن جهور سنة ٤٣٥هـ».

محاكمة عاصفة:

ما كاد القاضي يسمع التهمة وشاهد الإثبات حتى أمر بإلقاء الشاعر في السجن مخالفاً الإجراءات القانونية المتبعة في هذا الزمان طبقاً لمذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وقد نبهه الشاعر دون جدوى إلى هذه المخالفات وأهمها:

١ - اكتفى القاضي بشهادة شاهد واحد وهو مع هذا غير عدل، جرحه ابن زيدون.

٢ - لم يعط ابن زيدون فرصة للدفاع عن نفسه، وإظهار براءته، مع أن هذا حق معترف به في جميع الشرائع والقوانين.

٣ - أحس الشاعر بالجو المحيط به، فعرض الصلح على الخصوم، وهو جائز بين المسلمين طبقاً للحديث الشريف، ويندب للقاضي أن يسعى فيه، ولكن القاضي تهرب من هذا الموقف الحرج.

٤ - على أن التهمة - مع فرض ثبوتها - لا تجيز الحبس، فقد قرر الفقهاء أنه لا يجوز الحبس في الحق إذا تمكن الحاكم من استيفائه، والشاعر من الأثرياء.

٥ - لم يترك الفقهاء أمر الحبس فوضى، بل حددوا له أمداً لا يتجاوز عاماً واحداً في أقسى العقوبات، ولكن حبس الشاعر لم يكن له أمد محدود، وقد طال حتى فر الشاعر من سجنه بعد أن قضى به خمسمائة يوم.

٦ - قدم الشاعر دليلاً كتابياً بوثيقة تبرئه من التهمة فلم يلتفت إليها قاضيه.

٧ - طرح الشاعر في سجنه بين الأوغاد واللصوص بعد أن كان منفرداً بحجرة فيه طبقاً لنظام السجون الذي كان يميز بين طبقات المسجونين، وقد شكا الشاعر هذا دون فائدة أو غناء.

زمن السجن:

تضاربت أقوال الباحثين في زمن سجن الشاعر حتى ادعى بعضهم أنه سجن مرتين: مرة قبل الثلاثين في عهد أبي الحزم بن جهور، ومرة وقد جاوز الأربعين في عهد أبي الوليد بن جهور، وكلا الرأيين بعيد عن الصواب، والذي أوقع في الوهم الأول ما ذكره الشاعر في قصيدته التي استعطف فيها أبا الحزم ابن جهور حيث يقول:

لم تَطْوِ بُردَ شبابي كبرةٌ، وأرى
بَرقَ المشيب اعترى في عارضِ الشَّعَرِ
قبل الثلاثين إذ عهد الصِّبا كَثَبٌ
وللشبيبة غُصنٌ غيرُ مُنْهَصِرِ

مع أن المعنى لا يزيد على أن المشيب أدرك الشاعر دون الثلاثين، وليس هناك ما يمنع من أن الشاعر يتحدث بهذا وهو في الأربعين، فكأنه يؤرخ بدء مشيبه، على أن الشاعر ذكر بعد فراره من السجن أن الشيب لم يلم بمفرقه، وإن ألمّ بفؤاده:

هـرمتُ ومـا لـلـشَّـيب وخطٌ بمـفـرقي

وكـائنْ لـشـيب الـهم في كـبـدي وَخْطُ

مما يدل على أن الشاعر لا يقصد ما يقول، وإنما هي معان شعرية تناسب المقام على أن هناك استحالة مادية في دخول الشاعر السجن دون الثلاثين، فإنه بلغ هذه السن بعد ولاية ابن جهور الحكم بثمانين يوماً، وقصيدته في السجن تقطع بأنه قضى فيه مدة طويلة:

إن طـال في الـسـجن إيـداعي فلا عـجبٌ

قـد يُـودَع الجَـفنَ حـدُّ الـصّـارم الـذَّكَـرِ

وقد عرفنا أن الشاعر ولي منصب الوزارة للأمير، وقام بالسفارة بينه وبين الملوك المجاورين، وعلا شأنه في الدولة، وكان كما يقول ابن دحية: «زعيم الوزارة القرطبية، ونشأة دولتها السنية، حتى صار ملهج لسانها، وحلَّ من عينها مكان إنسانها.. وكان بينه وبين رئيسها أبي الحزم بن جهور ائتلاف الفرقدين واتصال الأذن بالعين...». فليس من المعقول أن يتم هذا كله في فترة ثمانين يوماً. أما الرأي الثاني الذي ينادي بأنه دخل السجن بعد الأربعين في زمن أبي الوليد بن جهور فيوهم به ما ذكره ابن خاقان من أنه: «كان له مع أبي الوليد بن جهور تآلف أحرما بكعبته وطافا.. إلى أن وقع له طلب أصاره إلى الاعتقال... فاستشفع بأبي الوليد وتوسل... فما ثنى إليه عنان عطفه... حتى تسلل من حبسه ففر فرار الخائف وسرى إلى إشبيلية سرى الخيال فوافاها غلسًا فهشت له الدولة..... وحصل عند المعتضد كالسويداء من الفؤاد.... وألقى بيده مقاليد ملكه وزمامه... وما زال يلتحف بخطوته ويقف بربوته حتى أدركه حمامه». وتبعه في هذه الرواية ابن نباتة، والواقع أنهما ينقلان عن ابن حيان، ويظهر أن السجع والعجلة أسقطتا عبارة لابن حيان هي: «..... أداه إلى السجن فألقى نفسه على أبي الوليد بن جهور في حياة والده». فعبارة (في حياة والده) تزيل كل لبس أو غموض، وجميع الرسائل والقصائد التي كتبها الشاعر من سجنه موجهة إلى أبي الحزم بن جهور لا إلى ابنه أبي الوليد.

والواقع أن الشاعر لم يسجن إلا مرة واحدة في عهد أبي الحزم بن جهور بعد نقض بيعة هشام بقرطبة سنة ٤٣١هـ وبعد أن تولى ابن المكوى القضاء – وهو الذي نيط به أمر محاكمته – لسبع خلون من محرم سنة ٤٣٢هـ، ونحن نعلم أن الشاعر فر من سجنه وكتب رسالته إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد الذي توفي لثمان خلون من شعبان سنة ٤٣٣هـ، ومن هنا نستطيع أن نجزم بأن الشاعر سجن في الفترة بين محرم سنة ٤٣٢ وشعبان سنة ٤٣٣ وهي مدة تزيد قليلاً عن خمسمائة اليوم التي حدثنا عنها الشاعر في شعره ونثره، وقد فر الشاعر من سجنه فطوى المسافة بين قرطبة وإشبيلية في ليلة واحدة كما ذكر ابن دحية وابن خاقان، مع أن المسافة بينهما ثلاثة أيام، ويؤيد هذه الحقيقة أن ابن زيدون اتصل بالمعتضد وهنأه بزواجه من السيدة بنت مجاهد العامري بقصيدة مطلعها:

اخـطبْ فـمـلـكك يـفـقـدُ الإملاكـا

واطـلبْ فـسـعـدك يـضـمنُ الإدراكـا

ونحن نعلم أن هذا الزواج تم بعد أن تولى المعتضد الحكم سنة ٤٣٣هـ وقبل وفاة مجاهد العامري سنة ٤٣٦هـ – وهذه الفترة تناسب الزمن الذي حددناه لفرار الشاعر إلى إشبيلية – وقد يسبق إلى الذهن أن الشاعر أرسل قصيدته من قرطبة إلى المعتضد بإشبيلية، ولكن يدفع هذا الوهم ما قاله الشاعر في قصيدته:

أسـبـوعُ أنسٍ مُـحْـدِثٌ لِيَ وحـشـةً

عـلـمًـا بـأني فـيـه لـستُ أراكـا

فـأنـا الـمُـعـذَّبُ غـيـرَ أني مُـشْـعَـرٌ

ثِـقَـةً بـأنك نـاعمٌ فـهَـنـاكـا

ويحدثنا ابن بسام أن الشاعر كتب على لسان المعتضد قصيدة إلى صهره الموفق مجاهد، أما هجرة الشاعر الثانية إلى إشبيلية فقد تمت سنة ٤٤١هـ في عهد أبي الوليد بن جهور بعد أن فاوض الشاعر المعتضد ووثق بما سوف يكله إليه من مهام رئيسية، وقد هاجر الشاعر من قرطبة، فكثر الأسف عليه كما يقول ابن حيان ولم يتجه إلى إشبيلية مباشرة بل عرج على بطليوس فقضى فيها بضعة أشهر اتصل فيها بأميرها المظفر بن الأفطس ومدحه وأثنى عليه أطيب الثناء.

****

عهد جديد

عفو مشكور:

فر الشاعر من سجنه بعد أن أخفقت وسائله وتوسلاته في استعطاف أميره، ومن المرجح أن ولي العهد أبا الوليد بن جهور صديق الشاعر أعانه على الفرار، وقد وجد الشاعر بإشبيلية صدراً رحباً حيث أدناه الحاكم منه وقربه إليه وغمره بإنعامه، ولكن نفس الشاعر كانت تجذبه إلى قرطبة موطن صباه ومَعقّ تمائمه ومسرح هواه فكتب إلى حبيبته النونية الخالدة التي استهلها بقوله:

أضحى التنائي بديلاً مِنْ تَدانينا
ونابَ عن طيبِ لُقْيانا تَجافينا

وختمها بقوله:

أوْلِي وفاءً، وإن لم تبذلي صلةً
فالطيفُ يقنعنا، والذكرُ يكفينا
وفي الجَوابِ مَتاعٌ إنْ شَفَعْتِ بهِ
بيضَ الأيادي التي ما زلتِ تولينا
عليكِ منا سلام الله ما بقيتْ
صَبابةٌ بكِ نُخفيها فتُخفينا

ثم جذبه هواه إلى قرطبة فكر إليها مستخفياً بضاحيتها الزهراء ثم أخذ يراسل أصدقاءه مستشفعاً بهم لدى الأمير فكتب رسالته الرائعة إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد، وهذه الرسالة تعتبر وثيقة تاريخية تلقي أضواء على محاكمته ومعاملته بالسجن، ثم أتبعها بقصيدته الطائية البارعة، ولم يكتف الشاعر بهذا بل واصل مساعيه عند ولي العهد، ومن الزهراء كتب إلى حبيبته أبياته العاطفية الممتعة التي استهلها بقوله:

إنّي ذكــرتُكِ بـــالــزهـــراء مـــشـــتـــاقَـــا
والأفقُ طـــلـقٌ ووجـهُ الـــرّوضِ قـــد راقـــا

وأخيراً نجح الشاعر في مسعاه فعفا عنه الأمير، ولم تمض أشهر حتى مات الأمير وتولى الحكم ابنه أبوالوليد بن جهور صديق الشاعر الحميم فبدأت صفحة جديدة من حياة ابن زيدون.

الحاكم الجديد:

قرب الحاكم الجديد شاعره وصديقه إليه «ورفع مكانته، ونوّه به، وأسنى خطته واعتمد عليه في السفارة بينه وبين الملوك المجاورين». ونرجح أن الشاعر أفلح في استرداد مودة حبيبته في هذه الفترة فصفت نفسه وتفتحت مواهبه، وأقبل على عمله بنفس متفتحة ومواهب مشبوبة وقد أكسبته التجارب التي مرت به خبرة ودربة ودهاء نفعته في سفارته لدى ملوك الطوائف، وأعانه على النجاح ما تحلى به من «الوسامة والدراية وحلاوة المنظوم والسلاطة وقوة العارضة والافتنان في المعرفة»، وإلى هذا يشير ابن حيان بقوله: «ولما ولي أبوالوليد الأمر بعد والده نوه به وأسنى خطته وقدمه في الذين اصطنعهم لدولته وأوسع راتبه وجلله كرامة».

سحابة عارضة:

لَمْ يكفَّ خصوم الشاعر ومنافسوه في حبه وفي مناصبه عن الدس والكيد له عند حاكمه الجديد، وكثيراً ما ضاق بهم الشاعر فهتف بأميره:

فَـــدَيْـــتُكَ كم ألـــقى الـــفـــواغـــرَ من عـــدا
قِـــراهم لـــنـــيـــران الـــفـــســـاد ثِـــقـــابُ
عـــفـــا عـــنـــهمُ قـــدري الـــرفـــيـعُ فـــأهـــجـروا
وبـــايـــنـــهم خُـــلـــقِي الجـــمـــيلُ فـــعـــابـــوا
ســـأبـــكي عـــلـى حـــظي لـــديك كـــمـــا بـــكى
(ربـــيـــعـــةُ) لمـــا ضلّ عـــنـــه (ذُؤابُ)

ولكن خصوم الشاعر الأقوياء ظلوا يلاحقونه بالوشايات والسعايات، وأتاح هو لهم الفرصة حيث تلبث الشاعر في بلاط إدريس بن يحيى بن علي بن حمود أثناء سفارته لديه بمالقة فأطال مكثه عنده، واقترب منه وخف على نفسه، وأحضره مجالس أنسه كما يقول ابن حيان، وكانت في إدريس صفات تقرب الشاعر منه وتقربه إلى الشاعر، فكلاهما كان شاعراً مولعاً بالطرب والشراب والغناء مع ميل إلى الاستهتار، ويظهر أن ابن جهور استبطأ سفيره فألح عليه في العودة فلم يلب النداء، فاهتبل خصوم الشاعر هذه الفرصة وحملوا الأمير على عزله من منصبه، وهو تصرف طبيعي من الأمير.

وهنا عاد الشاعر إلى أميره مستغفراً ضارعاً فأعرض عنه فتوسل إليه:

بنيتَ فلا تهدِمْ ورِشْتَ فلا تبري
وأمرضت حسادي وحاشاك أن تُبري

هَبِ العزلَ أضحى للولاية غايةً
فما غاية الموفى من الظل أن يكري؟

ففيم أرى ردَّ السلام إشارةً
تسوِّغُ بي إزراءَ من شاء أن يُزْري؟

فإن عاقتِ الأقدارُ فالنفس حرةٌ
وإن تكن العُتبَى فأحرِ بها أحري

ولكن الأمير ظل معرضاً، فقام الشاعر بسياحات عديدة لدى الملوك المجاورين فزار بلنسية وطرطوش وبطليوس، وبدأ يراسل المعتضد بإشبيلية يعرض عليه خدماته، وأخيراً رضي الأمير عن شاعره فأعاده إلى مناصبه حتى حين.

الهجرة الأخيرة:

ولكن خصوم الشاعر لم يكفوا عن الإساءة إليه وملاحقته بالفتن والوشايات وأخيراً قامت في قرطبة ثورة ضد الأمير تولى كبرها بنو ذكوان، فلفحت الشاعر بنيرانها، واستطاع الأمير أن يتغلب عليها ولكنها تركت في نفسه أثراً من ابن زيدون، ففزع الشاعر إليه بقصيدة ضارعة يُنحي فيها باللائمة على بني ذكوان ويتبرأ من عقوقهم ويشفق من مغبة جحودهم.

قل لــلــــوزيـــر الـــذي تـــأْمِــيــلُه وَزَري
إن ضـــاقَ مــضـــطــربٌ أو هـــالَ مُـــطَّــلَعُ
أَصِخْ لــــهــمس عــتـــابٍ تحــته مِــقَــةٌ
تُـكـلِّفُ الـنـفس مـنـهــا فـوق مــا تَـسَعُ
مــالــلــمـتــاب - الـذي أحـصـفتُ عُـقـدته -
قـد خــامـرَ الـقـلبَ من تـضـيـيـعه جـزعُ؟
لا تــســتــجــزْ وَضْعَ قَـدْري بــعـد رَفْـعِـكَهُ
فــالـــله لا يـــرفعُ الـــقـــدرَ الـــذي تَـــضَعُ

ولكن الشاعر أدرك أن مقامه بقرطبة خطرٌ عليه ففارقها إلى بطليوس، وترك بها فراغاً كبيراً شعر به الأمير وحاشيته وفي هذا يقول ابن حيان: «فخلا بالحضرة مكانه، وكثر الأسف عليه». وكانت المفاوضات المتصلة بين الشاعر والمعتضد بن عباد بإشبيلية قد لقيت نجاحاً كبيراً على يد صديقه الوزير أبي عامر بن مسلمة، فرحل الشاعر من بطليوس إلى إشبيلية: «فهشت له الدولة وتاهت به الجملة فأحمد إليها فراره وأرهفت النكبة غراره» كما يقول ابن خاقان.

****

في ظل بني عبّاد

لوعة وحنين:

طوى الشاعر ببطليوس بضعة أشهر رتل فيها قصائد تجأر بالشكوى وتفيض بالحنين إلى قرطبة، وصف فيها لوعته لفراق موطنه وأهله وأحبابه وتوجس من إقدامه على عالم جديد مجهول لا يدري ما يخبئه له القدر فيه، ومن أروع ما صاغه في هذه الفترة أرجوزته التي استهلّها بقوله:

يـــا دمعُ صُبْ مـــا شـــئتَ أن تـــصـــوبـــا
ويـــــــا فــــــؤادي آنَ أنْ تـــــــذوبـــــــا
إذِ الـــرزايـــا أصـــبـــحتْ ضُـــروبـــا
لـم أر لـي في أهـــلـــهـــا ضـــريـــبـــا

ونرجح أنه نظم فيها مخمستيه الخالدتين، وحائيته الثائرة:

خـــلـــيـــلـــي لا فـــطـــرٌ يـــســـرُّ ولا أضـــحـى
فـمـا حـالُ من أمـسـى مَشـوقًـا كـمـا أضـحـى؟

كما نظم كثيراً من القصائد والمقطعات، ومن أشجى ما قاله في مناجاة حبيبته والشوق إلى مواطنيه:

هل تـــذكـــرون غـــريـــبًـــا عـــاده شَـــجَنٌ
من ذكـــركمْ، وجـــفـــا أجـــفـــانَهُ الـــوَسَنُ؟
يُـــخـــفِي لـــواعِـــجَهُ، والـــشـــوق يـــفـــضَـــحُهُ
فـــقـــد تـــســـاوى لـــديه الـــسِّـــرُ والـــعَـــلنُ
يـــا ويـــلـــتـــاهُ!! أيـــبـــقى في جَـــوانِـــحِهِ
فـــؤادهُ، وهْـــو بـــالأطلال مُـــرتَـــهنُ؟

وأَرّقَ العينَ والظلماءُ عاكفةٌ

ورقاءُ قد شفّها إذ شفّني حَزَنُ

فبتُّ أشكو وتشكو فوق أيكتها

وبات يهفو ارتياحًا بيننا الغُصُنُ

✡✡✡✡✡

يا هل أجالسُ أقوامًا أُحبُّهمو؟

كنا وكانوا على عهدٍ، فقد ظعنوا

أو تحفظون عهودًا لا أضيّعُها

إن الكرامَ بحفظِ العهدِ تُمْتَحَنُ

ومنها:

إن كان عادكمو عيدٌ فَرُبَّ فَتًى

بالشوق قد عادهُ من ذِكْركِمْ حَزَنُ

وأفردته الليالي من أحبَّتهِ

فبات ينشدها ممّا جَنَى الزَّمَنُ:

«بم التعلل؟ لا أهلٌ، ولا وطنٌ

ولا نديمٌ، ولا كأسٌ، ولا سَكنُ!!»

لقاء كريم:

هاجر الشاعر إلى إشبيلية، وقد سبقه إليها كثير من أعلام قرطبة المعدودين وكانوا قد فروا منها حينما نقض ابن جهور بيعة هشام، ومن أشهرهم أبومروان عبدالله بن أحمد، وأبو بكر عبدالله القرشي التميمي وأبو عامر بن مسلمة صديق الشاعر الحميم ووسيلته إلى المعتضد بن عبّاد، فلما هبط الشاعر إشبيلية نزل في ضيافة صديقه فأكرم وفادته وأطاب مثواه، وكان أبو عامر يبني في داره مجلساً فأنشده ابن زيدون:

عُمِّرَ من يعمُرُ ذا المجلسا

أَطْوَلَ عُمْرٍ يبهجُ الأنفسا

وبَعْدَ ذا عُوِّضَ عن داره

عَدْنًا، ومن ديباجِهِ السُّندسا

وَوُقِّيَ الفوزَ بها والرضى

ووُقِّيَ الأسواءَ والأبْؤُسا

ودام (عبّادٌ) لعهد الهوى

يحرسُ حتى يُفْنِيَ الأحْرُسا

أما المعتضد فقد لقي الشاعر أكرم لقاء، وغمره بحفاوته وبره «وجعله من خواصه يجالسه في خلواته، ويركن إلى إشاراته، في صورة وزير» والواقع أن الأمير عامل الشاعر معاملة صديق، ورفع بينهما الكلفة وأهدى إليه، وقبل هداياه، وأحضره مجالس لهوه ومطارح أنسه، وعاطاه العقار، وطارحه الأشعار والأسمار، أهدى إليه الشاعر هدية تفاح وكتب معها:

يا من تَزينت الرئاسةُ حين أُلبسَ ثوبَها

جاءتك جامدةُ المُدام فخذ عليها ذَوْبَها

وتلقى منه هدية خمر مشفوعة بأبيات رقيقة فأجاب عنها:

يُشرّف مملوكَكَ المُسْتَرَقّ

نظمٌ من الكلم المُنْتَخَلْ

وراحٌ تعيدُ إلى من أسدْ

نَ، طيبَ زمان الصبا المُقْتَبَلْ

فأخجلني البِرُّ من فرطهِ

وإنّ الجواب ليبدي الخَجَلْ

وكان المعتضد يبيح لشاعره دخول حمام قصره، ويبعث إليه الطيب والبخور فيهتف شاكراً:

رضاكَ لنا قبلَ الطهور مطهِّرُ

(١) جاءت في متن الديوان (مشاورٌ) ، انظر ص ٦٢٧ . «المراجع»

وقُــربُكَ من دون الــبَــخُــورِ مُــعَــطِّــرُ

فـــلـــو عـــزّ حــــمَّـــامٌ لأدفـــأنـــا ذُرًى

يـــفـــيض بـه مـــاءُ الـــنّـــدى الـــمُـــتَــفَــجِّــرُ

ولـــو لم يـــكنْ طــيـبٌ لأغـــنتْ حـــفـــاوةٌ

تُـــمَـــسّكُ مـــنـــهـــا حـــالـــنـــا وتُـــعَـــنْـــبَـــرُ

مناصب خطيرة:

كان بلاط المعتضد يغص بالكتاب والشعراء والعلماء، فاستطاع شاعرنا بسهولة أن يشق طريقه إلى أن يكون شيخ الشعراء في هذا البلاط، أو شاعر المصر كما يقول منافسه ابن حصن، ثم أصبح المستشار الأول للأمير «وهو منصب يشبه منصب رئيس الديوان الملكي أو وزير القصر في العصر الحديث».

وإلى هذا يشير شاعرنا بقوله:

حَـــسْـــبِيَ الـــنُّـــصحُ والـــودادُ وشـــكـــرٌ

عـــطّـــر الـــدهـــرَ مـــنـه مِـــسكٌ فـــضـــيضُ

وقوله:

شــــــــــــاورنـي[1] فـي أمــــــــــــــره

شَـــيْـــحـــانُ لـــو شـــاء اســـتـــبـــدْ

ثم عهد إليه بالسفارة بينه وبين أمراء الطوائف في مهمِّ رسائله لفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة فاستحق بهذا لقب ذي الوزارتين «وهو لقب يختص به الملك أفراداً معدودين يشركونه في التدبير فضلاً عن المشورة».

ثم جعله رئيساً لوزرائه وفي هذا يقول أوغست كور: «وكان كاتم سر المعتضد ثم كبير وزرائه». وقد سماه صاحب المعجب ذا الرئاستين، وسماه الذهبي الصاحب «وهو لقب يطلق عند المشارقة على رئيس الوزراء المطلق التصرف كالصاحب بن عباد». ويذكر ابن نباتة أن المعتضد تلقاه بالقبول والإكرام، وولاه وزارته وفوض إليه مملكته، ويقول ابن

خاقان في حديثه عن المعتضد إن ابن زيدون: «أظهر صولته، ودبر دولته، وأدجى ضحاها، وأدار بالمكاره رحاها».

وكان ابن زيدون يطمع في أن يضم بين يديه القويتين جميع المناصب الخطيرة في الدولة، فكانت نفسه تتوق إلى أن يضم إلى مناصبه منصب الكتابة، وكان الكاتب يطلع على جميع أسرار الدولة، ويتحدث باسمها في الخطير من الأمور، ولهذا سعى ابن زيدون ليستأثر بهذا المنصب إلى جانب مناصبه، فحدثت بينه وبين ابن حصن كاتب المعتضد جفوة انتهت بهلاك ابن حصن، ولكن المعتضد عهد بهذا المنصب إلى الكاتب المشهور أبي محمد عبدالله بن يوسف بن عبدالبر، ثم غضب عليه بعد حين فعزله من منصبه وكاد يفتك به، ويقال إن لشاعرنا أثراً في هذا الاتجاه، ثم فكر المعتضد في أن يعهد بهذا المنصب إلى أبي محمد الباجي، ولكن ابن زيدون استطاع أن يظفر بهذا المنصب الجليل بمعونة صديقه أبي محمد بن الجد، ووفق فيه خير توفيق، وبهذا استطاع أن يجمع في يديه أزمّة الدولة جميعاً.

وكانت التجارب قد حنكته، والأحداث قد صقلته، فاستطاع أن يتقي فتكات المعتضد وغدراته، وأن يسير بسلام مع هذا الأمير الذي قلما سلم من فتكه أحد من معاصريه حتى لقد فتك بابنه ووليّ عهده، ولما سئل ابن زيدون بعد وفاة المعتضد كيف انفرد بالسلامة منه؟ «وقد كان غير مأمون على الدماء، ولا حافظ لحرمة الأولياء، فقال كنت كمن يمسك بأذني الأسد يتقي سطوته، تركه أو أمسكه». ونرجح أنه كان يدخره لفتح قرطبة وهي حلمه العظيم.

سحابات عارضة:

طوى الشاعر في ظلال المعتضد عشرين عاماً، بلغ فيها أرقى المناصب، وجمع بين يديه أزمة الحكم، وقاد الدولة قيادة حكيمة اتسعت فيها رقعتها إلى أضعاف ما كانت عليه، فهل مرت جميعها هينة لينة مع ما تزخر به نفس الأمير من نزوات طاغية واندفاعات عاتية، ومع ما خلقته للشاعر مناصبه من حساد أقوياء وحاقدين طامعين، إن هذا لا يتفق مع طبيعة الحياة وبخاصة في هذا البلاط الرهيب، وفي هذا يقول أوغست كور: «لم تكن حياة

ابن زيدون بإشبيلية هادئة كل الهدوء الذي يشير إليه ابن خاقان، ولا خالية من المتاعب كما توحي قصائد الديوان». ولم يذكر لنا هذه المتاعب ولا أنواعها، ولكننا نعرف أن ابن زيدون خلق له خصوماً أقوياء: «فغدا شجاً في صدورهم ونكداً في سرورهم» كما يقول ابن خاقان.

وقد وجدنا في القسم الثاني المخطوط من الذخيرة في ترجمة أبي الحسن علي بن غالب بن حصن وزير المعتضد وكاتبه وشاعره حديثاً عن خصومة عنيفة طاغية بينه وبين ابن زيدون، وكان المعتضد يؤجج بينهما نار العداوة والبغضاء إرضاء لنزواته الشريرة، وليتسلى بما ينشب بينهما من ملاحاة وعداء، وكانت الأحداث التي مرت بشاعرنا قد أكسبته خبرة ودراية بطبائع النفوس فلاذ بالصبر والأناة، ودافع خصمه بلين ورفق وأناة، واحتمله ما وسعه الاحتمال، أما ابن حصن فاندفع في طيش وخفة ونزق يستثير الشاعر ويسخر منه ويهجوه معتمداً على موهبة متحفزة تعينه على ارتجال الشعر والإبداع فيه، ومن قصائده في مدح المعتضد ولمز ابن زيدون قصيدة رائية رائعة أسهب فيها في مدح المعتضد، ثم عرج على هجاء ابن زيدون فقال مخاطباً المعتضد:

فدونك عذراءَ المعاني ابتدعتُها
تساعدني عفوًا ولم تتعذَّرِ

إذا ما الرواةُ اسْتَنْشَدَتْها تبرقعتْ
لها أوجهٌ من حشمة وتغيُّرِ

وينكلُ عنها شاعر المصر كلِّه
ألا فاضحكنْ من شاعر المصر وافخرِ

ثم لم يكتف بهذه السخرية بل أمعن في تحدي ابن زيدون هاتفاً بالأمير:

ودونك فاحكمْ بين نظمي ونظمه
بذهنٍ ذكيٍّ ثمَّ قدِّمْ وأَخِّرِ

(١) المعتضد واسمه عباد بن محمد بن إسماعيل بن عبَّاد.

(٢) أبو محمد عبدالله بن يوسف بن عبد البر.

وما أنت ممَّنْ يُحمَد السَّيْفُ عندهُ
لجودة صَقلٍ وهو غيرُ مُذَكَّرِ

وقد لجأ ابن زيدون إلى الحيلة والدهاء والمطاولة حتى استطاع أخيراً أن ينجح في إثارة المعتضد على ابن حصن، وأعانه على بلوغ هذا الهدف نزق ابن حصن واندفاعه وتهوره، وكانت النتيجة أن فتك به الأمير، وإلى هذا يشير ابن سعيد بقوله: «إن ابن زيدون لم يزل يسعى في حتف ابن حصن بمكره حتى فتك به المعتضد». ويقول ابن بسام: «ولم يزل أبوالوليد يطرق ويحلم، ويسدي في أمره ويُلحم، وابن حصن يغتر ويقدم، ففاز ابن زيدون بحِلْمِه وتوقره، وهوى نجم ابن حصن بين اغتراره وتهوره، فزلت قدمه، وطاح دمه...».

وهناك خصومة ثانية قامت بين ابن زيدون والكاتب المشهور ابن عبدالبر، وكان المعتضد قد اجتذبه إلى قرطبة بعد أن طارت شهرته في الآفاق، ويحدثنا ابن الأبار أنه: «تهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق، ففاز به قدح عباد[1] بعد طول خصام، والتفاف زحام، فأصاخ أبو محمد[2] لمقاله، وتورط في حباله، وغص أبوالوليد بن زيدون بمقدمه، فجهر كل جهر – زعموا – في إراقة دمه». ولا نعرف أحداث هذه الخصومة، ولكن ابن الأبار يذكر أن سبب غضب المعتضد على كاتبه ابن عبدالبر هو الرسالة التي كتبها الأخير على لسان المعتضد بعد فتكه بابنه وولي عهده إسماعيل، وأنه كتب هذه الرسالة دون روية أو تدبير، ولكننا نعلم أنه كتبها برأي المعتضد وإشارته، وقد رجعنا إلى هذه الرسالة التي نشرها المستشرق (دوزي) فلم نجد فيها مبرراً لهذا الغضب، ولكنها نزوات المعتضد التي قلّما سلم من شرها أحد من حاشيته أو وزرائه، ومما لا شك فيه أن ابن زيدون كان يتطلع إلى منصب هذا الكاتب الكبير ويسعى إليه، وأنه كانت هناك منافسة قوية بينهما حول النفوذ والسلطان، ومن مظاهر هذه الخصومة أن أبا عبدالله محمد بن شرف القيرواني بعث من القيروان إلى المعتضد بخمس قصائد من شعره مع رقعة إلى ابن زيدون سائلاً إياه أن يتوسط له عند الأمير وأن يرفع إليه قصائده، وقد لبى ابن زيدون نداءه ورفع القصائد إلى الأمير، فأمر كاتبه ابن عبدالبر أن يكتب على لسانه كتاب ترحيب إلى ابن شرف القيرواني فكتب إليه رسالة حشاها بالتعريض بابن زيدون، وانتهت المنافسة أخيراً إلى أن غضب الأمير على ابن عبدالبر، وكاد يفتك به، ولم ينج من يديه إلا بعد محاولات ووساطات، وبسبب

هذه الخصومات كان ابن زيدون يصف بلاط المعتضد بأنه جنةٌ حفت بالمكاره فيقول:

من لـي بـــشـــكـــر نـــعـــمـــةٍ
الحـــرُّ عـــنـــهـــا مـــعـــتـــبَـــدْ؟
سُـــوِّغْتُ مـــنـــهـــا الـــعـــزّةَ الـــقـــعـــ
ـــســـاءَ في الـــعـــيش الـــرَّغَـــدْ
حـــيث اسْـــتُـــضِـــيفَ مـــنـــهلٌ
صـــفـــا إلـى ظِـلٍّ بَـــــرَدْ
كـــأنَّـــهـــا لـي جـــنَّـــةٌ
حُـــفَّتْ بمـــكـــروه الحـــســـدْ

وقد بقيت لدينا بقايا قصيدة يعاتب فيها الشاعر أميره عتاباً مرّاً، وما بقي منها هو:

ولمـــا قـــضـــيـــنـــا من دُوَيْـــرٍ إجـــازةً
تحـــدَّرَ دمعُ المـــقـــلـــةِ الـــمُـــتَـــرَقْـــرِقُ

ومنها:

أعـــبّـــادُ حـــتـى من هـــبـــاتِكَ مـــخـــلصٌ
ودودٌ؟ ومن عـــافـــيك بـــيـــداءُ سَـــمْـــلَقُ؟
تـعـوّدتَ بـذلَ الـمُـنـفـسـات، فَـجُـدْتَ بي
وإني بـــصـــونٍ مـــنك أحْـــرَى وأخـــلَقُ

ومنها:

ومـــا كـــان ظـــنـي أن أرى مُـــتَـــقَـــحِّـــمًـــا
مُـــسَـــنَّـــاةَ مـــحـــمـــومٍ أَخُبُّ وأُعْـــنقُ

فالأبيات توحي بأن الأمير أبعد شاعره عن إشبيلية إلى مكان مجدب فتوسل إليه ألا يجود به على الصحراء، وأخذ يذكره بما يكنه له من مودة وصفاء، وأنه جدير منه بالصون والولاء.

ولكن هذه المتاعب كلها كانت سحابات عارضة ما تكاد تظهر حتى تزول، وإلى هذا

يشير ابن زيدون:

ضــرائبُ جَــهْـمَــةٌ في الــعــتب تُــتْــلى
بــــأخلاقٍ لـــدى الـــعُـــتْــــبَى مِلاحِ

وأخيراً توفي المعتضد سنة ٤٦١هـ بعد أن تهيأ لفتح قرطبة بتدبير ابن زيدون، وكان الأمير يدخره لهذا الفتح المجيد، ولعل هذا من أسباب نجاة الشاعر من فتكات الأمير.

الحاكم الجديد:

ولي المعتمد بن عباد الحكم بعد أبيه، وكانت بينه وبين شاعرنا أوثق صلات المودة والصداقة والوفاء. كان الأمير الجديد مفتوناً بالشاعر، تتلمذ على يديه وهو وليٌّ للعهد، وتدرب عليه في صياغة الشعر مدة عشرين عاماً دارت بينهما فيها أرق القصائد وأعذب المطارحات. أمر المعتضد أن يكون مجلس ابنه وولي عهده المعتمد مرتفعاً عن مجلس ابن زيدون، فكتب المعتمد لأستاذه معتذراً:

أيـــهـــا المـــنـــحطّ عـــني مـــجـــلـــسًـــا
وله في الـــقـــلب أعـــلى مـــجـــلسِ
بـــــفــــؤادي لك حُبٌّ يـــــقـــــتـــــضي
أن تُـــــرى تُـــــحْـــــمَلُ فـــــوق الأرؤسِ

فأجابه الشاعر بقصيدة استهلها بقوله:

أســـقـــيطُ الـــطَلِّ فـــوق الـــنـــرجسِ
أم نـــســـيمُ الـــروض تحت الحِـــنْـــدِسِ؟
أم قـــــريضٌ جـــــاءني من مـــــلكٍ
مـــالكٍ بـــالـــبِـــرِّ رِقَّ الأنـــفس

والديوان حافل بما دار بينها من مطارحات ومراسلات.

وشاية دنيئة:

---

(١) جاءت في متن الديوان (والسجيّة)، انظر ص ٣٩٠ «المراجع».

ظن خصوم الشاعر ومنافسوه أن الفرصة أصبحت سانحة لمهاجمة الشاعر عند الحاكم الجديد، فنسبوا إليه أنه حينما بلغه نعي المعتضد قال:

لـــقـــد سَـــرَّنـــا أنَّ الـــنَـــعِـيَّ مـــوكَّلٌ
بـــطـــاغـــيـــةٍ قـــد حُمَّ مـــنـه حِـــمَـــامُ
تجـانفَ صـوبُ الـغـيثِ عن ذلك الـصَّدى
ومـــرّ عـــلـــيه الـــبـــرق وهـــو جَـــهـــامُ

ثم دسوا إلى المعتضد قصيدة يغرونه فيها بالفتك بالشاعر، استهلوها بقولهم:

يـــأيـــهـــا المـــلكُ الـــعـــليُّ الأعـــظمُ
اقـــطـع وريـــدَيْ كلّ بـــاغٍ يـــنـــئمُ
واحـــسم بـــســـيـــفك داء كل مـــنـــافقٍ
يـــبـــدي الجـــمـــيلَ وضـــدَّ ذلك يـــكـــتمُ

ثم ذكروه بهجاء الشاعر لأبيه، وأن هذا الهجاء أصبح على كل لسان:

لا تحـــقـــرنّ من الـــكلام قـــلـــيـــلَهُ
إنَّ الـــكلامَ له ســـيـــوفٌ تَـــكْـــلِمُ
والـــمَـــلْكُ يـــحـــمي مُـــلـــكهُ عن لـــفـــظـــةٍ
تـــســـري فـــتُـــجْـــلَى عن دواهٍ تَـــعْـــظُمُ
فـضلاً عن الـكـلم الـذي قـد أصـبـحتْ
غـــوغـــاؤنـــا جـــهـــرًا به تـــتـــكـــلمُ

ثم ذكروه بفتكات أبيه في سبيل صونه عرشه، وأن الحزم يقتضيه أن يقتفي آثاره، ثم ختموا قصيدتهم ببيت المتنبي:

لا يـــســـلـم الـــشَّـــرَفُ الـــرفـــيعُ من الأذى
حـــتـى يـــراقَ عـــلـى جـــوانـــبـه الـــدَّمُ

ولكن الأمير كان أدرى بشاعره، وأوفى لأستاذه، وأعرف بالذمام، فوقع على الرقعة بأبيات استهلها بقوله:

كـذبت مُـنـاكمْ، صَـرِّحـوا أو جَـمْـجِـمـوا

الــــديـن أمـــــتنُ، والمـــــروءةُ[1] أكـــــــرمُ

خُـــنْـــتُمْ، ورُمْــــتُمْ أن أخــــونَ، وإنمــــا

حــاولــتـمــو أن يــسـتـخـفَّ يَـلَـمْـلَمُ

وختمها منذراً محذراً:

كُــفُّـــوا وإلا فــارقــبــوا لِيَ بــطـشــةً

يُــلـقى الـسَّـفـيهُ بمـثـلـهـا فـيُـحَـلَّمُ

فاهتز الشاعر لهذه الأريحية وصاغ قصيدة مسهبة في شكر الأمير على ما غمره به من آلاء، يقول منها:

لي مـنكَ - فـلـيَـذُبِ الحـسـودُ تـلـظِّـيًا -

لـــطفُ المــكـــانـــةِ والمحلُّ الأكـــرمُ

لـم تُــلْفَ صــاغِـيَـتي لــديك مُـضــاعــةً

كلاّ، ولا خـــفيَ اصـــطـــنــاعي الأقـــدمُ

بل أوســعتَ حــفـظًــا وصــدقَ رعــايــةٍ

ذممٌ مـــوثَّـــقَـــةُ الــعُـــرا لا تُـــفـــصَمُ

فتح قرطبة:

استطاع المعتمد بمعونة وزيره وشاعره وأستاذه ابن زيدون أن يفتح قرطبة حاضرة الخلافة الأموية، ودرة الأندلس الفريدة، وكانت قد عزت على أبيه وجده من قبل وعلى ملوك الطوائف الآخرين، وعاد الشاعر إلى بلده قرير العين مثلوج الفؤاد، وما كاد يستقر بها بين أهله وعشيرته حتى ثارت فتنةٌ بإشبيلية، فأرسل المعتمد ولده الحاجب سراج الدولة في جيش كثيف لإخماد الفتنة، ولكن ابن مرتين قائد جيش المعتمد بقرطبة وابن عمّار وزيره الأثير عنده، أشارا عليه بإرسال ابن زيدون مع الجيش إلى إشبيلية لما يتمتع به من كياسة ولباقة وحسن تدبير، هذا إلى ما يظفر به عند أهل إشبيلية من حب وتقدير، وكانا يهدفان من وراء هذه المشورة إلى إقصاء ابن زيدون عن المعتمد ليخلو لهما الجو فيكيدا له حقدًا عليه وضيقاً بما كان يتمتع به من نفوذ عند الأمير وحب شعبي عظيم، فأمره الأمير

---

(١) هكذا وردت في الأصل، ونعتقد أن صحتها (المعتمد) لأن المعتضد بن عباد توفي عام ٤٦١هـ.

باللحاق بالجيش فاعتذر بمرضه وشيخوخته، فلم يقبل الأمير منه الاعتذار ثم أرسل ابنه من خلفه بتدبير القائد والوزير.

خاتمة المطاف:

لبى ابن زيدون نداء الأمير «على بقية وعك كان متألماً منه، ولم يعذره في التوقف من أجله فمضى لطيته، مسوقاً إلى منيته» فأخذ الناس يهمسون بضعف مكانة الشاعر عند الأمير، ويظهر أن المرض والكهولة ومشاق السفر وفداحة المهمة والهواجس النفسية فعلت فعلها في نفس الشاعر، فما كاد يتم مهمته حتى ألحت عليه العلة، ثم فاضت روحه في صدر رجب سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠م)، ولما وصل نعيه إلى قرطبة جاشت نفوس أهلها بالحزن وفاضت بالآلام «وتناعوه وسيئوا لفقده وحزنوا عليه، إذ كان منهم، متعصباً لهم، هاوياً إليهم، حدِباً عليهم، وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية» ولهذا لم يكن عجباً أن ينتقض أهل قرطبة على حكم المعتمد بعد هذا بقليل.

ويظهر أن المعتمد شعر بفداحة ما فعل، ورأى النذر ماثلة أمام عينيه، وأشفق من شعور الشعب، وأحس أنه فقد ركناً ركيناً من أسس دولته، فبادر بتعيين ابن الشاعر مكان أبيه، وعهد إليه بالوزارة، وخصه بولاية إشبيلية حاضرة الملك العتيد مجموعة إلى الإشراف على دار سك النقود، فنهض بما وكل إليه واضطلع بما عهد إليه، وواتته الفرصة فانتقم لأبيه، وظل في خدمة المعتضد[1] حتى قتل سنة ٤٨٤هـ.

وخير ما نختم به حديثنا عن حياة ابن زيدون ما ذكره ابن حيان في رثائه: «فقد تولى من أبي الوليد كهلٌ لن يُخلف الدهر مثله جمالاً وبياناً وبراعة ولساناً وظرفاً وحلولاً من مراتب البلاغة نظماً ونثراً بمرتبة لم يُخلف لها بعده عاطياً بقرانه بين الكلامَيْن وبراعته في الفنين».

****

أضواء وظلال

صحبنا ابن زيدون من مهده إلى لحده، وتتبعنا أحداث حياته وما مر عليها من نسائم عليلة، أو عصف بها من أعاصير عاتية، والآن حان لنا أن نلقي على شخصيته بعض الأضواء.

بين الخصوم والأنصار:

إن صلات الإنسان بمن حوله واحتكاكه بالمحيطين به تكشف عن جوهر نفسه وتظهر طبيعته للباحثين، وإن العظماء دائماً يشغلون الناس بأنفسهم، ويثيرون حولهم دائماً أجواء من القدح أو المدح والبغض أو الإعجاب، وما من شك في أن رجلاً كابن زيدون ملأ قلوب معاصريه وأسماعهم وزاحم منهم من زاحم، حتى فاز بأسمى المناصب السياسية، وأرفع المراتب الأدبية، إن رجلاً عظيماً كهذا لا بد أن يشغل قلوب معاصريه سواء كانوا من مؤيديه أو من معارضيه، وقد ذهبوا فيه شتى المذاهب، فيقول فيه الحميدي والضبي إنه: «كثير الشعر قبيح الهجاء» ويقول ابن سعيد: «إنه كان سامحه الله ممن لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره» ويصفه ابن حيان بسلاطة اللسان، ولكنه يعود فيصفه بحبه لأهل وطنه وحرصه على نفعهم: «إذ كان منهم، متعصباً لهم، هاوياً إليهم، حدباً عليهم، وليجة خير بينهم وبين سلطانهم» ويقول ابن نباتة: إن الشاعر «كان حسن التدبير، تام الفضل، متحبباً إلى الناس».

والحقيقة أن الشاعر لم يكن ملاكاً رحيماً ولا شيطاناً رجيماً، وإنما كان إنساناً سوياً، ورجل بلاط محنكاً، يضع الإحسان في موضعه، ويقابل الجحود بالجحود، فقد تنكر لابن عبدوس بعد أن نافسه في حبيبته وهذا أمر مألوف، وكاد لابن حصن وحمل المعتضد على الفتك به، وكان ابن حصن هو المعتدي على الشاعر والمحرض عليه، ولو وجد فرصة لإهلاكه لفعل، ونستطيع أن نقول مثل هذا في ابن عبدالبر الكاتب الشهير.

على أننا نجد الشاعر قد أحسن إلى كثيرين، فقد كشف عن موهبة أدبية أصيلة في أبي بكر محمد بن سليمان بن القصيرة، وكان على فضله منطوياً على نفسه متهيِّبًا الدخول في خدمة المعتضد، فقدمه ابن زيدون إليه، وأثنى عليه، ودفعه إلى أسمى المناصب، ثم زكاه المعتضد عند ابنه المعتمد حتى «عظمت حاله، واتسع محاله». ولولا ابن زيدون لطواه الخمول. وقد توسط لابن شرف القيرواني عند المعتضد وزكاه، وتشفع لأحد أصدقائه عند المظفر بن الأفطس حاكم بطليوس، وصاغ في هذه الشفاعة رسالة مسهبة وقصيدة ممتعة تبدو فيهما حرارة المودة والإخلاص، وإخلاص الشاعر لوطنه، ووفاؤه لأصدقائه تفيض به صفحات الديوان، وقد لهج كثير من معاصريه بالحديث عن وفائه ومودته، ومن أمثلته قول المعتمد في وصف شعر ابن زيدون وإخلاصه:

نظم درٍّ يستبي القلبَ متى يُنظمْ ويُنْثَرْ

دلّني أنك في الخلصان معقودٌ بخِنْصَرْ

وكتب إليه ابن عمار مستشفعاً به لدى المعتضد من قصيدة طويلة:

يا غرَّةَ الزمن البهيـ

ـم وعزَّةَ الأدبِ الذليلِ

اشفع عنايتك الجليـ

ـلةَ لي لدى الملك الجليلِ

ولئن أجبتَ لراغبٍ

وأقَلْتَ عَثْرةَ مستقيلِ

فلكم أتيت بمثلها

وهِيَ الصنيعة في مثيلي

وخلاصة القول إن شاعرنا كان يضع الإحسان في مواضعه، والإساءة في مواضعها، وقد عبر عن هذا في قصيدته لابن عبدوس.

فإنِّي ألِينُ لمن لانَ لي

وأتركُ من رامَ قسرى حَرَضْ

الظرف ورقة الحديث وسرعة البديهة:

وهي صفات متجانسة متقاربة اتصف بها الشاعر، وقد هيأتها له ذاكرة قوية، وحافظة مستوعبة، وفطرة مواتية كل المواتاة، وصفه ابن حيان بأنه: «فتى الآداب وعمدة الظرف..... وأنه غلب على قلوب الملوك بفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة، وبأنه لن يُخلف الدهر مثله جمالاً وبياناً وبراعة ولساناً وظرفاً». وفيه يقول ابن بسام: «فأما سعة ذرعه، وتدفق طبعه، وغزارة بيانه، ورقة حاشية لسانه: فالصبح الذي لا ينكر ولا يرد، والرمل الذي لا يحصر ولا يعد».

ويتحدث عنه أبو المطرف بن فتوح بأنه: «الحلو الظريف البارع اللطيف» ولهذه الصفات الحلوة نجح في سفاراته لدى الملوك، ففتحوا له صدورهم ومزجوه بأنفسهم كالمعتضد بن عباد وابنه المعتمد حاكمي إشبيلية وإدريس الثاني حاكم مالقة، وبني عبدالعزيز أصحاب بلنسية، وفي اتصاله بهم يقول ابن خاقان: «فحلَّ منهم محل الحميّا في الكؤوس، ووقع منهم مواقع البشائر في النفوس، وأقام بين مبرة تواصله، ومسرة تغازله».

أما سرعة بديهته فتتجلى في ما رواه ابن بسام والمقّري من أنه وقف يتلقى العزاء في ابنته، فقيل إنه ما أعاد في ذلك الموقف عبارة قالها لأحد: قال الصفدي: «وهذا من التوسع في العبارة والقدرة في التفنن على أساليب الكلام، وأقل ما في تلك الجنازة وهو وزير ألف رئيس ممن يتعين أن يشكر له، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر، وهذا كثير إلى الغاية، لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده:

ولكنه صَوْبُ العقول، إذا انبرتْ
سحائبُ منه أعقبتْ بسحائب».

---

(١) نرجح أنه أبو مسلم عمرو بن خلدون الحضرمي من أشراف أهل إشبيلية وعلمائها توفي سنة ٤٤٩هـ ولعله من أجداد ابن خلدون المؤرخ المشهور.

وقد وازن أحمد زكي باشا موقف ابن زيدون بموقف (مسيو بوانكاريه) الذي استقبل عشرين وفداً من طوائف الانكليز ورد على كل منهم بعبارة شكر تخالف ما أجاب به الأخرى، مما جعله موضعاً لإعجاب الناقدين بمقدرته البلاغية، وشتان بين الموقفين، والحالة النفسية في كل منهما.

وكثيراً ما تسعفه بديهته على الارتجال الشعري، يروى أن جارية سألته أن يزيد على بيت قالته:

يـا مُـعـطـشي من وصـال كـنتُ وارده
هل مـنك لي عَـلَّـةٌ إن صـحتُ: واعَـطَـشِي

وكانت تتعشق فتًى قرشياً والشاعر يعلم هذا فارتجل سبعة أبيات استهلها بقوله:

كـسـوتـني من ثـيـاب الـسـقم أسـبـغَـهـا
ظـلـمًـا، وصـيّـرتَ من لحف الـضَّـنَى فُـرُشي

ومنها:

صـبّـاً - إذا الـتـذت الأجـفـان طـعم كـرًى -
جـفـا المـنـام، وصـاح الـليلَ: يـا قُـرَشِي!!

ولا تخفى وعورة القافية في الأبيات، وكثيراً ما كان يرتجل أبياتاً في الرد على المراسلات الشعرية في نفس قافيتها ووزنها، كما كان يرتجل في شتى المناسبات.

روى ابن ظافر أنه خرج للنزهة في إحدى ضواحي إشبيلية، ومعه الوزيران أبوبكر ابن عمار وابن خلدون(١) وبعثوا صاحباً لهم اسمه خليفة ليأتيهم بنبيذ، فلما رأوه مقبلاً بادروا إلى لقائه، واتفق أن فارساً ركض فرسه فصدمه فهشم أعظمه، وأجرى دمه، وكسر قمصال النبيذ، ومضى هارباً، فأسفوا لما حدث وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه فقال ابن زيدون:

أنَـلْـهُـو والحـتـوفُ بـنـا مُـطـيـفَهْ؟
ونـأمنُ والمـنـونُ لـنـا مـخـيـفهْ؟

فقال ابن خلدون:

وفـي يـوم ومـا أدراك يـوم
مـضى قـمـصـالـنـا ومـضى خـلـيـفهْ

فقال ابن عمار:

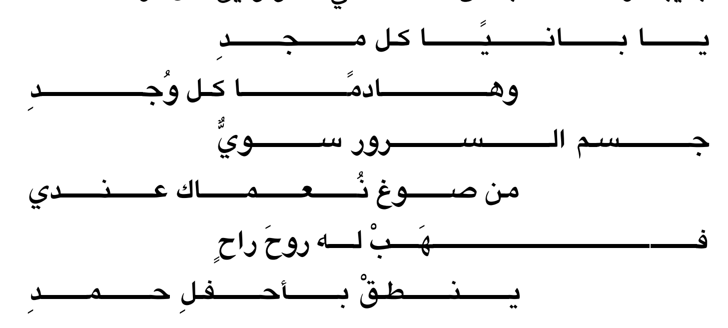
همـا فَخَّـارتـا راحٍ وروحٍ
تكسَّـرتـا فـأشـقـافٌ وجـيـفهْ

وقد وصف شاعرنا نفسه بالظرف، والافتنان فيه، وسرعة البديهة فقال:

لا افتنـانٌ كافتناني في حُلَى الظرفِ الحِسانِ
خصَّني بالأدب اللهُ فأعلى فيه شاني
خاطري أنفذُ - مهما قِيسَ - من حَدِّ السِّنانِ

الولع باللذات:

ولي الشاعر مناصب هامة تستدعي الوقار، وكان ينحدر من سلالة فقهاء مهيبين ونشأ في أحضان أناس متزمتين، ولكن نشأته المترفة وطبيعة عصره المتحررة وفطرته المرحة ونفسه الحساسة مالت به جميعاً إلى مباشرة اللهو ومقارفة اللذات، فكان يعاقر الراح ويستجيب للهو ويعشق الموسيقى والغناء، وقد ذكرنا مجالسه اللاهية مع صديقيه أبي الوليد بن جهور وأبي بكر ابن ذكوان، وكانت له مع ولادة ليالي حاليات يساقيها الراح ويستمع إلى غناء جاريتها عتبة، وأعانه على إشباع ميوله أن معظم من اتصل بهم من الملوك أو عاش في ظلالهم كانوا يستجيبون لهذه النزعات مثل أبي الوليد بن جهور في مستهل حكمه، وإدريس بن حمود، والمعتضد بن عباد، وابنه المعتمد، وكثيراً ما كان يهدي الراح ويستهديها، وطالما تلمسها من المعتضد في شعر رقيق مثل قوله:


يا بانيًا كل مجدِ
وهادمًا كل وُجدِ
جسم السرور سويٌّ
من صوغ نُعماك عندي
فهَبْ له روحَ راحٍ
ينطقْ بأحفلِ حمدِ

وطالما حثه على معاقرة الشراب:

فـــهبَّ إلى الـــلـــذات مـــؤثـــرَ راحـــةٍ
تُـجِمُّ بـهـا الـنـفسَ الـنـفـيـسـةَ لـلـكـدِّ
وَوَالِ بـــهـــا في لـــؤلـــؤ من حَـــبـــابـــهـــا
كـجـيـد الـفـتـاة الـرُّود في لـؤلـؤ الـعـقـدِ
وإن تَـــدْعُـــنـــا لـلأنس عن أريـــحـــيَّـــةٍ
فـقـد يـأنسُ المـولى إذا ارتـاح لـلـعـبـدِ

ولهذا وصف ابن خاقان شعره بأنه «لم يصرفه إلا بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلا في سماء مؤانسات وأفراح». أما إشادته بابن جهور حين كسر دنان الخمر فإنه لا يعبر بهذا عن رأيه الخاص، وإنما يؤدي واجباً يقتضيه منصبه الرسمي ويحتمه المقام.

على أن ابن زيدون لم يكن مجاهراً مستهتراً مثل بشار وأبي نواس وغيرهما من الشعراء الماجنـين، ولكنه يستجيب لميوله إذا واتته الفرصة وأسعفته المناسبات، ولم يكن منفرداً لهذا بين معاصريه، فقد كان العصر عصر تحرر وترف وانطلاق، كما ذكرنا فيما سبق.

وقد خلق شاعرنا ليكون رجل بلاط من الطراز الأول يجمع بين الكياسة والدهاء واللباقة والظرف ولطف النادرة وسرعة البديهة ومجاراة الحكام في أهوائهم، مع الأخذ من متع الحياة بنصيب.

عزة النفس والشجاعة والإباء:

نعت ابن حيان الشاعر بأنه «ذهب به العجب كل مذهب، وهو عنده كل مطلب» ولكننا نستطيع أن نعدل هذه الصفة فنقول إنها الإباء لا الكبرياء، وشتان بين الوصفين، وإن تقاربا في المظهرين، فالإباء فضيلة مشكورة، قد تحمل صاحبها على التضحية وإنكار الذات، والسمو عن الهوان، وإن كان وراءه ربح أو إحسان.

أما الكبرياء فمرض نفسي يستره صاحبه بهذا المظهر الزائف الخداع، وشاعرنا

(١) وردت في متن الديوان (صابتنيَ) بدلاً من (ضافتنيَ)، انظر: ص ٦٠٤ «المراجع».

كان معجباً بنفسه، معتزاً بمواهبه، ولاضير عليه في هذا، فإنه نشأ عن طفولته المترفة ونبوغه المبكر، ومكانته التي أحرزها في مستهل الشباب، حيث أسهم في إسقاط دولة وإقامة دولة، وشرّق ذكره وغرّب، وخفّ على قلوب الملوك والأمراء فتهافتوا على طلبه، فلا عجب إذا شعر بالعزة والإباء لا بالصلف والكبرياء، ولقد ضحى الشاعر بالمكث في وطنه على شدة تعلقه به، وبالقرب من حبيبته على حدة شغفه بها ضنًّا بنفسه عن مواقف الهوان، وفي هذا يقول: «ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين: العير والوتد، ونظرت في مفارقة الوطن والبين عن الأحبة فتبين لي أن إيحاش نفسي بإيناس أهلي، وقطعها في صلة وطني غبنٌ في الرأي، وخورٌ في العزم، ووجدت الحر ينام على الثكل، ولا ينام على الذل.... إن الذي اخترته لنفسي غاية ما يسيء العدو به ويساء المولى منه، فالجلاء أخو القتل والغربة أحد السباءين.... وقد هجرت الأرض التي هي ظئري، والدار التي كانت مهادي، وغبت عن أمّ أنا واحدها تمتد أنفاسها شوقاً إلي، وتفيض أجفانها حزناً علي....». ومن هذا نلمس حرقة الشاعر على وطنه، وتلهفه على أهله، وتلدُّده على حبيبته، ولكنه استجاب لما فطر عليه من عزة وإباء.

أما شجاعته فتتجلى في أنه قضى حياةً كلها كفاح ونضال في سبيل بلوغ القمة، فإذا صدمته الأحداث أو قهرته النوائب هب إلى النضال ثانياً، وأبى إلا أن يسترد مكانته ويسترجع منزلته، وكم ناضل خصوماً ألداء، وكافح منافسين أقوياء من قضاة ووزراء وأمراء، فلم يفلَّ عزمه يأس، ولم يثلم حده قنوط، حتى تم له الانتصار.

وقد صور لنا الشاعر موقفه من الأحداث القاسية المتلاحقة، وكيف قابلها بالكفاح والنضال:

فإن يُجدبْ من الدنيا
جنابٌ طالما أمرَعْ
فما إن غاضَ لي صبرٌ
وما إن فاضَ لي مدمعْ
وكائنْ رامَتِ الأيَّا
مُ، ترويعي فلم أرتَعْ
إذا ضافتني[1] الجُلّى

تجـــــــــــلّـتْ عـن فَـــــــــــــتًـى أروعْ
عـــــــلـى مـــــا فـــــــاتَ لا يـــــــأسى
وممّـــــــــا نـــــــــابَ لا يـــــــــجــــــــزعْ

صفات جسمية:

للتكوين الجثماني أثر بالغ في الاتجاهات النفسية والملكات الفنية، وقلّما كان مؤرخو العرب يهتمون بهذه الصفات، وكل ما ذكره الرواة عن شاعرنا أنه كان وسيم الوجه، وقد ردد ابن حيان وصفه بهذه الصفة عدة مرات منها قوله في رثائه: «فتولى منه كهلٌ لن يخلف الدهر مثله جمالاً وبياناً وبراعة ولساناً وظرفاً...». فوصفه بالجمال حين كهولته فما بالك به في شبابه، ولعل الشاعر يشير إلى هذا في رسالته لابن عبدوس على لسان ولادة، «ولعل إنما غرك من علمت صبوتي إليه، وشهدت مساعفتي له، من أقمار العصر وفتيان المصر، الذين هم الكواكب علو همم، والرياض طيب شيم» ويظهر أنه كان قوي الجسم متين البنيان، ولعله يشير إلى هذا بقوله في الرسالة السابقة على لسان ولادة : «وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة، والشهوة الوافرة.. وبين آخر قد نضب غديره ونزحت بيره...».

ولعل لمتانة تركيبه، وقوة بنيانه أثراً في طول حياته على الرغم مما تعرض له من نكبات وأحداث وما أسرف فيه من شهوات، وكان قوي الأعصاب بدليل موقفه في جنازة ابنته، فقد تحمل الصدمة وانصرف إلى مجاملة الرؤساء المعزين ببديهة حاضرة وفي هذا من قوة الاحتمال ما فيه، ويروي الصفدي أنه كان يخضب بالسواد، وهذا دليل حرصه على أناقته وجمال مظهره.

وكان حسن الصوت رقيق النغمة جيد الإنشاد، وفي هذا يقول ابن حصن في وصف أشعاره معرضاً بشعر ابن زيدون:

ولـستُ بـكـاسـيـهـا مـدى الـدهـر حـلـيـةً
بـــــنـــــغـــــمـــــةِ إنـــــشـــــادٍ ولا بمُـــــكـــــرَّرِ

ولعل هذه الصفات الجسمية إلى جانب مواهبه العقلية هي التي أعانته على أن يجلي في ميادين المنادمة والمسامرة، كما أبرزته في مجال السفارات، ولا تزال البعثات الدبلوماسية

في العصر الحديث تراعي جمال المظهر وحسن التكوين إلى جانب الكياسة واللباقة والذكاء.

فلسفته في الحياة:

لا بد لكل شاعر فحل من نظرة شاملة دقيقة في الحياة تكشف عن مذهب فلسفي يصدر عنه الشاعر في ما ينتج من آثار، ونحن لا نطلب من ابن زيدون فكراً فلسفياً كالمعري أو أبي نواس ولا مذهباً خلقياً كأبي العتاهية أو المتنبي أو ابن الرومي، لأن البيئة الأندلسية تضيق بالمذاهب الفلسفية وما إليها من أفكار، ولكننا نرى لشاعرنا نظرة فلسفية لوّن بها حياته وصدر عنها في تصرفاته هي إيمانه بالجبر، وقد لعبت مسألة الجبر والاختيار دوراً هاماً في الفلسفة الإسلامية والمذاهب الكلامية، والشاعر قد درس هذه الأبحاث جميعها، وتأثر بها، ووجد لها في حياته أبلغ الآثار، فكم مرت بالشاعر من أحداث قاسية ومحن متلاحقة غيرت مجرى حياته ونقلته من حال إلى حال، فالإنسان محدود القدرة أمام سلطة الأقدار، وهو خاضع لظروف بيئته وتكوينه ووراثته وإن ظن في نفسه الاختيار، وكثيراً ما يحشد الإنسان قواه ويدبر أموره لبلوغ هدف من الأهداف فيخطئه التوفيق على حين يظفر به من لم يخطر له على بال:

ولـقـد يـنـجـيـك إغـفـالٌ ... ويُـرديـك احـتـراسُ

ولـكـم أَجْـدَى قُـعـودٌ ... ولـكـم أكـدى الـتـمـاسُ

وكـذا الـدهـرُ إذا مـا ... عـزَّ نـاسٌ ذلّ نـاسُ

وليست هذه نظرة عابرة، ولكنها حقيقة تتردد في شعره كثيراً، وتبرز حتى في رسائله «وما حُمّ واقع، ولا حذر من قدر، وسبق السيف العذل، وتقدم من فعلي ما جفَّ به القلم» حتى الحب يخضع في نظره لتصرف الأقدار:

مـا كـان حـبُّك إلا فـتـنـة قُـدِرَتْ ... هل يـسـتـطـيـعُ الـفـتـى أن يـدفعَ الـقـدرا؟

والإيمان بالجبر إذا صادف النفوس المنطوية المنكمشة ازدادت انقباضاً ولاذت باليأس والقنوط، ولكنه إذا صادف نفوساً منبسطة فإنها تزداد انبساطاً وتتخذ من تصرفات الأقدار عوناً ونصيراً، وشاعرنا من النوع الأخير، ولعل لنشأته في بيئة دينية أثراً في هذا الاتجاه، فالقوة المهيمنة على الكون لا تفعل إلا خيراً ولا توصي إلا بخير، وأن ما نظنه نحن شراً ليس إلا ستاراً يخفي وراءه أحسن العواقب ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. وكثيراً ما ينشد الإنسان نفعاً فيناله الضر، أو يتقي ضرّاً وفيه كل الخير:

وأنَّ السَّعْيَ قد يُكدي
وأن الظنَّ قد يخدعْ
وكم ضَرّ امرءًا أمرٌ
توهَّمَ أنَّهُ ينفعْ

وما دام الشأن كذلك فلا مبرر لليأس ولا داعي للقنوط :

لا يأسَ، رُبَّ دُنُوٍّ دارٍ جامعٍ
للشَّمل قد أدى إليه بِعادُ

ولهذا فهو يقابل الأحداث بصبر وجلد حتى يتغلب عليها:

ثم لا يأس، فكم قد
نِيلَ أمرٌ لم يُؤَمَّلْ

وهو واثق بأن الأقدار ستعينه على بلوغ مناه:

وأصْبِرُ مُسْتَيْقِنًا أنه
سَيَحْظَى بنيلِ المُنى من صَبَرْ

وهو في هذا الاتجاه يعبر عن النزعة الدينية التي رضع لبانها صغيراً:

ولله فينا علمُ غيبٍ، وحسبنا
به - عند جَوْرِ الدهرِ - من حَكَمٍ عَدْلِ

(١) وردت في متن الديوان (وأشدُّ فاجئة)، ص ٣٩١ «المراجع».

وإيمانه بالنتيجة المرجوة من وراء تصرفات القدر لم يدفعه إلى الكسل، وإنما دفعه إلى العمل، وحضه على الكفاح، واثقاً من أنه إذا نجح فقد نال ما يشتهي، وإذا أخفق ففي إخفاقه خير مستور أو شر مدفوع، ولهذا اندفع إلى النضال والكفاح واثقاً من أن قوة خفية ترعاه وتسدد خطاه:

من كان يجهلُ ما البَليدُ فإنه
من تطَّبيهِ عن الحظوظ بلادُ
وفتى الشَّهامةِ مَنْ إذا أملٌ سما
نفذتْ به شورى أو استبدادُ

ومن فلسفته العملية أنه – على الرغم من نشأته في بيئة دينية – كان يستجيب لشهواته ويندفع إلى لذاته، ولعله كان واثقاً في الرحمة آملاً في الغفران، وهذا نتيجة لنظرته المتفائلة في الحياة.

نظرته إلى المجتمع:

على الرغم من تفاؤل الشاعر ونظرته الباسمة المتفتحة للحياة، فإنه كان ينظر إلى الناس نظرة تشاؤم وضيق، فقد كان يسيء بهم الظنون ويندد بما فطروا عليه من غدر وجحود، ولا عجب في هذا فقد لقي على أيدي كثيرين منهم أبلغ الإساءات بعد أن قدم إليهم أطيب المودات، كان صديقاً حميماً لابن القلاس وابن عبدوس وابن عمار فلقيَ منهم أعنف الإيذاء، ووفى لأبي الحزم بن جهور ودعم أساس حكمه، فلما استقر له الأمر بادره بالنكال.

وقد عبر الشاعر عن طبائع هذه النفوس الشرسة بقوله:

أذؤبٌ هامتْ بلحمي
فانتهاشٌ وانتهاسُ
كُلّهم يسألُ عن حا
لي، وللذئب اعْتِساسُ

ثم هو يرى الرجل الكريم هدفاً لأسهم الباغين الحاقدين:

وأشدُّ فاجعةِ[1] الدواهي محسنٌ
يسعى لِيُعْلِقَهُ الجريمةَ مجرمُ
تَلْقَى الحسودَ أصمَّ عن جرس الوفا

ولـــقـــد يُـــصـــيخُ - إلـى الـــرُّقـــاة - الأرقمُ

أما نظرته إلى المرأة خاصة فقد كنا نتوقع أن ترتفع منزلتها عنده استجابة لهواه العنيف وحبه القهار، ولكن فشله في حبه جعله يقسو على المرأة ويراها متعة عابرة يلهو بها الإنسان حيناً ويقسو عليها في كثير من الأحايين، فهو يرى أن خير زوج للفتاة هو القبر:

حـــــــبَّـــــــذا هَـــــــدْيُ عـــــــروسٍ

دفـــــنُـــــهـــــا كـــــان الـــــهِـــــداءَ

ويشبه المرأة بالحذاء يخلعه الرجل ويستبدل به آخر، ولا يتورع عن ترديد هذا المعنى في تهنئته للمعتضد بزواجه من بنت مجاهد العامري بعد أن ماتت زوجته الأولى:

هـي والـــفـــقـــيـــدةُ كـــالأديم اخْـــتَـــرْتَهُ

فَـــقَـــدَدْتَ إذ خَـــلُقَ الـــشِّـــراكُ شِـــراكـــا

وكان لا يتورع عن شتم ولادة وإيذائها، حتى لقد استعمل يده في تأديبها وإن كان قد عاد إليها نادماً مستغفراً:

إن تـــكن نـــالـــتكِ بـــالـــضَّـــرب يـــدي

وأصـــــابـــــتك بمـــــا لـم أُردِ

فـــلـــقـــد كـــنتُ لـــعـــمـــري فـــاديًـــا

لك بـــالمـــال وبـــعض الـــولـــدِ

ولـــئن ســـاءكِ يـــومٌ فـــاعـــلـــمي

أن ســـيـــتـــلـــوه ســـرورٌ بِـــغَـــدِ

هذه نظرةٌ عابرة ألقينا بها ضوءاً على شخصية الشاعر، وستعيننا هذه النظرة العابرة على دراسة آثاره وإدراك ما فيها من آراء مشعة بالجمال، ونختم حديثنا عن حياته بعبارة جامعة لصفاته أوردها في الحديث عنه معاصره ابن حيان حيث سماه «فتى الآداب وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف والرصف، أبا الوليد أحمد بن زيدون ذا الأبوة النبيهة بقرطبة، والوسامة والدراية، وحلاوة المنظوم، والسلاطة، وقوة العارضة، والافتنان في المعرفة».

والآن حان لنا أن نلقي نظرة نقدية فاحصة على ما خلفه الشاعر من آثار.

****

آثاره الأدبية

فنونه الشعرية

في عصر ملوك الطوائف ظهر في الصياغة الشعرية تياران قويان أحدهما منهجي Classic يتمسك بالأساليب المعروفة والتقاليد الأدبية المطروقة التي توارثها الشعراء جيلاً بعد جيل منذ العصر الجاهلي، والتجديد فيه مقصور على المعاني الفكرية والخطرات النفسية وتصوير المظاهر الحضارية التي لم يكن للعرب بها عهد من قبل، والتيار الثاني إبداعي Romantic يحاول التحرر من الأوضاع والتقاليد المأثورة، وقد نجح في التحرر من قيود الأوزان القديمة والقافية الملتزمة في فن الموشحات، كما حاول الانفلات من قيود الفصحى والإعراب في فن الأزجال، وشاعرنا ينتمي إلى المذهب الأول، فقد التزم الأوزان العربية المألوفة، كما التزم القافية إلا في قصيدتيه المخمستين فقد تحرر فيهما بعض التحرر.

ولقد مرت حياته الفنية في ثلاثة أطوار: أولها كان تقليدياً محضاً امتد إلى الثلاثين من عمره، ولم يبق من شعره في هذه الفترة إلا آثار قليلة، والطور الثاني وهو أخصب فترة في حياته الفنية امتد من الثلاثين إلى الخمسين، وفيه دبج الشاعر أعظم آثاره. وظهرت شخصيته الفنية قوية طاغية، ولا عجب: ففي هذه الفترة ذاق حلاوة الحب ثم تجرع مرارة الهجر، وفيها ارتفع إلى أسمى المناصب ثم انحدر إلى قرارة السجن، وفيها نعم بالأمن والسعادة في ربوع وطنه العزيز ثم شقي بلوعة التشرد والاغتراب، وظهرت هذه الألوان جميعها في فنه فملأت القلوب وبهرت العقول، وفي هذه الفترة صاغ جميع رسائله الباقية بين أيدينا كما صاغ أبدع القصائد والمقطعات. أما الطور الثالث فقد امتد من الخمسين

حتى نهاية حياته، وكان فيها شيخاً يراعي في إنتاجه الأدبي المقتضيات السياسية والواجبات الرسمية، وقد اختفت شخصيته خلف أعباء منصبه، وتوارت عاطفته وراء حسن صياغته التي بالغ فيها ليعوض ما ينقص فنه من حرارة الوجدان.

وفي هذا الطور الأخير نلاحظ عليه ظاهرة غريبة هي ظاهرة التكرار فقد نقل من قصيدته في مدح ابن جهور ورثاء أمه عشرين بيتاً إلى قصيدته في مدح المعتمد ورثاء أبيه دون تغيير إلا في بعض الأبيات التي اقتضتها التفرقة بين ضميري المذكر والمؤنث، وتراه في قصائد أخرى يكرر بعض الأبيات مع تغيير قافيتها فقط، وقد أشار إلى هذا ابن بسام بقوله إنه تلاعب في قصيدتي التهنئة والرثاء «تلاعب الحطيئة بنسبه، وتصرُّف تصرُّف أبي حنيفة في مذهبه، فأنث وذكر، وقدم وأخر»، قال أبو العلاء:

رُبَّ لحـــدٍ قـــد صـــار لحـــدًا مـــرارًا

ضـــاحكٍ من تـــزاحم الأضـــدادِ

ولعل عبث الذاكرة أو إيثار الراحة أو العجلة هي التي حدت الشاعر إلى هذا التصرف الغريب، وربما كان يحاول أن يسلب بني جهور خير ما صاغه فيهم بعد أن فترت بينه وبينهم الصلات، ثم يخلعه على بني عباد بعد أن طاب عيشه في ظلالهم، وزكت أحواله في كنفهم، وسعد لديهم بأرقى المناصب، ونال أشهى الأمنيات.

فن الغزل:

يستغرق هذا الفن من ديوان الشاعر الثلث تقريباً سواءٌ أكان غزلاً تقليدياً في مقدمة المدائح أم غزلاً مستقلاً مقصوداً لذاته، وهي نسبةٌ عالية لا نكاد نجد لها مثيلاً عند غيره من الشعراء إلا المنقطعين للغزل وحده مثل عمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر والعباس بن الأحنف، وقد تحدثنا في ترجمة الشاعر عن الحب الذي ألهب عواطفه وأثر في حياته كل التأثير، وشاعرنا ينفس في غزله عن حبه، ويبث فيه عواطفه الحارة، ويطلق لوجدانه العنان، ولو كبت في نفسه هذه العواطف الجياشة لوقع فريسة للمرض أو الجنون، ولهذا كان غزله يعبر تعبيراً صادقاً عن خلجات نفسه وومضات حسه ونفثات غرامه المشبوب، فإذا نعم بلقاء حبيبه صور لنا هذا النعيم:

كم بـات يـدري لَـيْـلَـهُ الـغِـربـيـبـا

لــمّــا انــثــنى في ســكــره قــضــيــبــا
تــشــدو حَــمــامُ حَــلْــيِهِ تــطــريــبــا
هَــصَــرْتُهُ حُــلْــوَ الجَــنَى رطــيــبــا
أرشف مــنه الــمَــبْــسَمَ الــشــنــيــبــا

وإذا شقي بعبثه ودلاله هتف به:

أجِـــــدُّ، ومن أهــــواه في الحُبِّ عــــابثُ
وأوفي له بــــالــــعـــــهــــد إذ هــــو نــــاكثُ
تَــغَــيَّــرْتَ عن عــهــدي، ومــا زلتُ واثــقًــا
بــــعــــهــدكِ، لــكن غَــيَّــرَتْكَ الحــوادثُ

وإذا يئس من وفائه وصليَ بغدره صاح به:

يــــا مــــســــتــــخــــفّــــاً بــــعــــاشــــقــــيه
ومــــســــتــــغــــشّــــاً لــــنــــاصــــحــــيه
ومَنْ أطـــاعَ الـــوُشــــاةَ فـــيـــنـــا
حـــتّى أطــعــنــا الـــسُّـــلُـــوَّ فـــيه
الحـــــــمــــــــد لـــــــلـــــه إذ أراني
تـــكـــذيبَ مــــا كــــنتَ تــــدّعــــيه

وإذا غلبه الحنين عاد إليه ضارعاً مستغفراً:

يــا بــائــعًــا حــظَّهُ مــني، ولــو بُــذِلَتْ
لِيَ الحــيــاةُ - بــحــظّي مــنه - لم أبعِ
تِهْ اَحْــتَــمِلْ، واسْــتَــطِلْ أصــبِــرْ، وَعِــزّ أَهُنْ
وَوَلِّ أُقــــبِلْ، وقلْ أســــمع، وُمُــــرْ أُطِعِ

ويطالعنا الشاعر أحياناً بنفحات من الغزل العذري فيقول:

لم أنسَ إذ بــــاتتْ يــــدي لــــيــــلــــةً
وشــــاحَه اللاصِقَ دون الــــوِشــــاحْ
أَلْــــمَــــمْتُ بــــالألــــطف مــــنه، ولم

أجــنحْ إلى مـــا فـــيه بـــعضُ الجُـــنـــاحْ

ويقول:

وربَّ ظـلامِ لــــــــــيـلٍ جَـنَّ فــــــــــوقي
فَـــنُـــبْتِ عن الـــصّـــبـــاحِ إلى الـــصّـــبـــاحِ
فـــهل عَـــدَتِ الـــعَـــفـــافَ هـــنـــاك نـــفـــسي
- فـــديـــتُكِ - أو جَـــنَـــحْتُ إلى الجُـــنـــاحِ

ولكن هذه المعاني العذرية العفيفة لا تعدو خطرات شعرية عابرة، أما معظم غزله فحسي ماديٌ فقد كان ينظر إلى المرأة نظرة الشهوة الحسية لا المتعة الذهنية، استمع لوصفه لإحدى لياليه التي بات فيها كما يقول (يجني أقحوان الثغور ويقطف رمان الصدور) وأصغ لوصفه لليلة أخرى:

زارني بـــعـــد هـــجـــعـــةٍ، والـــثُّـــريـــا
راحـــةٌ تَـــقْـــدِرُ الـــظلامَ بـــشـــبـــرِ
فـــرشـــفتُ الـــرُّضـــابَ أعـــذبَ رشفٍ
وهـــصـــرتُ الـــقـــضـــيبَ ألـــطفَ هـــصـــرِ
ونـــعـــمـــنـــا بـــلفٍّ جـــسمٍ بـــجـــسمٍ
لـــلـــتـــصـــافي، وقـــرعِ ثـــغـــرٍ بـــثـــغـــرِ
يـــالـــهـــا لـــيـــلـــةً تجـــلَّى دُجـــاهـــا
- من ســـنـــا وجـــنـــتـــيه - عن ضـــوءِ فـــجـــرِ
قَـــصَّـــرَ الـــوصلُ عُـــمْـــرَهـــا، وبـــودّي
أن يـــطـــولَ الـــقـــصـــيـــرُ مـــنـــهـــا بـــعـــمـــري

وفي أمثال هذه الليالي يقول:

لـــيـــالِيَ نـــامتْ عـــيـــونُ الـــوشـــا

(١) في متن الديوان وردت (ذكرى)، انظر: ص ٢٥٧ «المراجع».

ةِ عّـــنـــا، وعـــينُ الـــرضـــا لم تـــنـمْ

ومــالتْ عــلــيــنــا غــصــونُ الــهــوى

فـــأجـــنــتْ ثـــمـــارَ المـــنى من أَمَمْ

وأيّـــامُـــنـــا مُـــذْهَـــبـــاتُ الـــبـــرودِ

رِقـــــاقَ الحَـــــواشـي صَـــــوافِي الأَدَمْ

فالشاعر مندفع بفطرته إلى الاستمتاع بالحياة، والإقبال على اللذات، فلا تبدو العفة في ثنايا شعره إلا حين ييأسُ من اللقاء أو يتقي الشبهات، وحينئذٍ يهتف بمثل هذه الأبيات:

لـــئن فـــاتـــني مـــنكِ حظُّ الـــنـــظـــرْ

لأكـــتـــفـــينْ بـــســـمـــاع الخـــبـــرْ

وإن عـــرضتْ غـــفـــلـــةٌ لـــلـــرقـــيبِ

فـحـسـبي تـسـلـيـمـةٌ تُـخـتـصَـرْ

أحـــاذرُ أن تَـــتَـــظَـــنَّى الـــوشـــاةُ

وقـــد يُـــسْـتَـدامُ الـــهـــوى بـــالحـــذرْ

وأصْـــبِـــرُ مـــســـتـــيـــقـــنًـــا أنَّه

سَـــيَـــحْـــظَى بـــنـــيل المـــنى من صـــبـــرْ

وهناك نوعٌ من الغزل عند شاعرنا نستطيع أن نسميه (غزل المكايدة والعناد) وهو يصوغه حينما يدركه اليأس، ويبلغه انصراف حبيبه عنه إلى خصمه فيصفه بأنه:

أكلٌ شـــهيٌّ أصـــبـــنـــا من أطـــايـــبهِ

بـعـضًـا، وبـعـضًـا صـفـحـنـا عنه لـلـفارِ

ثم يعلن أنه استجد حباً جديداً أنساه حبه القديم:

عـاودتُ ذكـر[1] الـهـوى من بـعـد نـسـيـان

واسـتـحـدثَ الـقـلـبُ شـوقًـا بـعـد سُـلـوانِ

من حبِّ جـــاريـــةٍ يـــبـــدو بـــهـــا صـــنمٌ

من الـــلُّـــجـــين، عـــلـــيه تـــاجُ عِـــقـــيـــانِ

لأَسْـتَـجِـدَّنَّ فَي عـشـقي لـهـا زمـنًـا
يُـنـسي سـوالفَ أيـامي وأزمـاني
حـتى نـكـونَ لمن أحـبـبتُ خـاتـمـةً
نَـسَـخْتُ - في حـبّـهـا - كُـفـرًا بـإيمـانِ

ثم يرسل إلى حبيبه من ينبئه أنه استبدل به خيراً منه وأنه سعيد بهذا التغيير والتبديل:

وأُشـعِـرْهُ أني انـتَـخَـبْتُ الـبـديلَ
وأعْـلِـمْهُ أني اسـتـجـدتُ الـعِـوضْ
فلا مـشـربي - لـقِلاه - أمَـرَّ
ولا مـضـجـعي - لـنَـواه - أقضْ
وأنَّ يـدَ الـبـين مـشـكـورةٌ
لِـعـارٍ أمـاطَ ووَصْمٍ رَحَضْ

وإذا كان الحب العنيف يرتكز على بعض الغرائز التي ردها علماء النفس إلى بضع عشرة غريزة فإننا نجد الحب عند شاعرنا يرتكز على هذه الغرائز جميعها فتبدو غريزة الضحك وغريزة المقاتلة في رسالته الهزلية، وتبدو غريزة الخنوع في قوله:

لم تـبق جـارحـةٌ بـالـهـجـر من جـسـدي
إلا خـلـعتِ عـلـيـهـا بـالـضَّـنَى حُـلَلا
فـلـيُـغْنِ كـفَّكِ أني بـعضُ من مـلـكتْ
ولْـيَـكْفِ طـرفَكِ أني بـعضُ من قَـتَلا

وتبدو غريزة السيطرة في حرصه على أن يفرض سلطانه على حبيبته ويصد عنها منافسه فينذره:

أعد نظرًا فإن البغيَ مما لم يزلْ يصرعْ
ولا تَكُ منك تلك الدارُ بالمرأى ولا المسمعْ
فإن قُصارك الدهليزُ حيث سواك في المضجعْ

ولا مجال لتتبع الغرائز جميعها في شعره فقد استقصيناها في كتابنا عنه فليرجع إليه من يشاء.

ومع أن الغزائز هي المنابع الأولى للطاقة البشرية، أو هي منشأ العواطف فإنها لا يمكن أن تستقل وحدها بتكوين عاطفة سامية، فالغرائز تتساند فتكون عاطفة فردية مادية، فإذا سمت هذه العاطفة تحولت إلى جماعية معنوية، فإذا ازدادت سمواً أصبحت عالمية مثالية، كما تتجلّى في الأنبياء وأعلام المصلحين وعباقرة الفنانين وفي هذا يقول غوته: «عندما يتحرك الحب الإنساني ويسرع الخطا تتفتح بذرة الحب الإلهي».

وعاطفة شاعرنا امتدت من المرحلة الفردية إلى المرحلة الجماعية المعنوية، فكثيراً ما يهتف بوطنه، ويحن إلى قومه، ويناجيهم بعد اغترابه في لوعة وحنين:

يـضـيـقُ بـأنـواع الـصَّـبـابـة مـذهـبي
إلى كُلّ رحب الـصَّدر مـنكم مُـهـذَّبِ
مُـفَـضَّضِ لألاءِ الأسـاريـرِ مُـذْهَبِ
يُـنـافسُ مـنه الـبـدر غُـرَّةَ كـوكبِ
درى أنـهـا أبـهى سـنـاءً وأضـوأُ

وكثيراً ما هتف بأيامه ولياليه معهم في لهفة واشتياق:

أين أيّـامُـنـا؟ وأين لـيالٍ
كـريـاضٍ لَـبِـسْنَ أفـوافَ زَهْـرِ؟
وزمـانٌ كـأنمـا دبّ فـيه
وَسَنٌ، أو هـفـا به فـرطُ سُـكْـرِ؟
حـين تـغـدو إلى جـداولَ زرقٍ
يـتـغـلـغـلن في حـدائقَ خُـضْـرِ
في فُـتُـوٍّ تـوشّـحـوا بـالمـعـالي
وتـردّوا بـكل مـجـدٍ وفـخـرِ

وُضَّحٍ تـنـجـلي الـغـيـاهبُ منـهم
عن وجـوهٍ - مـثلَ المـصـابـيح - غُـرّ
وسـجـايـا كـأنـهن كـؤوسٌ
أو ريـاضٌ قـد جـادهـا صَـوْبُ قـطـرِ

بين الطبيعة والحب:

طبيعة الأندلس ساحرة خلابة، وقد صادفت من شاعرنا إحساساً مشبوباً، وقلباً متفتحاً، وموهبة مواتية، فافتتن بها أي افتتان، وزاد في ولعه بها أنها ارتبطت بذكريات حبيبته أوثق ارتباط، فكم مال معها كما يحدثنا هو:

«إلى روض مدبج، وظل سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودر الطل النثور، وجيب الراح مزرور....» وكم طوى معها أياماً في جنبات القصر وشواطئِ (البنتي) وبساتين وثنيات (العقاب) وقنوات العقيق:

سقى جَنَبات (القصر) صوبُ الغمائمِ
وغـنّى على الأغصان وُرقُ الحمائمِ
بـقـرطـبـةَ الـغـرّاءِ دارِ الأكـارمِ
بلادٌ بـهـا عقَّ الـشـبـابُ تـمـائـمي
وأنجـبـني قـومٌ هـنـاك كـرامُ
فـكم ليَ فـيـها من مـساءٍ وإصـبـاحِ
بـكل غـزالٍ مـشـرقِ الـوجهِ وضَّـاحِ
يُـقَـدِّمُ أفـواهَ الـكـؤوس بـتـفّـاحِ
إذا طـلـعتْ - في راحه - أنجمُ الـراحِ
فـإنّـا - لإعـظـام الـمُـدامِ - قـيـامُ
ويـومٍ لـدى (البُـنْـتِيِّ) في شاطِئِ النهر
تُـدار عـلـيـنا الـراحُ في فِـتْـيَـةٍ زُهْـرِ
ولـيس لـنـا فـرشٌ سـوى يـانعِ الـزهـر
يـدورُ بـهـا عـذبُ الـلـمـا أهـيفُ الخَـصْـرِ

(١) وردت في متن الديوان (ومرأى الأرض)، انظر: ص ١٦٣ «المراجع».

بــفــيه من الــثــغــر الــشــنــيب نــظــامُ

ويــومٍ بــجــوفيّ (الــرّصــافــة) مــبــهجِ

مــررنــا بــروض الأقــحــوان المــدبَّجِ

وقــابــلــنــا فــيه نــسـيمُ الــبــنــفــسجِ

ولاح لــنــا ورد كــخــدٍّ مــضــرجِ

تــراه أمــام الــنــور وَهْــو إمــامُ

وأكــرِمْ بــأيــام (الــعُــقــابِ) الــسَّــوالفِ

ولــهــوٍ أثــرنــاه بــتــلك المــعــاطفِ

بسُودٍ أثيثِ الشَّعر بيضِ السوالفِ

إذا رفــلــوا في وَشْيِ تــلــك المــطــارفِ

فــلــيس – عــلــى خــلــع الــعــذارِ – ملامُ

وكم مــشــهــدٍ عــنــد (الــعَــقــيقِ) وجِسْرِهِ

قــعــدنــا عــلــى حُــمْــرِ الــنــبــاتِ وصُــفْــرِهِ

وظــبــيٍ يُــسَــقِّــيــنــا سُلافــةَ خــمــرِهِ

حكى جسدي – في السقم – رقَّةَ خصرِهِ

لــواحــظُه – عــنــد الــرُّنُــوِّ – سِــهــامُ

وهذه الروح شائعة عامة في ثنايا غزله، وحسبنا أن نشير إلى قصيدته التي كتبها إلى حبيبته من الزهراء واستهلها بقوله:

إني ذكــرتُكِ بــالــزهــراء مــشــتــاقَــا

والأفْقُ طــلــقٌ، ووجــهُ الــروض[1] قــد راقَــا

ولــلــنَّــســيم اعــتــلالٌ في أصــائــلــه

كــأنمــا رقَّ لي فــاعــتــلّ إشــفــاقَــا

والــروضُ – عن مــائه الــفــضّي – مــبــتــسمٌ

كــمــا شــقــقتَ – عن الــلــبّــات – أطــواقَــا

وقد أعجب نيكلسون بهذه القصيدة الرائعة وضربها مثالاً لتوضيح الشعور العميق بالطبيعة التي يتميز بها الشعر الأندلسي، وهذا الشعور القوي بالطبيعة ممتزجة بالحب

(١) في متن الديوان وردت (اعتبارا)، انظر: ص ٢٩٣ «المراجع».

العنيف نجد به مشابه قوية عند الشعراء الغربيين، ولهذا قرر بعض المستشرقين أن للأندلس أثراً قوياً في شعر الطبيعة الأوربي، وذكروا أن لابن زيدون تأثيراً واضحاً في شعر الطبيعة الغربي الذي يربط بين الطبيعة والحب عند الموهوبين.

ويكاد شاعرنا ينفرد بين شعراء العربية بأنه مزج حبه للطبيعة بحبه للمرأة ثم بحبه للوطن ثم بحبه لآله وعشيرته، ولهذا نستطيع أن نطلق عليه (شاعر الحب والطبيعة) وهو بهذا اللقب جدير.

فن الإخوانيات:

وهو عند شاعرنا فن أصيل، يكاد يسامي غزله في الرقة والروعة والجلال، وعاطفة الشاعر فيه عميقة جياشة توشك أن تستحيل إلى نسيب، وهذا الفن يهدف عنده إلى أربعة أغراض:

١ - المطارحات:

وهي المراسلات الشعرية بأن يكتب الشاعر أبياتاً أو يرد عليها من قافيتها ووزنها، وتتجلى فيها الرقة والعذوبة فضلاً عن العاطفة القوية التي تذكرنا بحبه العاصف الغلاب وشغفه القوي بالجمال، وبخاصة جمال الطبيعة الخلاب.

ومن أمثلته ما أجَاب به صديقه أبا عامر بن مسلمة من أبيات يرد بها على عتابه لتخلفه عن زيارته:

وهل أنسى لديك نعيمَ عيشٍ
كَوَشْيِ الخدّ طُرِّزَ بالعذارِ؟
وساعاتٍ يجولُ اللَّهْوُ فيها
مجالَ الطلِّ في حَدَقِ البَهارِ
وإن يكُ قَرَّ عنك اليوم جسمي
- فُديتَ - فما لقلبي من قرارِ

٢ - الإهداء والاستهداء:

وهو في هذا النوع يصف الهدية وسجايا المهدي أو المهدى إليه، ومن أمثلته قوله مع هدية عنب اسمه (عذارى) أهداها لجده وكتب معها:

أتاكَ مُحَيِّيًا عني اعتمارًا[1]

عـــــذارَى دونـه ريـقُ الـــــعـــــذارى
تــخــالُ الــشُّــهـد مـنه مُـسْــتَـمَـدّاً
ونـــفـحُ المــسكِ مـــنه مـــســـتـــعـــارا
ولــــولا أنــــني قـــد نـــلتُ مـــنه
- ولـم أســكــرْ - لخِــلْتُ به عُــقــارا
بــعـــثتُ به، ولـــو أهــديتُ نــفــسي
إلــيكَ لــكــان من بـــرِّي اقــتــصــارا
فَــأَنْــعِمْ بــالــقَــبـول، فـربَّ نُــعـمَى
أعَــدْتَ بـــهـــا دُجى لــيــلي نـــهـــارا

٣ - مجالس الأنس:

وفيها تدور المطارحات الشعرية على نغمات الأوتار ورشفات العقار، وتغلب فيها الرقة والعذوبة ووصف المتع والنعيم، ومن أمثلتها قوله في مجلس صديقه أبي عامر:

أدرهـــا فـــقـــد حـــسن المجـــلسُ
وقـــد آنَ أنْ تُـــتْـــرَعَ الأكـــؤسُ
ولا بـــأس إن كـــان ولّى الـــربـــيعُ
إذا لـم تَــجِـــدْ فَـــقْــدَهُ الأنـــفُسُ
فـــإنَّ خـلالَ أبـي عـــــامـــــرٍ
بـــهـــا يــحــضــرُ الــوردُ والــنَّــرجسُ

٤ - المناجاة:

وتكاد تكون عنده ألصق بالنسيب منها بالإخوانيات، ومن أمثلة مناجاته قصيدة خالدة صاغها في مناجاة صديقه أبي القاسم بن رفق، ولا نعرف شيئاً عن هذا الصديق، ونكاد نظنه اسماً مستعاراً يكني به الشاعر عن حبيبته، وهذه القصيدة المسهبة تعد في نظرنا من أروع قصائد المناجاة في الشعر العربي استهلها الشاعر بغزل رقيق وصف فيه حبيبه:

هــزّ مــنه الــصِّــبــا فــقــوَّمَ شــطــرا
وتجــافى - عن الــوشــاحِ - بــشــطــرِ
كُــسِيَ الحــسنَ فــهــو يــفــتنُ فــيه

ساحباً ذيلَ بُردِهِ المُسْبَكِرِّ

أبرزَ الجِيدَ في غلائلَ بِيضٍ

وجلا الخدَّ في مجاسدَ حُمْرِ

وتَثَنَّتْ بعطفه - إذ تَهَادَى -

خطرةٌ تمزجُ الدَّلالَ بكِبْرِ

ثم انتقل إلى وصف الدهر وكيف فرق بينه وبين أبي القاسم صديقه الوافي الرقيق:

وَتَرَتْنِي خُطوبُهُ في صفيٍّ

فاضلٍ نابهٍ - من الدهر - وِتْرِ

بانَ عنِّي، وكان روضةَ عيني

فغدا اليومَ وَهْوَ روضةُ فكري

فَكِهٌ يبهجُ الخليلَ بوجهٍ

تَردُ العينُ منه يَنْبُوعَ بِشْرِ

وإذا غازلَتْهُ مقلةُ طرفٍ

كاد - من رِقَّةٍ يذوبُ - فيجري

ثم أخذ يناجيه مناجاة تسيل رقة وعذوبة:

يا «أبا القاسم» الذي كان رِدْئي

وظهيري على الزمانِ وذُخري

هل لحالي زمانِنا من رجوعٍ؟

أم لماضي زمانِنا من مَكَرِّ؟

أين أيَّامُنا؟ وأين ليالٍ

كرياضٍ لَبِسْنَ أفْوافَ زَهْرِ؟

بقية الفنون:

أما بقية فنون الشاعر فهي صورة من الذوق الشائع في عصره، ولا نرى داعياً للحديث

عنها، فإنه لا يكاد يمتاز فيها عن غيره من الشعراء، ولكن هناك فناً غريباً ظهر عنده وسماه المطيرات وهو مطارحات شعرية دارت بينه وبين المعتمد بن عباد ثم بينه وبين أبي طالب محمد بن مكي، ولم نضمه إلى فن الإخوانيات لأنه قائم على الألغاز والأحاجي التي تدور حول الطيور، وهو أشبه بالنظم العلمي منه بالفن الشعري، ولهذا مات بموت ابن زيدون.

****

فنونه النثرية

تمهيد:

يشبه نثر ابن زيدون شعره في صياغته وموسيقاه، وقد تنبه القدماء إلى هذا فوصف ابن بسام رسائل الشاعر بأنها «بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور» وقد كان أسلوب الكتّاب السائد في عصره هو الأسلوب المزخرف الموشًى بالصور البيانية والمحسنات البديعية، وهو انعكاس لحالة العصر الحافل بأسباب الترف والنعيم، وقد تجلى هذا في الأدب كما تجلى في فنون العمارة وفي الطرز الزخرفية والفنون التطبيقية Minor Arts، وقد نشأت الكتابة الزخرفية بالمشرق، واستقرت أوضاعها على يدي ابن العميد، ثم انتشرت عن طريقه وطريق تلاميذه بالمشرق، وانتقلت إلى الأندلس فصادفت هوى في النفوس وافتناناً من القراء، ومدرسة ابن العميد تعتمد على الكلام المرصع المصقول المزين بالمقتبسات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار المأثورة والحكم المشهورة والأمثال المضروبة، مع التزام السجع في الأغلب الأعم والشغف بالمحسنات البديعية والصور البيانية، ولقد جرى ابن زيدون على طبيعة عصره ولكن بقدر محدود، فلم يلتزم السجع في جميع ما كتب ولم يبالغ في استعمال المحسنات البديعية، فسلمت آثاره من التكلف

البغيض، ولكنه أفرط في الاقتباس من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف، وبالغ في الاستشهاد بالأبيات الشعرية أو شطورها دون إشارة إلى قائليها، ولهج بضرب الأمثال المعروفة والاستئناس بالحكم المأثورة وغالى في سرد الأسماء والأحداث التاريخية مغالاة جاوزت القصد في رسالتيه الهزلية والجدية، وأولع بالجمل المترادفة ولعل هذا راجع إلى وفرة ما وعته ذاكرته من أساليب الكلام.

والكتّاب في الأدب العربي طائفتان متمايزتان أولاهما طبقه الكتاب الباحثين الذين تتسع ثقافاتهم وتدق أفكارهم فيعالجون مشكلات الحياة العامة المحيطة بهم ناقدين وموجهين وقائدين، وهم قليلون وبخاصة في الأدب العربي القديم، ومن أشهرهم الجاحظ وأبو حيان بالمشرق، وابن حزم بالأندلس، وابن خلدون بالمغرب، ولكل منه أثره الخالد في عصره وما تلاه من عصور، والطائفة الثانية طائفة الكتاب المنشئين الذين تنصرف مواهبهم إلى إتقان وسائل التعبير وصياغة الأساليب اللفظية والمعنوية، وعنايتهم بالصور فوق عنايتهم بالأفكار، وهم كثيرون في الأدب العربي، ولا نستطيع أن نعتبر ابن زيدون من الطائفة الأولى، وإنما نستطيع أن نعده في الرعيل الأول من الطائفة الثانية، وهي طائفة لها جهدها المشكور في التلوين والتصوير.

ولم تبق لدينا من آثار ابن زيدون الكتابية إلا طائفة قليلة من رسائله الأدبية، وسطور من كتابه في تاريخ بني أمية، ومقطوعة وصفية، ونظرة نقدية، أما رسائله السياسية فقد ضاعت جميعها، مع أنه قضى أكثر من عشر سنوات يشغل منصب الكاتب الأول للمعتضد، وصدرت عنه رسائل قوية جابت أنحاء الأندلس ولفتت إليه الأنظار كما يحدثنا ابن بسام، وسنتناول هذه الآثار بالدراسة الموجزة بحسب ترتيبها الزمني.

الرسالة الهزلية:

كتبها ابن زيدون على لسان ولادة إلى ابن عبدوس حينما بلغه أنه أرسل إليها امرأة تستميلها إليه، وقد أوسعه فيها تهكماً وأشبعه سخرية، وخلع عليه ثياباً فضفاضة من

---

(١) وردت في الأصل (الكتاب)، ولعل الصواب ما أثبتناه «المراجع».

الكمال لا يمكن أن تتسق معه لأنه يظهر فيها قزماً ضئيلاً يثير الاستهزاء.

والدارس لهذه الرسالة يرى ابن زيدون متأثراً فيها برسالة «التربيع والتدوير» التي صاغها الجاحظ في السخرية من أحمد بن عبدالوهاب الكاتب البغدادي، كما أن فيها ملامح من رسالة أبي حيان في ثلب الوزيرين، والأغراض التي قصدها ابن زيدون في رسالته محدودة، ولكنه أسهب فيها إسهاباً مملاً في ذكر الأسماء والحوادث التاريخية بمناسبة وغير مناسبة حتى جاوزت السبعين اسماً، خلط فيها مشاهير العرب بالعجم، والقدماء بالمحدثين، والمعروفين بالمجهولين، ونابغي فن بنابغي فن آخر، وبعض هذه الأسماء وهمية وبعضها رمز إليه ولم يذكره، وبعضها مجهول غير محدد، ولم يكتف بهذا بل أكثر في رسالته من الاقتباس والتضمين، حتى كادت شخصيته تختفي وراء ما استجلبه من أساليب غيره وبالغ في استعمال المترادفات مبالغة خرجت عن المألوف.

وأقذع في بعض عباراتها، واندفع في هجومه فمس حبيبته مسّاً عنيفاً بحيث أظهرها في صورة البغي الهلوك دون مبرر لهذا الهجوم، وجنى من وراء هذا انصرافها عنه إلى غيره وضيقها به وهجاءها إياه، وفي بعض عبارات الرسالة غموض مثل قوله: «وفصل بين الاسم والمسمى، وصرف وقسَّم، وعدل وقوَّم، وصنف الأسماء والأفعال» حتى إن ابن نباتة شارح الرسالة لم يعرف المقصود من قوله «وصرف وقسم وعدل وقوم» فلجأ إلى العلماء يستفتيهم ففسروها له تفسيراً فقهياً غير مقنع وبخاصة لوقوعها بين اصطلاحين نحويين.

ولكن الرسالة على الرغم من هذه المآخذ تعتبر في مقدمة الرسائل الخالدة في الأدب العربي، لأن أسلوبها التهكمي مثير للضحك من جوانب عديدة قلّما اجتمعت في رسالة إلا في رسالتي الجاحظ وأبي حيان، وقد عمد ابن زيدون في رسالته إلى طريقة المقابلات وأسلوب المفارقات فعرضه خير عرض وصوره أبدع تصوير، فقد رسم ابن عبدوس قزماً ضئيلاً تافهاً ثم خلع عليه حللاً فضفاضة من حلل الجمال والروعة والبهاء، فتعثر في هذه الثياب، ثم خلعها عنه بغتة، وأظهر عوراته ومعايبه مجسمة، وبالغ فيها مبالغة ساخرة جعلته يبدو في صورة أشبه بما نسميه في عصرنا Caricature فالكاتب يرفعه ثم يخفضه ويقدمه ثم يؤخره، ويدلله ثم يزجره: ولا يتركه إلا بعد ان تخور قواه.

ولقد استطاع الكاتب على الرغم من كثرة اقتباسه وتضمينه أن يوائم بين هذه العبارات المستجلبة مواءمة جعلها تبدو من نسيج واحد متلائم الأطراف متوائم الألوان متلاحم في نسق منضود، حتى يظنها من لا يعرفها أنها جميعها من صياغة الكاتب وحده لما يبدو عليها من اتحاد واتساق.

والرسالة تحمل مع هذا عواطف قوية عنيفة من حب وبغض وغيرة وحقد، وهي بقوتها تثير في السامع والقارئ، عواطف مماثلة تدعو إلى المشاركة الوجدانية وهذا أعظم ما يهدف إليه الكاتب[١].

والرسالة تدل على ثقافة واسعة واطلاع شامل على جميع المعارف والفنون والعلوم الشائعة في عصر المؤلف، وفيها خيال خصب استطاع أن يضم حوادث متفرقة وألواناً متباينة ويؤلف بينها أبدع تأليف، وقد نجحت الرسالة في بلوغ هدفها المنشود، فإن ابن عبدوس انقطع عن زيارة ولادة عدة سنوات حتى هجر ابن زيدون قرطبة وخلا له الجو فعاد إليها لتجديد ما بينهما من صلات، ومن الغريب أن الشاعر كتبها في حالة شبيهة بالارتجال.

الرسالة الجدية:

كتبها الشاعر في أخريات أيام سجنه مستعطفاً فيها أميره أبا الحزم آملاً أن يثير في نفسه عوامل الحنان، مذكراً إياه بخدماته السابقة في تأسيس ملكه وقصائده السابقة في الإشادة بذكره، وقد أفرغ الكاتب في هذه الرسالة جهده وأودعها أقوى وسائله في التأثير، وشفعها بقصيدة عاطفية ضارعة مؤملاً أن تنفذ إلى قلب الأمير.

ونستطيع أن نأخذ على هذه الرسالة ما أخذناه على الرسالة السابقة من حشد الأسماء والأحداث، والمبالغة في الاقتباس والتضمين وكثرة المترادفات، كما نأخذ عليها أن فيها كثيراً من الإدلال على الأمير بما يشبه المَنَّ عليه، وهو أسلوب غير موفق في مخاطبة الحكام، كما نأخذ عليها أن فيها تهديداً باللجوء إلى خصوم الأمير من ملوك الطوائف المجاورين، كما أن فيها ضرباً خفياً من التأنيب، وإن كان يصوغ هذا كله في أساليب

وعبارات رقيقة، والكاتب على تمكنه من دراسة الأحداث التاريخية وقع في بعض الأخطاء مثل قوله «وتأولت في بيعة العقبة» ولم يتأول فيها أحد وقوله «وتخلفت عن الصلاة في بني قريظة» وليس هذا من الذنوب وقوله «وكتبت إلى عمر بن سعد أن جعجع بالحسين» والمكتوب إليه هو الحر بن يزيد التميمي لا عمر بن سعد، على أن للكاتب بعض العذر فقد كتب رسالته في السجن وليس بين يديه مراجع تاريخية فضلاً عن أنه كتبها وهو في حالة نفسية سيئة، ومما نأخذه به أنه كان عليه أن يضرب الأمثال بأولي الحلم والعفو عند المقدرة من عظماء الرجال بدلاً من أن يضربه بكبار المذنبين أو المجرمين.

وعلى الرغم من هذه المآخذ فإننا نرى الرسالة تنبض بعواطف قوية عنيفة تثير كوامن الأشجان، وهي إلى جانب عواطفها القوية تنبض: بالأفكار المنطقية وإن كانت أقيستها مستمدة من الوجدان، ولقد تنوعت معانيها وتعددت أساليبها بين غيبة وخطاب وضرب أمثال واستشهاد بمأثور، وترجحت بين الضراعة والاعتذار، واليأس والرجاء، والتقرب والتلميح بالابتعاد، في عبارات جزلة منتقاة ومعان نابضة بالحياة، وانتقاله بين هذه الخواطر انتقال طبيعي لا فجوات فيه، بل هو سلسلة مترابطة الحلقات في تناسق واطراد.

وهي – بالنسبة إلى الرسالة الهزلية – أقل استطراداً وأنزر سجعاً وأبعد ما تكون عن الإملال، وهي بهذا أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف، ونلاحظ أن الشاعر استعمل فيها ظلالاً من التلميحات أكسبتها حيوية طبيعية، ففيها تصريح وتلميح، واستكانة ووعيد، وبهذا كانت حافلة بشتى الصور والألوان، وكلتا الرسالتين تعتبر دائرة معارف مصغرة، وتصلح نواة لدراسات متنوعة ولهذا عني بهما الشراح، وأفاضوا في التعليق عليهما، وأشهر من شرح الرسالة الهزلية ابن نباته الشاعر المعروف في كتاب سماه سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، وأشهر من شرح الرسالة الجدية صلاح الدين الصفدي الكاتب الشاعر المشهور في كتاب سماه تمام المتون إلى شرح رسالة ابن زيدون.

رسالة استعطاف:

كتبها الشاعر بعد فراره من سجنه، وبعد أن عاد من إشبيلية إلى قرطبة مستخفياً

بالزهراء ينشد الأمان ويتخذ له الوسائل والشفاعات، وقد أرسل هذه الرسالة إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد وشفعها بقصيدة ضارعة يصور فيها حالته النفسية، ويتوسل به إليه مستشفعاً به عند الأمير، وهذه الرسالة أقوى رسائله جميعاً من الناحية الفنية.

وهي إلى هذا أطول أثر فني بقي لدينا من نثره مع أنها لم تصل إلينا كاملة، وقد تخلص الكاتب في رسالته هذه من الاستشهاد بالأسماء والأحداث التاريخية وتحلل من قيود السجع إلا في القليل النادر، أما ضربه للأمثال واستشهاده بالأشعار، فهي هنا أحكم وألصق بمواضعها من كل أثر سابق، وفي هذه الرسالة أسلم الكاتب نفسه لعواطفه دون تعمل أو تكلف وصور كل ما ينبض به قلبه أو عقله من مشاعر أو أفكار. والرسالة على قوتها الفنية لم تنل من عناية الباحثين ما نالته الرسالتان الأوليان لأنهما لفتتا العلماء والشارحين لما تحويانه من معارف وفنون.

وهذه الرسالة تلقي ضوءاً على ما قاساه الشاعر في سجنه من إعنات وتصور لنا ما اتبع في محاكمته من إجراءات شاذة، وفيها منطق قوي غلاب وعاطفة مشبوبة، وهي إلى هذا وثيقة تاريخية قيمة تلقي ضوءاً على النظم القضائية السائدة في عصره، وتعتبر آية من آيات دفاع المرء عن نفسه وتصلح أن تكون فصلاً هاماً من فصول تاريخ المحاماة.

وقد تجلت قوة الشاعر وطاقته الفنية في صياغتها فهو فيها فيسلوف منطقي وعالم فقيه وكاتب موهوب وشاعر عاطفي ومحام مدرب فجاءت رائعة الأداء قوية التأثير، وقد نجحت هذه الرسالة في بلوغ هدفها المنشود، وبخاصة بعد أن تضافرت جهود الشاعر مع جهود ولي العهد في استعطاف الأمير.

بقية الرسائل:

حفظت لنا الذخيرة ثلاث رسائل موجزة صاغها الشاعر في التودد إلى المعتضد بن عباد ومفاوضته في الرحيل إليه من قرطبة، وجه الأولى منها إلى صديقه أبي عامر بن مسلمة وسيطه لدى المعتضد، ووجه الثانية والثالثة إلى المعتضد نفسه، والشاعر في هذه

الرسائل يعرض مواهبه على الأمير، ويستدر عطفه ومودته ويسبغ عليه حلل الثناء، في عبارات موجزة قوية السبك جزلة الرصف بعيدة عن التكلف أو الاستطراد وقد نجحت هذه الرسائل في توثيق صلاته بالأمير فعاش في كنفه بقية حياته متمتعاً بأكرم محل وأقوى سلطان.

النثر الوصفي:

بقيت لدينا مقطوعة صاغها الكاتب في تصوير ليلة طواها في صحبة ولادة ذاق فيها أفاويق السعادة والنعيم، ثم أتبعها بتصوير موقف مغاضبة وعناد، ويظهر من سياق الوصف أنه صور موقفين متغايرين أو ليلتين مختلفتين: أولاهما سعيدة حافلة بالمتع واللذات، وثانيتهما حافلة بالغيرة والغضب والملاحاة.

وقد صاغ الكاتب هذه المقطوعة استجابة لهواه الغلاب، فكانت تعبيراتها أقرب إلى الشعر منها إلى النثر، بل إنه كان ينفلت من النثر أحياناً فتتدفق عواطفه منظومة شعراً، والتنغيم الموسيقي شائع فيها جميعاً سواء في عباراتها المنثورة أو أبياتها المنظومة، وقد التزم الكاتب في وصفه الفقرات المسجوعة، وحشد فيها ظلالاً من الاستعارات والتشبيهات، ورصعها بالمحسنات البديعية، ومزج فيها بين وصف الطبيعة ووصف الحبيبة فتجلت في نثره خصائص شعره في النسيب، ويظهر من عباراتها أن الشاعر كتبها في كهولته ليصور فيها ذكريات عزيزة على نفسه، وليسترجع بها صور الشباب، على أننا نأخذ عليه فيها أنه تكلف كثيراً في صياغتها حتى كادت الزخارف اللفظية تطغى على عاطفته المشبوبة وهواه الغلاب.

النثر النقدي:

حفظ لنا المقري نصاً نقدياً لابن زيدون، وكانت ولادة قد حثته على أن يبدي لها ما يجد عليها فيه نقداً، ثم كتبت إليه أبياتاً ختمتها بقولها:

سقى الله أرضًا قد غدت لك منزلاً

(١) وردت في متن الديوان (بجَزْءٍ)، انظر: ص ٢٨١ «المراجع».

بـــكلِّ ســـكـــوبٍ هـــاطلِ الـــوَدْقِ مُـــغْـــدِقِ

فنبهها إلى أن هذا أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، وأن القدماء نقدوا ذا الرمة في قوله:

ألا يــا اســلــمي يــا دارَ مَيٍّ عــلــى الــبِــلـى
ولا زال مـــنـــهلاً بـــجـــرعـــائك الـــقَـــطْـــرُ

مع أنه قدم الدعاء بالسلامة، وأن المستحسن قول الآخر:

فـــســـقـى ديـــاركِ – غـــيـــرَ مـــفـــســـدهـــا –
صـــوبُ الـــربـــيـع وديمـــةٌ تـــهـــمي

وابن زيدون هنا متبع لا مبتكر، وقد أورد العسكري في كتابه الصناعتين هذا النقد، ولكن الشاعر يود أن يبرز سعة معلوماته أمام حبيبته، وأن يقف منها موقف الأستاذ، وقد أشفق من إغضابها فقدم بين يدي نقده اعتذاراً رقيقاً.

وأبيات ولادة في جملتها لا تحتمل النقد لما فيها من تهافت واختلال.

وإذا أردنا أن نتلمس آراء ابن زيدون في النقد الأدبي فإننا نجد في شعره نظرات نقدية سديدة، فالشعر العذب لا ينبعث إلا عن فطرة خصبة موهوبة بعيدة عن التكلف والافتعال، فخير لمن تعوزه هذه الموهبة أن ينصرف عن الشعر فيريح ويستريح:

مـــا الـــشِّـــعْـــرُ إلا لمن قـــريـــحـــتُهُ
غَـــريـــضَـــةُ الـــنَّـــوْرِ غَـــضَّـــةُ الـــثَّـــمَـــرِ
تَـــبْـــسِمُ عن كـل زاهـــرٍ أرجٍ
مـــثلَ الـــكِـــمـــامِ ابـــتـــســـمنَ عن زَهَـــرِ

وخير الشعر عنده ما وضحت معانيه ورقت ألفاظه بحيث يتلقفه الخاطر بلا كد ولا عناء:

هـــوى إلـــيه طَـــرَبًـــا خـــاطـــري
كـــمـــا تـــلـــقَّى الـــوَصْلَ مـــهـــجـــورُ
تَـــشِفُّ عن مـــعـــنـــاه ألـــفـــاظُهُ
كـــمـــا وَشَى بـــالـــرَّاحِ بـــلّـــورُ

وينبغي في صياغته أن تكون الألفاظ متجانسة متقاربة تسري فيها روح واحدة وتحمل تنغيماً موسيقياً متجانساً، فلا يختلط فيها القوة بالرقة ولا تصطدم البسطة بالانقباض:

من لـفـظـةٍ قـارنتْ نَـظـيـرَتَـهـا
قِـرانَ سُـقْمِ الجُـفـونِ لـلـحَـوَرِ

وأعذب الشعر عنده هو السهل الممتنع:

دَلَّـهَتْ فِـكْـرِيَ من إبـداعهِ
حَـيْـرَةٌ في مـنـطقٍ له مُـخْـرِسِ
بتٌّ مـنـه بـين سـهلٍ مُـطْـمِعٍ
خـادعٍ يُـتْـلَى بـحَـزنٍ[1] مـؤنسِ

ومن سمات الشعر الجيد أنه ينفذ من السمع إلى القلب مباشرة في سياق مطرد منضود:

غُـرَرٌ من بـدائعٍ لا يَـشُكُّ الـدْ
ـدَهـرُ في أنَّـهـا قلائـدُ دُرِّ
تَـتَـوالى عـلى الـنـفـوس دراكًـا
عن فـتًى مـوسِـرٍ منَ الـطَّـبْعِ مُـثْـري

النثر التاريخي:

يتجلى شغف الشاعر بالتاريخ في آثاره الشعرية والنثرية، ويحدثنا المقري أنه ألف كتاباً جامعاً في تاريخ بني أمية بالأندلس سماه التبيين، وقد ضاع هذا الكتاب كما ضاعت معظم رسائل الشاعر وطائفة كبيرة من شعره، ولكن بقيت من هذا الكتاب بضعة سطور رواها المقري أثناء حديثه عن عبدالرحمن الداخل. ومن التأمل في هذه السطور نلاحظ أن الشاعر التزم في كتابة تاريخه الإيجاز مع إيضاح ما يحتاج إلى الإيضاح، وأسلوبه سهلٌ

واضح دقيق خال من السجع والمحسنات، مع أن معاصره ابن حيان كان يسجع في كتابة التاريخ، وابن زيدون حريص في كتابه على ذكر الصفات الجسمية وتتبع البواعث النفسية ومحاولة تعليلها، مما يجعل لكتابه قيمة عظيمة في نظر المؤرخين.

****

أسلوبه الفني

تمهيد:

يقول بوفون Bufon إن الأسلوب هو الرجل نفسه، وهو تعبير صائب، فلكل منا أسلوبه في حياته الخاصة أو العامة، وفي علاقاته بالمجتمع، ومقابلته لمشكلات الحياة، وطرق تفكيره ومزاجه وانفعالاته... كما أن لكل فنان أسلوبه الذاتي المعبر عن شخصيته القوية ومواهبه الخلاقة، ولهذا كان واجباً على كل ناقد أو دارس أن يتعرف على خصائص الأسلوب المميزة لمن يتناوله من الكتاب أو الشعراء. وسنحاول أن ندرس عناصر الأسلوب عند شاعرنا بإيجاز.

الفكرة: Thought

يستمد شاعرنا أفكاره من موردين هامين: أولهما دراساته الثقافية الأدبية الواسعة لمعارف عصره وما سبقه من عصور، وثانيهما تجاربه العديدة المستمدة من وقائع حياته وأحداث عصره ومن احتك بهم من أعلام الرجال، وأفكاره تبدو في ثنايا نثره أكثر مما تبدو في شعره، وهو أمر طبيعي يتسق مع طبيعة الفنين، وكثيراً ما يستعير شاعرنا أفكاره من أفكار غيره ويبالغ في هذا حتى تزحم أفكاره الخاصة وتطغى عليها، ولكنه يصبغ بصبغته كل ما يستعيره من آراء، حتى يبدو عليها طابعه الخاص، وكثيراً ما يكرر أفكاره ويرددها، ولعله يريد تأكيدها والإقناع بها على طريقة الإيحاء.

وإننا لنلمس أحياناً بعض العمق في أفكاره مثل قوله في فلسفة الصبر:

إذا آسَفَ الثُّكْلُ اللَّبيبَ فَشَفَّهُ

رأى أفدحَ الثُّكْلَيْنِ أن يَهْلِكَ الأجرُ

مُصَابُ الذي يأسَى بمَيْتِ ثوابهِ

(١) في متن الديوان (للضّنى) ص ٢٢٨ «المراجع».

هُـوَ الـبَـرْحُ، لا الميتُ الـذي أحـرزَ الـقـبـرُ

كما نلمس في بعضها الدقة والتصميم مع الوضوح:

من كـان يـجـهلُ مـا الـبـلـيـدُ فـإنَّهُ
من تَـطَّـبـيهِ - عنِ الحـظـوظِ - بلادُ
وفـتى الـشَّـهـامـة - من إذا أملٌ سـمـا -
نـفـذتْ بـه شُـورَى أوِ اسـتـبـدادُ

والحقيقة أن تلوين الأفكار - لا جدتها - هو أهم ما برع فيه ابن زيدون، والتلوين ينهض عنده على:

١ - المشاكلة:

مثل قوله:

لـقـد جـدَّ إخلاصٌ وحقَّ تَـبَـتُّلٌ
وبـالغَ إخـلاصٌ، وصَحَّ مَـتـابُ

٢ - المقابلة:

مثل قوله:

تـعـوّضتُ من شَـدْوِ الـقِـيـانِ خلالَـهـا
صَدى فَـلَـواتٍ قـد أطـار الـكـرى ضَـبْـحَـا
ومن حَـمْـلِيَ الـكـأسَ المـفـدّى مُـديـرُهـا
تَـقَـحُّمَ أهـوالٍ حـمـلـتُ لـهـا الـرُّمْـحَـا

٣ - الاقتران:

سواء كان سببياً أم زمانياً أو مكانياً أم عقلياً، فمن أمثلة الاقتران السببي:

سَـأُحِبُّ أعـدائي لأنَّكِ مـنـهـمُ
يـا مَنْ يُـصِحُّ - بمُـقْـلَـتَـيْهِ - ويُـسْـقِمُ

ومن أمثلة الاقتران الزماني:

يــا بــهــجــةَ الـدهــر حــيّــاً، وَهْــوَ - إن فـنــيتْ

حـــيـــاتُهُ - زيـــنـــةُ الآثـــار والـــسِّـــيَـــرِ

ومن أمثلة الاقتران المكاني:

ويــا ربَّ مــلـــهًى بــالـــعــقــيق، ومــجــلسٍ

لـــدى تُـــرعـــةٍ تـــرنـــو بـــأحـــداقٍ نـــرجِس

ومن أمثلة الاقتران العقلي:

أرى الـــدهـــرَ إن يـــبـــطشْ فـــأنت يمـــيـــنُهُ

وإن تــضــحكِ الــدنــيــا فــأنت لــهــا ثــغــرُ

وكم ســائلٍ - بــالــغــيب عــنك - أجــبــتُهُ

هــنــاك الأيــادي الــشَّــفْعُ والــسُّــؤدَدُ الــوِتْــرُ

هــنــاك الــتُّــقَى والــعــلمُ والحــلمُ والــنُّــهى

وبــذل الــلُّــهَــا والــبــأسُ والــنَّــظْمُ والــنَّــثْــرُ

العاطفة: Sentiment

يرى (فرويد) أن الغريزة الجنسية هي المسؤول الأول عن كل ما يصدر عن الإنسان من نشاط أو تصرف، أما (إدلر) فيرى أن غريزة حب السيطرة هي أساس تصرفات الإنسان، ويجمع (يونج) بين النظريتين، وإذا حللنا عاطفة الحب عند ابن زيدون وجدناها ترتكز على جميع الغرائز البشرية في الكائن الإنساني، وبخاصة الغريزة الجنسية وغريزة حب السيطرة، وبهذا كانت عاطفته عميقة قوية جبارة امتدت جذورها في أعماق نفسه، وتفرعت أغصانها فآتت أطيب الثمرات، والحب يزداد قوة وعنفاً إذا حالت الحوائل بين المحبين، وفي هذا يقول هكسلي Huxley: «حيثما وجدت القيود وضيقت على المحب وُجد الحب الحقيقي لأنه قائم على الحرمان، وحيثما كان الوصل خفت حدة الحب». وقد ذاق ابن زيدون مرارة الحرمان فرجع في تغريده أشجى الألحان:

أبــديتَ لـي - من أفــانـــين الــقِــلـى - عِــبَــرًا

أرْسَــلْــتَــنِــي - في أحــاديث الــهــوى - مــثلا

لم تُبْقِ جارحةً بالهجر من جسدي

إلا خلعتَ عليها بالضَّنَى[1] حُللا

فليُغْنِ كفَّك أنيَ بعضُ من ملكتْ

وليَكفِ طرفَك أنّي بعضُ من قتلا

ولتقضِ ما شئتَ من هجرٍ ومن صلةٍ

لا أقضِ ما عشتُ سُلوانًا ولا مللا

إن كان لي أمل إلا رضاك فلا

بُلِّغْتُ - يا أملي - من دهريَ الأملا

وقد ذكرنا في ما سبق أن عاطفة الشاعر كانت تتسع وتسمو فتمتد إلى أصدقائه فيناجيهم مناجاة أقرب إلى الغزل منها إلى المطارحات، ويحن إلى مراتع لهوه ومرابع صباه فيهتف كما يهتف المحب بما يثور في أعماقه من صبابات:

معاهدُ لهوٍ لم تزل في ظلالها

تُدارُ علينا للمجون مُدَامُ

فإن بانَ مني عهدها، فبلوعةٍ

يُشَبُّ لها بين الضلوع ضِرامُ

تَذكَّرْتُ أيامي بها فتبادرتْ

دموعٌ، كما خانَ الفريدَ نظامُ

وصحبةَ قومٍ كالمصابيح، كلّهمْ

إذا هُزَّ للخَطْبِ الملمِّ حسامُ

إذا طافَ بالراح المديرُ عليهمُ

أطافَ به بيضُ الوجوهِ كِرامُ

مَحَلٌّ غنينا بالتَّصابي خِلالَهُ

فأسْعَدَنا، والحادثاتُ نيامُ

فما لحقتْ تلك الليالي ملامةٌ

ولا ذُمَّ من ذاك الحبيبِ ذِمامُ

الخيال: Imagination

من الخيال ما يكون عاماً منبسطاً يتناول الحياة جميعها، ويظهر في صورة مركبة تفيض بالأضواء والألوان والظلال، وتصور المظاهر الخارجية كما تنفذ إلى البواطن الخفية والأعماق المستقرة في الأغوار، وقد برع شعراء الإغريق في هذا النوع بما أبدعوه من ملاحم ومسرحيات تدور حول الآلهة والأبطال، أما الشعر الغنائي فلا يتسع لإبراز هذا الخيال المركب، ولهذا كان الأدب العربي فقيراً فيه، ولا نكاد نجد منه إلا ظلالاً في الأدب الشعبي مثل ملاحم عنترة وبني هلال وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة، ولكنها لم تظفر بالتفات الباحثين إلا بقدر يسير. أما الأدب العربي فإننا نجد فيه أمثلة للخيال الابتكاري، ويقوم على اختراع صور طريفة تستمد عناصرها من التجارب السابقة والمشاهد المختزنة والمعارف الشاملة بعد تهذيبها بالإضافة والحذف والتلوين.

كما نجد فيه أمثلة للخيال التأليفي، ويقوم على استدعاء صور حقيقية واقعية ثم الربط بينها بعد تنظيمها وتنسيقها ويشبه عملية التلوين في التصوير.

وهناك نوع ثالث من الخيال يسمى الخيال التفسيري، وهو لا يعنَى بتكوين صور جديدة كالابتكاري، ولا بالتنسيق أو التنظيم كالتأليفي، وإنما هو تعليلي يدرك الجمال ويحاول أن يفسره بالإشارة إلى مواضع الفتنة فيه والجمال، ونستطيع أن نجد عند شاعرنا أنماطاً من هذه الأخيلة على اختلاف في النسب والإبداع:

١ – فمن أمثلة خياله الابتكاري قوله:

كأنَّنا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنا

والسَّعدُ قد غضّ من أجفان واشينا

سِرّانِ في خاطر الظَّلْماءِ يكتُمُنا

حتى يكادَ لِسانُ الصُّبْحِ يُفشينا

(١) في متن الديوان (بياهين روض)، انظر: ص ٤٧٨ «المراجع».

فقد جعل من الوصل كائناً عاقلاً يسعى في ضمهما كما جعل من السعد حارساً أميناً يطمس أبصار الوشاة وصور للظلماء ضميراً يكنهما في أعماق أسراره، وللصباح لساناً ثرثاراً يفضح الأسرار.

٢ – ومن أمثلة خياله التأليفي قوله في مناجاة قرطبة:

نهاركِ وضَّاحٌ وليلُكِ ضَحْيانُ
وتُرْبُكِ مصبوحٌ، وغُصنُكِ نشوانُ
وأرضكِ تُكْسَى حين جَوُّكِ عُريانُ
وريَّاكِ روحٌ للنفوس وريحانُ
وحسب الأماني ظلُّكِ المُتَفَيَّأُ

فقد جمع صوراً متقابلة ألفها خير تأليف، ونسقها أبدع تنسيق.

٣ – ومن أمثلة خياله التفسيري قوله في تعليل نكبته بالسجن على رغم ما يتسم به من عظمة ونبوغ محاولاً تبريرها بما يقع في الحياة من أحداث:

ولا يُغْبِطِ الأعداءَ كونِيَ في السِّجْنِ
فإني رأيتُ الشَّمْسَ تُحْضَنُ بالدَّجْنِ
وما كنتُ إلا الصَّارمَ العَضْبَ في جَفْنِ
أو الليثَ في غابٍ، أو الصقر في وكْنِ
أو العِلْقَ يُخفى في الصِّوارِ ويُخْبَأُ

على أن أقوى ما يمتاز به شاعرنا هو الخيال التأليفي فنراه يؤلف في براعة عجيبة بين الصور الحسية والخواطر المعنوية مثل قوله:

له خُلُقٌ عذبٌ وخَلْقٌ مُحَسَّنٌ
وظرفٌ كعَرْفِ الطيب أو نشوة الخمرِ
يُعَلِّلُ نفسي من حديثٍ تَلَذُّهُ
كمثل المنى والوصل في عُقُبِ الهجرِ

وكثيراً ما يستدعي صور الأزهار والماء والأنداء والألحان والمدام، ثم يؤلف بينها في نسق عجيب:

نـــحـنُ من نَـــعْـــمـــائـــكمْ في زهـــرةٍ
جَــدّدْت عــهــدَ الــربــيع الــمُــقْــتَــبَلْ
زَهَـــرَتْ أخلاقُـــكمْ فـــابـــتـــســـمتْ
كـــابـــتـــســـام الـــورد عن لـــؤلـــؤِ طَلّْ

وهو ماهر في تنسيق الصور المتقابلة، استمع إلى موازنته بين مظاهر الطبيعة الرائعة ومفاتن الغيد الساحرة:

بَـــدَتْ في لِـــدَاتٍ كـــزُهْـــرِ الـــنُّـــجـــومِ
حِـــســـانِ الـــتـــحـــلِّي ملاحِ الـــعَـــطَلْ
مَـــشَـــيْنَ يُـــهـــادينَ زهـــر[1] الـــرُّبـــا
بـــيـــانع روض الـــصـــبـــا الـــمُـــقْـــتَـــبِلْ
فـــمن قُـــضُبٍ تَـــتَـــثَـــنَّى بـــريحٍ
ومـن قُـــضُبٍ تـــتـــثـــنَّى بِـــدَلّ
ومن زَهَـــراتٍ تُـــنَـــدَّى بمـــسكٍ
ومـن زَهَـــراتٍ تُـــنَـــدَّى بـــطَلّ

وكثيراً ما يعمد خياله إلى تجسيم الصور سواء كانت حسية أم معنوية:

لَـــبِـــسْـــنَـــا لـــديه الأمْن تَـــنْـــدَى ظلالُهُ
وزهـــرةَ عـــيشٍ مـــثـــلـــمـــا أيـــنعَ الـــزَّهْـــرُ
وعـــادتْ لـــنـــا عـــاداتُ دنـــيـــا، كـــأنمـــا
بـــهـــا وَسَنٌ أو هَـــزَّ أعـــطـــافَـــهـــا سُـــكْـــرُ

وطالما جسَّم له الوهم ما يشتهي من آمال:

يـــدنـــو بـــوصـــلـــك حـــين شَطَّ مَـــزارُهُ
وَهْـمٌ أكـــــادُ بـه أقَـــبِّـلُ فـــاك

وحينما يقاسي مرارة الهجر يهرع إلى خياله الخصب فيستدعي به طيف حبيبته فينعم بوصاله على بعد الديار:

إلفٌ أَلَــذُّ غُـــرورَ الـــوَصْلِ يـــصـــفَحُ لي

عـنه، ويـقـنـعـني الـتـعـلـيلُ بـالخُـدَعِ

تجلـو الـمُنَى شَخْصَهُ لي - وهْوَ محتجبٌ

عـنّي - فـمـا شـئتَ من مـرأى ومُـسْـتَـمَعِ

الموسيقى: Music

يرى (كولردج) أن الوزن ينشأ من توازن في العقل ناشئٍ عن الانفعال القهري والمجهود الاختياري، ومن التوازن بين الحالتين المتعارضتين – حالة التأثر الوجداني وحالة الضبط الإرادي – ينشأ الوزن الشعري، وينبغي أن تجتمع هاتان الطاقتان اجتماع تمازج واتحاد لا اجتماع تقارب أو جوار، وهذا الاتحاد ينتج من نفسه لغة بديعة الصور محركة للذهن مثيرة للوجدان، ويتجلى هذا في الشعر، وإن كانت تبدو منه أحياناً في النثر بعض السمات. ولقد حاول بعض الباحثين أن يربط بين وزن الشعر ونبضات القلب التي تبلغ ٧٦ نبضة في الدقيقة في الإنسان السليم، ويرون صلة وثيقة بين نبضات القلب وما يقوم به الجهاز الصوتي، وقدرته على النطق بعدد من المقاطع يعادل ثلاثة لكل نبضة قلبية، ومن الممكن الربط بين نبضات القلب وحركات الرقص والموسيقى والغناء، وهي فنون وثيقة الصلة بالشعر وكثيراً ما تتساند في المسرحيات وبخاصة في الأوبرات.

وبعد هذه المقدمة وفي ضوئها نحاول أن نتعرف الموسيقى التعبيرية عند ابن زيدون. إننا نعلم من دراستنا لحياته أنه كان مفتونًا بالموسيقى والغناء، وكثيراً ما كان الغناء يستخفه فينسى التقاليد ويغفل عن مقتضيات الذوق في معاملة حبيبته افتناناً منه بغناء جاريتها عتبة، وكان يجيد الإنشاد والترجيع إجادة تامة حتى اتهمه منافسه ابن حصن بأنه يتخذ منهما ستاراً يخدع به السامعين عما في شعره من ضعف وإسفاف ونستطيع أن نخرج من دراستنا لأوزانه الشعرية بالملاحظات الآتية:

١ – شعره التقليدي غير متنوع الأوزان فإن ٧٥٪ من شعره في المديح تستغرقها ثلاثة بحور هي الكامل والمتقارب والطويل، وشعره في الرثاء يكاد يستغرقه بحر الطويل.

٢ – ينهج الشاعر في موسيقاه نهج الموسيقى التقليدية المعروفة عند الشعراء الأقدمين،

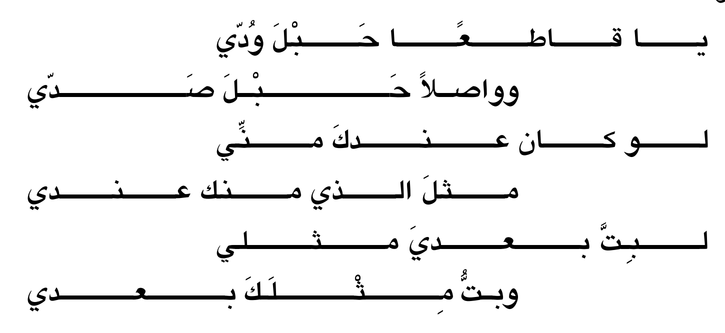
فإن ٥٠ ٪ من شعره تنتظمها البحور الممتدة: الطويل والبسيط والمتقارب، ويتألف كل منها من ثماني تفعيلات.

٣ - نظم الشاعر أغراضه في ١٧ وزناً ما بين كاملة ومجزوءة يستغرق البحر الطويل وحده ثلثها، وهي نسبة تقارب نسبته عند الشعراء الأقدمين.

٤ - شعره العاطفي يناهز ٦٠ ٪ من شعره، أما الشعر الذي تشيع الفكرة فيه كالمدائح أو المطيرات فيستغرق ما بقي من قصائده.

٥ - ينوع الشاعر في أوزانه العاطفية تنويعاً كبيراً، فالغزل يستغرق ١٤ وزناً من أوزانه السبعة عشر، والإخوانيات - وهي قريبة عنده من فن الغزل - تستغرق ١٣ وزناً، وهذا يدل على خصب عاطفته وتعدد مساربها ووفرة تياراتها، فكلما برزت عاطفته في صورة أعطاها الشاعر الموسيقى الملائمة لها، فهي تارة ثائرة، وتارة هادئة، وقد ترد موجزة، وقد ترد مسهبة، وربما كانت مرحة راقصة، وربما كانت قاتمة مجللة بالسواد.

هذا من حيث الأوزان، أما من حيث ترتيب الألفاظ وتنسيق الجمل بحيث تنتظمها روح موسيقية واحدة فإن شاعرنا كان حريصاً عليها كل الحرص، وقد استخدم لتنسيقها فنون الترصيع والطباق فأمدته بأعذب الألحان، ولهذا كان يقسم عباراته في البيت الواحد إلى جمل متموجة تكاد كل موجة منها تعادل زميلتها وتلائمها كل الملاءمة. وقد بلغ التنغيم الموسيقي عند كل منها أوجه في الشعر العربي، فأرقص القلوب وشنف الآذان، استمع إلى قول شاعرنا:



يا قاطعاً حَبْلَ وُدّي ... وواصلاً حَبْلَ صَدّي

لو كان عندكَ منّي ... مثلَ الذي منك عندي

لبِتَّ بعديَ مثلي ... وبتُّ مِثْلَكَ بعدي

---

(١) في متن الديوان (عواملُ) ص ٤٥٣ «المراجع».

وكان يهتـم بالقافية اهتماماً كبيراً فيمهد لها بلباقة حتى يتوقعها السامع قبل يلفظها الشاعر:

قـل لمـن دان بــهـجـري وهـــواه لِـــيَ ديـــنُ

يـــا جـــوادًا بِـيَ، إنّـي بـك والـلــه ضــنـيـنُ

عَــجَــبًـــا لـلـقـلـب يـقـسـو مـنـك والـقـدّ يـلـيـنُ

الصورة Form:

يرى بعض النقاد أن مقياس الصورة الأدبية هو أن تستطيع – في دقة وأمانة نقل العواطف والأفكار، ولكننا إذا اكتفينا في الأسلوب العلمي بالدقة والأمانة فإننا لا نستطيع أن نكتفي بهما في الأسلوب الأدبي، بل نضيف إليهما جمال التصوير وتعدد الألوان وعذوبة التنغيم، وكان شاعرنا بارعاً في تلوين صوره وأنغامه وفقاً للتجارب الداخلية والظروف الخارجية التي تدفعه للتعبير، فنراه يلجأ إلى الروعة والفخامة والأوزان الممتدة والقوافي الجزلة في المواطن الجدية، استمع إلى شكواه ما يقاسيه من إهمال:

ألا هل أتى الـفـتـيـانَ أن فـتـاهُمُ فـريـسـةُ من يـعـدو، ونُـهْـزَةُ منْ يـسـطـو؟

وأنَّ الجَـوادَ الـفـائتَ الـشَّـأو صـافنٌ تَـخَـوَّنَهُ شَـكْلٌ وأزرى بـه ربطُ

وأنَّ الحـسـامَ الـعَـضْبَ ثـاوٍ بـجـفـنه ومـا ذُمَّ من غَـرْبَـيْـهِ قـدٌّ ولا قطُّ

أما في مواطن اللهو والطرب والمناجاة فتراه يطلق نفسه على سجيتها مختاراً البحور القصيرة والقوافي السهلة والتعبير الرشيق:

مـتـى أبـثُّـكَ مـا بـي؟ يـاراحـتـي وعـذابـي

(١) في متن الديوان (ومرأى الأرض) ص ١٦٣ .

(٢) في متن الديوان (كأنّه). ص ١٦٣ مع ملاحظة اختلاف في ترتيب بعض الأبيات.

مـــــتى يـــــنــــوبُ لــــســــــاني
- فـي شَـــــرْحِـهِ - عـن كــــــتـــــــابـي؟
مــــا الـــــبـــــدرُ - شَفَّ ســــنــــاه
عـــــلـى رقـــــيق الــــسَّــــحـــــابِ -
إلا كَــــــــوَجْــــــــهِكَ لــــــــمّـــــــا
أضــــــاءَ تحت الـــــــذِّــــــــقـــــــابِ

وصياغة الشاعر تعتمد أحياناً على المحسنات البديعية في غير تكلف ولا استكراه، وهو مشغوف بالمطابقة، وقد يتبسط فيمدها إلى المقابلة مثل قوله:

مـــاذا يَـــريـــبُكَ من فـــتًى، عَـــزَّ الـــهَـــوَى
فَــعَــنــا لــنــخــوتِهِ بــذلَّــةِ خــاضِعِ؟
هل غَـــيْـــرَ أنْ مَـــحَضَ الــوفــاءَ لــغــادرٍ؟
أو غــيــرَ أنْ صــدقَ الــوِصــالِ لــقــاطِعِ؟

ومما يلهج به كثيراً مراعاة النظير:

ودون المـــنى فــيــهم: جــيــادٌ صـــوافنٌ
ومـــأثـــورةٌ بـــيض، وسُـــمــرُ عَـــواسِلُ[1]
نَــضَــدْتَ ريــاحـــينَ الــطَّلاقــةِ غَــضَّــةً
ورقـــرقتَ مـــاءَ الـــبِـــرِّ وهْـــوَ سُلاسِلُ
مــســاعٍ هـي الــعِــقْــدُ انــتــظــامَ مــحــاسنٍ
تحــلّى بـــهـــا جــيــدٌ من الــدهــر عــاطلُ

ويستهويه الجناس أحياناً سواء كان تاماً أو ناقصاً:

فــهـمتُ مـعـنى الــهَـوَى من وحْيِ طَـرفكِ لي
إن الحـــــوار لمـــــفـــــهـــــومٌ من الحَـــــوَرِ
والـــصَّـــدْرُ مـــذ وردتْ رِقْــــهَـــا نــــواحــــيَهُ

(١) في متن الديوان (استعار) ص ٣٣٨ «المراجع».

تــــومُ الـــقَلائـــد لم تَـــجْـــنَـحْ إلى صَـــدَرِ

واهـــاً لـــثــغـــرِكِ ثَـــغْـــرًا بـــات يـــكــلـــؤُهُ

غــيــرانُ تــســري عـــوالــيهِ إلى الـــثُّــغَـــرِ

****

منزلته الأدبية

على الرغم من شهرة ابن زيدون وافتتان الناس به فإنه لم ينل مكانه الجدير به، وإذا كان (لامرتين) يعرّف الشعر بإنه إحلال كل ما في نفس الإنسان وقلبه من مشاعر خاصة، وكل ما في عقله من تفكير مقدس في الطبيعة، ومزج كل أولئك بما فيها من جمال التصوير والتوقيع، فإننا بتطبيق هذا التعريف على ابن زيدون نجده قد بلغ القمة أو هو منها على مدى قريب، فقد امتزج هواه الغلاب بذكريات طفولته العذاب وتدفقا في تيار شعوره القوي بالطبيعة وهيامه بها هياماً فاق كل تقدير، فعاطفة الحب تجيش في نفسه ممتزجة بنبضات الطبيعة المتعددة الصور والألوان، وحسبنا هنا أن ننقل بعض أبياته في الزهراء لنرى مدى شعوره بالطبيعة ومشاطرتها ما يجيش بصدره من مشاعر وأشجان:

إنِّي ذكـــرتُـكِ بـــالـــزهـــراء مُـــشـــتـــاقَـــا

والأفْقُ طـــلقٌ، ووجـهُ الـــرَّوض[1] قـــد راقـــا

ولـــلـــنَّـــســـيم اعـــتلالٌ - في أصـــائـــله -

كـــأنمـــا[2] رقّ لي فـــاعـــتلَّ إشـــفـــاقـــا

والـــرَّوْضُ - عن مـــائه الـــفـــضيّ - مـــبـــتـــسمٌ

كـــمـــا شَـــقَّـــقْتَ عن الـــلـــبّـــات - أطـــواقـــا

يـــومٌ كـــأيّـــام لـــذاتٍ لـــنـــا انـــصـــرمتْ

بِتنا - لها حين نامَ الدهرُ - سُرّاقا
نلهو بما يستميل العين من زهرٍ
جالَ النَّدَى فيه حتى مالَ أعناقا
كأن أعيُنه - إذ عايَنَتْ أرقي -
بكتْ لِمَا بي، فجال الدمعُ رقراقا
وردٌ تألق - في ضاحي منابته -
فازدادَ منه الضُّحَى في العين إشراقا
سَرَى يُنافِحُهُ نَيلوفرٌ عَبِقٌ
وَسْنانُ نَبَّهَ منه الصُّبْحُ أحْداقا
كلٌّ يُهيجُ لنا ذِكْرَى تَشَوُّقِنا
إليك، لم يَعْدُ عنها الصَّدْرُ أنْ ضاقا
لا سكّنَ اللهُ قلبًا عَنّ ذكركُمُ
فلم يَطِرْ بجناحِ الشَّوْقِ خَفّاقا

والأبيات لا تحتاج منا إلى تعليق.

وشاعرنا لا يكاد ينسى الطبيعة حتى في سجنه فإنه يمزج شكاته بترنيمات يرفعها للطبيعة ممزوجة بذكريات يرتلها عن حبيبته، فالقمر يتسلل إلى غرفته بالسجن فيثير فيه كوامن الذكريات، والليل الساجي يبعث فيه أشجى الأنات. فيكاد يمزج سواده بسواد القلب والبصر لو أسعفته الأمنيات.

استمع إلى قصيدته في شكواه من سجنه إلى أميره أبي الحزم فقد استهلها بقوله:

ما جال بَعْدَكِ لحظي في سَنا القَمَرِ
إلاَ ذكرتُكِ ذِكْرَ العين بالأثرِ
ولا اسْتَطَلْتُ ذَماءَ الليل من أسفٍ
إلا على ليلةٍ سَرَّتْ معَ القِصَرِ
في نشوةٍ من سِناتِ الوصلِ موهمةٍ
ألاّ مسافةَ بين الوَهْنِ والسَّحَرِ
ناهيكِ من سَهَرٍ بَرْحٍ تَألَّفَهُ
شوقٌ إلى ما انقضى من ذلك السَّمَرِ

فلـيتَ ذاك السـَّوادَ الجَـوْنَ مُـتَّـصِلٌ
لـوِ اسـتـعـاد[1] سـوادَ الـقـلب والـبَـصَـرِ

ولا نكاد نجد في الشعر العربي مثيلاً لابن زيدون في هذا الاتجاه، بل إن الشعر الغربي لم يعرفه إلا في العصور الحديثة، وقد تنبه إلى هذا أستاذنا الدكتور إبراهيم سلامة حيث قرر أن الاتجاه العاطفي الرمزي المتعلق بالطبيعة والذي اتجه إليه الأدب الأوربي في القرن التاسع عشر كان معروفاً لدى العرب من يوم أن عرفوا الشعر، وبخاصة لما شاهدوه رائعاً جميلاً في الأندلس واستشهد على هذا بقصيدة ابن زيدون في الزهراء، ثم بمقطوعته البائية التي مطلعها:

مـتـى أبـثّـك مـا بـي؟
يـا راحـتـي وعـذابـي

ثم حلل هذين الأثرين وعقب عليهما بقوله: «هذه الرمزية أو هذا التمثل في الطبيعة هو ما يريده النقد الأدبي، وهو بعينه ما فهمه العرب من زمن بعيد، وهو ما كان واضح الأثر جلياً في طبيعة الأندلس الواضحة». ومن الغريب أن القدماء على إعجابهم بابن زيدون فضلوا عليه ابن هانئ حيث جعلوه أشعر الأندلسيين. ولا وجه للموازنه بين الشاعرين، وقد آن لنا أن نصحح هذه الأحكام في ضوء موازين النقد الحديث. على أن بعض القدماء افتتنوا بنونية ابن زيدون فقرروا أن «من لبس البياض، وتختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، وروى قصيدة ابن زيدون، فقد استكمل الظَّرف». وقد حاكوا حولها الأساطير فزعموا أنه ما حفظها أحد إلا مات غريباً، وحاول كثيرون وما زالوا يحاولون معارضتها فيقصرون سواء منهم من عاصره، أو من تلاه، ومن أشهر معارضيه أبوبكر بن الملح وصفي الدين الحلي وابن الوكيل وابن حبيس، وقد عارضه في العصر الحديث إسماعيل صبري وشوقي وحافظ، وسيظل مصدر وحي لكثيرين.

أما الباحثون الغربيون فقد أشادوا بعبقرية ابن زيدون ووضعوه في مكانه الرفيع.

١ - فيقرر (كور) أن أسلوب ابن زيدون النقي المنهجي استحق أن يكون المثل الأعلى لمن تلاه من الشعراء.

٢ - يرى (نيكل) أن ابن زيدون: «كان ممثلاً لأنقى أسلوب عربي منهجي في الأندلس، وأنه يمكن موازنته بالبحتري أو المتنبي» ثم يقرر أنه «لولا تأثير ولادة على ابن زيدون لفقد الشعر العربي أعظم جواهره الثمينة».

٣ - ويذكر (جب) أنه: «يعتبر على الأرجح أعظم شعراء الأندلس بأغاني حبه المبكر وبرسائله الشعرية في أخريات حياته».

٤ - ويقول (غومس): «إنه أعظم شاعر قديم وحديث أنجبته الأندلس».

٥ - ويقرر (ليفي بروفنسال) إنه: «يعد بحق أكبر شعراء العصر الكلاسيكي الأندلسي الثاني، والمتغني بالحب الذي لا يعدله أحد، وقد أوحى إليه اتصاله بولادة أشعاراً رائعة الجمال متميزة في أكثر الأحيان بخلوها من البريق الصاخب الذي تميز به شعر من سبقه من الشعراء، وشعره إلى ذلك ذو نزعة إنسانية يكاد يشبه شعر الغربيين».

٦ - ويذكر الدكتور (فيليب حتي) أن بعض الدارسين: «يعد ابن زيدون أعظم شعراء الأندلس على الإطلاق».

وقد أولع كثير من المستشرقين بموازنته ببعض شعرائهم الغربيين من قدماء ومحدثين مثل (أوفيد) و(تيبولاس) و(بترارك)، وعقدوا لذلك فصولاً مسهبات.

كما شغف كثيرون منهم بترجمة آثاره فقد نشر (ريسك) الرسالة الهزلية مع ترجمتها إلى اللاتينية في ليبسك سنة ١٧٥٥م، وترجمت هذه الرسالة أيضاً إلى التركية مع شرح ابن نباتة لها.

ونشر (بستورن) الرسالة الجدية مع ترجمة لاتينية لها في كوبنهاجن سنة ١٨٨٩م، وترجم طائفة من شعره كل من (نيكل) و(كور) و(هنري بيرز).

أما أثر ابن زيدون في من تلاه من الأدباء فقد تحدثنا عمّن عارضه من الشعراء، ونذكر هنا أن كثيرين من الكتاب تأثروا به، ومن أشهرهم محيي الدين ابن عبدالظاهر، فقد قلده في رسالته الجدية برسالة وجهها إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور في شخصٍ تنقصه. وأتبعها بقصيدة جارى فيها قصيدة ابن زيدون يقول في مستهلها:

العلا في ارتشاف دَرِّ العلوم

وقد عارض الصفدي ابنَ زيدون وقلده في الاستشهاد بالأعلام والأحداث في ترجمته لأستاذه محمد بن يوسف بن علي أبي حيان في كتابه المخطوط (أعيان العصر).

وكمــا أولع القدماء بمحاكاة ابن زيدون في شعره ونثره أولعوا بشرح رسالتيه الجدية والهزلية.

(أ) فمن شراح الرسالة الجدية:

١ - صلاح الصفدي في كتابه تمام المتون.

٢ - عبدالقادر البغدادي في كتابه مختصر تمام المتون (اختصر الشرح السابق وعلق عليه).

٣ - الشيخ حمزه فتح الله في كتابه المواهب الفتحية.

٤ - الشيخ مصطفى عناني في كتابه إظهار المكنون.

٥ - أبوبكر محمد عليم في كتاب الدر المخزون.

(ب) ومن شراح الرسالة الهزلية:

١ - جمال الدين بن نباته المصري في كتابه (سرح العيون).

٢ - محمد بن البنا المصري في كتابه (العيون).

٣ - نصر الهوريني في كتابه (مسودة التحريرات النصرية).

وحيه للقصاص المعاصرين:

وكما شغل برسالتيه الشراح والمعقبون شغل بأحداث حياته وروعة آثاره كتاب القصة المحدثون، ولا نكاد نجد شاعراً عربياً قد ظفر بالإيحاء إلى طائفة من القصاص كما ظفر ابن زيدون، وقد تنوعت القصص فيه ما بين سرد تحليلي أو حوار مسرحي، وما بين انسياب نثري أو نظم شعري، وأهم ما عرفناه من ذلك مرتباً بحسب تاريخ ظهوره:

١ - الوزير ابن زيدون مع ولادة: مسرحية من ستة فصول للأستاذ إبراهيم الأحدب الطرابلسي.

٢ - غرام الشعراء: فصل مسرحي شعري للشاعر أحمد رامي.

٣ - ولادة وابن زيدون: لمؤلف عراقي حدثنا عنه إخواننا العراقيون.

٤ - ولادة: مسرحية شعرية من أربعة فصول وستة مناظر للأستاذ علي عبدالعظيم.

٥ - هاتف من الأندلس: رواية نثرية تحليلية للأستاذ علي الجارم.

٦ - غراميات ولادة: مسرحية شعرية من ثلاثة فصول للشاعر الأردني حسين سراج باشا.

وستظل حياة ابن زيدون وآثاره وحيًا خالداً للقصاص والكتاب والشعراء مادام لسانٌ يلهج وقلبٌ يخفق بالحب وفكر ينبض بالحياة.

****

الديوان

فرغنا من الحديث عن عصر الشاعر ومن ترجمتنا المسهبة لحياته ودراستنا النقدية لآثاره، والآن حان لنا أن نعرض آثاره بعد أن نطمئن إلى أصالتها كل الاطمئنان، أما الديوان فليس لدينا ما يثبت أن الشاعر جمعه بنفسه، أو أن أحداً جمعه في عصره وإن كان (أوغست كور) يذكر أن معاصري الشاعر جمعوا ديوانه وبخاصة ابن حيان، ولكنه لم يذكر لنا المصدر الذي استقى منه هذا الخبر، مما يجعله محلاً للارتياب، وبخاصة إذا علمنا أن أبا العطاف بن حيي – وكان مولعاً بجمع الشعر – سأل ابن زيدون أن يُطلعَهُ على نبذة من شعره فمطله حتى توسل إليه بالمعتمد بن عباد، ولم نجد في المراجع التي عنيت بتسجيل الكتب أي إشارة إلى الديوان، وأول خبر يصلنا عن ديوان الشاعر ما ذكره ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨هـ من أنه وقف على ديوان شعري لابن زيدون وعلى كثير من ترسله.

وقد اعتمدنا في نشر ديوان الشاعر على أربع نسخ خطية هي:

١ – النسخة رقم (٤٩٦ أدب) بدار الكتب المصرية وتقع في ١٧٩ صفحة، وهي مجهولة الزمن والكاتب ولكن يبدو للدارس أنها أقدم النسخ الخطية الأربعة وأدقها، ونرجح أنها مصدرها وقد رمزنا إليها بحرف (أ).

٢ – النسخة رقم (٥٥٥ أدب) بدار الكتب المصرية كتبها عبدالرحمن ابن عبدالله الحسيني البغدادي سنة ١٢٨٨هـ في ١٥٣ صفحة، وليست لقصائدها عناوين تدل على الموضوعات أو الأعلام، بل تركها الناسخ على بياض وقد رمزنا إليها بحرف (ب).

٣ – النسخة رقم (٧٦ شعر تيمور) بالمكتبة التيمورية وهي أجود النسخ خطاً وأحسنها تنسيقاً مكتوبة سنة ١٣٠٨هـ وكاتبها مجهول وقد رمزنا إليها بحرف (ت).

٤ – النسخة رقم (٤٤٣ أدب) بمكتبة الأزهر، بخط محمد عبدالله الزمراني، وهي مجهولة التاريخ، وقد رمزنا إليها بحرف (ز) وتكاد تكون صورة طبق الأصل من النسخة (ب).

والنسخ جميعها متشابهة في الترتيب وتسقط منها جميعاً بعض الأبيات أو العبارات، مما يرجح أنها من مصدر واحد، أو أنها اعتمدت على النسخة الأولى مع محاولة بعض التحقيق في الأخريات.

وقد طبع الديوان مرتين أولاهما بالقاهرة بمطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٣٢م شرح وتحقيق الأديبين كامل كيلاني وعبدالرحمن خليفة، وقد علمنا من أولهما أنهما اعتمدا على نسختي دار الكتب الخطيتين أ، ب وقد بذل الناشران جهداً مشكوراً في تحقيق النصوص وتصحيح التحريفات، واجتهدا في ملء بعض العبارات المتروكة، وشرحا كثيراً من مفرداتها اللغوية، وأضافا إلى الديوان رسائل الشاعر وتعليقات عديدة من الكتاب القدماء والمحدثين، كما أضافا إليها شعر المعتضد بن عباد وابنه المعتمد وابن عمار وبعض معارضات الشعراء لابن زيدون، وقد انتفعنا ببعض ما بذلاه من جهد مشكور.

ولكننا نأخذ على هذه الطبعة:

١ - أنها غير مرتبة على نسق معلوم، فلا هي اتبعت النسخ الخطية ولا ترتيب القوافي كما كان السابقون يفعلون.

٢ - استطرد الناشران في الشرح لمناسبة ولغير مناسبة، مما خرج عن القصد إلى حد الإسراف.

٣ - أخطأهما التوفيق في بعض التصحيحات أو الشروح على الرغم مما بذلاه من جهد مشكور.

٤ - خلط الناشران بين الأسماء خلطاً عجيباً، مثل أبي الحزم بن جهور وأبي الوليد بن جهور والمعتضد والمعتمد، وأبهما بعض الأسماء مثل الوزير أبي عامر، وأبي حفص بن برد (يطلق هذا الاسم على شاعرين هما الجد والحفيد).

٥ - نسبا إلى الشاعر ما ليس له، وإن كانا قد استدركا فصححا بعض الأخطاء، ولكن في مكان غير ظاهر مما ضلل ناشر نسخة بيروت.

٦ - أغفلا بعض قصائد الديوان وبعض أبيات من قصائده.

الديـــوان

١ – نشوة القرب

النسيب

«عرف شاعرنا فنون الحب، وآثارها في القلب، فأحس نشوة اللقاء، كما ذاق مرارة الجفاء، وسعد بالوصال، كما شقي بالدلال، وتفتحت نفسه للطبيعة وروعتها، كما انتشت بالصداقة وعذوبتها، وتراوحت حياته بين الإقبال والإدبار، والسمو والانحدار، والتجني والملال، وقرب الديار، وشحط المزار، وحنين الذكريات، وبريق الأمنيات، فرتل هذا كله أنغامًا خالدات، استطعنا أن نردها إلى سبعة ألحان، وأن ننسقها في سبعة ألوان، وما أشبه القلب الإنساني في إبداعه، بالطيف الشمسي في إشعاعه».

بلوغ الأمل[1]

سعد الشاعر بلقاء حبيبته، وضَمَّا إلى نشوة اللقاء، نشوة الغناء، فترنمت عتبة وصيفة ولادة بهذين البيتين:

أحـــبَّـــتَـــنـــا: إنِّي بــلـــغتُ مُـــؤمَّـــلي
وســاعــدني دهــري وواصــلــني حِــبِّي[2]
وجــاء يُـــهــنّــيــني الــبــشــيــرُ بــقُــربهِ
فــأعــطــيــتُهُ نــفــسي، وزِدتُ له قــلــبي

****

(١) المرجح أن البيتين من نظم الشاعر صاغهما لتشدو بهما عتبة وصيفة ولادة في خلسات اللقاء وقد أثبتناهما عن الذخيرة.
(٢) الحب بكسر الحاء: الحبيب.

ليلة وصال[1]

....

هَـزَّ مــنه الــصِّــبــا فَــقَــوَّمَ شَــطْـرًا

وتجــافى - عن الــوِشــاحِ - بــشــطـرِ[2]

رَشَــأٌ[3] أقــصــد الجــوانحَ قــصْــدًا

عن جــفــون كُـحـلـن - عـمـدًا - بـسِـحْـر

كُــسِيَ الحُــسنَ فــهْــو يــفْــتَنُّ فــيه

ســاحــبًــا ذيلَ بُــرده الْــمُــسْــبكــرِّ[4]

تحت ظِلٍّ - من الــغَــرارة - فَــيْــنَــا

نَ، ورَوْقٍ[5] منَ الــشَّــبــيــبــةِ نَــضْــر

أبْــرَزَ الجــيــدَ[6] في غلائلَ بــيضٍ

وجَلاَ الخَــدَّ في مَــجــاسِــدَ حُــمْــر

وتــثــنّتْ بــعِــطْــفِه[7] - إذْ تــهَــادَى -

خْــطَــرةٌ تَــمْــزِجُ الــدَّلالَ بــكِــبْــر

✡✡✡✡✡

---

(١) آثرنا نقل هذه الأبيات من قصيدة طويلة لأنها تناسب المقام، أما القصيدة بأكملها فيمكن الرجوع إليها في الإخوانيات.

(٢) الشطر: النصف، تجافى: تباعد، الوشاح: قطعة من النسيج عريضة مرصعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقها ووسطها، والمراد أن قدها ممشوق برزت منه بعض الأجزاء وضمر البعض الآخر، كما قال عروة بن أذينة:

بـيضـاء بـاكـرهـا الـنـعـيم فـصـاغـهـا

بـلـبـاقـة (فـأدقّـهـا وأجـلـهـا)

(٣) الرشأ: الظبي إذا قوي ومشى خلف أمه، أقصد: طعن طعنة صائبة قاتلة.

(٤) المسبكر: الممتد المسترسل.

(٥) روق الشبيبة أولها، وفي نسخة ت (رق)

(٦) الجيد: العنق أو مقدمه أو موضع القلادة منه، الغلائل: الملابس الداخلية، والمصبوغة منها بالزعفران أو أي صبغ أحمر

زارني - بـعـد هــجْـعَــةٍ - والــثُّــريّــا
راحَـــةٌ تَــقْــدِرُ الــظلامَ بــشِــبْــرِ[1]

والـــدُّجَى - من نجــومه - في عُـــقــودٍ
يَـــتَلألأنَ من سِـــمَــاكٍ ونَـــسْـــرِ

تَـــحْـــسَبُ الأُفْقَ بـــيـــنـــهـــا لازَوْردًا
نُــثِــرَتْ - فَــوْقَهُ - دنــانــيــرُ تِــبْــرِ

فَـــرَشَـــفْتُ الـــرُّضـــابَ أعـــذبَ رَشْفٍ
وهَــصَــرْتُ الــقَــضــيبَ ألــطفَ هَــصْــرِ

ونــعِــمْــنــا بــلفّ جــسمٍ بــجــسمٍ
- لــلــتَّــصــافي - وقــرْعِ ثَــغْــرٍ بــثَــغْــر

يــا لــهــا لــيــلــةً! تَــجَــلَّى دُجــاهــا
- من ســنــا وجْــنَــتَــيْهِ - عن ضــوءِ فــجــرِ

قَــصَّــرَ الــوصْلُ عُــمْــرَهــا، وبــوُدِّي
أن يــطــولَ الــقَــصــيــرُ مــنــهــا بــعُــمْــري

****

(١) تقدر: تقيس.

مساعفة الحظ[1]

....

إذِ الـــدنـــيـــا مـــتى نَـــقْـــتَـــدْ

أبيَّ ســـــرورهـــــا يـــــتـــــبعْ[2]

وإذْ لــــــلـــــــحظِّ إقـــــبـــــالٌ

وإذْ في الـــعـــيش مُـــسْـــتَـــمْـــتَعْ

وإذْ أوتـــــارُنـــــا تـــــهْـــــفُـــــو

وإذ أقـــداحُـــنـــا تُـــتْـــرع[3]

وأوطـــــارُ المـــــنى تُـــقْـــضَى

وأســـبـــابُ الـــهـــوى تـــشـــفعْ

فـــمن أُدْمَـــانَـــةٍ تـــعـــطـــو

ومن قُـــمْـــرِيْـــةٍ تَـــسْـــجعْ[4]

....

****

(١) اخترنا هذه الأبيات من قصيدة طويلة لمناسبتها للمقام، أما القصيدة فقد أوردناها كلها في فن الهجاء.

(٢) معنى البيت أن لذات الدنيا - إذا تأبت على الناس - تنقاد إلينا وتتبعنا أنَّى شئنا.

(٣) تهفو: تسرع إلى الحركة، تترع: تملأ.

(٤) الأدمانة: الظبية المشربة بالبياض - والأفصح فيها أدماءة، تعطو: تمد عنقها وترفع مقدمتيها لتناول أوراق الشجر، القمرية: نوع من الطيور المغردة تشبه الحمام.

باقة أزهـــار

ورامــشــةٍ يــشــفي الــعــلــيلَ نــســيــمُــهــا
مــضــمَّــخــةَ الأنــفــاسِ طــيِّــبــةُ الــنَّــشْــرِ[١]
أشـــار بـــهـــا نـــحـــوي بـــنـــانٌ مـــنـــعّمٌ
لأَغْــيَــدَ مــكْــحُــولِ المــدامعِ بــالــسِّــحْــر[٢]
سرتْ نَـضـرةٌ - من عـهـده - في غـصـونـهـا
وَعُــلَّتْ بمــسْكٍ من شــمــائــلــهِ الــزُّهْــر[٣]
إذا هـــو أهـــدى الـــيـــاســـمـــينَ بـــكـــفّه
أخــذتُ الــنــجــومَ الــزَّهــرَ من راحــةِ الــبــدر
له خُـــــلُقٌ عـــــذبٌ وخَـــــلْقٌ مُـــــحَـــــسَّنٌ
وظـرَفٌ كـعَـرْفِ الـطِّـيبِ أو نَـشْـوَةِ الـخـمْـر
يُـــعَـــلِّلُ نـــفـــسي من حـــديثٍ تَـــلَـــذُّهُ
كمـثلِ الـمُنَى والـوصلِ في عُقْبِ الـهجْرِ[٤]

****

---

(١) الرامشة: طاقة من الريحان أو الأزهار. مضمخة: معطرة. النشر: الرائحة الذكية.

(٢) الأغيد: الناعم أو الوسنان المائل العنق.

(٣) علت: سقيت ثانياً.

ذكريات حاليات

أَذْكَـرْتِـنِي ســالِفَ الـعــيش الــذي طــابَـا

يــا لــيت غــائبَ ذاك الــعــهـدِ قـد آبـا[١]

إذْ نـحنُ في روضــةٍ - لـلـوصل- نَـعَّـمَـهَـا

من الــسّــرورِ غَـمــامُ فـوقَــهَــا صَـابـا[٢]

إني لأعـــجَبُ من شـــوقٍ يـــطـــاوِلُـــني

فـكـلّـمـا قـيل فـيه: (قـد قَـضَى) ثـابـا[٣]

كمْ نــظـرةٍ لكِ في عـيـني عـلـمتِ بـهـا

- يـومَ الـزيـارةِ - أنَّ الــقـلـبَ قـد ذابـا[٤]

قـلبٌ يُـطـيلُ مُـعـاصـاتي لـطـاعـتـكمْ

فــإنْ أُكَـلِّــفْهُ عـــنـكم سَـلــوةً يــابَى[٥]

مـا تَـوْبَـتي بـنـصـوحٍ - من مـحـبّـتـكمْ -

لا عـــذّب الـــله إلا عـــاشـــقًـــا تـــابـــا[٦]

****

(١) في نفح الطيب: ذاك الوقت.

(٢) في نفح الطيب: أنعمها.

(٣) في نفح الطيب: يطالبني.

(٤) في نفح الطيب: كم نظرة لك عندي قد علمت بها.

(٥) في نفح الطيب: وخريدة القصر:

قـلب يـطـيل مـعـاصـاتي لـطـاعـتـكم

فـإن أكـلـفه يـومـاً سـلـوة يـابَى

وفي أصول الديوان: (مقاماتي) وقد آثرنا رواية النفح والخريدة لأنها أنسب للمعنى وأقرب إلى صياغة الشاعر الفنية، يابى: يأبى.

(٦) في الخريدة: في محبتكم.

هدية محبوبة

أَهــــدي إلـيَّ بـــــقـــيَّـــةَ الـــــمِــــســـــواكِ

لا تُـــظـــــهــــري بُـــخْـلاً بـــــعُــــودِ أَراكِ[١]

فـلــــعلَّ نــفــسي، أنْ يُــنَــفَّسَ ســـاعَـــةً

عــنــهــا بــتــقْــبـيـل الــمُـقَـبِّلِ فــاكِ[٢]

يــا كــوكـبًــا - بــارَى ســنــاهُ ســنــاءَه -

تُــــزهَى الـــقـــصـــورُ به عـــلـى الأفلاكِ[٣]

قَـرَّتْ وفـازتْ - بـالـخـطـيـر من الـمُـنَى -

عـــينٌ تُـــقَـــلِّبُ لحـــظَـــهَــا فـــتَـــرَاكِ

****

(١) الأراك: شجر يتخذ الناس من فروعه المساويك.

(٢) معنى البيت أنه يتمنى أن ينفس عنه حزنه تقبيل المسواك الذي قبل فاها.

(٣) السنا: الضوء، والسناء الرفعة. والمعنى أنها اجتمع فيها الجمال الوضاء والحسب الرفيع، وأن القصور تباهي بها أفلاك النجوم. وفي نسخة ت (تزهو).

حسن تعليل[1]

قـــال لـي: «اعْــتَلَّ مَنْ هَــوِيتَ» حَـــسُـــودٌ
قـــلتُ: «أَنتَ الـــعـــلـــيلُ وَيْـــحَكَ لا هُـــو»
مـــا الـــذي أنـــكـــرُوهُ من بَـــثَـــراتٍ
ضـــاعـــفتْ حُـــســـنَهُ وزادَتْ حُلاهُ[2]
جِـسْـمُهُ - في الـصَّـفَـاءِ والـرِّقَّـةِ - الْـمـا
ءُ، فلا غَـــــرْوَ أنْ حَـــــبَـــــابٌ عَلاهُ[3]

****

(١) ظهرت بعض الحبوب في وجه حبيبته فصاغ فيها هذه الأبيات.
(٢) وفي بعض نسخ نفح الطيب: (وزانت حلاه).
(٣) الحباب بفتح الحاء: الفقاقيع التي تعلو صفحة الماء.

نور ونار[1]

وبِـــنَـــفْـــسي - وإن أَضَـــرَّ بِـــنـــفـــسي -
قَـــمَـــرٌ لا يُـــنَـــالُ مِـــنـــه الـــسِّـــرَارُ[2]
جَـــالَ مَـــاءُ الـــنَّـــعِـــيمِ مِـــنه بِـــخَـــدٍّ
فِـــيه لِـــلْـــمُـــسْـــتَـــشِـــفِّ نُـــورٌ ونَـــارُ[3]
مُـــتَـــجَنٍّ، يَـــحْـــلُـــو تَـــجَـــنِّـــيهِ عِـــنْـــدِي
فَـــهْـــوَ يَـــجْـــنِي، ومِـــنِّيَ الإعْـــتِـــذَارُ

****

(١) لم ترد هذه الأبيات بالديوان، وقد أثبتناها عن كتاب المختار من شعر شعراء الأندلس، وعن خريدة القصر.
(٢) السرار: الليلة الأخيرة من الشهر.

الظالم المظلوم

سِــــرِّي وَجَــــهْــــري أنــــني تــــائمُ
قـــــام بكَ الــــــعُــــــذْرُ، فَلاَ لائِمُ[1]

لا يَــــنَمِ الــــواشِي الــــذي غَــــرَّني
هــــا أنــــا - في ظِلِّ الــــرِّضَى - نــــائمُ[2]

عُــدْتَ إلى الــوصلِ - كــمــا أشــتــهي -
فــالــهــجــرُ بــاكٍ، والــرِّضَى بــاسِمُ

حــسـبي، أنــا المــظــلــومُ في مــا جــرى،
وإن تَــشَــأ قــلــتُ: « أنــا الــظــالمُ»

يــا ســائلاً عَــمَّــا بــنــفــسي له
- تجــنِّــيًــا - وهْــوَ به عــالِمُ

مــعــنى الــهــوَى أنتَ، وشَــخْصُ الــمُــنَى،
دَعْــنِيَ مِــمَّــا يــزعُمُ الــزاعِمُ[3]

****

(١) تائم من التيم: وهو فساد العقل وذهابه من الهوى، والمعنى أن جمالك الفتان أذهل عقلي فلا لوم علي سواء كتمت حبك أو أعلنته وفي الأصل (نائم).

(٢) نائم من النوم أي الهدوء والسكينة، أو من النيم بكسر النون: أي النعمة التامة.

(٣) في الأصل: معي الهوى ولعل الصواب ما أثبتناه.

الحبيبة (أسماء)[1]

إنَّ لـلأرضِ والـســـسَّـــمــــاءِ ولِـــــلْـــمَـــــا
ءِ عـــــلـــــيـــــنَــــــا أَذِمَّــــــةً لا تُـــــذَمُّ[2]

هِـيَ بَـــــــــــعْـضُ اسْـمِ مَـنْ أُحِـبُّ وِلاءً
وبـــتــكــريـــر بَـعْـضِـهــا يَـسْـتَــتِمُّ[3]

✱✱✱✱

(١) ربط الشاعر بين الطبيعة وبين اسم حبيبته (أسماء)، فرجع حروف اسمها إلى الأرض والسماء والماء.
(٢) أذمة: جمع ذمام وهو الحق أو الحرمة.

مفضض الثغر[1]

أيـــتُّـــهَـــا الـــنَّـــفْسُ إلـــيهِ اذهَـــبي
فـــمـــا لـــقـــلـــبي عَـــنهُ من مَـــذْهَبِ
مُـــفَـــضَّضُ الـــثَّـــغْـــرِ له نُـــقـــطَـــةٌ
من عـــنـــبـــرٍ في خَـــدِّهِ الـــمُـــذْهَبِ
أنْـــســـانِيَ الـــتـــوبَـــةَ من حُـــبِّهِ
طُـــلـــوعُهُ شَـــمْـــسًـــا منَ المـــغـــربِ[2]

****

(١) لم ترد الأبيات بالديوان، وقد وردت في النجوم الزاهرة جـ٥ ص٨٨، وإن كان ابن سعيد نسبها في كتابه (عنوان المرقصات والمطربات) إلى أبي القاسم ابن طلحة الصقلي.

(٢) يشير إلى الحديث الشريف: (ثلاث إذا خرجن لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض).

موكب الجمال[1]

....

وغـــصنٍ تَـــرَشَّفَ مـــاءَ الـــشـــبـــابِ

تـــراهُ الــــهَـــوَى، وجـــنـــاهُ الأَمَلْ[2]

تـــهـــادى لَـــطِـــيـــفَـــةَ طَيِّ الـــوِشـــاحِ

وتـــرنُـــو ضـــعـــيـــفـــةَ كَـــرِّ الـــمُـــقَلْ[3]

وتـــبـــرزُ خـــلف حـــجـــاب الـــعـــفـــافِ

وتـــســـفـــرُ تحت نـــقـــابِ الخـــجل[4]

بَـــدَتْ في لِـــدَاتٍ - كَـــزُهْـــرِ الـــنـــجـــومِ -

حِـــسَـــانِ الـــتَّـــحَـــلِّي مِلاحِ الـــعَـــطَلْ[5]

مـــشـــين يُـــبـــاهـــين روضَ الـــرُّبـــا

بِـــيـــانِعِ روضِ الـــصِّـــبـــا الـــمُـــقْـــتَـــبَلْ

فَـــمِنْ قُـــضُبٍ تـــتـــثـــنى بـــريحٍ

ومـن قُـــضُبٍ تـــتـــثـــنى بِـــدَلّ

ومن زهـــرات تُـــنَـــدَّى بمـــسكٍ

ومـن زهـــرات تُـــنَـــدَّى بـــطلّ

(١) أبيات مختارة من قصيدة طويلة أوردناها بتمامها في فن المديح.

(٢) شبه حبيبته بغرس نما في ثرى الحب وارتوى بماء الشباب فأثمر أعذب الآمال.

(٣) تهادى: تتهادى أي تتمايل في مهل إعجابًا بجمالها.

(٤) تظهر في حجاب من عفافها، وتبرز للعيون ولكن تحت ستار من الخجل، وفي الأصل (تحت النقاب).

(٥) لدات: زميلات، والمعنى: ظهرت بين غادات فاتنات مثل النجوم الزهر جميلات في حالتي التجرد أو التحلي.

تــعــاهــدَ صــوبُ الــعِــهَــاد الحِــمَى

ولا حَلَّ مـــــربـــــعَـــــهـــا في مَـــــلَلْ[1]

مَـــــــرَادٌ - من الحُبِّ - غَضُّ الجَــــــنَى،

لــــديه - منَ الــــوَصْل - ورْدٌ عَــــلَلْ[1]

لــيــاليَ مــا انــفكَّ يُــهــدي الــســرورَ

حــــبـــيبٌ ســــرى، ورقــــيبٌ غَــــفَلْ

****

(١) صوب العهاد: المطر، وفي الأصل (مل مربعها) ولعل الصواب ما ذكرناه.

(١) مراد: موضع الجيئة والذهاب، ورد علل: منهل مطروق.

٢ – بين روعة الطبيعة ولهفة الهيام

(فتنت الطبيعة شاعرنا كما فتنته حبيبته، فخفق قلبه خفقتين، وهتف بكلا الحبين هتافًا رددته الأيام، وخلده الزمان).

ليالي قرطبة

سَقَى الغيثُ أطلالَ الأحبَّةِ بالحِمَى
وحاكَ عليها ثوبَ وشيٍ مُنمنَما
وأطلعَ فيها للأزاهير أنجُما
فكم رفلتْ فيها الخرائدُ كالدُّمَى
إذِ العَيْشُ غضٌّ والزمانُ غلامُ(١)

✵✵✵✵✵

أَهيم بجبّار يَعِزُّ وأخضَعُ
شذا المسكِ - من أردانه - يَتَضَوَّعُ
إذا جئتُ - أشكوه الجَوَى - ليس يسمعُ
فما أنا - في شيءٍ منَ الوصل - أطمعُ
ولا أنْ يزورَ المُقلتَينِ مَنامُ(٢)
قضيبُ - منَ الرَّيحان - أثْمَرَ بالبَدْرِ
لواحظُ عينيهِ مُلئنَ منَ السِّحْرِ
وديباجُ خدّيْهِ حكى رونقَ الخمرِ
وألفاظُهُ - في النُّطق - كاللؤلؤ النَّثرِ
ورِيقَتُهُ - في الارتشافِ - مُدَامُ(٣)

✵✵✵✵✵

(١) حاك: نسج. الوشي: النسيج المزخرف بالألوان. رفلت: تهادت وتبخترت. الخرائد: الفتيات الحييات أو الأبكار. الدمى: تماثيل صغيرة متقنة الصنع، وتصنع من الرخام أو العاج غالباً، ويضرب بها المثل في الحسن فيقال: أحسن من الدمية.
(٢) شذا المسك: عبيره. الأردان: أكمام القميص أو أثواب الخز. يتضوع: يفوح.
(٣) الديباج: النقش أو الزينة أو نسيج حريري، والمراد صفحة خديه الناعمين كالمخمل الحريري.

سَقَى جَنَباتِ القصرِ صَوبُ الغمائمِ
وغنَّى على الأغصان وُرْقُ الحمائمِ
(بقرطُبَةَ) الغرّاءِ دارِ الأكارمِ
بلادٌ بها عقّ الشبابُ تمائمي
وأنجَبَني قومٌ - هناك - كرامُ[1]

✡✡✡✡

فكمْ ليَ فيها من مساءٍ وإصبَاحِ
بكلِّ غزالٍ مُشْرقِ الوَجْهِ وَضَّاحِ
يُفَدِّمُ أفواهَ الكؤوسِ بتُفّاحِ
إذا طَلَعَتْ - في راحِهِ - أنجمُ الرَّاحِ
فإنّا - لإعظام المُدامِ - قِيامُ[2]

✡✡✡✡

ويومٍ لدى (البُنْتِيِّ) في شاطئ النهْرِ
تُدار علينا الرَّاحُ في فِتيةٍ زُهْرِ
وليس لنا فَرْشٌ سوَى يانعِ الزَّهْرِ
يدورُ بها عذبُ اللَّمَى أهيَفُ الخصْرِ
بِفيهِ - من الثَّغْرِ الشَّنيبِ - نظامُ[3]

✡✡✡✡

ويومٍ (بجُوفِيِّ الرُّصافة) مُبْهِجِ
مررْنا بروْضِ الأقحوانِ المُدبّجِ
وقابَلنا فيه نسيمُ البنفسجِ
ولاح لنا وردٌ بخدٍّ مُضَرَّجِ
تراه أَمامَ النَّوْرِ وهْوَ إمَامُ[4]

✡✡✡✡

(١) عق الشباب تمائمي: شق الشباب العوذات التي علقت علي طفلاً، والمراد: أنني ولدت ونشأت في هذه المواطن الجميلة.

(٢) يفدم: يغطي، والمراد التفكه بالتفاح مع الشراب. الراح: جمع راحة وهي الكف.

(٣) البنتي: نسبة إلى البنت وهو حصن من أعمال بلنسية، ولعله نهر صغير ينساب منه إلى ضواحي قرطبة، عذب اللمى: طيب الشفتين، الشنب: ماء ورقة وبياض وعذوبة في الأسنان، والثغر الشنيب: الفم المفتر عن أسنان لؤلؤية.

(٤) الجوف عند الأندلسيين والمغاربة هو الشمال، جوفي الرصافة: شمالها، وهي ضاحية من ضواحي قرطبة أنشأها عبدالرحمن الداخل وزينها بالحدائق الغناء وزاد فيها خلفاؤه من بعده، وقد نشأ الشاعر وشب في ربوعها الغناء،

وأَكْــرِم بــأيَّــام «الــعُــقــاب» الــسَّــوالِفِ
ولَــهْــوٍ أَثَــرْنَــاهُ بــتــلــكَ الــمَــعَــاطِفِ
بسُودِ أثيث الشعر بيضِ السوالف
إذا رفَــلُــوا في وَشْيِ تــلــك الــمَــطــارفِ
فــلــيس - عــلــى خَــلْعِ الــعِــذارِ - مَلامُ[1]

✡✡✡✡✡

وكمْ مشهدٍ عند (العَقِيقِ) وجسرِهِ
قَعَدْنا على حُمْرِ النباتِ وصُفْرِهِ
وظــبيٍ يُــسَــقِّــيــنَــا سُلافــةَ خَــمــرِهِ
حَكَى جَسَدي - في السُّقْمِ - رِقَّةَ خَصْرِه
لــواحــظُهُ - عــنــد الــرُّنُــوِّ - سِــهَــامُ[2]

✡✡✡✡✡

فَــقُلْ لــزمــانٍ قــد تَــوَلَّى نَــعــيــمُهُ
ورثّتْ - عــلــى مَــرِّ الــلــيــالي - رُسُــومُهُ
وكم رقَّ فــيه - بــالــعــشيِّ - نــســيــمُهُ
ولاحتْ لــســاري الــلّــيلِ فــيه نجــومُهُ:
«عــلــيكَ منَ الــصَّبِّ الَــمُــشــوقِ سلامُ»

****

(١) أثيث الشعر: غزيره، السوالف: صفحات العنق، رفلوا: تهادوا به وعجبوا. المطارف: أردية من الخز مربعة ذات أعلام، خلع العذار: الاستهتار وعدم المبالاة.

مواكب الذكريات

تَـنَـشَّقَ - من عَـرْفِ الـصَّبـا - مـا تـنـشَّـقَا
وعَــاوَدَهُ ذِكْــرُ الــصِّــبـــا فــتــشــوَّقــا
ومـــا زال لَـــمْعُ الــبــرق - لمــا تــألّــقــا
يُــهــيبُ بــدمع الــعــينِ حــتّى تــدفَّــقــا،
وهل يمـلكُ الـدمعَ الـمَـشُـوقُ الـمُـصَـبَّـأُ؟[1]

☆☆☆☆☆

خــلــيــلــيَّ - إنْ أَجْـزَعْ فـقـد وَضَحَ الـعُـذْرُ
وإنْ أستـطعْ صبرًا فمِنْ شيمتي الصبرُ
وإن يكُ رُزءًا مـــا أصـــابَ به الـــدهـــرُ
فـــفي يـــومـــنـــا خـــمـــرٌ، وفي غـــدهِ أمـــرُ
ولا عـــــجبٌ، إنّ الـــــكـــــريمَ مُـــــرَزَّأُ[2]

☆☆☆☆☆

رَمَـتْـني الـلَّـيـالي عنْ قِسِيِّ الـنـوائبِ
فـمـا أخـطـأتـني مـرسَلات المـصـائبِ
أُقَـضِّي نـهـاري بـالأمـاني الـكـواذبِ
وآوي إلى لـــيلٍ بـــطيء الـــكـــواكبِ
وأبْـــطَــأُ سَـــارٍ كـــوكبٌ بـــاتَ يُـــكْلأُ[3]

---

(١) العرف: الطيب، الصبا: ريح الشمال، أهاب: دعا، المصبأ: الذي ثارت به الصبوة.

(٢) (اليوم خمر وغداً أمر) مثل قاله امرؤ القيس حينما بلغه مصرع أبيه، وكان في مجلس لهو وشراب، ويروى أنه قال أيضاً: (لاصحو اليوم، ولا سكر غداً).

(٣) ليل بطيء الكواكب: طويل، يشير إلى قول النابغة.

كــلــيــني لــهم يــا أمــيــمــة نــاصب
ولــيل أقــاســيه بــطيء الــكــواكب

أَقُـرْطُـبَــةُ الـغَـرّاءُ! هل فـيكِ مَـطـمعُ؟
وهل كَـبِـدٌ حَـرّى لـبَـيْـنِكِ تُـنْـقَعُ؟
وهل لِـلَـيـالـيكِ الحـمـيـدةِ مَـرْجِعُ؟
إذِ الحسنُ مـرأًى - فيك - واللَّـهْوُ مَسْمَعُ
وإذْ كَـنَفُ الـدنـيـا - لـديكِ - مُـوَطَّـأُ[1]

✡✡✡✡✡

ألـيس عـجـيـبًـا أن تَـشُطَّ الـنـوى بكِ؟
فـأحْـيَـا كـأنْ لمْ أَنْشَ نَـفْحَ جـنـابكِ
ولم يـلـتـئِمْ شَـعْـبي خلال شِـعـابِكِ
ولمْ يَكُ خَـلْـقي بـدؤُهُ من تُـرابكِ
ولم يَـكْـتَـنِـفْـني- من نَـواحيكِ - مَـنـشـأُ[2]

✡✡✡✡✡

نـهـارُكِ وضّـاحٌ، ولـيـلُكِ ضَـحْـيَـانُ
وتُـربُكِ مَـصْـبـوحٌ، وغُـصـنُكِ نَـشْـوانُ
وأرضُكِ تُـكْـسَى، حـينَ جَـوُّكِ عُـرْيَـانُ
وريّـاكِ رَوْحٌ لـلـنـفـوس ورَيْـحَـانُ
وحَـسْبُ الأَمَـانِي ظِـلُّكِ الـمُـتَـفَـيَّـأُ[3]

✡✡✡✡✡

أأنـسى زمـانًـا (بـالـعُـقـابِ) مُـغَـفّلا؟
وعـيـشًـا بـأكـنـاف (الـرُّصـافـةِ) دَغـفلا؟

---

(١) الكنف: الناحية أو الظل، وكنف الله: حرزه وستره ورحمته، موطأ: ممهد ومهيأ.

(٢) لم أنش: لم أشم، النفح: الرائحة الذكية، الجناب: الفناء، الشعب: الصدع، والتأم شعبهم: إذا اجتمعوا بعد تفرق، الشعاب: الأحياء العظيمة أو مسايل المياه أو ما بين الجبال.

(٣) نهارك وضاح: مضيء مشرق، ضحيان: بارز للشمس، ومعنى ليلك ضحيان: أي وضاء، مصبوح: مسقى في الصباح.

ومَـغْـنًى - إزاءَ (الجَـعْـفَـرِيَّـةِ) - أقْـبَلا
لِـــنَـــعْمَ مَـــرادُ الأُنسِ رَوْضًـــا وجـــدولا
ونِـــعْمَ مَـحَلُّ الـصَّــبْـوَةِ الـمُـتَـبَـوَّأُ[1]

☆☆☆☆☆

ويـا رُبَّ مـلْـهًى (بـالـعـقـيقِ) ومـجـلسِ
لَـدَى تُـرْعَـةٍ، تَـرْنُـو بـأحـداقِ نَـرْجَسِ
بِـطـاحُ هـواءٍ مُـطْـمِعِ الخـالِ مُـؤنِسِ
مَـغِـيمٍ - ولـكنْ من سَنـا الـرّاحِ - مُشْـمِسِ
إذا مـا بـدت - في كـأسـهـا - تَـتَلألأُ[2]

☆☆☆☆☆

وقدْ ضَمَّنَا - مِن (عينِ شُهْدَةَ) - مَشْـهَدُ
بـدأنـا وَعُـدْنـا فـيه، والـعَـوْدُ أَحْـمَـدُ
يَـزُفُّ عَـرُوسَ الـلـهـو أَحْـوَرُ أَغْـيَـدُ
لـه مَـــبْـــسِمٌ عـــذبٌ، وخَـــدٌّ مُـــوَرَّدُ،
وَكَفٌّ - بِـحِـنَّـاءِ الـمُـدام -تُـقَـنَّـأُ[3]

☆☆☆☆☆

وكائنْ عَدَوْنَا - مُصْعِدِينَ - على الجِسْرِ
إلى (الجَوْسَقِ النَّصْرِيِّ) بين الرُّبا العُفْرِ

---

(١) الغفل بفتح الغين والفاء: السعة من العيش ومنه قول الشاعر:

إذا نـحن في غَـفَلٍ، وأكـثـر هـمـنـا
صـرف الـنـوى وفـراقـنـا الجـيـرانـا

والمغفل: المستور، ومعنى الزمان المغفل: الهادئ الناعم، ومنه غفلات العيش، عيش دغفل: واسع مخصب. المراد بفتح الميم: مكان الجيئة والذهاب.

(٢) التُّرعة: فوهة الجدول، أو الروضة في مكان مرتفع، البطاح: مسايل المياه، وبطاح هواء: ممرات هواء، وقد تكون (مطاح هواء) أي مساقط هواء، الخال: السحاب الذي لايخلف مطره أو لا مطر فيه، والمعنى: مساقط هواء عليل، يطمع في المطر لرقته ويؤنس منه لجفافه، والجو مقنع بالغيوم ولكنه مضيء من أشعة الخمر.

(٣) تقنأ: تصبغ باللون الأحمر المنبعث من أشعة المدام.

ورُحْنَا إلى الوَعْساءِ من شاطئ النَّهْرِ
بِحيثُ هُبوبُ الريحِ عاطرةَ النشرِ
على قُضُبِ النُّوّارِ، فَهْيَ تُكَفَّأُ[(١)]

✡✡✡✡

وَأَحْسِنْ بأيَّامٍ - خَلَوْنَ - صَوَالِحِ
(بمَصَنْعَةِ الدُّولابِ) أو قَصَرِ (ناصِحِ)
تَهُزُّ الصَّبَا - أثناء تلك الأباطحِ -
صَفِيحَةَ سَلْسالِ المَوارد سائحِ
ترى الشَّمْسَ تجلو نَصْلَها حين يَصْدَأُ[(٢)]

✡✡✡✡

ويا حبَّذا (الزهراءُ) بهجةَ منظرِ
ورقّةَ أنفاسٍ، وصِحَّةَ جَوهرِ
وناهيك من مبدًا جَمالٍ ومَحْضَرِ
وجَنَّةِ عدْنٍ تَطَّبِيكَ وكَوْثرِ
بمرأى يزيدُ العُمْرَ- طيبًا - ويَنْسَأُ[(٣)]

✡✡✡✡

معاهدُ أبكيها لعهدٍ تَصَرَّما
أَغَضَّ - من الورد الجَنِيِّ - وأَنْعَمَا
لَبِسْنَا الصِّبَا فيها حَبيرًا مُنمنَمَا
وَقُدْنَا - إلى اللذّات - جيشًا عَرَمْرَما
له الأمنُ رِدْءٌ، والغضارةُ مَرْبَأُ[(٤)]

✡✡✡✡

---

(١) كائن عدونا: كم جرينا، الجسر بفتح الجيم وكسرها: القنطرة الممتدة على مجرى الماء، الجوسق: القصر، العفر: الرمال البيضاء أو الحمراء، الوعساء: رابية من الرمل الندي تنبت أحرار البقول. تكفأ: تتمايل.

(٢) المصنعة: الحوض المتسع لجمع الماء، الدولاب آلة للري، مصنعة الدولاب مكان وافر المياه، وهو هنا علم، الأباطح: مسايل المياه.

(٣) ناهيك: حسبك، تطبيك: تدعوك، ينسأ: يؤخر.

(٤) الحبير المنمنم: الثوب الناعم الموشى، وفي ب، ت، ز (حريراً)، ردء: ظهير ومعين، الغضارة: السعة والنعمة والخصب، وفي الأصل (الغداوة)، المربأ: مكان المراقبة.

كساها الربيعُ الطَّلقُ وَشْيَ الخمائلِ
وراحتْ لها مَرْضَى الرياحِ البلائلِ
وغادَى بَنُوها العيشَ حُلوَ الشمائلِ
ولا زالَ منا بالضُّحى والأصائلِ
سلامٌ - على تلك الميادينِ - يُقْرَأُ[1]

✡✡✡✡✡

أَإِخْوانَنا للواردينَ مَصادرُ
ولا أَوَّلٌ إلا ستتلوهُ آخِرُ
وإني - لإِعْتابِ الزمانِ - لَناظرُ
فقد يستقيلُ الجَدُّ - والجَدُّ عاثرُ -
وتُحْمَدُ عُقْبَى الأمْرِ ما زال يُشْنَأُ[2]

✡✡✡✡✡

ظَعَنْتُ، وكان الحُرُّ يُجْفَى فيَظْعَنُ
وأصبحتُ أسْلُو بالأُسَى حينَ أَحْزَنُ
وَقَرَّ - على اليأسِ - الفؤادُ المُوَطَّنُ
وإنَّ بلادًا هُنْتُ فيها لأَهْوَنُ
ومَنْ رامَ مثلي بالدَّنيَّةِ أَدْنَأُ[3]

✡✡✡✡✡

ولا يُغْبطِ الأعداءَ كَوْنيَ في السّجْنِ
فإني رأيتُ الشمسَ تُحْضَنُ بالدَّجْنِ
وما كنتُ إلا الصَّارمَ العَضْبَ في جَفْنِ
أَوِ اللَّيْثَ فِي غَابٍ، أو الصَّقرَ فِي وَكْنِ
أَوِ العِلْقَ يُخْفَى فِي الصِّوَانِ ويُخْبَأُ[1]

✡✡✡✡✡

---

(١) راحت: خفت وطابت.

(٢) إعتاب: إرضاء وصفح، يستقيل الجد: ينهض من عثاره، يشنأ: يبغض.

(٣) ظعنت: رحلت، الأسى بكسر الهمزة وضمها جمع أسوة بالكسر والضم: ما يتعزى به الحزين.

(٤) تحضن: تحبس وتمنع: الدجن: الغيم، الصارم العضب: السيف القاطع، جفن: غمد، وكن: عش، العِلق: التحفة الثمينة، الصوان والصيان: وعاء الصون والحفظ وفي نسخة (الصوار): وهو وعاء المسك.

يـضـيـقُ بـأنـواع الـصَّـبَـابـة مَـذهـبي
إلى كلّ رحب الـصَّـدرِ مـنـكمْ مُـهَـذَّبِ
مُـفَـضَّضَ لألاءِ الأسـاريـر مُـذْهَبِ
يُـنـافِسُ مـنهُ الـبـدرُ غُـرّةَ كـوكبِ
دَرَى أنَّـهـا أبـهى سـنَـاءً وأَضْـوَأ[1]

✡✡✡✡✡

أسِـفْتُ، فـمـا أرتـاحُ ، والـرَّاحُ تـعـملُ
ولا أُسْـعِفُ الأوتـارَ ، وَهْيَ تَـرَسَّلُ
ولا أرعـوي عن زفـرةٍ ، حـين أُعْـذَلُ
ولا لِيَ - مُـذْ فـارقـتُـكُمْ - مُـتَـعَـلَّلُ
سِوى خـبـرٍ مـنكمْ - عـلى الـنَّـأيِ - يَـطْرَأ[2]

✡✡✡✡✡

حَـمِـدْتُمْ من الأيـام لِـينَ خِـلالِـهَـا
وسَـرَّتْـكُمُ الـدنـيـا بـحُـسْنِ دَلالِـهَـا
مُـؤَمِّـنَـةً مِنْ عَـتْـبِـهَـا ومَلالِـهَـا
ولا زال مـنـكـم لابسٌ من ظلالـهـا
يُـسَـوِّغُ أبـكـارَ الـمُـنَى ويُـهَـنَّـأ[3]

✱✱✱✱

---

(١) الأسارير: جمع أسرار، وهي جمع سرر بكسر السين وفتح الراء، والأسارير: الخطوط الظاهرة في الجبهة أو الكف، والمعنى: أن وجهه مضيء مشرق متلألئ.

(٢) المعنى: أنه يأسف لفراقهم، فلا يطرب للخمر حين يسرع دبيبها في الجسم، ولا يهتز للأوتار حين تأسر ألحانها القلوب، ولا يعدل عن الزفرات حين يلام، ولا يتعلل إلا بتسقط أخبارهم، وفي ت (من زفرة).

(٣) يسوغ: يهنأ. وسوغه الله النعمى: يسرها وسهلها.

مجالي الزهراء

«عاد الشاعر مستخفيًا إلى الزهراء بعد فراره من قرطبة، ومنها أرسل هذه القصيدة إلى حبيبته.

والزهراء ضاحية من ضواحي قرطبة، أنشأها الخليفة الناصر بسفح جبل العروس تخليدًا لذكرى حظية له، وسماها باسمها، ورصد لتشييدها ثلث جباية الدولة، وكانت تلك الجباية تناهز ٤٠ ألف ألف دينار، واستمر في بنائها عشرات الأعوام، وجلب إليها الرخام ومهرة الصناع من القسطنطينية، فجاءت آية من آيات العمارة في القرون الوسطى».

إني ذكرتُكِ (بالزهراء) مُشْتاقَا
والأفْقُ طَلْقٌ، ومَرأى الأرضِ قد راقا[1]

وللنَّسيم اعْتِلالٌ - في أَصائلهِ -
كأنه رَقَّ لي، فاعْتَلَّ إشْفاقا[2]

والرَّوْضُ - عن مائِهِ الفِضّي - مبتسِمٌ،
كما شقَقْتَ - عن اللَّبّاتِ - أطواقا[3]

نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهَرٍ
جال النَّدى فيه، حتّى مالَ أعناقا

(١) في تمام المتون (والجو طلق...)، وفي القلائد وبعض نسخ الذخيرة (ووجه الأرض....) وفي سرح العيون (وماء الروض..).

(٢) في بعض نسخ الذخيرة والنفح (كأنما رق لي.....).

(٣) في القلائد وبعض نسخ الذخيرة (كما حللت.....) واللبات جمع لبة: وهي أعلى الصدر أو موضع القلادة منه.

كـــأنَّ أعـــيُـــنَهُ - إذ عـــايَـــنَتْ أَرقي -

بـــكت لمـــا بي، فـــجـــالَ الـــدمعُ رَقْـــراقـــا

وردٌ تـــألَّقَ في ضـــاحي مَـــنـــابـــتهِ

فـــازدادَ مـــنه الـــضُّحَى في الـــعـــينِ إشـــراقـــا

سَـــرَى يُـــنـــافِـــحُهُ نَـــيـــلـــوفَـــرٌ عَـــبِقٌ

وَسْـــنـــانُ، نَـــبَّهَ مـــنهُ الـــصّـــبحُ أحـــداقـــا[1]

كلٌّ يَـــهِـــيجُ لـــنـــا ذِكْـــرَى تُـــشَـــوِّقُـــنـــا

إلـــيكِ، لم يَـــعْـــدُ عـــنـــهـــا الـــصَّدرُ أن ضـــاقـــا[2]

لا سَـــكَّنَ الـــلّهُ قـــلـــبًـــا، عنَّ ذِكْـــرِكُمُ

فـــلـــم يَـــطِـــرْ بـــجـــنـــاحِ الـــشَّـــوقِ خَـــفّـــاقـــا[3]

لـو شاءَ حَمْلي نسيمُ الصّبحِ - حينَ سَرَى -

وافـــاكُمُ بـــفـــتًـــى أضـــنَـــاهُ مَـــا لاقى[4]

يـــومٌ، كـــأيَّـــام لـــذاتٍ لـــنـــا انْـــصَـــرَمَتْ

بِـــتْـــنَـــا لـــهـــا - حـــينَ نـــامَ الـــدهـــرُ - سُـــرَّاقـــا

لـــوْ كـــانَ وَفَّى الـــمُـــنَى - في جـــمـــعـــنـــا بـــكمُ -

لـــكـــان من أكـــرم الأيّـــام أخـــلاقـــا

✡✡✡✡✡

---

(١) النيلوفر: زهر كبير ينبت في المياه الراكدة تنطبق أوراقه في الليل وتتفتح في النهار.

(٢) المعنى: أن مجالي الطبيعة تهيج فينا الذكريات الماضية فتتوافد وتحتشد حتى يضيق الصدر عن استيعابها.

(٣) في الذخيرة (عق ذكركم...) بمعنى جحد ذكراكم، عنَّ: عرض، وفي تمام المتون (ولم يطر....).

(٤) في تمام المتون (حين هفا.....).

يـا عِـلْـقِيَ الأخـطـرَ الأسْـنَى الحَـبـيبَ إلى

نـفـسي، إذا مـا اقْـتَـنَى الأحـبـابُ أعْلاقـا[٥]

كـان الـتَّـجـازي بمـحض الـوُدِّ - مُـذ زمنٍ -

مــيــدانَ أُنْسٍ جَــرَيْــنــا فــيـه أَطْلاقــا[٦]

فــالآنَ - أحــمــدَ مــا كُــنــا لــعــهــدكمُ -

ســلــوتمُ، وبَــقِــيــنــا نــحنُ عُــشَّــاقــا

****

(١) النيلوفر: زهر كبير ينبت في المياه الراكدة تنطبق أوراقه في الليل وتتفتح في النهار.

(٢) المعنى: أن مجالي الطبيعة تهيج فينا الذكريات الماضية فتتوافد وتحتشد حتى يضيق الصدر عن استيعابها.

(٣) في الذخيرة (عق ذكركم...) بمعنى جحد ذكراكم، عنَّ: عرض، وفي تمام المتون (ولم يطر....).

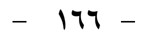
(٤) في تمام المتون (حين هفا.....).

(٥) العلق: الغالي النفيس، الأخطر: الرفيع، الأسنى: الأضوأ.

(٦) في النفح (من زمن....).

٣ - حنين الذكريات

«طوى الشاعر شطرًا من حياته، مشردًا عن وطنه، نائيًا عن أهله، مفارقًا أحبابه، فامتزج في فنه الحنين بالشجن، والتقى الألم بالأمل، وتزاحمت في نفسه الذكريات، مرددة هذه الأنات».



آمال وآلام

«فر الشاعر من سجنه بقرطبة إلى إشبيلية، ولكن قلبه جذبه إلى حبيبته بقرطبة، فأرسل إليها هذه القصيدة الخالدة التي نالت شهرة عظيمة، وثارت حولها الأساطير حتى قيل: (ما حفظها أحد إلا مات غريبًا) ولهج كثيرون بأن إنسانًا لا يتم له الظرف ما لم يحفظها.

وقد شغف بمعارضتها وتخميسها وتسديسها كثيرون، ولكنها ظلت سامقة في مكانها الرفيع»[١].

أضحى التَّنائي بديلاً من تَدانينا
ونابَ عن طِيب لُقيانا تجافينا[٢]

ألاّ - وقد حانَ صُبحُ البَيْن - صَبَّحنا
حَيْنٌ، فقام بنا لِلْحَينْ داعينا[٣]

من مُبلغُ المُلبِسِينا بانتزاحِهِمُ
حُزْنًا معَ الدهرِ لا يَبْلى، ويُبلينا

أنَّ الزَّمانَ الذي ما زال يُضحكنا
أُنسًا بقربهمُ قد عاد يُبكينا؟[٤]

---

(١) وردت القصيدة في عدة مصادر قديمة، وفيها اختلاف في ترتيب بعض الأبيات وفي بعض العبارات، كما أن هناك خلافًا في مبدئها، فيقول ابن نباتة: « .... وله القصيدة النونية التي أولها : (بنتم وبنا ... البيت) وقد تداولتها الألسن وزيد فيها ما كانت في غنى عنه» فكأن الأحد عشر بيتاً الأولى ليست من القصيدة، ولكن الصفدي يقول « ..... ومن ذلك قصيدته النونية التي أولها: (أضحى التنائي بديلاً... البيت). ولكل من الرأيين ما يزكيه، ونحن نرجح أن الشاعر صاغ قصيدته، ثم أعاد النظر فيها كعادته، فزاد فيها وحرص على جعل أولها مصرَّعًا.

(٢) في نسخة أ، ب (وبان) وفي ت، ز (وآن) وكذلك القلائد، وقد أخذنا برواية نفح الطيب. والمعنى أن الفراق حل محل الوصال، وأن الجفوة نابت عن طيب اللقاء.

(٣) في النفح (ناعينا) - ألا: هلا، الحين: الهلاك، والمعنى: أنه كان يتمنى أن يلاقي مصرعه قبل أن يحم الفراق.

(٤) رواية المغرب :(أن الزمان الذي كنا نسر به)، ورواية القلائد (بقربكمو).

غِيظَ العِدا من تَساقينا الهَوَى، فَدَعَوْا

بأنْ نَغَصَّ، فقالَ الدهرُ: آمينا

فانحلَّ ما كانَ معقودًا بأنفسنا

وانْبَتَّ ما كان مَوْصولاً بأيدينا[1]

وقد نكونُ، وما يُخْشَى تَفَرُّقُنا

فاليومَ نحنُ، وما يُرْجَى تَلاقينا[2]

✡✡✡✡✡

يا لَيْتَ شِعْري - ولمْ نُعْتِبْ أعادِيَكُمْ -

هلْ نالَ حظّاً من العُتْبى أعادينا[3]

لمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إلا الوفاءَ لكمْ

رأيًا، ولم نتقلَّدْ غَيْرَهُ دِينا

ما حقُّنا أنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذي حَسَدٍ

بنا، ولا أنْ تَسُرُّوا كاشِحًا فِينا[4]

✡✡✡✡✡

كُنّا نَرَى اليَأْسَ تُسْلِينا عَوارِضُهُ

وقدْ يئسْنا، فما لِلْيَأْسِ يُغْرِينا[5]

بِنْتُمْ وبِنَّا، فما ابْتَلَّتْ جَوانِحُنا

شَوْقًا إليكمْ، ولا جَفَّتْ مآقينا[6]

---

(١) انْبَتَّ: انقطع، والمعنى تفرق شملنا وانقطعت صلاتنا.

(٢) رواية المغرب (من قبل كنا .... فالآن.....) ورواية النفح (بالأمس كنا .... واليوم.....).

(٣) أعتب: أرضى وسَرَّ بعد الإساءة، والاسم منه العتبى.

(٤) الكاشح: المضمر للعداوة.

(٥) عوارضه: ظواهره أو بوادره، والمعنى: أنه كان ينتظر راحة في اليأس، ولكن يأسه زاده شوقًا على شوق وحنينًا إلى حنين.

(٦) بنتم وبنا: بعدتم وبعدنا.

نكادُ - حينُ تُناجيكمْ ضَمائرُنا -

يَقْضِي علينا الأسَى، لولا تَأَسِّينَا[1]

حالتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا، فغَدَتْ

سُودًا، وكانتْ بكم بِيضًا ليالينا

إذْ جانِبُ العَيْشِ طَلْقٌ من تألُّفِنَا

ومَربعُ اللَّهْوِ صافٍ من تَصافينا

وإذْ هَصَرْنا فنونَ الوَصْلِ دانيةً

قِطافُها، فَجَنَيْنَا منهُ ما شِينا[2]

✡✡✡✡

لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرورِ، فما

كنتمْ لأرواحنا إلاّ رياحينا[3]

لا تَحْسَبوا نأيكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا

إنْ طالما غَيَّرَ النَّأْيُ المُحبّينا[4]

واللَّهِ ما طَلَبَتْ أهواؤُنا بدلاً

منكمْ، ولا انصرفتْ عنكمْ أمانينا[5]

ولا استفدنا خليلاً عنكِ يَشْغَلُنا

ولا اتَّخَذْنا بديلاً منكِ يُسْلِينَا[6]

✡✡✡✡

---

(١) المعنى: إذا ناجتكم قلوبنا - على البعاد - عصفت بنا الأحزان وكادت تقضي علينا لولا تعللنا بالآمال. وفي جذوة المقتبس وبغية الملتمس والمعجب والنفح (ومورد اللهو...).

(٢) رواية الذخيرة (غصون الوصل)، ورواية جذوة المقتبس وبغية الملتمس (فنون اللهو)، ورواية المعجب والقلائد والخريدة (غصون الأنس)، وفي الذخيرة والقلائد والنفح والمعجب (دانية قطوفها)، ما شينا: ما شئنا.

(٣) رواية الذخيرة (كنتم لأيامنا).

(٤) في إحدى نسخ الذخيرة (إذ طالما) وفي المغرب (أن طالما).

(٥) آثرنا في رواية البيت ما أثبتته الذخيرة والقلائد والمغرب والمعجب ونفح الطيب، أما في نسخة (أ) (والله ما أطرفت.... عنكم)، وفي نسخ ب، ت، ز (والله ما طرفت... عنكم)، وطرف وأطرف بمعنى استحدث.

(٦) لم يرد هذا البيت في نسخ الديوان، وقد أثبتناه عن القلائد والخريدة.

يــا ســارِيَ الـبَــرْقِ غــادِ الـقَـصْـرَ واسْقِ به

مَنْ كـان صِرْفَ الـهَـوَى والـوُدِّ يَـسْـقِـيـنـا[1]

واسْــأَلْ هـــنـــالك: هل عَـــنَّى تَـــذَكُّـــرُنَــا

إلْـــفًــا، تـــذَكُّـــرُهُ أمـــسى يُـــعَـــنِّـــيـــنَــا؟[2]

ويــا نَـسـيـمَ الـصَّـبـا بَـلِّـغْ تَـحِـيَّـتَـنـا

مَنْ لـو عـلى الـبُـعْـدِ حَـيّـا كـان يُـحْـيـينَـا[3]

فـهل أرى الـدَّهْـرَ يَـقْـضِـيـنَـا مُـسـاعَـفـةً

فـيه، وإنْ لـمْ يَـكُنْ غِـبّـاً تَـقـاضِـيـنـا؟[4]

☆☆☆☆

رَبِـــيبُ مـــلكٍ كـــأنَّ الـــلّـهَ أنْـــشَـــأهُ

مِـسـكًـا، وقـدَّرَ إنْـشـاءَ الـوَرَى طِـيـنـا[5]

أو صَـــاغَـهُ وَرِقًـــا مَـــحْـــضًـــا، وتـــوَّجَهُ

من نـاصع الـتِّـبْـرِ إبـداعًـا وتحـسـيـنـا[6]

إذا تـــــأوَّدَ آدَتْـهُ رِفـــــاهـــــيـــــةً

تـومُ الـعُـقـودِ، وأدْمَـتْهُ الـبُـرَى لِـيـنـا[7]

كــانتْ لـه الـــشَّـــمْسُ ظِـئـرًا في أَكِـلَّـتِه

بلْ مـا تَـجَـلَّى لـهـا إلاَّ أحـايـيـنـا[8]

---

(١) في الذخيرة والقلائد والمغرب والخريدة (فاسق به).

(٢) عنّى: آلم وأتعب.

(٣) في نسخ الديوان (على القرب) وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب والمعجب ونفح الطيب لأنها أنسب للمعنى، فقد كان الشاعر بعيدًا عن حبيبته يتمنى منها تحية على البعد، ويأمل أن يظفر منها بخطاب كما في ختام القصيدة.

(٤) المعنى: طالما تقاضينا الوصال، فهل يسمح الدهر به بعد طول المطال؟ وفي النفح (من لا يرى الدهر... وإن لم يكن عنا يقاضينا).

(٥) المعنى: سليل بيت ملكي كأن الله خلق الورى من الطين وخلقه وحده من المسك، ورواية النفح (من بيت ملك... وقد أنشأ الله الورى طينا).

(٦) الورق: الدراهم الفضية، والمعنى: أنه أبيض الوجه ذهبي الشعر.

(٧) تأود: تمايل، آدته: أثقلته، توم العقود: عقود مزدوجة من اللؤلؤ، البرى: الخلاخيل، جمع برة، والمعنى: إذا تمايل لم يطق حمل الحلى الكثيرة لرقته ولينه.

كـأنّـمـا أُثْـبِـتَتْ في صَـحْنِ وَجْـنَـتِه
زُهْـرُ الـكـواكبِ تَـعْـويـذًا وتَـزْيـيـنـا[١]
مـا ضَـرَّ أنْ لمْ نـكنْ أكـفـاءَهُ شَـرَفًـا
وفي الـمَـوَدَّةِ كـافٍ من تـكـافـيـنـا

✡✡✡

يـا رَوْضَـةً طـالمـا أَجْـنَتْ لَـواحِـظَـنَـا
وَردًا جَلاه الـصِّـبَـا غَـضّـاً ونِـسْـرِيَـنـا[٢]
ويـا حـيـاةً تَـمَـلَّـيْـنـا بـزهـرتـهـا
مُـنًى ضُـرُوبًـا ولـذّاتٍ أَفَـانـيـنَـا[٣]
ويـا نـعـيـمًـا خـطـرنـا من غَـضـارته
في وَشْيِ نُـعْـمَى سَـحَـبْـنَـا ذَيْـلَهُ حِـينَـا[٤]
لَـسْـنَـا نُـسَـمِّـيكِ إجلالاً وتـكْـرِمَـةً
وقـدرُكِ الـمُـعـتَـلي عن ذاكِ يُـغْـنِـيـنَـا
إذا انْـفَـرَدْتِ ومـا شُـورِكْتِ في صِـفَـةٍ
فَحَسْبُنـا الـوصفُ إيضـاحًـا وتَبْـيينـا[٥]

✡✡✡

يـا جـنّـةَ الخُـلْـدِ أُبْـدِلْـنـا بـسِـدْرَتِـهـا
والـكـوثَـرِ الـعَـذْبِ زَقّـومًـا وغِـسلـيـنـا[٦]

---

(١) المعنى: كأنما أشرقت النجوم في محياه لتقيه الحسد، وترد عنه العيون.

(٢) النسرين بكسر النون: زهر طيب الرائحة، وفي المغرب والوافي بالوفيات (جناه الصبا).

(٣) تملينا: تمتعنا، وفي المعجب (تملأنا)، ضروبًا : صنوفًا، والمعنى جنينا من نعيم الحياة شتى المتع واللذات.

(٤) الغضارة: السعة والخصب والنعمة، وفي القلائد والمغرب (سحبنا ذيلها).

(٥) معنى البيتين: إننا نصون اسمك عن التصريح به إكبارًا لك وإجلالاً، فإن انفرادك بالجمال والجلال لا يحوجنا إلا إلى أدنى إشارة، وقد أخذ هذا المعنى البهاء زهير فقال:

أشـر لي بـوصف واحـد من صـفـاتـهـا
تـكن مـثل من سـمّى وكـنّى ولـقّـبـا
سـتـكـفـيك من ذاك المـسـمى إشـارةٌ
ودعه مـصـونًـا بـالـجـمـال مـحـجّـبـا

(٦) السدر: شجر النبق، والزقوم شجرة خبيثة: ذات ثمر مر، وقد ورد في التنزيل أنها ﴿شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ أما طعامها فهو ﴿طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾: وفي الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب والمعجب والنفح والوافي بالوفيات (بسلسلها) وقد آثرنا رواية الديوان لأن السدر يقابل الزقوم.

إن كـان قـد عَـزَّ في الـدنْـيـا الـلِّـقـاءُ فـفي
مَـواقِفِ الحَـشْـرِ نـلـقـاكمْ، ويـكـفـيـنـا[1]

كـأنـنـا لم نَـبِتْ، والـوَصْلُ ثـالـثُـنـا
والـسَّـعْـدُ قـد غَضَّ من أجـفـانِ واشـيـنـا

سِـرَّانِ في خـاطـر الـظَّـلْـمـاءِ يَـكْـتُـمُـنـا
حـتّى يـكـادَ لـسـانُ الـصُّـبْحِ يُـفْـشـيـنـا

لا غَـرْوَ في أنْ ذكَـرْنـا الحُـزْنَ حـين نَـهَتْ
عـنهُ الـنُّـهَى، وتـركـنـا الـصَّـبْـرَ نـاسـيـنـا

إنّـا قـرأنـا الأسى يـوم الـنَّـوى سُـوَرًا
مـكـتـوبـةً، وأخـذنـا الـصَّـبْـرَ تَـلْـقـيـنـا[2]

أمَّـا هـواكِ فـلـم نَـعْـدِلْ بمَـنْـهَـلِهِ
شِـرْبًـا، وإن كـان يُـروينـا فُـيـظْـمِـيـنـا[3]

لم نَـجْفُ أُفْقَ جَـمَـالٍ أنتِ كـوكَـبُهُ
سَـالـينَ عـنهُ، ولـم نَـهْـجُـرْهُ قَـالِـيـنـا[4]

ولا اخـتـيـارًا تَـجَـنَّـبْـنـاهُ عن كَـثَبٍ
لـكن عَـدَتْـنَـا - عـلى كُـرْهٍ - عَـواديـنـا[5]

✲✲✲

نَـأْسَى عـلـيكِ إذا حُـثَّتْ مُـشَـعْـشَـعَـةً
فـيـنـا الـشَّـمُولُ، وغـنَّـانـا مُـغَـنّـيـنـا[6]

لا أكـؤسُ الـرَّاحِ تُـبـدي من شـمـائـلـنـا
سِـيـمَـا ارتـيـاحٍ، ولا الأوتـارُ تُـلـهِـيـنَـا

(١) لم يرد البيت في الديوان، وقد أثبتناه عن القلائد، وإن كان موضعه في القلائد بعد البيت: (كأننا لم نبت..) وقد أثبتناه هنا لمناسبته للمقام.

(٢) في الوافي بالوفيات والكوكب الثاقب (واتخذنا).

(٣) في النفح (بمشربه) والمعنى: أننا نفضل منهلكم على أي منهل آخر، وإن كان يزيدنا عطشًا كلما ازددنا منه شربًا.

(٤) في نسخة ب، ت والقلائد (لم يخف) وهو تحريف، قالين: كارهين.

(٥) كثب: قرب، وفي القلائدوالخريدة (تجنبناك)، والمعنى: أنه اضطر إلى فراقها مرغمًا، على قرب دارها منه.

(٦) مشعشعة: ممزوجة، الشمول: الخمر، وفي الذخيرة والوافي بالوفيات (وقد حثت) وفي الكوكب الثاقب (إذا صُبت).

دُومِي على العَهْدِ - ما دُمنَا - مُحافِظَةً
فالحُرُّ مَنْ دَانَ إنصافًا، كَمَا دِينَا

فما اسْتَعَضْنا خليلاً منك يَحْبِسُنا
ولا اسْتَفَدْنا حبيبًا عنك يَثْنِينا[1]

ولوْ صَبَا نحوَنا من عُلْوِ مَطْلَعِهِ
بدرُ الدُّجَى لمْ يَكُنْ - حَاشَاكِ - يُصْبِينا[2]

أَوْلِي وَفاءً - وإن لم تَبْذُلي صِلَةً -
فالطيفُ يُقنعنا، والذِّكْرُ يَكفينا[3]

وفي الجواب مَتاعٌ إن شفَعت به
بِيضَ الأيادي التي ما زِلْتِ تُولِينَا[4]

عليكِ مِنَّا سَلامُ اللّهِ ما بَقِيَتْ
صَبابةٌ بِكِ نُخْفِيها فَتُخْفِينا[5]

****

(١) في ب، ت، ز (فما استضعنا) وهو تصحيف، وفي الذخيرة (فما استعدنا خليلاً عنك... يسلينا)، وفي القلائد:

(فما ابتغينا خليلاً منك يحبسنا
ولا استفدنا حبيبًا عنك يغنينا)

وفي الخريدة (... ولا استفدنا حميمًا عنك يغنينا) وفي النفح (فما استعضنا خليلاً عنك) وفي بعض نسخ النفح (... حبيبًا عنك يغنينا) وفي الوافي بالوفيات:

فما استعضنا خليلاً عنك يصرفنا
ولا استفدنا حبيبًا عنك يسلينا

ومثل هذا رواية الكوكب الثاقب ما عدا «ولا استفدنا» فقد جعلتها و«لا اتخذنا».

(٢) صبا: مال، يصبينا: يثير صبوتنا ويبتعث أشواقنا.

(٣) في أصول الديوان (أبلي)، وفي إحدى نسخ الذخيرة والوافي (أبدي) وقد آثرنا رواية القلائد والمغرب. وفي الوافي (فالذكر يقنعنا، والطيف يكفينا).

(٤) في القلائد والكوكب (قناع) وفيهما وفي النفح والخريدة (لو شفعت).

(٥) في الذخيرة والقلائد والنفح والكوكب (عليك مني.....)، وفي القلائد والكوكب (صبابة منك).

الأمل المنشود[1]

يــا نــازحًــا وضــمــيــرُ الــقــلب مــثــواهُ
أنْــسَــتْكَ دنــيــاكَ عَــبْــدًا أنتَ دُنــيــاهُ[2]
أَلْــهَــتْكَ عــنهُ فُــكــاهــاتٌ تَــلَــذُّ بِــهَــا
فــلــيس يــجــري بــبــالٍ مــنكَ ذكــرَاهُ
عَلَّ الــلَّــيــاليَ تُــبــقــيــني إلى أملٍ
الــدَّهْــرُ يَــعْــلَمُ والأيَّــامُ مَــعْــنــاه[3]

****

(١) لم ترد الأبيات بالديوان، وقد نقلناها عن الذخيرة والقلائد والمغرب.

(٢) في الذخيرة (أنت مولاه).

(٣) في الذخيرة (إلى أجل)، وفي المغرب (إلى أمد)، وفيه (الله يعلم).

مقصوص الجناح

إلـــيكِ - مِنَ الأنـــامِ - غـــدا ارْتِـــيـــاحي
وأنتِ - عـلـى الـزّمـانِ - مَـدَى اقْـتِـراحِي[1]

ومـــا اعـــتـــرضتْ هـــمـــومُ الـــنـــفس إلاّ
- ومن ذكـــراكِ - رَيْـــحـــاني وراحِي

فَـــدَيْـــتُكِ: إنّ صَـــبْـــري عـــنك صَـــبْـــري
- لــدى عَـطَـشي - عــلـى المـاءِ الـقَـراحِ

ولي أملٌ - لَـــوِ الـــواشـــونَ كَـــفُّـــوا -
لأَطْـــلَعَ غَـــرْسُهُ ثَـــمَـــرَ الـــنَّـــجـــاحِ

وأعْـــجَبُ كـــيف يـــغـــلـــبُـــني عـــدوٌّ
رِضـــاكِ عـــلـــيـه من أمْـــضَى سِلاحِ[2]

وَلَـــمَّـــا أَنْ جـــلَـــتْكِ لِيَ - اخـــتلاسًـــا -
أَكُفُّ الـــدهـــرِ لِـــلْـــحَـــيْنِ الـــمُـــتَـــاحِ

رأيتُ الـــشَّـــمْسَ تـــطـــلـــعُ من نِـــقـــابٍ
وغُـــصْنَ الـــبـــان يـــرفلُ في وِشَـــاحِ[3]

فَـــلَـــوْ أَسْـــطِـــيعُ طِـــرْتُ إلـــيك شَـــوْقًـــا
وكـــيف يـــطـــيـــرُ مَـــقْـــصـــوصُ الجَـــنـــاحِ؟

---

(١) في النفح (من الزمان).

(٢) هكذا في الأصول والنفح، لعله (رضاك عليه أمضى من سلاحي)، وقد يكون (من أمضى سلاح)، والمعنى المقصود: إنني أعجب كيف يغلبني عدو ولكن رضاك عنه أعطاه سلاحًا ماضيًا.

(٣) في النفح (في نقاب).

فـــؤادي - مِنْ أَسًى بكِ - غـــيـــرُ خَـــالٍ

وقـلـبي - عن هَـوًى لكِ - غـيـرُ صَـاحِ[1]

عـــلى حـــالَيْ وِصَـــالٍ واجْـــتِـــنـــابٍ،

وفي يَــــوْمَيْ دُنُــــوٍّ وانْـــــتِــــزاحِ

وحَـــسْـــبِي أنْ تُـــطـــالِـــعَكِ الأمـــاني

بـــأُفْـــقِكِ - في مـــســـاءٍ أو صـــبـــاحِ -

وأَنْ تُـــهـــدِي الـــسَّلامَ إليَّ - غِـــبّـــاً -

ولـــو في بَـــعْضِ أنْـــفـــاسِ الـــرِّيـــاحِ[2]

****

(١) ورد هذا البيت في الديوان والنفح قبل البيت الأخير من القصيدة، ولعل موضعه هنا أنسب، ورواية النفح (من هوى).

(٢) هذه رواية النفح، وقد آثرنا إثباتها لأنها أنسب للمعنى، وفي الديوان (وأن تبدي)، وفي النفح (إلي شوقا).

راحة وعذاب

مـــــــتـى أَبُـــــــثُّـكِ مَـــــــا بِـي؟
يـــــا راحـــــتـي وعـــــذابـي[1]
مـــــتـى يـــــنـــــوبُ لـــــســـــانـي
- فـي شَـــــرْحِـهِ - عن كـــــتـــــابـي؟
ألـــــلَّـهُ يـــــعـــــلـم أنّـي
أصـــــبـــــحـتُ فـــــيكِ لِـــــمـــــا بي[2]
فـلا يـــــطـــــيـبُ مَـــــنـــــامـي
ولا يـــــســـــوغُ شَـــــرابـي[3]

✡✡✡✡✡

يـــا فِـــتْـــنَـــةَ الـــمُـــتَـــقَـــرِّي
وحُـــجَّـــةَ الـــمُـــتـــصـــابي:[4]
الـــــشَّـــــمْسُ أنـتِ، تـــــوارتْ
- عن نـــاظـــري - بـــالحِـــجـــاب

✡✡✡✡✡

مـــا الـــبَـــدْرُ - شَفَّ سَـــنـــاهُ
عـــلـى رقـــيقِ الـــسَّـــحـــاب -
إلاَّ كَـــــوجـــــهـكِ، لـــــمّـــــا
أضـــــاءَ تحت الـــــنِّـــــقـــــاب

✱✱✱✱

---

(١) رواية النفح (متى أنبّيك).
(٢) رواية بعض نسخ النفح (كما بي).
(٣) رواية النفح (فما يلذ منامي).

مرأى ومستمَع

أسْــتَــوْدِعُ الـــلـهَ منْ أُصْــفِي الـــودادَ لهُ
مَـــحْـــضًـــا، ولامَ به الـــواشي فـــلم أُطِعِ
إلْفٌ أَلَــذُّ غُـــرورَ الـــوَعْـــدِ، يـــصـــفحُ لي
عـنه، ويُـقـنـعُـني الـتَّـعـلـيلُ بـالخُـدَعِ[1]
تجلو الـمُنَى شَخْصَهُ لي - وَهْوَ مُحْتَجِبٌ
عـني - فـمـا شـئتَ من مَـرأى ومُـسـتَـمَعِ
يـــا بَـــدْرَ تمٍّ بـــدا في أُفْق مَـــمْـــلَـــكَـــةٍ
فِـراقَ مُـــطَـــلِّـــعًـــا من خَـــيـــرِ مُـــطَّـــلَعِ
أفـــدي بـــدائع شـــكلٍ مـــنكِ مُـــبْـــصِـــرَةً
لـقـتلِ نـفـسيَ - عـمـدًا - أشـنعَ الـبِدَعِ[2]

✲✲✲✲✲

تـــالـــلهِ - أكْـرَمِ مـــا أَمْـضَى الـيـمـــينُ به
منْ دَانَ في حُـــبِّهِ بـــالـــصِّـــدْقِ والـــوَرَعِ -
مـــا لَـــذَّ لي قُـــرْبُ أُنْسٍ أنتِ نـــازحـــةٌ
عـنه، ولا ســاغَ عـيشٌ لـستِ فـيه مـعي[3]

✱✱✱✱

(١) المعنى، إنني أقنع منه بوعوده المطولة التي يتنازل بمنحها لي، وأعزي النفس حين يدركها اليأس بالآمال الكواذب.

(١) مبصرة: موضحة مظهرة أو مضيئة، ومنه قوله تعالى (والنهار مبصرًا): (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة)، أو ناظرة. والمعنى أن جمالك الفتان مظهر أشنع البدع، لأنه قتلني متعمدًا.

(١) يقسم بالله - وإنه لقسم عظيم من رجل يؤمن في حبه بالورع والتقوى - أنه لا يطيب له عيش بدونها مهما طاب العيش ولذت الحياة.

عهد لا يحول

عَـذِيـري من خـلـيلٍ يـسـتـطـيلُ
يمـيلُ - معَ الـزَّمـانِ - كـمـا يمـيلُ
ويَـرْضَى أن تـضـيعَ كـذا حـقـوقي،
وبـاعي في الـهَـوَى بـاعٌ طـويلُ
أشَـمْـسًـا أشـرقتْ من (عـبـد شـمسٍ)
أَمَـا لَكِ - في سِـوى قـلـبي - أُفُـولُ؟
أمـا يُـمْـحَى عـتـابُكِ كلَّ يـومٍ؟
أمـا يُـرْجَى - إلى وصلٍ - وُصُـولُ؟
ولـو أجـدُ الـسَّـبـيلَ لَـطِـرْتُ وَجْـدًا،
ولـكنْ مـا إلى هـذا سـبـيلُ
كـتـابي - عن وِدادِكِ - لا يـزولُ،
وعـهـدي - مِـثْلَ عَـهْـدِكِ - لا يَـحُـولُ

****

عيون الحساد

لــو تُــرِكْــنَــا بــأن نَــعُــودَكِ عُــدْنَــا
وقــضــيــنــا الــذي عــلــيــنــا وَعُــدْنَــا[1]

غــيــر أن الــهــوى اســتــفــاضَ حــديــثًــا
فــانْــتَــحَــتْــنَــا الــعُــيُــونُ لــمَّــا حُــسِدْنَــا[2]

فَــلَــوَ انَّ الــنُّــفــوسَ تُــقْــبَلُ مِــنّــا،
لــســمــحــنــا بــهــا - فِــداءً - وَجُــدْنَــا

****

(١) عدنا: من العيادة وهي زيارة المريض، وعدنا (في آخر البيت) من العودة، وفي أ، ب، ز (وقضينا الذي علينا وزدنا).

(٢) المعنى: أن الهوى لما ذاع أمره أحاطت بنا العيون حسداً وحقداً.

معاهد صبوات[1]

عــلى (الــثَّــغَبِ الــشّــهْــدِيِّ) مِــني تحــيــةٌ
زَكَتْ، وعـــلــى (وادي الـــعَـــقـــيــقِ) سَلامُ[2]

ولا زال نَـــوْرٌ (في الـــرُّصـــافـــةِ) ضـــاحكٌ
بـــأرجـــائـــهـــا يـــبـــكي عـــلـــيه غَـــمـــامُ[3]

مـــعـــاهـــدُ لَـــهْـــوٍ لم نـــزلْ في ظلالـــهـــا
تُـدارُ عــلــيــنــا - لــلــمُــجــونِ - مُـدامُ[4]

زمــانَ: رِيــاضُ الــعــيش خُـضْـرٌ نَـواضِـرٌ
تَـــرِفُّ، وأَمْـــوَاهُ الـــسُّـــرورِ جِـــمَـــامُ[5]

فـــإن بـــانَ مـــنِّي عَـــهْـــدُهـــا، فَـــبِـــلَـــوْعَـــةٍ
يُـشَبُّ لـــهـــا - بـــين الـــضـــلـــوعِ - ضِـــرَامُ

تـــذكّـــرتُ أيَّـــامي بـــهـــا، فـــتـــبـــادرتْ
دمـــوعٌ، كـــمـــا خـــانَ الـــفـــريـــدَ نِـــظـــامُ[6]

وصُـــحْـــبـــةَ قـــومٍ كـالمـــصـــابـــيح، كُـــلُّـــهمْ
- إذا هُـــزَّ لـــلـــخَـــطْبِ الـــمُـــلِـــمِّ - حُـــسَـــامُ

إذا طـــافَ بـــالـــرَّاحِ الـــمُـــديـــرُ عـــلـــيْـــهمُ
أطـــــافَ به بِـــيـــضُ الـــوجُـــوهِ، كِـــرَامُ

(١) صاغ الشاعر هذه القصيدة في الشوق إلى مراتع لهوه وملاعب هواه بقرطبة.
(٢) في الذخيرة (على دارة الشرقي).
(٣) النور: الزهر، وفي الذخيرة (روض).
(٤) في الذخيرة (للسرور).
(٥) في الذخيرة (خضر نواعم)، (أمواه النعيم)، جمام: غزيرة.
(٦) في الذخيرة (دموعي) والمعنى: تساقطت دموعي مع الذكريات كما تتساقط حبات العقد.

وَأَحْـوَرُ سَـاجِي الـطَّـرفِ، حَـشْـوُ جُـفُـونِهِ

سَـقَـامٌ، بَـرَى الأجـسـامَ مـنـه سِـقَـامُ[1]

تـخَـال قـضـيـبَ الـبـان - في طَيِّ بُـرِدهِ -

إذا اهْــتَــزَّ مـــنـه مِـــعـــطفٌ وقَـــوَامُ

يُـــديـــرُ - عـــلـىَ رغم الـــعِـــدا - من وِداده

سُلافًــا، كــأنَّ الـــمِـــسْكَ مِـــنْهُ خِـــتَـــامُ

فـمن أجْـلِهِ أدعـو لـقـرطـبـةِ الـمُـنَى

بـسُـقْـيَـا ضَـعِـيفِ الـطَّلِ وهْـوَ رِهَـامُ[2]

مَـحَلٌّ غَـنِـيـنَـا بـالـتَّـصـابي خِلالَهُ

فـأسْـعَـدَنَـا، والحـادثـاتُ نِـيَـامُ

فـمـا لَـحِـقَتْ تـلك الـلـيـالي ملامـةٌ

ولا ذُمَّ من ذاك الحَـــبِـــيبِ ذِمَـــام[3]

****

(١) (في الأصل تري) ولعلها من ورَى النار: أي قدحها، ساجي الطرف ساكنه. سِقام (بكسر السين): جمع سقيم.

(٢) في الذخيرة (ومن أجلها)، الرهام: جمع رهمة، وهي المطر الخفيف الدائم الذي لا يؤذي.

(٣) في نسخة ت (زم..... زمام)، وفي الذخيرة (ولا ذم... حمام).

لوعة الغريب[1]

غَريبٌ بأقصى الشَّرْقِ يشْكُرُ للصَّبا
تَحَمُّلَهَا منهُ السَّلامَ إلى الغرْبِ[2]
وما ضَرَّ أنفاسَ الصَّبَا في احْتِمالِها
سَلامَ هَوًى يُهْديهِ جسمٌ إلى قلْبِ[3]

****

(١) صاغ الشاعر هذين البيتين في طرطوشة من أعمال بلنسية قرب الساحل الشرقي للأندلس على البحر الأبيض المتوسط، وتقع على صخرة منبسطة في سفح جبل الكهف على نهر إبرة، وقد اشتهرت بوفرة سلعها فأمَّها التجار من كافة الأصقاع، وهي قلعة حصينة يقول فيها عبدالملك بن إدريس الجزيري حين سجنه بها المنصور بن أبي عامر من قصيدة:

في رأس أجرد شاهق عالي الذرا
ما بعده لمؤمل من مبصر
ويكاد من يرقى إليه مرة
من دهره يشكو انقطاع الأبهر

وتقع طرطوشة إلى الشرق من قرطبة.

(٢) في بعض نسخ الذخيرة (منى) وفي بعضها (منا).

(٣) في الذخيرة والقلائد (سلام فتى) وفي نسخة ب، ز (إلى القلب).

زفرة الشريد[1]

يـا دمعُ صُبْ مـا شِـئْتَ أن تَـصُـوبَـا[2]
ويـــا فـــؤادي آنَ أنْ تَـــذوبـــا
إذِ الــرزايـــا أصـــبـــحتْ ضُــروبـــا[3]
لـم أرَ لـي - في أهـــلــهـــا - ضَـــريـــبـــا
قــد مـلأ الـــشَّــوقُ الحَـــشـــا نُـــدوبـــا
في الـــغَـــرْبِ إذْ رحتُ بـه غَـــريـــبـــا[4]
عَـــلـــيلَ دَهْـــرٍ سـامَـــني تَـــعْـــذيـــبـــا[5]
أدنى الـــضَّـــنَى إذ أبْـــعَـــدَ الـــطَّـــبـــيـــبـــا

✡✡✡✡

لـــيت الـــقَـــبُـــولَ أحْـــدَثَتْ هُـــبـــوبـــا[6]
ريحُ يـــروحُ عَـــهْـــدُهـــا قَـــريـــبـــا[7]
بـــالأُفُقِ الـــمُـــهْـــدي إلـــيـــنـــا طِـــيـــبـــا
تَـــعَـــطَّـــرتْ مـــنه الـــصَّـــبَـــا جُـــيُـــوبَـــا
يَـــبْـــرُدُ حَـــرَّ الـــكَـــبِـــدِ الـــمَـــشْـــبُـــوبـــا[8]

✡✡✡✡

(١) صاغ الشاعر هذه الأرجوزة أثناء لجوئه إلى بطليوس قاعدة ملك بني الأفطس وتقع على نهر آنة في الشمال الغربي من قرطبة.
(٢) صاب المطر: انصب بغزارة.
(٣) في الذخيرة (إن) بتشديد النون.
(٤) في الذخيرة (أن) بفتح الهمزة وسكون النون.
(٥) في بعض نسخ الذخيرة (رامني) وفي بعضها (ضامني).
(٦) القبول: ريح الصبا، وهي ريح طيبة تهب من الشرق، والمعروف أن قرطبة تقع إلى الجنوب الشرقي من بطليوس حيث لجأ الشاعر إليها.
(٧) العهد: المطر المتوالي، أو هو أوائل المطر، والمعنى ريح مؤذنة بالمطر، وأن عهد هذه الرياح بقرطبة قريب.
(٨) برده جعله باردًا، وأبرده لغة رديئة.

يـا مُـتْـبِـعًـا إسَـآدَهُ الـتَّـأويـبـا[1]
مـشـرِّقًـا قـد سَـئِمَ الـتَّـغْـريـبـا
أمـا سَـمِـعْتَ الـمَـثَلَ الـمَـضْـروبـا:
«أرسل حـكـيـمًـا، واسْـتَـشِـرْ لَـبـيـبـا»

✲✲✲✲✲

إذا أتَـيْتَ الـوَطَنَ الحَـبـيـبـا
والجـانبَ الـمُـسْـتَـوْضَحَ الـعَـجـيـبـا
والحـاضـرَ الـمُـنْـفَـسِحَ الـرَّحـيـبـا
فَـحَـيِّ مـنه مـا وَرَى الجُـنـوبـا[2]

✲✲✲✲✲

مـصـانعُ تُـجَـاذِبُ الـقـلـوبـا[3]
حـيث أَلِـفْتُ الـرشـأَ الـرَّبـيـبـا[4]
مُـخـالـفًـا في وَصْـلِـهِ الـرقـيـبـا[5]
كم بـاتَ يَـدْري لَـيْـلَهُ الـغِـربـيـبـا[6]
لمـا انْـثَـنَى في سُـكْـرِهِ قَـضـيـبـا
تَـشْـدو حَـمَـامُ حَـلْـيِهِ تَـطْـريـبـا[7]

---

(١) إسآده: مواصلته السفر ليلاً، التأويب: مواصلة السير بالنهار.

(٢) ورى: أوقد، والمعنى: حي من هذا الوطن ما أشعل جذوة الشوق بين الجوانح، وفي بعض نسخ الذخيرة (رأى) وعلى هذه الرواية تكون الجنوب بفتح الجيم، وحينئذ يصبح المعنى: حي من هذه المواطن ما جلعني أبصر الجنوب ماثلاً أمام عيني لشدة تعلقي به، والمعروف أن قرطبة تقع إلى الجنوب الشرقي من بطليوس.

(٣) المصانع: القرى أو الحصون أو القصور.

(٤) الرشأ: الظبي الصغير حين يقوى على المشي والعدو خلف أمه، والربيب: الناشئ في النعمة.

(٥) في الذخيرة (مخالسًا).

(٦) يدري: يحتال، الغربيب: الشديد السواد، والمعنى أنه طالما خدع الرقباء وتحين الفرص تحت جنح الظلام للقائي، ولعله يشير بهذا إلى قول ولادة في خطابه:

ترقب إذا جنَّ الظلام زيارتي
فإني رأيت الليل أكتم للسرِّ

هَـــصَــرْتُهُ حُــلْــوَ الجَـــنَى رطــيــبــا

أَرْشُفُ مــنه الــمَــبْـسِمَ الــشَّــنـيــبَـا[1]

حـــتَّى إذ مــا اعْـــتَنَّ لي مُـــريـــبـا[2]

شَـــبـــابُ أُفْقٍ هَمَّ أنْ يـــشـــيـــبَـا

بــادرتُ سَــعْــيًـا، هلْ رأيتَ الــذِّيـبـا؟[3]

أهـــاجِـــري أم مُـــوسِـــعِي تـــأنـيـبـا

مَنْ لمْ أُسِغْ من بَـــعْـــدِهِ مَـــشْـــروبَـــا؟

مــا ضَـــرَّهُ لـــو قـــالَ: لا تَـــثْـــريـــبـا

ولا ملامَ يَـــلْـــحَقُ الـــقُـــلـــوبـا؟[4]

قـــدْ طـــالَ مـــا تَـــجَـــرَّمَ الـــذُّنـــوبـا؟[5]

ولـم يَــدَعْ في الـــعُـــذرِ لي - نَـــصــيـبـا

✡✡✡✡✡

إن قَـــرَّتِ الـــعَـــيْنُ بـــأنْ أَؤُوبـــا[6]

لمْ آلُ أنْ أَسْـــتَـــرْضِيَ الـــغَـــضُـــوبـا[7]

حَـــسْـــبِيَ أنْ أُحَـــرِّمَ الـــمَـــغِـــيـــبَـا

قـــدْ يـــنـــفعُ الـــمُـــذنِبَ أنْ يَـــتُـــوبـا

✱✱✱✱

---

(١) الشنيب: من الشنب وهو عذوبة الأسنان وبردها.

(٢) اعتن: اعترض.

(٣) المعنى حتى إذا ما آذن الليل بالزوال، وسرت أشعة الضياء في غلس الظلام انسللت من مخدعها كما ينسل الذئب الحذر الحريص.

(٤) في بعض نسخ الذخيرة (فلا ملام لحق المغلوبا) وفي بعضها (لحق القلوبا).

(٥) تجرم: ادعى الذنوب. ومنه قول الشاعر:

تَـــعُـــدُّ عـــلي الـــذنب إن ظـــفـــرتْ به
وإلا تجـــدْ ذنـــبًـــا عـــليَّ تَـــجَـــرَّمُ

(٦) أؤوب: أعود، يعني عودته إلى قرطبة.

(٧) في ب، ز (لم آن).

أنّة الطريد

عرج الشاعر على بطليوس أثناء هجرته من قرطبة إلى إشبيلية، فطوى بها بضعة أشهر داميَ القلب، مشرد اللب، وطالعه العيدان، فزاداه شجنًا على أشجان، وتذكر مواطن لهوه ومرابع أنسه بقرطبة، فهاجته الذكريات، وأرسل هذه الزفرات:

خـــلــيــلـيَّ لا فِــطــرٌ يَـــسُـــرُّ ولا أَضْـــحَى
فمـا حـالُ من أمسى مَشوقًا كمـا أضحى؟[1]

لـــئنْ شـــاقَـنـي (شــرقُ الــعُـقــابِ) فـلـم أزلْ
أَخُصُّ بمَمْـحُـوض الـهَـوَى ذلك الـسَّـفـحـا[2]

ومــا انْــفَكَّ جُــوفِيُّ (الــرُّصَــافَـةِ) مُـشْـعِـري
دَواعِيَ ذِكْـرَى تُـعْـقِبُ الأَسَفَ الـبَـرْحـا[3]

ويَــهْــتــاجُ (قَـصْــرُ الــفــارسيِّ) صَــبــابــةً
لــقَــلــبيَ، لا تــألــو زِنــادَ الأَسَى قَـدْحَــا[4]

ولــيس ذَمِــيـمًــا عَـهْـدُ (مَـجْـلِسِ نـاصحٍ)
فــأقْــبَلُ في فَـرْطِ الــوَلــوع به نُــصْـحَــا

---

(١) المعنى: لا عيد الفطر يسرني، ولا عيد الأضحى يسعدني، فكيف ينعم قلب يؤرقه الشوق في المساء ويثيره في الصباح، وقريب من هذا قول المتنبي:

عـيـدٌ!! بـأيـة حـالٍ عـدت يـا عـيـد؟
بمــا مـضى؟ أم لأمـر فـيك تجـديـد؟
أمــا الأحــبــة فــالــبــيــداءُ دونـــهم
فـلــيت دونك بــيــدًا، دونـــهــا بــيـد

(١) في ب، ت (ولم أزل) وفي الذخيرة (بمخصوص الهوى) وفي القلائد (بممحوص) ومعنى الممحوص: الخالص، من (محص الصائغ الذهب بالنار: أخلصه مما يشوبه).

(١) جوفي الرصافة: شمالها حيث نشأ الشاعر، وفي الذخيرة والقلائد (دواعي بث) والبث: أشد الحزن أو الحال، والبرح: الشدة، والأسف البرح: الحزن المبرح العنيف.

كــأنيَ لمْ أشــهَــدْ لــدى (عَــيْنِ شُــهْــدَةٍ)
نِــزالَ عِــتــابٍ كــان آخِــرُهُ الــفَــتْــحــا[1]

وقــائعُ جــانــيــهــا الــتَّــجَــنِّي، فــإن مَــشَى
ســفــيرُ خُــضــوعٍ بــيــنــنــا أَكَّــدَ الــصُّــلْــحَــا[2]

وأيَّــامُ وصلٍ (بــالــعــقــيق) اقْــتَــضَــيْــتُهُ
فــإلاَّ يــكنْ مــيــعــادُهُ الــعِــيــدَ فــالــفِــصْــحَــا[3]

وآصــــالُ لَـــهْــوٍ في (مُـــسَــنَّـــاةِ مــالكٍ)
مُــعــاطــاةَ نَــدْمَــانٍ إذا شــئتُ أوْ سَــبْــحَــا[4]

لــدى راكــدٍ تُــصْــبِــيكَ من صَــفَــحــاته
قَــواريرُ خُــضْــرٌ خِــلْــتَــهَــا مُــرِّدَتْ صَــرْحــا[5]

مَـــعـــاهِـــدُ لـــذَّاتٍ وأوطــــانُ صَـــبْـــوَةٍ
أجَــلْتُ الــمُــعَــلَّى في الأمــاني بــهــا قِــدْحــا[6]

☆☆☆☆☆

ألا هــلْ إلــى (الـــزَّهــــراءِ) أَوْبَـــةُ نــــازحٍ
تَــقَــصَّى تَــنــائــيــهــا مَــدامِــعَهُ نَــزْحَــا[7]

---

(١) المعنى: كم تعاتبنا في عين شهدة، ثم انتهى العتاب بالإعتاب، وانطوى الملام بالإنعام.

(٢) المعنى: كم جنى عليَّ تجنيها وادعاؤها ما لم أجترحه من الذنوب، فإذا توسلت إليها بالخشوع والتودد لان جانبها، ورق قلبها، وأنعمت بالرضى، وقريب منه قول الشاعر:

فــقــمت أفــرش خــدي في الــطــريق له
ذلاً، وأســـحب أذيـــالي عـــلى الأثــر

(٣) في الذخيرة (اقتضيتها)، والمعنى كم سعدت بالوصال سواء تم لي في عيد المسلمين أو عيد المسيحيين.

(٤) الآصال: جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى المغرب، مسناة مالك: اسم مكان، وأصل المسناة: السد المائي، وكان شاعرنا مولعًا بالغياض الشذية والجداول الندية، فكان يتعاطى بها الشراب مع ندمانه، أو يسبح بها مع خلانه.

(٥) راكد: ساكن، مردت: سويت، صرحًا: قصرًا، والمعنى: أنه طوى أوقاتًا سعيدة في مسناة مالك على جدول هادئ ساكن كأن صفحة مياهه من بلور مصقول، يخاله الناظر معداً ومهيأ لبناء قصر شامخ.

(٦) في ب، ز (أوطان صبوة)، المعلى: سابع سهام الميسر وهو أوفرها حظاً لأن الثلاثة الباقية من السهام العشرة لا نصيب لها. والقِدح بكسر القاف: السهم قبل أن يراش وينصل، وكان العرب في الجاهلية يستعملون هذه الأسهم في لعب الميسر فنهاهم عنه الإسلام.

(٧) أوبة. عودة، نازح: بعيد، تقصى: بلغ الغاية، تنائيها: بعدها، نزحًا: جفافًا (من نزح البئر: أخرج ماءها كله) والزهراء: من أجمل ضواحي قرطبة، تفنن الخليفة عبدالرحمن الناصر في تشييدها عشرات الأعوام، وأنفق عليها آلاف الآلاف حتَّى جاءت أعجوبة في فن البناء، وقد شيدها تخليدًا لحظيته وسماها باسمها، وجعلها حاضرة لخلافته، فتغنى بذكرها الشعراء والأدباء، وطالما ترنم شـــــاعرنا بذكرها، وهو هنا يتمنى أن يعود إليها بعد أن برح به الشـــوق ونزفـــت مدامعه

مَـقـاصِـيـرُ مُـلْكٍ أشْـرَقَتْ جَـنَـبـاتُـهـا
فخِلنا العِشاءَ الجَوْنَ أثناءها صُبحا[1]
يُـمَـثِّلُ قُـرْطَـيْـهـا لِيَ الـوَهْمُ جَـهْـرَةً
فقُبَّتَها، فالكوكبَ الرَّحْبَ، فالسَّطْحا[2]
مَـحَلٌّ ارتـيـاحٍ يُـذْكِـرُ الخُـلْـدَ طِـيـبُهُ
إذا عزَّ أنْ يَصْدَى الفَتَى فيه أو يَضْحَى[3]
هـنـاك الجِـمـامُ الـزُّرقُ تَـنْـدى حِـفـافَـهـا
ظلالٌ عَهِدْتُ الدهرَ فيها فَتًى سَمْحا[4]
تَـعَـوَّضْتُ من شَـدْوِ الـقِـيـانِ خلالَـهَـا
صَدَى فَلَواتٍ قد أطارَ الكَرَى ضَبْحَا[5]
ومن حَـمْـلِيَ الـكـأسَ الـمُـفَـدَّى مُـديـرُهـا
تَقَحُّمَ أهْوالٍ حَمَلْتُ لها الرُّمْحا[6]
أجَلْ إنَّ لَـيْـلِي فـوقَ شـاطئ نِـيـطَـةٍ
لأقْصَرُ من ليلي بآنَةَ فالبَطْحا[7]

****

(١) المعنى: هذه القصور الملكية الباذخة بالزهراء أضاءت رحابها وأشرقت سماؤها، فأحالت الليل المظلم إلى صباح وضاء، والجون: من أسماء الأضداد فتطلق على الأبيض والأسود، والمراد بها هنا السواد.

(٢) المعنى: إنني – على الرغم من البعاد – أراها بين الوهم، وأبصر ملاعبها ماثلة أمامي، فأرَى القرطين والقبة والكوكب الرحب والسفح فتبهج نفسي وتقر عيني.

(٣) في أصول الديوان (إذا عنَّ) بمعنى اعترض أو ظهر، وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد لأنها أنسب للمعنى.
يصدى: يظمأ: يضحى: يبرز للشمس. والمعنى: أن الزهراء تذكرنا بجنات الخلد حيث أكلها دائم وظلها، فلا يصيب المؤمنين فيها ظمأ ولا يتعرضون للفحات الشمس، والله تعالى يقول عنها لآدم عليه السلام (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى).

(٤) الجمام: المياه الغزيرة، وزرقتها ناجمة عن غزارتها وانعكاس زرقة السماء عليها، تندى: تجعل الشيء ندياً، الحفاف: الجانب، والمعنى أن هذه الربوع تتدفق فيها المياه، وتُندّي الظلال جوانبها، وقد أسعدنا الزمان بنفحاته فكأنه فتى سمح كريم.

(٥) شدو القيان: غناء الجواري، الصدى: رجع الصوت. فلوات: صحاري. الضبح: صوت الخيل في غير صهيل أو حمحمة، أو عدوها. والمعنى: أنني استبدلت بغناء الجواري أصواتًا مبهمة مخيفة تنبعث من جوف الصحراء تشبه عدو الخيل أطارت من عيني النوم.

(٦) المعنى: إنني حرمت من الائتناس بالنعيم ومعاقرة الشراب يديره غلام جميل تفديه الأرواح، وعرضت لاقتحام أخطار حملت لها الرمح بدلاً من الكأس.

(٧) المعنى: نعم كانت ليالي أنسي على شاطئ نيطة قصيرة لأنها حافلة بالنعيم، أما لياليّ في آنة والبطحاء فطويلة لأنها حافلة بالمتاعب والأخطار.

لا أهل ولا وطن[1]

حل العيد فأنس كل إلى أهله، وسعد بوطنه، ونظر الشاعر فرأى نفسه نازحًا عن وطنه، نائيًا عن أهله، فناجاهم على البعد بهذه الأبيات:

هل تــذكــرون غَــريــبًــا عــادَهُ شَــجَنُ
- مِنْ ذِكْـركمْ - وَجَـفَـا أجْـفَـانَهُ الـوَسَنُ؟[2]
يُـخـفِي لَـواعِـجَهُ والـشَّـوْقُ يَـفْـضَـحُهُ
فـقـد تَـسَـاوى - لـديهِ - الـسِّـرُّ والـعَـلَنُ
يـا وَيْـلَـتـاهُ، أيَـبْـقَى في جَـوانِـحِهِ
فُـؤادُهُ، وَهْـوَ بـالأطلالِ مُـرْتَـهَنُ؟
وأرَّقَ الـعَـيْنَ - والـظَّـلْـمـاءُ عـاكِـفَـةٌ -
وَرْقَـاءُ، قـد شَـفَّـهـا - إذ شَـفَّـني - حَـزَنُ[3]
فَـبِتُّ أشْـكـو وتَـشْـكـو فـوقَ أيْـكَـتِـهـا
وبـاتَ يَـهْفُـو ارتـيـاحًـا بـيـنـنـا الـغُصُنُ[4]

✵✵✵✵✵

يـا هلْ أُجـالِسُ أقْـوامًـا أحِـبُّـهُمُ؟
كُـنَّـا وكـانـوا - عـلـى عَـهْـدٍ - فـقـد ظَـعَـنـوا[5]

---

(١) لم ترد هذه القصيدة بالديوان، وقد أثبتناها عن المعجب.

(٢) الشجن: الحزن، الوسن. النوم.

(٣) ورقاء: حمامة، شفها الحزن: أضعفها وأنحلها.

(٤) الأيكة : الشجرة الضخمة، أو الأجمة بجوار المياه، يهفو. يتحرك ويتمايل.

(٥) ظعنوا: رحلوا.

أوْ تَـحْـفَـظـونَ عُـهـودًا لا أُضَـيِّـعُـهـا

إنّ الـكـرامَ - بـحـفْظِ الـعَـهْـدِ - تُـمـتَـحَنُ[١]

ومنها:

إنْ كـان عـادَكُمُ عـيـدٌ، فَـرُبَّ فَـتًى

بـالـشَّـوْقِ قـد عـادَهُ - من ذكـرِكُمْ - حَـزَنُ

وأفْـرَدَتْهُ الـلَّـيـالي من أحِـبَّـتِهِ

فـبـاتَ يُـنْـشِـدهـا - ممَّـا جَـنَى الـزَّمَنُ:

«بِمَ الـتَّـعَـلُّلُ؟ لا أهْـلٌ! ولا وطنٌ!

ولا نـديمٌ! ولا كـأسٌ! ولا سـكن!»[٢]

****

(١) تمتحن: تختبر.

(٢) اقتبس الشاعر هذا البيت من مطلع قصيدة للمتنبي، والتعلل: التسلي والعزاء، السكن: ما يسكن إليه الإنسان من أهل ومال وغير ذلك، ويطلق في الغالب على الزوجة أو الحبيبة.

٤ – بين اليأس والأمل

«ترجح قلب الشاعر بين الرجاء والقنوط، فناجى حينًا، وعتب حينًا، وهو في نجواه أقرب إلى الشكاة، وفي عتابه أدنى إلى الغفران».

خطرات الظنون

باعَدْتِ بالإعراض غَيْرَ مُبَاعِدِ
وَزَهَدْتِ في منْ ليس فيكِ بزاهدِ
وسَقَيْتِنِي منْ ماءِ هَجْرِكِ مَا لَهُ
أصبحتُ أَشْرَقُ بالزُّلالِ البارِدِ
هلاَّ جَعَلْتِ - فَدَتْكِ نَفْسي - غايةً
لِلعَتْبِ، أَبْلُغُها بجَهْدِ الجاهدِ؟
لا تُفْسِدَنْ - ما قَدْ تأكَّدَ بَيْنَنا
من صالحٍ - خَطَراتُ ظَنٍّ فاسِدِ
حاشاكِ مِنْ تَضْيِيعِ ألْفِ وَسِيلةٍ
- شَجِيَ العدوُّ لها - بذنبٍ واحدِ
إنْ أجْنِهِ خطأً، فقد عاقَبْتِني
ظُلمًا، بأبلغَ من عِقابِ العامدِ

✡✡✡✡✡

عُودي لما أَصْفَيتِنِيه منَ الهَوَى
بَدْءًا، فَلَسْتُ - لِمَا كَرِهْتِ - بعائد
وَضَعِي قِناعَ السُّخْطِ عن وجه الرِّضا
كَيْمَا أَخِرَّ إلَيْهِ أوَّلَ سَاجِدِ

✱✱✱✱

النائي القريب

هَلْ لِـــــداعـــــيكَ مُــــــجـــــيبُ؟
أم لـــــشـــــاكـــــيكَ طَـــــبـــــيبُ؟
يـــا قـــريـــبًـــا حـــينَ يَـــنْـــأى
حـــاضـــرًا حـــين يَـــغِـــيبُ
كـــيفَ يَـــسْـــلـــوكَ مُـــحِبٌّ
زانَـهُ مِـــنْـكَ حـــبـــيبُ؟
إنَّـــمـــا أنتَ نَـــســـيمٌ
تَـــتَـــلَـــقَّـــاهُ الـــقُـــلـــوبُ
قـــد عَـــلِـــمْـــنَـــا عِـــلْمَ ظنٍّ،
هُـــوَ - لا شكَّ - مُـــصـــيبُ
أَنَّ سِـــرَّ الحُـــسْنِ ممَّـــا
أَضْـــمَـــرَتْ تـــلكَ الجُـــيُـــوبُ[1]

****

(١) في نفح الطيب (تلك القلوب).

العهد المصون

أَنَّـى أُضَـــــيِّـعُ عَــــــهْــــــدَكْ؟
أمْ كَـــــيْـفَ أُخْــــلِـفُ وَعْـــــدَكْ؟
وقـــــــدَ رَأتْـكِ الأمَـــــــانـي
رِضـىً، فـــــلـم تَـــــتَـــعَـــــدَّكْ

☆☆☆☆☆

يـــا لـــيتَ مَـــا لَـكِ عـــنْـــدي
- مِـنَ الـــهَـــوَى - لِـيَ عِــنْـــدَكْ
فـــطـــالَ لَـــيْـــلُـكِ بَـــعْـــدي
كـــطـــول لَـــيْـــلِيَ بـــعْـــدَكْ[1]
سَـــلِي حَـــيـــاتي أَهَـــبْـــهَـــا،
فـــلـــســتُ أَمْـــلِـكُ رَدَّكْ[2]
الـــدَّهْـــرُ عَـــبْـــدِيَ، لـــمَّـــا
أصـــبـــحتُ - في الحُبِّ - عَـــبْـــدَكْ

****

(١) في الذخيرة (وطال) وقد ورد البيتان في نفح الطيب بهذه الرواية:

يــا لــيت شــعــري، وعــنــدي
مــا لــيس في الحب عــنــدك
هـل طــال لــيــلك بــعــدي
كــطــول لــيــلي بــعــدك؟

(٢) في الأصل (سلني) وقد آثرنا رواية الذخيرة.

إرضاء الحبيب

لَمْ يَــكُنْ هَــجْــرُ حَــبِـيــبِي عنْ قِــلَى
لا، ولا ذاكَ الـــتَّـــجَـــنِي مَـــلَلا[1]
سَـــرَّهُ شُــكْـــرِيَ - إذ عَـــافَى - ولَمْ
يَــدْرِ مــا غــايَــةُ صَــبْــرِي فَــابْــتَــلَى[2]
أنـــا راضٍ بـــالـــذي يَـــرْضَى بهِ
ليَ، مَنْ لـــو قـــالَ: (مُتْ) مـــا قـــلتُ: (لاَ)
مَـــثَلٌ في كُلِّ حُـــسْنٍ، مِـــثْـــلَـــمـــا
صـــــار ذُلـيٍّ، في هَــــوَاهُ مَـــــثَلا
يـا فَـتِـيَتَ الـمِـسْكِ، يـا شَـمْسَ الـضُّحَى
يـــا قَـضَــيبَ الـبَــانِ، يـــا ريمَ الــفَلا:[3]
إنْ يـــكنْ لي أَمَلٌ غَـــيْـــرَ الـــرِّضـــا
مـــــنكَ، لا بُـــــلِّـــــغْتُ ذاكَ الأَمَلا!!

****

(١) القلى: البغض. الملل: السآمة.

(٢) رواية النفح (سره دعوى ادعائي، ولم)، ابتلى: اختبر.

(٣) الريم: الظبي الخالص البياض، ومثله الرئم وقد تخفف الهمزة فيصبح الريم. الفلا: جمع فلاة وهي البادية.

خداع الأماني

ثِقِي بي - يا مُعَذِّبَتِي - فإنيِّ
سَأَحْفَظُ فيكِ ما ضَيَّعْتِ منّي

وإنْ أصبحتِ قد أرْضَيْتِ قَوْمًا
بسُخطي، لم يكنْ ذا فيكِ ظنّي

وهلْ قلبٌ كقلبكِ في ضُلوعي،
فأسْلو عنكِ حينَ سَلَوْتِ عنّي؟

تَمَنَّتْ - أنْ تَنالَ رضاكِ - نفسي،
فكان مَنِيَّةً ذاكَ التَّمَنِّي

ولم أَجْنِ الذُّنوبَ فَتَحْقِديهَا،
ولكنْ عادةٌ منكِ التَّجَنِّي[1]

****

(١) في أصول الديوان (ولم أجز) وقد تكون من الجزاء بمعنى أنني لم أقابل إساءتك إلي بمثلها، وقد تكون من الجواز بمعنى لم

الكوكب المستقيم

أنتِ مَــعْــنَى الــضَّــنَى وَسِــرُّ الــدُّمــوعِ،

وســبــيــلُ الــهَــوَى، وقَــصْــدُ الــوَلــوعِ[1]

أنتِ والــــشَّـــمْسُ ضَــرَّتــانِ، ولـــكِنْ

لكِ - عــنــدَ الــغُــروبِ - فَــضْلُ الــطُّــلُــوعِ

لَــيسَ بــالــمُــؤْيــسِي تَــكَــلُّــفُكِ الــعَــتْـ

ـبَ - دلالاً - مِنَ الــرِّضى الــمَــطــبُــوعِ[2]

إنَّـــمـــا أنتِ - والحَـــسُـــودُ مُـــعَـــنّى -

كــوكبٌ يــســتــقــيمُ بَــعْــدَ الــرُّجــوعِ

****

(١) في النفح (معنى الهوى) وفي ز (الضيا) وفي الذخيرة (وسر الضلوع.... وقصد الدموع).

(٢) في النفح (ليس يا مؤنسي... الرضى المطبوع) والمعنى: لا أيأس من عتبك ودلالك فإنك تتكلفين العتاب والدلال على حين ينطبع على حنايا قلبك حبك لي وشغفك بي، فدلالك تكلف وحبك طبع.

مرارة الوداع

وَدَّعَ الـــــصَّـــــبْـــــرَ مُـــــحِـبٌّ وَدَّعَكْ
ذائـعٌ مِن سِـــرِّهِ مـــا اسْـــتَـــوْدَعَكْ[١]
يَـــقْـــرَعُ الـــسِّنَّ عـــلـى أنْ لـم يَـــكُـنْ
زادَ فـي تـــلـكَ الخُـــطـــا إذْ شَـــيَّـــعَكْ
يـــا أخـــا الـــبَـــدْرِ سَـــنـــاءً وسَـــنـــاً
حـــفِظَ الـــلّهُ زمـــانًـــا أطْـــلَـــعَكْ[٢]
إنْ يَـــطُلْ بَـــعْـــدَكَ لَـــيْـــلي فَـــلَـــكَمْ
بِتُّ أشْـــكـــو قِـــصَـــرَ الـــلَّـــيْلِ مَـــعَكْ

****

(١) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب وفي الديوان. (ودع الحسن... ضائعٌ من عهده....).

(٢) في بعض نسخ الذخيرة (رحم الله).

بعض الوصل

أَغَائِبَةً عَنِّي، وحَاضِرَةً معي
أناديك - لمَّا عِيلَ صَبْرِيَ - فاسْمَعِي
أَفِي الحقِّ أَنْ أشْقَى بحُبِّكِ، أو أُرَى
حَرِيقًا بأنفاسي غَرِيقًا بأدْمُعِي؟
ألا عَطْفَةٌ تَحْيَا بِهَا نَفْسُ عَاشِقٍ؟
جَعَلْتِ الرَّدَى منهُ بمَرْأَى وَمَسْمَعِ
صِلِينِيَ - بعضَ الوَصْلِ - حتَّى تَبَيَّنِي
حَقِيقَةَ حالِي. ثُمَّ ما شِئْتِ فاصْنَعِي

****

الروح والجسد

لَـمَّـا اتَّـصَـلْتِ اتِّـصـالَ الخِـلْبِ بـالـكَـبِـدِ
ثمَّ امْـتَـزَجْتِ امْـتِـزاجَ الـرُّوحِ بـالْـجَـسَـدِ[1]

ســاءَ الــوُشــاةَ مــكــاني مــنكِ، واتّــقَـدَتْ
- في صَـدْرِ كُلِّ عَـدُوٍّ - جَـمْـرَةُ الحَـسَـدِ

فَـلْـيَـسْـخَطِ الـنـاسُ لا أُهْـدِ الـرِّضى لـهمُ،
ولا يَـضِعْ لكِ عـهْـدٌ آخِـرَ الأبَـدِ

لَـوِ اسْـتَـطَـعْتُ - إذا مـا كـنتِ غـائـبـةً -
غَـضَـضْتُ طـرْفي، فـلـمْ أنـظُـرْ إلى أَحَـدِ

****

(١) الخِلب: حجاب رقيق للكبد، أو شيء أبيض رقيق لازق بها.

غفلة الرقيب

لَـــئِنْ فَـــاتَـــنِي مـــنك حَظُّ الـــنَّـــظَـــرْ
لأَكْــتَــفِــيَنْ بِــسَــمَـــاعِ الخَـــبَـــرْ
وإن عَـــرَضَتْ غَـــفْـــلَـــةٌ لـــلـــرقـــيبِ
فَـحَـسْـبِيَ تَـسْـلِـيـمَـةٌ تُـخْـتَـصَـرْ
أُحَـــاذرُ أَنْ تَـــتَـــظَـــنى الـــوُشَـــاةُ،
وقـــدْ يُـــسْـتَـــدامُ الـــهَـــوَى بـــالحَـــذَرْ[1]
وأصْـــبِـــرُ مُـــسْـــتَـــيْـــقِـــنًـــا أنَّهُ:
سَـيَـحْـظَى - بِـنَـيْلِ الـمُـنَى - مَنْ صَـبَـرْ[2]

****

(١) في النفح (أن يتجنى).
(٢) في النفح (فأصبر).

اختلاس النظر

سَــأَقْــنَعُ مِــنْكِ بِــلَــحْظِ الــبَــصَــرْ
وأَرْضَى بِــتَــسْــلِــيــمِكِ الــمُــخْــتَــصَــرْ
ولا أتَــخَــطَّى الْــتِــمَــاسَ الــمُــنَى
ولا أتَــعَــدَّى اخْــتِلاسَ الــنَّــظَــرْ
أصــونُكِ من لَــحَــظَــاتِ الــظُّــنُــونِ
وأُعْــلِــيكِ عن خَــطَــراتِ الــفِــكَــرْ
وَأَحْــذَرُ من لَــحَــظَــاتِ الــرَّقــيبِ
وقــدْ يُــسْــتَــدام الــهَــوَى بــالحَــذَرْ

****

القلب الرحيب

لَئِنْ كنتَ - في السِّنِّ - تِرْبَ الهلالِ،
لقَدْ فُقْتَ - بالحُسْنِ - بَدْرَ الكَمالِ[1]

أما والذي نَكَدَ الحَظَّ في
دُنُوِّ المَكَانِ بِبُعْدِ المَنَالِ

لقدْ بَلَّغَتْنِي دواعي هواكَ
إلى غايَةٍ ما جَرَتْ لي بِبَالِ

فَقُلْ للهَوَى: (يَجْرِ مِلْءَ العِنانِ)
فَمَيْدانُ قلبي رَحيبُ المَجالِ[2]

****

(١) ترب الهلال: أي في سنه، والمعنى أنك بلغت أربعة عشر عامًا، وفي ب، ت، ز (في الحسن).

عتب وإعتاب

يــا قَــمَــرًا مَــطْــلَــعُهُ الــمَــغْــرِبُ
قــد ضــاقَ بي – في حُــبِّكَ – الــمَــذْهَبُ[1]
أُعْــتِبُ – مِنْ ظُــلْــمِكَ لي – جــاهــدًا،
ويَــغْــلِبُ الــشَّــوْقُ فــأسْــتَــعْــتِبُ[2]
أَلْــزَمْــتَــنِي الــذَّنْبَ الــذي جِــئْــتَهُ
صَــدَقْتَ!! فــاصْــفَحْ أيُّــهــا الــمُــذْنِبُ
وإنَّ مِنْ أَغْــــرَبِ مــــا مَــــرَّ بي
أنَّ عــذابي فــيكَ مُــسْــتَــعْــذَبُ[3]

****

(١) في المغرب (أطلعه المغرب).

(٢) أستعتب: أسترضي.

(٣) البيت ناقص في الديوان، وقد أثبتناه عن القلائد والخريدة والمغرب، ورواية الخريدة (من أعجب).

السر المصون

بَـيْـني وبَـيْـنَكَ - مـا لَـوْ شِـئْتَ لم يَـضِعِ -
سِــــرٌّ إذا ذاعَتِ الأسْـــــرارُ لـمْ يَـــــذِعِ[١]
يـــا بـــائـــعًـــا حَـــظَّهُ مــنِّي، ولـــو بُـــذِلَتْ
لِيَ الحَــيــاةُ - بــحــظّي مــنهُ - لم أَبِعِ
يَــكْــفــيكَ أنَّكَ إن حَــمَّــلتَ قــلــبيَ مَــا
لمْ تَـسْـتَـطِـعْهُ قُـلـوبُ الـنّـاسِ يَـسْـتَـطِعِ[٢]
تِهْ أَحْـتَـمِلْ، واسْـتَـطِلْ أَصْـبِـرْ، وَعِـزَّ أَهُنْ،
وَوَلِّ أُقْـــبِلْ، وقُلْ أَسْـــمَعْ، ومُـــرْ أُطِعِ[٣]

****

(١) في بعض نسخ الذخيرة (إذا ضاعت الأسرار).
(٢) في الجذوة (حسبي بأنك)، وفي الوافي وتمام المتون وسرح العيون (لو حملت) وفي الجذوة والذخيرة والمعجب وسرح العيون وتمام المتون (لاتستطيع قلوب الناس).
(٣) في ز (وامتطل أصبر).

عَلَّة العطشان[1]

أحبت جارية فتى قرشياً فألهمها حبُّها هذا البيت:

يــا مُــعْــطِــشي من وِصــالٍ كــنتُ واردَهُ

هل مــنك لي عَــلَّــةٌ إن صــحت واعــطــشي

ولــم تستــطع أن تــزيــد عليه، فلجــأت إلــى الشاعر تستزيده، وكان يعلم قصتها فأنشدها:

يــا مُــعْــطِــشي من وصــالٍ كــنتُ واردَهُ

هل منك لي عَـلَّـةٌ إنْ صِحْتُ: (واعَطَشي)[2]

كَسَوْتَنِي - منْ ثِيابِ السُّقْمِ أسْبَغَها -

- ظُلْمًا - وصَيَّرْتَ من لُحُفِ الضَّنَى فُرُشي

أنَّى بِصَرْفِ الهَوَى، عن مُقْلَةٍ كُحِلَتْ

بِالسِّحْرِ منكَ وَخَدٍّ بِالجَمالِ وُشِي[3]

لمــا بَــدا الــصُّــدْغُ مُــسْــوَدّاً بِــأحْــمَــرِه

أرى الــتَّــســالُمَ بــينَ الــرُّومِ والحَــبَشِ[4]

أَوْفَى إلى الخَدِّ، ثمَّ انْصاعَ مُنْعَطِفًا

كالعُقْرُبانِ انْثَنَى من خَوْفِ مُحْتَرِشِ[5]

---

(١) راجع قصة الفتاة والشاعر في نفح الطيب (طبع ليدن) جـ٢ ص١٩٤ .

(٢) علة: شربة ثانية، مأخوذة من العلل وهو الشرب الثاني ويقال: علل بعد نهل، وفي النفح (عن وصال).

(٣) المعنى: كيف أصرف قلبي المتعلق بك عن طرفك الساحر، وخدك المزين بالجمال؟

(٤) رواية النفح (أرى التشاكل)، الصدغ: ما بين العين والأذن: أو الشعر المتدلي عليه وهو المقصود هنا، يشبه انسدال الشعر الأسود على الخد الأحمر بمجاورة الحبشي الأسود للرومي الأصهب.

(٥) العقربان: ذكر العقرب. والمعنى: مالت خصلة شعره على خده ثم انعطفت مستديرة كما تستدير العقرب على نفسها إذا خشيت الأذى.

لــو شـئْتَ زُرْتَ - وسِلكُ الـنَّـجْمِ مُـنْـتَـظِمٌ،

والأفْقُ يَـخْـتـالُ في ثـوبٍ منَ الـغَـبَشِ[1]

صَـبّـاً - إذا الْـتَـذَّتِ الأجْـفَـانُ طَـعْمَ كَـرًى

جَفَا الـمَـنـامَ، وصاحَ الـلَّيْلَ: (يا قُرَشي)[2]

هــذا وإنْ تَــلِــفَتْ نــفــسي، فلا عَــجَبٌ

قد كان مَوْتِيَ - من تلك الجُفونِ - خُشِي[3]

****

(١) رواية النفح (وسلك الليل)، الغبش: ظلمة اخر الليل.

(٢) رواية النفح (جفا إذا التذت.. جفني المنام).

فنون الحسن

يــــا غـــزالاً جُـــمِـــعَتْ فـــيـ
ـه – من الحـــسن – فـــنـــونُ
أنتَ في الـــقُـــرْبِ وفي الـــبُـــعْـ
ـــدِ – منَ الـــنَّـــفْسِ – مَـــكـــينُ
بــــهـــواك الـــدَّهْـــرَ ألْـــهُـــو،
وبــــــحُـــــــبِّـــــيكَ أَدينُ
مُـــنـــيَـــةَ الـــصَّبِّ: أغِـــثـــني،
قـــد دَنَتْ مِـــنِّي الـــمَـــنُـــونُ
واحْـــفَظِ الـــعَـــهْـــدَ، فـــإنِّي
لـــــستُ – والـــــله – أخـــون
وارْحَـــمَنْ صَـــبّـــاً شَـــجِـــيّـــاً
قـــد أذابَـــتْهُ الـــشُّـــجـــونُ
لَــــــــيْــــــــلُهُ هَـمٌّ وغَـمٌّ،
وسَــــــقـــــامٌ، وأنــــــينُ
شَـــــفَّهُ الحُبُّ فـــــأمْـــــسَى
– سَـــقَـــمًـــا – لا يَـــسْـــتَـــبـــينُ
صـــار – لـلأشْـــواقِ – نَـــهْـــبًـــا –
فَـــنَـــبَتْ عـــنهُ الـــعُـــيـــونُ

****

المؤنس الوحيد

يـا مَنْ غَـدَوْتُ بـه - في الـنّـاسِ - مُـشْـتَـهِرًا
قـلـبي عـلـيكَ يُـقَـاسي الـهَمَّ والـفِـكَـرا
إنْ غِـبْتَ لمْ أَلْقَ إنـسـانًـا يُـؤَنِّـسُـني
وإنْ حَـضَـرْتَ، فـكلُّ الـنّـاسِ قـدْ حَـضَـرا[1]

****

(١) في أ (يونسني) وهي بمعنى يؤنسني أي يزيل وحشتي.

الشكاة المأمولة

ألا لــيتَ شِــعْــري هَلْ أُصــادِفُ خَــلَــوةً

لَــدَيْكِ، فــأشــكــو بَــعْضَ مــا أنــا واجــدُ؟

رَعَى الــلّهُ يــومًــا فــيه أشــكــو صَــبــابــتي

وأجْــفَــانُ عَــيْــنِي - بــالــدُّمــوعِ - شَــواهِــدُ

****

رِقُّ الغرام

يــا سُــؤْلَ نَــفْــسي - إنْ أُحَــكِّمْ -
واخْــــتِــــيــــاري إنْ أُخَــــيَّــــرْ
كم لامــــنـي فــــيك الحَــــســــو
دُ، وفَــنَّــدَ الــوَاشي فــأكْــثَــرْ
قــالــوا: (تَــغَــيَّــرَ بــالــسُّــلــوْ
و، وبــالملامَــةِ قــد تَــغَــيَّــرْ)[1]
وتَــــوَهَّــــمــــوكَ جِــــنــــيت ذَنْـ
ـبًــا بــالــتَّــجَــنِّي لــيسَ يُــغْــفَــرْ
وبــــزَعْــــمِــــهِمْ أن لــــيس مِــثْـ
ـلي في الــرِّضى بــالــدُّونِ يُــعْــذَرْ
لم يــــعــــلــــمــــوا أنَّ الــــهَــوَى
رِقٌّ، وأنّ الحُــــسْنَ أحْــــمَــــرْ[2]

****

(١) تعير المتاع والقماش وتعوره: استعاره وعلى هذا يكون المعنى أنه تغير بالسلوان واستعار حبيبًا آخر نتيجة الملام، وربما كانت (قد تغير) أي تكدر صفاؤه، وربما كانت (تغير) بمعنى تبدل في الشطر الأول، ولحقته الغيرة في الشطر الثاني.

(٢) الحسن أحمر: قال ابن الأثير معناه شاق أي: من أحب الحسن احتمل المشقة، وقال ابن سيده معناه أن يلقى العاشق منه ما يلقى صاحب الحرب من الحرب، وقال ابن الأعرابي: يقال للرجل يميل إلى هواه ويختص بمن يحب، كما يقال الهوى غالب، وهذا ما عناه الشاعر هنا حيث يريد أن الهوى أسرٌ لا فكاك منه والحسن قهار غالب لا سبيل إلى مقاومته، وينسب إلى بشار:

فــــخــــذي مــــحــــاسن زيــــنــــة
ومــــعــــصــــفــــرات هن أفــــخــــر
فــــإذا بــــلــــغــــنــــا فــــادخــــلي
في الحــــسن، إن الحــــسن أحــــمــــر

ضحك وبكاء

مـــا ضَـــــرَّ لـــــو أنَّكَ لي راحمُ
وعِــــلَّــــتي أنتَ بـــــهـــا عـــالِمُ
يَـهْنِيكَ - يا سُؤْلِي ويـا بُغْيَتي -
أنَّكَ ممَّـــا اشْـــتَـــكي ســــالِمُ
تَـضْـحَكُ في الحُبِّ، وأبْـكي أنـا
الـلّهُ - في مـا بـيـنـنـا - حـاكِمُ
أقـولُ لَـمَّـا طـارَ عـنِّي الـكَـرَى
قَـوْلَ مُـعَـنّىً قَـلْـبُهُ هـائِمُ:
«يـا نـائـمًـا أيْـقَـظَـني حُـبُّهُ
هَبْ لي رُقـادًا أيُّـهـا الـنَّـائِمُ»

****

المؤرق الكئيب[1]

كتبت ولادة إلى الشاعر:

ألا هلْ لــنــا من بَــعْــدِ هــذا الــتَّــفَــرُّقِ
سـبـيـلٌ، فَـيَـشْـكـو كُلُّ صَبٍّ بمـا لَـقي؟

وقـد كـنتُ - أوقـاتَ الـتَّـزاوُرِ في الـشِّـتـا -
أبـيـتُ عـلـى جَـمـرٍ منَ الـشَّـوْقِ مُـحْـرِقِ

فـكـيف؟ وقـد أمْـسَـيْتُ في حـالِ قَـطْـعَـةٍ
لـقـد عَـجَّلَ الـمِـقْـدارُ مـا كـنتُ أتَّـقي

تَـمُـرُّ الـلَّـيـالي: لا أرى الـبَـيْنَ يَـنْـقَـضي
ولا الـصَّـبْـرَ من رِقِّ الـتَّـشَـوُّقِ مُـعْـتِـقي

سَـقَى الـلَّهُ أرْضًـا قـد غَـدَتْ لكَ مـنـزِلاً
بـكلِّ سَـكـوبٍ هـاطِلِ الـوَدْقِ مُـغْـدِقِ

فأجابها بقوله:

لَـحَـا الـلّه يـومًـا لـستُ فـيه بمُـلْـتَقٍ
مُـحَـيّـاكِ من أجل الـنَّـوَى والـتَّـفَـرُّقِ

وكـيفَ يـطـيبُ الـعَـيْشُ دون مَـسَـرَّةٍ؟
وأيُّ سُـرورٍ لـلـكـئـيبِ الـمُـؤَرَّقِ؟

****

[1] لم ترد الأبيات والرد عليها في الديوان. وقد أثبتناهما عن نفح الطيب ونزهة الجلساء.

الفتنة المحتومة

يا مُخْجِلَ الغُصُنِ الفَيْنانِ إنْ خطَرا
وفاضحَ الرشإِ الوَسْنانِ إنْ نَظَرا
يَفْديكَ منّي مُحِبٌّ شأنُهُ عَجَبٌ
ما جئتَ بالذنب إلاّ جاءَ فاعْتَذرا
لمْ يُنْجِني منكَ ما اسْتَشْعَرْتُ من حَذَرٍ
هيهاتَ!! كَيْدُ الهَوَى يَسْتَهْلِكُ الحَذَرا[1]
ما كان حُبُّكَ إلاّ فِتْنَةً قُدِرَتْ
هل يستطيعُ الفَتَى أن يَدْفَعَ القَدَرا

****

(١) في ز (من نظر).

الحبيب السّالي

يـــا قـــاطِـــعًـــا حَـــبْلَ وُدّي
ووا صـلاً حَـــــــبْـلَ صَــــــــدّي
وســــالـــيًـــا لـــيس يَـــدْري
بـــطـــول بَـــثّي وَوَجْـــدي
لــــو كـــانَ عِـــنْـــدَكَ مـــنّي
مـــثلُ الـــذي مِـــنْكَ عـــنـــدي
لَـــبِتَّ - بَـــعْـــديَ - مِـــثْـــلي
وبِتُّ - مـــثـــلَكَ - بَـــعْـــدي

****

في ثورة غضب[1]

أعجب الشاعر بغناء عتبة وصيفة ولادة، فاستعاد غناءها بغير استئذان حبيبته، فأدركتها الغيرة وضربت الوصيفة، فدافع عنها الشاعر ثم أنشد هذين البيتين:

ومـــا ضَـــرَبَتْ عُـــتْـــبَى لـــذنبٍ أَتَتَ بهِ
ولـــكـــنَّـــمـــا (ولاّدةٌ) تَـــشْـــتَـــهي ضَـــرْبي
فـــقـــامتْ تجـــرُّ الـــذَّيْلَ عـــاثِـــرَةً بهِ
وتَـــمْـــسَحُ طَلَّ الـــدَّمْعِ بـــالـــعَـــنَمِ الـــرَّطْبِ[2]

****

(١) لم يرد البيتان بالديوان، وقد أثبتناهما عن الذخيرة.

(٢) العنم: شجر لين الأغصان تشبه به أصابع الحسان، والمعنى: أنها مسحت أصابعها بأطراف بنانها.

خطأ واعتذار

إن تـكنْ نـالَـتْكِ - بـالـضَّرْبِ يـدي -
وأصــــابَـــــتْكِ بمـــــا لـم أُرِدِ
فـلـقـد كـنتُ - لـعـمـري - فـاديًـا
لكِ بـــالمـــال وبـــعضِ الـــولَـــدِ
فَــثِــقِي مــنِّي بــعــهــدٍ ثــابتٍ
وضـمـيـر خـالصِ الـمُـعْـتَـقَـدِ
ولــئن ســاءكِ يــومٌ فــاعْــلَـمي
أنْ سَــيَــتْــلــوهُ سُــرورُ بِــغَــدِ

****

٥ – لوعة الهجران

«ذاق الشاعر مرارة الهجر، ولمس ضيق حبيبته به، وانـصـــرافـــها عنـه، ولكـن بـقـيــة من الأمل ما زالت تراوده فيستجيب لها حينًا بعد حين».



موت ونشور[1]

أخَـذْتُ ثُـلْثَ الـهـوَى غَـصْـبًـا، ولِيَ ثُـلثُ،
ولـلـمُـحِـبِّـينَ - في مـا بـيـنـهمْ - ثُـلُثُ
تـالـلّهِ، لـو حَـلَفَ الـعُـشّـاقُ: أنّـهمُ
مَوْتَى من الـوَجْـدِ - يـومَ الـبَينِ - ما حَنَثُوا
قـومٌ - إذا هُـجِـروا من بَـعْـدِ مـا وُصِـلـوا -
مـاتـوا، فـإنْ عـاد مَنْ يَـهْـوَوْنَهُ بُـعِـثُـوا
تَـرَى المحـبّـينَ صَـرْعَى - في عِـراصِـهِمُ -
كـفِـتْـيَـةِ الـكـهفِ، مـا يَـدْرونَ مـا لَـبِـثـوا

****

(١) لم ترد الأبيات بالديوان، وقد أثبتناها عن المعجب.

فنون المعاذير

وَضَحَ الحَقُّ المُبينُ ونَفَى الشَّكَّ اليَقينُ[(١)]
ورأى الأعداءُ ما غَرَّ تْهُمُ منه الظُّنونُ[(٢)]
أَمّلوا ما ليس يُمْنَى ورَجَوْا ما لا يكونُ[(٣)]
وتمنَّوْا أن يخونَ الـ ـعَهْدَ مَوْلًى لا يخونُ[(٤)]
فإذا الغَيْبُ سليمٌ وإذا العَهْدُ مَصُونُ[(٥)]

✡✡✡✡✡

قُلْ لِمَنْ دانَ بِهَجْري وهَواه ليَ دِينُ[(٦)]
يا جَواداً بيَ، إنّي بكَ واللهِ ضَنينُ
أرْخَصَ الحُبُّ فؤادي لكَ والعِلْقُ ثمينُ[(٧)]

✡✡✡✡✡

يا هِلالاً تَتَراءا ه نفوسٌ لا عُيونُ
عَجَبًا للقلب يَقْسو منكَ، والعِطْفُ يلينُ[(٨)]
ما الذي ضَرّكَ لو سُرْ رَ بمَرآكَ الحزينُ؟
وتلطَّفْتَ لصبٍّ حَيْنُهُ فيكَ يَحينُ[(٩)]
فوجوهُ اللفظِ شتّى والمَعاذيرُ - فُنونُ[(١٠)]

****

(١) في النفح (وضح الصبح).
(٢) في الذخيرة (ورأى الواشون) وفي النفح (منك الظنون).
(٣) يمنى: يقدر أي رجوا ما لا يمكن وقوعه.
(٤) في الذخيرة (العهد).
(٥) في الذخيرة (وإذا الود).
(٦) في النفح (وهو إني إذ يدين).
(٧) العلق: الغالي الثمين.
(٨) في الذخيرة (والقد يلين).
(٩) في بعض نسخ الذخيرة (وتلطفت بصب) الحين: الهلاك. يحين: يحل.

الدلال القاتل

كـم ذا أُريـــــــــــدُ ولا أُرادُ؟
يـا سـوءَ مـا لَـقِيَ الـفـؤادُ[1]
أُصـــفي الـــوِداد مـــدلَّلاً،
لم يَـصْفُ لي مـــنه الـوِدادُ[2]
يـــقــــضي عـــليَّ دلالُهُ
- في كلِّ حِـــينٍ - أو يـــكـــادُ
كـــيف الـــسُّــلـــوّ عن الـــذي
مَـثْواهُ - من قـلـبي - الـسَّوادُ؟[3]
مَـــلَكَ الـقــلـوبَ بـحُـسْـنه،
فـلـهـا - إذا أَمَـرَ - انْـقِـيـادُ

✲✲✲✲✲

يـــا هـــاجـري كم أسْـتَـفـيـ
ـدُ الـصَّـبْـرَ عـنكَ، فلا أُفـادُ
ألاَ رَثَـــيْتَ لمـن يـــبـــيـ
ـتُ وحَشْوُ مَـقْلَـتهِ الـسُّهادُ؟[4]
إنْ أَجْنِ ذَنْـبًـا في الــهَـوَى
خَـطَـأً فـقـد يَـكْـبـو الجَـوادُ
كـــان الــرِّضَـى، وأُعـــيـــذُهُ
أنْ يُـعْـقِبَ الـكَـوْنَ الـفَـسـادُ

✱✱✱✱

(١) في النفح (لله ما لقي)
(٢) في النفح (أصفي الوداد إلى الندى).
(٣) سواد القلب: حبته.

لقاء المكاره

أَأُسْلَبُ من وصالكِ ما كُسيتُ؟
وأُعْزَلُ - عن رضاك - وقد وَلِيتُ؟
وكيف؟ وفي سبيل هواكِ طَوْعًا
لقيتُ من المَكارهِ ما لَقيتُ
فَدَيْتُكِ!! ليس لي قلبٌ فأسلو
ولا نفسٌ فآنَفُ إن جُفِيتُ
فإن يكن الهَوَى داءً مُميتًا
لِمَنْ يَهْوَى فإنّي مُسْتَميتُ(١)
أُسِرُّ عليك عَتْبًا ليس يَبْقَى،
وأُضْمِرُ فيكِ غَيْظًا لا يبيتُ
وما ردّي على الواشينَ، إلاّ:
(رضيتُ بجَوْرِ مالِكَتِي رَضِيتُ)

****

(١) لم يرد هذان البيتان في الديوان وقد أثبتناهما عن الذخيرة.

سوء الجزاء

جـازَيْـتَـنـي - عن تَـمـادي الـوَصْلِ - هِـجـرانـا

وعن تــمــادي الأسَى والــشَّــوْقِ سُــلــوانــا

بــالــلـه هل كـان قـتـلـي في الــهَـوَى خَـطَـأً

أم جِـئْـتـَهُ عــامــدًا ظـلــمًــا وعُــدْوانــا؟

عــهـدي كَـعَـهْـدِكَ، مـا الـدُّنـيـا تُـغـيِّـرُهُ

وإن تــغَــيَّــرَ مــنكَ الــعــهــدُ ألــوانــا[1]

مـــــا صَحَّ وُديّ إلاّ اعْــــتَلَّ وُدُّكَ لـي،

ولا أطَــعْــتُكَ إلاّ زِدْتَ عِــصــيــانــا

يــا أَلْــيَنَ الــنــاس أعْـطـافًـا، وأفْـتَـنَـهُمْ

لَــحْـظًــا، وأعْــطَـرَ أنــفــاسًــا وأردانــا

حَسُنْتَ خَـلـقًـا، فـأحْسِنْ لا تَـسُؤْ خُـلُـقًـا،

مـا خَـيْرُ ذي الحُسْنِ إنْ لم يُولِ إحْسانا؟[2]

****

(١) في ز (لا الدنيا).

الحكم الجائر

لــو كـــانَ قَـــوْلُكَ: (مُتْ) مــا كـــان ردّيَ: «لا»
يـــا جـــائـــرَ الحُـــكْمِ، أفْـــديهِ بِـــمَنْ عَـــدَلا
أبـــديتَ لي - من أفـانـــينِ الـــقِـلـى - عِـبَـــرًا،
أَرْسَـلْـتَـني - في أحـاديثِ الـــهَـوَى - مَـــثَلا
لم تُـــبْقِ جــارحـــةً بــالــهـجــرِ من جَـسَـدي
إلا خَــلَـعْتَ عــلــيــهــا - لــلــضَّـنَى - حُــلَلا
فَـــلْـــيُـــغْنِ كَـــفَّكَ أنّي بـــعضُ مَنْ مَـــلَـــكَتْ،
وَلْـــيَـــكْفِ طَـــرْفَكَ أنّي بـــعضُ مَنْ قَـــتَلا
وَلْـتَـقْضِ مــا شــئتَ من هــجــرٍ ومن صِـلَـةٍ
لا أقضِ مـــا عــشتُ سُـــلْـــوانًـــا ولا مَـــلَلا
سَـــقْـــيًـــا لـــعَـــهْـــدِكَ والأيَّـــامُ تُـــقْـــبِـــلُـــني
وَجْهَ الـــسّـــرورِ بهِ جَـــذْلانَ مُـــقْـــتَـــبِلا
إذِ الـــزَّمـــانُ بـــلـــيغٌ في مُـــســـاعـــدتي
يُـــهْـــدي إليَّ تَـــفـــاريقَ الـــمُـــنَى جُـــمَلا
إنْ كـــــــــــان لـي أمـلٌ إلاّ رضـــــــــــاكَ، فـلا
بُـــلِّـــغْتُ - يـــا أمـــلي - مِنْ دَهْـــرِيَ الأَملا!!!

****

سوء العذاب

أتَـهْـجُـرُني وتَـغْـصِبُـني كـتـابي؟
وما في الحَقِّ غَصْبي واجْتِنابي
أيَـجْـمُلُ أنْ أُبـيـحكَ مَـحْضَ وُدّي؟
وأنتَ تَـسُومُـني سُـوءَ الـعَذابِ[1]
فَـدَيْـتُكَ، كم تَـغُضُّ الـطَّـرفَ دوني
وكم أدعـوكَ من خَـلفِ الحِـجابِ
وكم لي من فـؤادِكَ - بَـعْـدَ قُـربٍ -
مـكانَ الـشَّيْبِ في نفسِ الـكَعابِ[2]
أَعِـدْ - في عَـبْدِكَ المـظلـومِ - رأيًا
تَـنـالُ به الجـزيلَ مِنَ الـثَّـوابِ
وإنْ تَـبْـخَلْ عـلـيهِ فـرُبَّ دَهْـرٍ
وَهَـبْتَ له رضـاكَ بلا حِـسابِ

****

(١) المحض: الخالص، تسومني: توليني وتجشمني.

(٢) الكعاب: الفتاة التي برز ثديها، والمراد أنك أصبحتِ تنظرين إليَّ بجفاء كما تنظر الفتاة الغضة إلى الرجل الكهل، وطالما كنت قريبًا إلى فؤادك.

السر الذائع

أمَّــــا رضـــاكِ فَـــعِـــلقٌ مـــا لهُ ثَــــمَنُ
لــو كـان سـامَـحَــني في وَصْـلِـهِ الـزَّمَنُ[1]

تَـــبـــكي فِـــراقَكِ عـــينٌ أنتِ نـــاظِـــرُهـــا
قـد لَجَّ في هَـجْـرِهـا عن هَـجْـرِكِ الـوَسَنُ[2]

إنَّ الـــزمـــانَ الـــذي عَـــهْـــدي به حَـــسَنٌ
قـد حـال مُـذْ غـابَ عـنّي وَجْـهُكِ الحَـسَنُ[3]

أنتِ الحـــيـــاةُ، فـــإن يُـــقـــدَرْ فـــراقُكِ لي
فَـلْـيُـحْـفَـرِ الـقَـبْـرُ أو فـلـيَـحْـضُـرِ الـكَـفَنُ

والـــلّـهِ مـــا ســـاءني أنّي خَــفِــيتُ ضَــنًى
بَلْ ســاءني أنَّ سِــرِّي بــالــضَّــنَى عَــلَنُ[4]

لــو كــان أمــريَ - في كَـتْمِ الـهَـوَى - بـيَـدي
مــا كــانَ يَـعْـلَمُ - مــا في قــلــبيَ - الـبَـدَنُ

****

(١) العلق: النفيس، وفي الذخيرة ومسالك الأبصار وتمام المتون (فشيء)، وفي مسالك الأبصار (لو كان ساعفني في ملكه) وفي الذخيرة (سامحني في ملكه) وفي تمام المتون (ملكك).

(٢) الناظر: سواد العين وفي تمام المتون (من هجرك).

(٣) حال: تغير.

(٤) في الذخيرة وتمام المتون (أن سرى بالهوي)، وفي بعض نسخ الذخيرة (العلن).

يا ليتني

أرْخَصْتِني من بَعْدِ ما أغْلَيْتِني
وحَطَطْتِني، ولطالما أعْلَيْتِني
بادَرْتِني بالعَزْلِ عن خططِ الرِّضَى،
ولقد مَحَضْتُ النُّصْحَ إذْ ولَّيْتِني
هلاّ - وقد أعْلَقْتِني شَرَكَ الهَوَى -
عَلَّلْتِني بالوَصْلِ، أو سَلَيْتِني؟[1]
الصَّبْرُ شُهْدٌ - عندما جَرَّعْتِني -
والنّارُ بَرْدٌ، عندما أصْلَيْتِني
كنتِ المُنَى، فأذَقْتِني غُصَصَ الأذى،
يا ليتَني ما فُهْتُ فيكِ: بِلَيْتَنِي

****

(١) عللتني بالوصل: ألهيتني به.

الحبيب الظالم

سـأُحِبُّ أعْـدائـي لأنَّكَ مِـنْـهُمُ
يـا مَنْ يُـصِحُّ - بمُـقْـلَـتَـيْهِ - ويُـسْـقِمُ
أصبـحتَ تُـسْـخِـطُـني فـأمْـنَـحُكَ الـرِّضَى
- مَـحْـضًـا - وتـظـلـمُـني، فلا أتَـظَـلَّمُ[1]
يــا مَنْ تَـأَلَّفَ لَـيْـلُهُ ونَـهـارُهُ،
فـالحُـسْنُ بـيـنَـهـمـا مُـضِيءٌ مُـظْـلِمُ
قـد كـان في شـكـوى الـصَّـبـابَـةِ راحَـةٌ،
لـو أنَّـني أشـكـو إلى مَنْ يَـرْحَمُ

****

(١) في الذخيرة (وأمنحك.... ولا أتظلم).

غدر الحبيب

يـــــا لَـــــيْلُ طُلْ، لا أشْـــــتَــــــهي
- إلا بِـــــــوَصْلٍ - قِـــــصَــــــرَكْ[1]
يـــــا لَـــــيْلُ طُـلْ، أو لا تَـــــطُلْ
لا بـــــــدَّ لـي أنْ أسْـــــــهَـــــــرَكْ[2]
لــــو بــــاتَ عــــنــــدي قــــمَــــرِي،
مــــــا بــتُّ أرْعَـى قَـــــــمَـــــــرَكْ
يـــــا لَـــــيْلُ خَــــبِّـــــرْ، إنَّـــــني
ألْــــتَــــذُّ عــــنـهُ خَــــبَـــــرَكْ
بـــــــالـــــــلَّـهِ قُـلْ لـي: هَـلْ وَفَـى؟
فــــقـــــالَ: «لا، بَـلْ غَــــــدَرَكْ»

****

(١) في بعض نسخ الذخيرة (إلا كعهد) وفي بعضها (كعمري).

(٢) البيت زيادة عن المغرب.

تباريح الدلال

أيُّـــهـــا الـــبَـــدْرُ الـــذي يَـــمْـ
ـلأُ عَـــــيْـــــنَـيْ مَـنْ تَـــــأمَّلْ
حُـــمِّلَ الـــقَـــلْبُ تَـــبــــاريـ
ـح الـــتَّـــجـــنّي فـــتـــحـــمَّلْ
لـــيس لـي صَـــبْـــرٌ جَـــمـــيلٌ،
غَـــــيْـــــرَ أنّـي أتَـــــجَـــــمَّلْ
ثُـمَّ لا يـــــأسَ!! فـــــكمْ قـــــد
نِـــــيـلَ أَمْـــــرٌ لَـمْ يُـــــؤَمَّلْ

****

لوعة الجفاء

أَأُجْفَى بلا جُرْمٍ، وأُقْصَى بلا ذَنْبِ
سوى أنَّني مَحْضُ الهَوَى صادقُ الحُبِّ

أُغاديكِ بالشَّكْوى، فأُضْحي على القِلى
وأرجوكِ للعُتْبَى، فأَظْفَرُ بالعَتْبِ[1]

فَدَيْتُكِ، ما للماءِ - عَذْبًا على الصَّدى -
وإن سُمْتِني خَسفًا، مَحَلُّكِ من قلبي[2]

ولولاكِ، ما ضافَتْ حَشايَ - صَبابةٌ -
جَعَلْتُ قِراها الدَّمْعَ سَكبًا على سَكْبِ[3]

****

(١) القِلى: البغض، العتبى: الصفح والمغفرة.

(٢) سامه الخسف: أولاه الذل وأراده عليه.

(٣) ضاف الرجل: نزل به، المعنى: لولاك ما استقر الحب في أحشائي ولا عصف بجوانحي، وإذا كان قرى الضيف الشراب والطعام فإن هذاالغرام يتغذى بدمي ويروى بدموعي.

كواذب الآمال

قد نالني منكَ ما حَسْبي بهِ، وكَفَى!!
يا مَنْ تَناهَيْتُ في إلْطافِهِ فَجَفَا

عَلَّلْتَنِي بالمُنى، حتّى إذا عَلِقَتْ
بالنفس لم أُعْطَ من أسْبابِها طَرَفا

غُيِّرْتَ عن خُلُقٍ قد لان لي زَمَنًا
لِينَ النسيم، فلمَّا لَذَّ لي عَصَفا

لا يحْبَطَنْ عَمَلٌ أرضاكَ صالِحُهُ!!
ففي سبيلكَ أنْفَقْتُ الهَوَى سَرَفا[1]

****

---

(١) حبط العمل: بطل ثوابه، السرف مجاوزة القصد، والمعنى: أنني أسلمت نفسي للهوى فجاوز بي الحد وأشفى بي على الضر، ولكنني غير آسف على هوى يرضيك، وإن لقيت منه الأهوال.

نقض العهود

أَجِـــدٌّ، ومَنْ أهـــواهُ - في الحبِّ - عـــابثُ
وأُوفي لـه بـــالـــعَـــهْـــدِ، إذْ هُـــوَ نـــاكثُ
حـبـيبٌ نـأى عـنِّي - معَ الـقُـرْبِ - والأسَى
مُـقـيمٌ له في مُـضْـمَـرِ الـقَـلْبِ مـاكثُ[1]
جَـــفـــاني بـــإلْـــطـــافِ الـــعِـــدا، وأزالَهُ
- عنِ الـوَصْلِ - رأيٌ في الـقَـطـيـعَـةِ حـادثُ
تَـغَـيَّـرْتَ عن عَـهْـدي، ومـا زلتُ واثـقًـا
بـعَـهْـدِكَ، لـكنْ غـيَّـرتْكَ الحَـوادِثُ
ومـا كـنتُ - إذْ مـلَّـكْـتُكَ الـقَـلْبَ - عـالِـمًـا
بـأنِّيَ - عن حَـتْـفِي - بِـكَـفَيَّ بـاحِثُ
فَـدَيـتُكَ، إنَّ الـشَّـوْقَ لي - مُـذْ هَـجَـرْتَـني -
مُـمـيتٌ، فـهل لـي - مِنْ وِصـالِكَ - بـاعِثُ[2]
سَـتَـبْـلَـى الـلَّـيـالي - والـوِدادُ بـحـالِه
جـديـدٌ - وتَـفْـنَى، وَهْـوَ للأرضِ وارثُ[3]
ولـوْ أنَّـني أقْـسَـمْتُ: أنَّكَ قـاتـلي
وأنِّيَ مَـقْـتـولٌ، لَـمَـا قِـيلَ: (حـانِثُ)[4]

****

---

(١) المعنى: كان حبيبي مخلصًا لي، ثم تحول عن حبي ومال إلى جانب الأعداء.

(٢) المعنى ما كنت أعلم حين أسلمتك زمام قلبي أنني أسعى بنفسي إلى إهلاك نفسي، وفي المثل (كالباحث عن حتفه بظلفه) يقال إن جزارًا أراد ذبح عنزة فافتقد المدية فلم يجدها، ثم فحصت العنزة برجلها الأرض فظهرت المدية.

(٣) في النفح (جديد وغض).

(٤) في النفح (وأني لمقتول).

قطع الصلات

يــا نــاسِــيًــا لي عــلى عِــرفــانِهِ تَــلَــفِي
ذِكْــرُكَ مِــنِّيَ بــالأنْــفــاسِ مَــوْصــولُ[1]
وقــاطِــعًــا صِــلَــتي من غَــيْــر مــا سَــبَبٍ
تــالــلّهِ إنَّكَ عن روحي لــمَــســؤولُ[2]
مــا شِــئْتَ فــاصْــنَــعْهُ، كُلٌّ مِــنكَ مُــحْــتَــمَلٌ،
والــذُّنْبُ مُــغْــتَــفَــرٌ، والــعُــذْرُ مَــقْــبــولُ
لــو كــنتَ حَــظِّيَ، لمْ أطــلــبْ به بــدلاً،
أو نِــلْتُ مــنكَ الــرِّضــا، لم يَــبْقَ مَــأمــولُ

****

(١) في الأصول (ذكراك) ولعل الصواب ما أثبتناه.

كما تشاء

كما تشاءُ فكُنْ لي!! لَسْتُ مُنْتَقِلا
لا تَخْشَ مِنِّيَ نِسيانًا ولا بَدلا

يَنْساكَ مَنْ لم يَدْرِ بَعْدَكَ: ما
طعمُ الحياةِ، ولا بالبُعْدِ عنكَ سَلا؟

أتْلَفْتَني كلَفًا! أبْلَيْتَني أسَفًا!
قَطَّعْتَني شَغَفًا! أوْرَثْتَنِي عِلَلا

✡✡✡✡

إنْ كنتُ خُنْتُ وأضْمَرْتُ السُلُوَّ فلا
بَلَغْتُ – يا أملي – من قُربِكَ الأمَلا!!

واللّهِ لا عَلِقَتْ نفسي بغَيْرِكُمُ
ولا اتَّخَذْتُ سِواكُمْ منكمُ بَدَلا

****

وحشة الزمان

أيــوحِــشُــني الــزَّمــانُ وأنتِ أُنْــسِي؟
ويُــظـلِـمُ لي الــنَّــهـارُ وأنتِ شَـمـسي؟[1]
وأغْــــرِسُ في مَــــحَــــبَّــــتِكِ الأمـــاني
فَــأَجْــنِي الــمَــوْتَ من ثَــمَــراتِ غَــرْسي[2]
لــــقـــد جَـــازَيْتِ غَـــدْرًا عن وفـــائي
وبِــعْتِ مَــوَدَّتي ظُــلْــمًــا بِــبَــخْسِ[3]
ولــوْ أنَّ الـــزَّمـــانَ أطـــاعَ حُـــكْــمِي
فَــدَيْــتُكِ - مِنْ مَــكــارِهِهِ - بِــنَــفْــسي

****

(١) في النفح (أيوحش لي) وفي الخريدة (ويظلم بي).

(٢) في النفح (وأجني).

(٣) في الذخيرة (جازيت هجرًا) وفيها وفي النفح (عن وفاء).

القلب الجماد

أحِينَ عَلِمْتَ حَظَّكَ من وِدادي
ولمْ تَجْهَلْ مَحَلَّكَ من فؤادي
وَقَادَنِيَ الهَوَى فانْقَدْتُ طَوْعًا
وما مكّنْتُ غَيْرَكَ من قِيادي
رَضِيتَ لِيَ السَّقامَ لِباسَ جِسْمٍ
كَحَلْتُ الطَّرْفَ منه بالسُّهادِ؟
أَجِلْ عَيْنَيْكَ في أسْطارِ كُتْبِي
تَجِدْ دَمْعي مِزاجًا للمِدادِ
فَدَيْتُكَ!!! إنَّني قد ذابَ قلبي
مِنَ الشَّكْوى إلى قلبٍ جَماد

****

في الوثاق

يـــــا غَـــــزالاً أصـــــارني
مُـــوثَـــقًـــا في يَـــدِ الـــمِـــحَنْ
إنَّـــني - مُـــذْ هَـــجَـــرْتَـــني -
لـمْ أَذُقْ لَـــــذَّةَ الـــــوَسَنْ
لـــــيت حـــــظّي إشـــــارةٌ
مـــنكَ، أو لحـــظـــةٌ عَـــنَنْ[1]
شـــافـــعي يـــا مُـــعَـــذِّبي
في الـــهَـــوَى وَجْـــهُكَ الحَـــسَنْ
كـــنتُ خِـــلْـــوًا مِنَ الـــهَـــوَى
فـــأنـــا الـــيَـــوْمَ مُـــرتَـــهَنْ[2]
كـــان سِـــرّي مُـــكَـــتَّـــمًـــا
وَهُـــــوَ الآنَ قـــــد عَـــــلَنْ
لـــــيس لي عـــــنكَ مَـــــذْهَبٌ
فـــكـــمـــا شِـــئْتَ لي فـــكُنْ!!!

****

(١) نظرة عنن: نظرة عارضة، وفي النفح (نظرة تعن).

بذل الحياة

بـــالــــلّهِ خَـــذْ مِنْ حَـــيــــاتي
يَـــوْمًـــا، وصِــلْــنِيَ ســـاعَهْ
كَـــيْـــمـــا أنـــالَ بـــقَـــرْضٍ
مـــا لمْ أَنَـلْ بـــشَـــفـــاعَهْ

****

ذوب النفس

لَـعَـمْـري لَـئِنْ قلَّتْ إلـيكَ رسـائـلي
لأنتَ الــذي نَـفْـسي عــلــيهِ تَـذوبُ
فلا تَـحْـسَـبـوا أنّي تَـبَـدَّلْتُ غَـيْـرَكُمْ
ولا أنّ قــلــبي مِنْ هَــواكَ يَــتُــوبُ

****

٦ – مرارة الهجران

«غمر ظلام اليأس صفحة الرجاء، وحجبت سحائب الحرمان أشعة الحنان، فرتل الشاعر أشجى الألحان».

سلام الوداع

لـــئن قَـــصَّـــرَ الـــيَـــأسُ مـــنكِ الأملْ
وحــــالَ تَـــجـــنِّـــيكِ دونَ الحِـــيَلْ[1]
ونـــاجـــاكِ - بـــالإفكِ - فِيَّ الحَـــســـودُ
فـــأعْـــطَـــيْـــتِهِ - جَـــهْـــرَةً - مـــا ســـألْ[2]
وراقَكِ سِـــحْـــرُ الـــعِـــدا الـــمُـــفْـــتَـــرَى
وغَـــرَّكِ زُوَرهُـــمُ الـــمُـــفْـــتَـــعَلْ
وأَقْـــبَـــلْـــتِـــهِمْ فِيَّ وَجْهَ الـــقَـــبُـــولِ
وقـــابَـــلَـــهُمْ بِـــشْـــرُكِ الـــمُـــقْـــتَـــبَلْ[3]
فـــإنّ ذِمـــامَ الـــهَـــوَى لن أزالَ
أَبُـــقِّـــيهِ حِـــفْـــظًـــا كـــمـــا لم أزلْ[4]

☆☆☆☆☆

فَـــدَيْـــتُكِ!!! إنْ تَـــعْـــجَـــلي بـــالجَـــفـــا
فـــقـــد يَـــهَبُ الـــرَّيْثَ بَـــعْضُ الـــعَـــجَلْ[5]
عَـلامَ اطَّـــبَـــتْكِ دَواعـي الـــقِـــلَـى؟
وفِـــيمَ ثَـــنَـــتْكِ نَـــواهـي الـــعَـــذَلْ؟[6]

(١) في الذخيرة (قهر اليأس فيك).

(٢) الإفك: الزور.

(٣) أقبله الشيء: قابله به، القبول: المحبة والرضا بالشيء وانجذاب النفس إليه.

(٤) في أصول الديوان (لم أزل أبكيه حفظًا)، وفي أصول الذخيرة (إن أزال أبليه حفظك) وفي ت (كما لم يزل) ولعل الصواب ما أثبتناه والمعنى، ما زلت ولن أزال محافظًا على عهود المودة والهيام.

(٥) في الذخيرة (إن تعجلي بالوفاء)، والمعنى لا تعجلي بالقطيعة فكثيرًا ما توقع العجلة في أخطار جسيمة تعوق الإنسان عن بلوغ أهدافه التي كان يتعجل بلوغها والمثل (رب عجلة تهب ريثًا) والريث: البطء.

(٦) طباه عن الأمر: صرفه عنه، واطباه الشيء استماله إليه، وفي الذخيرة (علام أطعت... وفيم نهتك).

أَلمْ أَلـــزمِ الـــصَّـــبْـــرَ كَـــيْـــمـــا أخِفَّ؟

أَلـمْ أُكْـــثِـــرِ الـــهَـــجْـــرَ كي لا أُمَلْ؟[1]

أَلـمْ أرض مـــنكِ بـــغَـــيْـــرِ الـــرِّضى

وأبُـــدي الـــسُّـــرورَ بمـــا لـم أنَلْ؟

ألـم أغْـــتَـــفِـــرْ مُـــوبِـــقَـــاتِ الـــذُّنــو

ب؟ عَـــمْـــدًا أتَـــيْـتِ بـــهـــا أم زَلَلْ؟

ومـــا ســـاءَ ظَـــنِّيَ في أن يُـــسيءَ

بِيَ الـــفِـــعْلَ حُـــسْـــنُكِ حـــتّى فَـــعَلْ

عـلى حـينِ أصـبـحتِ حَـسْبَ الـضَّـمـيـرِ

ولـم تَـــبْـغِ مـــنكِ الأمـــاني بَـــدَلْ

وصـــــانَـكِ مـــــنّي وَفِـيٌّ أَبِـيٌّ

لِـــعِـــلْقِ الـــعَلاقـــةِ أنْ يُـــبْـــتَـــذَلْ

☆☆☆☆☆

سَـعَـيْتِ لـتـكـديـرِ عَـهْـدٍ صَـفَـا

وحـــاولْتِ نـــقصَ ودادٍ كَـــمَلْ

فـــمـــا عُـــوفِـــيَتْ مِـــقَـــتي من أذًى

ولا أُعْـــفِـــيَتْ ثِـــقَـــتي من خَـــجَلْ

ومَـــهْـــمـــا هَـــزَزْتُ إلـــيكِ الـــعِـــتـــا

بَ، ظـــاهَـــرْتِ بـــين ضُـــروبِ الـــعِـــلَلْ[2]

كـــأنَّكِ نـــاظَـــرْتِ أهْلَ الـــكَلامِ

وأوتـــيتِ فَـــهْـــمًـــا بـــعـــلم الجَـــدَلْ

ولـــو شـــئتِ راجـــعتِ حُـــرَّ الـــفَـــعـــالِ

وعُـــدْتِ لـــتـــلـك الـــسَّـــجـــايـــا الأُوَلْ[3]

---

(١) في الذخيرة (ألم أوثر الصبر).

(٢) في الذخيرة (صروف العلل).

(٣) الفعال: اسم للفعل الحسن والكرم، وقيل للخير والشر، ولا يكون إلا لفاعل واحد فإذا كان لجمع كسرت فاؤه يقال: هو

فـــــلـمْ يَـكُ حَـــــظِّيَ مــــــنـكِ الأَخَسَّ

ولا عُـــــدَّ سَـــــهْــــمِيَ فـــــيكِ الأَقَلْ[1]

عــــلـــــيكِ الـــــسَّلامُ!! سَلامُ الــــوَداعِ

وداعَ هـــــوًى مــــــاتَ قَــــــبْلَ الأَجَلْ

ومــا بــاخــتــيــارٍ تَـسَـلَّـيْتُ عــنكِ

ولـــــكــــنَّــــنـي مُـــــكْــــرَهٌ لا بَــــطَلْ[2]

ولـم يَـــدْرِ قــــلـــبيَ كــــيفَ الــــنُّــزوعُ

إلـى أن رأى سِــــيــــرةً فــــامْـــتَـــثلْ[3]

ولـــيت الـــذي قـــاد عَـــفْـــوًا إلـــيكِ

أبيَّ الــــهَـــوَى في عِـــنـــانِ الـــغَـــزلْ

يُـــحـــيلُ عُـــذوبـــةَ ذاك الــــلَـــمى

ويَـــشْـفي مِنَ الـــسُّـقْمِ تــلكَ الـــمُـقَلْ[4]

****

(١) في الذخيرة: (ولا عهد سهمي).

(٢) في الذخيرة (وما باختياري)، (مكره أخوك لا بطل) مثل لمن يرغم على القيام بأمر فيؤديه وهو كاره.

(٣) النزوع عن الشيء: الإقلاع عنه، امتثل الأمر: احتذاه وسلك سبيله، والمعنى لم يدر كيف يكف عن حبك حتى فجأته بالهجر فقلدك فيه.

(٤) يحيل: يغير، ومعنى البيتين: أتمنى على الله الذي جذب قلبي الأبي إلى حسنك الفتان، أن يشوه جمالك، فيغير ريقك العذب، ويبطل تأثير طرفك الساحر الوسنان.

شماتة الأعداء

أشْـــمَتِّ بي فـــيكِ الـــعـــدا
وبـــلـــغتِ من ظُـــلـــمي الـــمَـدَى
لـــو كـــان يَـــمْـــلِكُ - فـــديـــةً
من حُـــبِّكِ - الـــقـــلبُ افْــتَـــدَى
كـــنتِ الحـــيـــاةَ لـــعـــاشقٍ
- مـــذ حُـــلْتِ أيْـــقَنَ بـــالـــرَّدَى
لم يَـــسْلُ عـــنك، ولـــو سلا
لَـــعَـــذَرْتُهُ؟ فـــبكِ اقْـــتَـــدَى
ضَـــيَّـــعْتِ عَـــهْـــدَ مَـــحَـــبَّـــةٍ
كـــالـــوَرْدِ ســـامَـــرَهُ الـــنَّـــدى
أيـن ادِّعـــاؤكِ لـــلـــوَفَـــا
ءِ؟ ومـــا عـــدا مِـــمَّـــا بـــدا؟[1]

****

(١) المعنـى: كيـف تدعين الوفاء مع تبدلك وتحولك؟ وما تحول هو عن عهدك، ولا تبدل عما بدأه من حبك، وهو يشير بهذا إلى قـول الإمـام علـي رضي الله عنه لطلحة يوم الجمل (عرفتـني بالحجـاز، وأنكرتنـي بالعـراق، فمـا عدا ممـا بـدا؟) وذلك أنه كان قد بايعه بالمدينة، وجاء يقاتله بالبصرة، أي ما الذي صرفك عني وحملك على التخلف بعد ما ظهر منك من التقدم في الطاعة والمتابعة؟ وقيل معناه: ما بدا لك فصرفك عني؟ وقيل معناه: ما عداك مما كان بدا لنا من نصرك؟ أي ما شغلك؟

الادعاء الكاذب

يــا مُــسْــتَــخِــفّــاً بــعــاشــقِــيهِ
ومُــسْــتَــغِــشّــاً لــنــاصِــحِــيهِ

ومَنْ أطــاعَ الــوُشــاةَ فــيــنــا
حــتَّى أطَــعْــنــا الــسُّــلُــوَّ فــيهِ

الحَــــمْــــدُ لــــلّــهِ إذْ أراني
تَــكْــذيبَ مــا كُــنْتَ تــدَّعــيهِ[1]

مِنْ قَــبْلِ أنْ يَــعْــرُمَ الــتَّــسَــلِّي
ويَــغْــلِبَ الــشّــوْقُ مــا يــلــيهِ[2]

****

(١) في المغرب (قد بدا لي تكذيب).

(٢) يعرم: يشتد ويشرس، والمعنى يحمد الله أنه أظهر له تلونها وخداعها قبل أن يسيطر الحب على قلبه فلا يستطيع منه فكاكًا، ويفر منه السلوان فلا يجد إليه سبيلاً، وفي القلائد والنفح (من قبل أن يهزم).

دعوة المظلوم

إن ســاء فِــعْــلُك بي، فــمــا ذَنْــبي أنــا؟
حَــسْبُ الــمُــتَــيَّم أنَّهُ قــد أحْــسَــنــا

لم أَسْلُ حــتَّى كــان عُــذْرُكِ - في الــذي
أبْــدَيْــتِهِ - أَخْــفَى، وعُــذْرِيَ أبْــيَــنــا

ولـقـد شَكَوْتُكِ - بـالـضَّـمـيـر - إلى الـهَوَى،
ودَعَــوْتُ - مِنْ حَــنَقٍ - عــلـيكِ فــأمَّــنــا

مَــنَّــيْتُ نَــفْــسي - مِنْ وَفــائكِ - ضَــلَّــةً
ولــقــد تَــغُــرُّ الــمَــرْءَ بــارِقَــةُ الــمُــنَى[1]

****

(١) في الذخيرة (من هواك بضلة)، وفي القلائد والخريدة والوافي والسالك (من صفائك ضلة).

جسم عليل

عَلامَ صَـرَمْتَ حَـبْـلَكَ مِنْ وَصـولِ
فَـدَيْـتُكَ واعْـتَـزَزْتَ عـلـى ذلـيلِ؟
وفِـيمَ أَنِـفْتَ من تَـعْـلـيلِ صَبٍّ
صـحـيحِ الـوُدِّ ذي جِـسْمٍ عَـلـيلِ
فَـهَلاّ عُـدْتَـني - إذْ لم تَـعَـوَّدْ
بشَخْصِكَ - بالكتابِ أو الرَّسولِ[1]
لـقـد أعْـيَـا تَـلَـوُّنُكَ احْـتِـيـالي
وهلْ يُـغْـنِي احْـتِـيـالٌ في مَـلـولِ؟

****

(١) تعوَّد: أصلها تتعود ومعناها الاعتياد أو عيادة المريض، والمعنى: إذا كنت لم تعتد زيارتي أو عيادتي بشخصك فهلا أرسلت إلي خطابًا أو رسولاً؟

غبن الزمان

خُـــنْتَ عَـــهْـــدي ولم أَخُنْ
بِـــــعْتَ وُدّي بلا ثَـــــمَنْ

قـــائلاً: «هل مُـــزايـــدٌ
رابـــحًـــا؟ ثُم مَنْ يَـــزِنْ»؟

عُـــدَّتي كُـــنْتَ لـــلـــزّمـــا
ن، فـــقـــد حُـــلْتَ والـــزَّمَنْ

أرْخِصِ الـــبَـــيْعَ كـــيف شـــئـ
ـتَ، وَذُدْني لَـــتَـــنْـــدَمَنْ[1]

ســـوف تُـــبْـــلَى بـــغـــيـــرنـــا
جَـــرِّبِ الـــنّـــاسَ وامْـــتَـــحِنْ

****

(١) ذدني: اطردني، وفي أصول الديوان (ردْني) والرود هو الطلب، ويكون المعنى على هذا: يعني بما شئت ثم اطلبني فلن تحصل عليَّ بأي ثمن. وحينئذٍ يدركك الندم، ولعل الصواب ما أثبتناه.

٧ - كيد وعناد

«صارحته بالعداء، واستبدلت به سواه، فثارت ثائرته، واندفع محاولاً تحطيمها ومن يحيط بها، معلنًا أنه استعاض حبّاً بحب وسلوانًا بسلوان، ولكن هيهات هيهات!!! فلن يخفى الغرام، وإن أغلظ الأقسام».

حب جديد

عـاوَدْتُ ذِكْـرَى الـهَـوَى - مِنْ بَـعْـدِ نِـسـيـانِ
واسْـتَـحْـدَثَ الـقلبُ شَـوْقًـا بَـعْـدَ سُـلـوانِ[١]

من حُبِّ جـاريــةٍ، يــبــدو بــهــا صَــنمٌ
من الـلُّـجَـيْنِ، عـلـيـه تـاجُ عِـقْـيـانِ[٢]

غَـريـرةٌ لم تُـفـارِقْـهـا تَـمـائِـمُـهـا
تَـسْبي الـعُقولَ بـساجي الـطَّرْفِ وَسْنانِ[٣]

لأَسْـتَـجِـدَّنَ - في عِـشْـقِي لـهـا - زمـنًـا
يُـنْـسي سَـوالِفَ أيَّـامي وأزْمَـاني[٤]

حـتَّى تـكـونَ لِـمَنْ أحْـبَـبْتُ خـاتِـمـةً،
نَـسَـخْتُ - في حُـبِّـهـا - كُـفْـرًا بـإيمـانِ[٥]

****

---

(١) في النفح (نسياني.. سلواني).

(٢) في النفح (عليها)، اللجين: الفضة، العقيان: الذهب الخالص، والمعنى: لقد تيمني حب جارية حسناء مصقولة كالدمية الفنية المنحوتة من الفضة المتوجة بتاج ذهبي، والمقصود أنها ناصعة البياض صفراء الشعر.

(٣) غريرة: ساذجة، لم تفارقها تمائمها: لم تزل في دور الطفولة تحمل الرقى والتعاويذ، ساجي: هادئ، وديع، والمراد: تسبي العقول بنظراتها الوادعة الحالمة، وفي النفح (تسبي القلوب).

(٤) المعنى: لأستحدثن في حبها عهدًا جديدًا يفوق عهد حبي القديم حتى يطفئه ببريقه ولألائه، وفي النفح (يحيي).

(٥) ستكون هذه الفتاة الغريرة آخر من شغفت بهن من الحسان، وسأمحو بحبي لها جميع ما سبق من صبوات، فهي بالقياس

اختيار البديل[1]

....

وغـــــــرَّكَ مـن عــــــــهــــــــدِ (ولاَّدةٍ)

ســـــــرابٌ، تـــــراءى وبـــــــرقٌ وَمَضْ[2]

تَـــظُنُّ الـــوفـــاءَ بـــهـــا، والـــظـــنـــو

نُ فـــيـــهـــا تـــقـــولُ عـــلـى من فــرضْ:[3]

(هيَ المـــــاءُ يـــــأبى عــــلى قــــابضٍ

ويمــــــنعُ زبـــــدَته مَـنْ مــــــخضْ)[4]

ونُــبِّــئْــتُــهــا بــعــديَ اسْــتَــحْــمَــدَتْ

بـــســـري إلـــيكَ لمــعـــنًى غـــمضْ[5]

✡✡✡✡

وأنـــذِرْ خـــلـــيـــلَكَ مِنْ مـــاهـــرٍ

بـــطبٍّ الجـــنـــونِ إذا مــــا عـــرضْ

وأشْـــعِـــرْهُ أنّي انـــتـــخـــبتُ الـــبـــديلَ

وأعـــلِـــمْهُ أنّي اسْـــتَـــجَـــدْتُ الـــعِـــوَضْ

---

(١) سترد القصيدة بتمامها في فن الهجاء، ولكننا اخترنا منها هذه الأبيات لمناسبتها للمقام.

(٢) في الديوان (عهد فعالة) وقد آثرنا رواية الذخيرة.

(٣) في ب، ت (تعول).

(٤) المعنى: أنها خداعة لا وفاء لها، فهي كالماء لا تستطيع اليد أن تمسكه، ولا أن تستخرج منه زبداً.

(٥) في الذخيرة (بسير إليك) وفي ب، ت، ز (بسر)، والمعنى: أنها أذاعت سري إليك لتظفر بالثناء منك، وهي بهذا ترمي إلى هدف خاص تحاول كتمانه.

فلا مشربي - لقلاه - أمرّ

ولا مَضْجَعي - لِنَواهُ - أقضْ[1]

وأنَّ يَدَ البَيْنِ مشكورةٌ

لعارٍ أماطَ وَوصْمٍ رَحَضْ[2]

وحسبيَ أنّي أطبْتُ الجَنَى

لإبَّانهِ، وأبحتُ النَّفَضْ[3]

ويَهْنِيكَ أنك يا سيِّدي

غَدَوْتَ مُقارِنَ ذاك الرَّبَضْ[4]

****

(١) يقول: أنبئْ صاحبك (المخاطب ابن عبدوس، والحديث عن شخص ولادة) أنني اصطفيت بنفسي حبيباً خيراً منه، ووجدت لها خليلاً حج عنه، فما تكدَّر صفائي لبعده ولم يخشن مضجعي لصده.

(٢) أماط العار: أزاله، رحض الوصم: غسل العيب ومحا العار، فهو يشكر للفراق أنه أزال الغشاوة عن عينيه، فأبرأه من حب دنس وهوى ذميم.

(٣) الجنى: الثمر، النفض: ما تساقط من الورق والثمر، والمعنى أنه تمتع من حبيبته بأطايب الثمر ثم ترك هشيمها لغيره ممن يقنعون بالتوافه.

(٤) الربض: مأوى الماشية، أو أحشاء الناقة أو ما تحويه البطن والمصارين، والشاعر هنا يسخر من خصمه فيهنئه بما تركه له من فضلات.

لذة التبديل[1]

مَنْ مُـبـلـغٌ عـنّيَ الـبـدر الـذي كـمُلا
- في مطلع الحسن - والغُصنَ الذي اعتدلا:

أنّ الـزمـان الـذي أَهـدى مـوّدتَهُ
إلـيَّ مُـرتـهِنٌ شـكـري بمـا فـعلا؟[2]

أمـا الحـبـيبُ الـذي أبـدى الجـفـاءَ لـنـا،
فـمـا رأيـنـا قِلاه حـادثًـا جَـلَلا[3]

ولـم نـزدْ أنْ ظـفـرنـا ملءَ أعـيُـنـنـا
بـالمـشـتـري، فـتـجـنَّـبْـنـا له زُحَلا[4]

أنتَ الحـبـيبُ الـذي مـا زلتُ أُلحِـفُهُ
ظِلَّ الـهَـوَى، وأُسَـقِّـيهِ الـرِّضـا عَـلَلا

هـذي الحـقـيـقـةُ، لا قـولي مُـخـادعـةً:
لـو كـان قـولُكَ (مُتْ) مـا كـان رَدّيَ (لا)[5]

****

(١) سترد القصيدة بتمامها في فن الهجاء، ولكننا اخترنا منها هذه الأبيات لمناسبتها للمقام.

(٢) مرتهن: مستحق، والمعنى: إن حبيبي الجديد الذي كملت محاسنه، وأسعدتني مودته جدير بأن يطلق لساني بالثناء على مساعفة الزمان لي بحبه وحسنه.

(٣) في تمام المتون (أبدى الجمال).

(٤) والمعنى أما الحبيب الذي هجرنا فإننا لم نحفل بهجره، ولم نهتم بإعراضه، فقد استبدلنا به خيرًا، مثل من انصرف عن زحل ونحسه إلى المشترى في لألائه ويمنه.

(٥) معنى البيتين: أنه يؤكد لحبيبه الجديد أنه ملك عليه قلبه كلّه، فمنحه حبه الصادق، وفرش له ظلال مودته، وسقاه عذب

نبذ القديم[1]

قد عَلِقْنا سواكِ عِلْقًا نفيسَا
وصرفنا إليه عنكِ النُّفوسا[2]

ولَبِسْنا الجَديدَ من خِلَعِ الحُـ
ـبِّ، ولم نألُ أنْ خَلَعْنا اللَّبيسا[3]

ليس منكِ الهَوَى، ولا أنتِ منهُ
اهْبِطي مِصْرَ، أنتِ من قَوْمِ موسى[4]

****

(١) هذه الأبيات ليست بالديوان، وقد نقلناها عن (الكوكب الثاقب).

(١) علق بالشيء: أحبه. العلق: النفيس.

(١) اللبيس: الثوب الذي كثر لبسه حتى أخلق.

(١) أشار إلى قول أبي نواس:

ومظهرةٍ لخلق الله نسكًا
وتلقاني بدلٍّ وابتسامِ
أتيتُ فؤادها أشكو إليه
فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليلٌ
ولا ألفَا خليلٍ كل عام
أظنك من بقية قوم موسَى
فهم لا يصبرون على طعام

نفاية الطعام[1]

أكـــرم بـــولاّدةٍ ذُخْــرًا لِـــمُـــدَّخِـــرٍ
لـو فَــرَّقَتْ بــين بَــيْــطـارٍ وعَــطّــارِ[2]
قـالـوا: أبـو عـامـرٍ أضـحى يُـلمُّ بـهـا
قـلتُ: الـفَـراشَـةُ قـد تـدنـو مِنَ الـنّـارِ
عَـيَّرْتُـمونـا بـأنْ قـد صـار يَـخْـلُـفُـنـا
في من نُــحِبُّ، ومــا في ذاكَ من عــارِ
أكْلُ شَــهيٌّ أَصَــبْــنــا من أطــايــبه
بَـعْـضًـا، وبـعَـضًـا صَـفَـحْـنـا عنه لـلـفارِ

****

(١) انصرفت ولادة عن الشاعر إلى خصمه ابن عبدوس، وكان يلقب بالفار، فوجه الشاعر إليه هذه الأبيات، ولم ترد هذه المقطوعة بالديوان، وقد أثبتناها عن (تمام المتون) و(سرح العيون).

(٢) البيطار: طبيب الدواب، والعطار: تاجر العطر.

١ - المطارحات

«داعب الشاعر أصدقاءه وداعبوه، وتلقى رسائلهم وأجاب عنها ملتزمًا أوزانهم وقوافيهم، وهو في ردّه يؤثر البديهة والارتجال».

الإخوانيات

«كما خفق قلب الشاعر بحبه الغلاّب، ولهج بجمال الطبيعة الخلاّب، شغف بعذوبة الصداقة وحلاوة الإخاء، وتدور إخوانياته حول أربعة أغراض».

حسن العقاب

أرسل الشاعر هذه الأبيات إلى صديقه أبي حفص بن برد الأصغر عابثًا بصديقهما أبي صفوان:

قُلْ لأبـي حَـــــفْصٍ ولم تَــــكْـــــذِبِ:
يــا قَــمَــرَ الــدِّيــوانِ والــمَــوكبِ

مــا لأبـي صَــفْــوانَ مــألــوفُــنــا
أبْـــرَقَ في الأُلْـــفَـــةِ عن خُـــلَّبِ؟[1]

ولم يَـــعُـــدْ إلاّ كـــمـــا يـــتَّـــقي
مُـسْـتَـرِقُ الـسَّـمْعِ مِنَ الـكَـوْكَبِ[2]

✡✡✡✡

عَـنِّـفْه بـالـلّـهِ عـلى فِـعْـلِه،
واشْـتُمْ، وإنْ لم يَـسْـتَـقِمْ فـاضْـرِبِ

وعـاطِهِ صَـهْـبـاءَ مَـشْـمـولَـةً
يَـرَى بـهـا الـمَـشْـرِقَ في الـمَـغْـرِبِ[3]

وَلْـيَـشْـرَبِ الأكْـثَـرَ من كـأسه
واعْـمِـدْ – إلى فَـضْـلَـتِـهِ – فـاشْـرَبِ

عُـقـوبَـةٌ، أَحْـسِـنْ بِـهـا سُـنَّـةً
– في مِـثْـلِـهِ – من حَـسَـنٍ مُـذْنِبِ

وبـاكِـرَا الـطِّـيبَ، ورُوحَـا لهُ،
فـأنـتـمـا في زَمَنٍ طَـيِّـبِ

****

(١) الخلب: السحاب لا مطر فيه، أبرق عن خلب: أظهر برقًا لا مطر بعده، بمعنى أنه تكشف عن وعود زائفة.

(٢) المعنى: قلّما يتصل بنا إلا خلسة في خوف ورقبة وعلى عجل، كما تفعل الشياطين حينما تحاول استراق السمع من الكواكب فتتوقع أن يصيبها شهاب راصد يحيلها إلى رماد.

(٣) الصهباء: الخمر أو المعصورة من عنب أبيض، مشمولة: خمر باردة.

دعابة بريئة

داعب الشاعر صديقه الوزير أبا العباس بن حاتم بن ذكوان بهذه الأبيات، وكان ابن جهور قد أمر بإراقة الخمر ومنع شربها:

لستَ من بابَةِ المُلوك أبا العبْـ
ـباسِ دَعْهُمْ، فشأنُهُمْ غيرُ شانِكْ[1]

ما جزاء الوزير منك - إذا اخْتَصْـ
ـصَكَ - أنْ تَسْتَمِرَّ في إدمانِكْ

أتُراهُ لا يَسْتَريبُ لإمسا
كِكَ سُعْدَ العِراقِ تحتَ لِسانِكْ[2]

مُذْ نَهانا عنِ المُدامِ انْتَهَيْنا
مَعَ أنَّا نُعَدُّ مِنْ صِبْيانِكْ

****

(١) البابة: الحدود أو الغاية، ويقال هذا بابته أي يصلح له، أو هو شرطه، والمعنى: لست ممن يصلح لمجالسة الملوك أو تتوافر فيه شروطهم، فلا تتوهّم أنك غاية لهم.

(٢) سعد العراق: نبات طيب الريح يطيب رائحة الفم من الثوم والبصل والكراث والشراب. والمعنى: ألا تظن أن الوزير يشك في أمرك حينما يراك واضعًا سعد العراق تحت لسانك فيعلم أنك تستر به رائحة الخمر وفي ب، ت، ز (لا يستعد).

عتب وإخاء

كتب الوزير أبو بكر بن الطُّبني إلى شاعرنا هذه الأبيات:

[أبـا الـولـيـدِ، ومـا شَـطَّتْ بـنـا الـدّارُ
وقَلَّ مـــنّـــا ومـــنـكَ الـــيَـــوْمَ زُوّارُ

وبـــيـــنَـــنـــا كلُّ مـــا تَـــدْريهِ من ذمَمٍ
ولـــلـــصِّـــبـــا ورَقٌ خُـــضْـــرٌ ونُـــوّارُ

وكُلُّ عَـــتْبٍ وإعْـــتـــابٍ جـــرى فَـــلَهُ
مَـــواقِعُ حُـــلْـــوَةٌ عـــنـــدي وآثـــارُ[1]

فـاذكـرْ أخـاكَ بـخـيـرٍ كـيـفـمـا لَـعِبَتْ
به الـــلَّـــيـــالي، فـــإنَّ الـــدَّهْـــرَ دوّارُ]

فأجابه الشاعر على البديهة في ظهر رقعته:

لـــو أنَّـــني لك في الأهـــواء مُـــخْـــتـــارُ
لَـمَـا جَـرَتْ بـالـذي تَـشْـكـوهُ أقْـدارُ

لـكـنّـهـا فِـتَنٌ في مِـثْلِ غَـيْـهَـبِـهـا
تَـعْـمَى الـبَـصـائـرُ إنْ لم تَـعْمَ أبْـصـارُ

فـأحْـسِنِ الـظَّنَّ لا تَـرْتَبْ بـعـهـد فَـتًى
تَـعْـفُـو الـعُـهـودُ وتَـبْـقَى مـنه آثـارُ

لـو كـان يُـعطَى الـمُنَى في الأمْـرِ يُـمْكِنُهُ
لَـــمَـــا أغَـــبَّكَ - يَـــوْمًـــا - مـــنه زَوّار[2]

(لا يُـكـثِرُ الـعـتْب) في ذِكْرِ الـصَّديق به
مَنْ لـــيس يَـــجْـــهَلُ أنَّ الـــدَّهْـــرَ دوّارُ

****

(١) العتب: اللوم. الإعتاب: الصفح والرضاء.

(٢) ما بين القوسين غير موجود بالأصول، وقد أكملناه بما يناسب السياق، والمعنى: لا يكثر لوم الأصدقاء من يعرف قسوة

ذكريات بلنسية[1]

جاشت بنفس الشاعر أطياف أيّامه ولياليه الحلوة ببلنسية مع صديقه الوفي أبي عبدالله بن عبدالعزيز فكتب إليه:

راحَتْ فَـراحَ بـهـا الـسَّـقـيمْ
ريحٌ مُـعَـطَّـرةُ الـنَّـسـيمْ[2]
مَـقْـبـولَـةٌ هَـبَّتْ قَـبـو
لاً، فَـهْيَ تَـعْـبَقُ في الـشَّـمـيمْ[3]
أَفَـضِـيضُ مِـسْكٍ أم بَـلَـنْـ
ـسِيَـةٌ لِـرَيَّـاهـا نَـمـيْم[4]
بَـلَـدٌ حَـبـيبٌ أُفْـقُهُ
لِـفَـتًى يَـحُلُّ به كـريمْ

✡✡✡✡

إيـهٍ أيـا عَـبْـدِ الإلـ
ـهِ، دُعـاءَ مَـغْـلوبِ الـعَـزيمْ[5]
إنْ عِـيلَ صَـبْـري من فِـرا
قِكَ، فـالـعَـذابُ بـهِ ألـيمْ

---

(١) بلنسية: مدينة على الساحل الشرقي للأندلس على بعد ثلاثة أميال من البحر الأبيض المتوسط، وتقع على نهر جار تدخل إليه السفن البحرية، فهي برية بحرية تحيط بها الحدائق الغناء والمروج الناضرة، وكانت حاضرة ملك بني عبدالعزيز. وقد تفنن في وصفها الشعراء.

(٢) راحت: طابت، راح السقيم: أخذته خفة، وفي الذخيرة (صحّت فصحّ) وفي القلائد والمغرب والنفح (راحت فصحّ).

(٣) القبول: ريح الصبا وتهب من الشرق، تعبق: تفوح، وفي ت (في النسيم).

(٤) ريّاها: رائحتها الطيبة، نميم: انتشار وذيوع.

(٥) هذا البيت ناقص من نسختي ب، ت، إيه يا فلان: زدنا من أي حديث تشاء، وقد آثرنا رواية القلائد والمغرب والنفح، وفي أصول الديوان والذخيرة (إيهًا) ومعناها: اسكت وكفَّ أو (أيها) بمعنى هيهات، وفي المسالك (أبا عبدالكريم) وفي النفح

أو أَتْــبَــعَــتْكَ حَــنــيــنَــهــا

نَــفْــسي فـأنتَ لــهـا قَــسـيمْ[1]

ذِكْــرَى لِــعَــهْــدِكَ كــالــعِــدا

دِ، سَــرَى فَــبَــرَّحَ بــالــسَّــلـيمْ[2]

مَــهْــمــا ذَمَــمْتُ فــمــا زمــا

نـي، في ذِمــامِكَ بــالــذّمــيمْ

✲✲✲✲✲

زَمَنٌ - كــمــألــوفِ الــرَّضــا

عِ -، تَــشُــوقُ ذِكْـراهُ الــفـطـيمْ[3]

أيَّــام أَعْــقِــدُ نــاظــريْ

يَ، بــذلك الــمَــرْأَى الــوَسـيمْ[4]

فــأرى الــفُــتُــوَّةَ غَــضَّــةً

في ثَــوْبِ أوّاهٍ حَــلــيمْ[5]

✲✲✲✲✲

الــلَّهُ يَــعْــلَمُ أنَّ حُــبْـ

ـبَكَ، من فـؤادي بــالـصَّـمـيمْ[6]

---

(١) القسيم: الشطر، والمراد أنك شطر نفسي.

(٢) العِداد: مس من الجنون أو وقت الموت، أو اهتياج وجع اللديغ بعد سنة. قال الشاعر:

ألاقي من تــذكــر آل لــيــلى

كــمـا يـلـقى الـسـليم من الـعِداد

والمعنى: إن حنيني إلى ذكرياتك العذبة يعتادني حينًا بعد حين، ويثير آثار هواجس ملِحة في عقلي تكاد تدفعني من شدة الوجد إلى الجنون. وفي القلائد والمغرب (كالسهاد).

(٣) في المسالك (عهد).

(٤) في بعض نسخ النفح (أعقد ناظري في...).

(٥) في النفح (وأرى الفتوة..).

(٦) في القلائد والمغرب (في الصميم).

ولَـــئِنْ تَـــحَـــمَّلَ عـــنكَ لي
جِـــسْمٌ فَـــعَنْ قـــلبٍ مُـــقـــيمْ[1]

☆☆☆☆☆

قُلْ لـي بــــأيِّ خِلالِ سَـــــرْ
وِكَ، قَـــبْلُ أُفْــتَنُ أو أَهـــيمْ؟[2]
أبمَـــجْـــدِكَ الـــعَـــمَمِ الـــذي
نَـــسَقَ الحـــديثَ مع الـــقـــديمْ؟[3]
أم ظَـــرْفِكَ الحُـــلْـــوِ الجَـــنَى
أم عِـــرْضِكَ الـــصَّـــافي الأديمْ؟[4]
أم بِـــرِّكَ الـــعَـــذْبِ الجِـــمـــا
مِ، وبِـــشْـرِكَ الـــغَضِّ الجـــمـــيمْ؟[5]
إنْ أَشْـــمَـــسَتْ تـــلك الـــطَّلا
قَـــةُ، فـــالـــنَّدَى مـــنـــهـــا مَـــغـــيمْ
أمْ بـــالـــبـــدائعِ كـــالـــلآ
لِئ من نَـــثـــيـــرٍ أو نـــظـــيمْ؟
لـــبلاغَـــةٍ إن عُـــدَّ أَهْـــلُـــوهـــا
فـــأنتَ لـــهـــمْ زعـــيـــمْ[6]
فِـــقَـــرٌ تَـــسُـــوغُ بـــهـــا الـــمُـــدا
مُ إذا تَـــكَـــرَّرَهَـــا الـــنَّـــديمْ[7]

☆☆☆☆☆

(١) في القلائد والمغرب (عنك بي).
(٢) في النفح (فيك أُفتن).
(٣) في النفح (أمجدك...).
(٤) في النفح (الغض الجنى).
(٥) الجمام: المياه المجتمعة، الجميم: الغزير أو النبات الكثير.
(٦) في النفح (فأنت بها).

إنَّ الـــــذي قَـــسَمَ الحُـــــظـــــو

ظَ، حَـبـاكَ بـالـخُـلُقِ الـعَـظـيمْ

لا أسْـــتَـــزيـــدُ الـــلّهَ نُـــعْـ

ـــمَى فـــيكَ، لا بَلْ أسْـــتَـــديمْ

فـــلــــقــــدْ أَقَـــرَّ الـــعَـــيْنَ أنْـ

ـنَكَ، غُـــرَّةُ الـــزَّمَنِ الـــبَـــهـــيمْ

حَـسْـبي الـثَّـنـاءُ لِـحُـسْنِ بَـرْ

قِكَ، مــا بــدا بَـــرْقٌ فَـشـــيمْ[1]

ثُمَّ الـــدُّعـــاءُ بـــأن تَـــهَـــنْـ

ـنَـأَ، طُـولَ عَـيْـشِكَ في نـعـيمْ

ثمَّ الـــسَّلامُ تُـــبَـــلِّـــغَـــنْـ

ـهُ، فَـغَـيْبُ مُـهـديهِ سَـلـيمْ[2]

****

(١) البرق: اللمعان، برقت المرأة تحسنت وتزينت، شام الرجل البرق: تشوف ببصره وتطلع إليه مرتقبًا المطر. والمعنى: يكفيني أن ألهج بالثناء على مظهرك الوضاء ما دام الناس يتطلعون إلى البروق ويرتقبون نزول الغيث، في النفح (... وشيمٍ).

(٢) في القلائد (بقلب مهديه السليم).

قرب وابتعاد

كتب ذو الوزارتين أبو عامر بن مسلمة إلى صديقه ابن زيدون معاتبًا متوددًا:

[تُـــبــــاعِــــدُنــــا عـــلـى قُــــرْبِ الجِـــوارِ
كـــأنّـــا صَــدَّنـــا شَــحْطُ الــــمَــزارِ[1]

تـــطَـــلَّعَ لي هلالُ الـــهَـــجْـــر بـــدرًا
وصـــار هِلالُ وَصْـــلِكَ في سَـــرارِ[2]

وشـــاعَ شــنــيعُ وَصْــلِكَ لي وهَــجْــري
فــــهلاَّ كـــان ذلكَ في اسْـــتِـــتـــارِ

أَيَـــجْـــمُلُ أنْ تُـــرى عـــنّي صَـــبـــورًا
وأصْــبِحُ مُــولَــعًــا دونَ اصْــطِــبــارِ؟[3]

☆☆☆☆☆

ولـــمَّـــا أنْ هَــجَـــرْتَ وطـــالَ غَـــفْـــري
عَـقَـرْتُ هُـمـومَ نـفـسي بـالـعُـقـارِ[4]

وكـــنتُ أزيـــدُ سَـــمْـــعَكَ من عِـــتـــابي
ولــكنْ عـــاقَـــني قُـــرْبُ الخُــمـــارِ[5]

(١) في النفح (شط المزار).

(٢) السرار: آخر الشهر، والمعنى: أن هجرك كامل ووصالك ناقص.

(٣) في النفح: (فأصبح).

(٤) الغفر: الستر أو انتكاس المرض أو استثارة الشوق، يقال غفر العاشق: عاد عيده بعد سلوان، ومنه قول الشاعر:

لـعـمـرك إن الـدار غـفـر لـذي الـهـوى
كـمـا يـغـفـر المحـمـوم أو صـاحب الكَلْمِ

والمعنى لما طال هجرك لي واستبد بي الشوق إليك لم أجد لنفسي مسلّيًا عنك إلا معاقرتي للشراب.

(٥) الخُمار: صداع الخمر أو أذاها.

فَـــراعِ مـــودّتي، واحـــفظْ جِـــواري

فـــإنَّ الــــلّهَ أوْصَى بـــالجِـــوارِ

وزُرني مُــنــعِــمًــا من غَــيْــرِ أَمْــرٍ

وآنِسْ مُــوحَــشًــا من عُــقْــرِ دارِ]

فأجابه ابن زيدون:

هَــوايَ - وإنْ تَــنــاءَتْ عَــنْكَ داري -

كَــمِــثْلِ هَــوايَ في حــالِ الجِــوارِ

مُــقــيمٌ لا تُــغَــيِّــرُهُ عَــوادٍ

تُــبــاعِــدُ بــينَ أحْــيــانِ الــمَــزارِ

رأَيْــتُكَ قُــلْتَ: «إنَّ الــهَــجْــر بَــدْرٌ»

مــتى خَــلَتِ الــبُــدور من الــسَّــرار؟[1]

ورابَكَ أنَّــني جَــلْــدٌ صَــبــورٌ

وكم صَــبْــرٍ يــكــون عنِ اصْــطِــبــارِ[2]

ولم أهْــجُــرْ لِــعَــتْبٍ غَــيْــرَ أنيّ

أَضَــرَّتْ بي مُــعــاقَــرَةُ الــعُــقــارِ

وأنَّ الخَــمْــرَ لــيس لــهــا خُــمــارٌ

تُــبَــرِّحُ بي، فــكــيفَ مَعَ الخُــمــار؟[3]

☆☆☆☆☆

وهلْ أنْــسَى لــديكَ نَــعــيمَ عَــيْشٍ

كَــوَشْيِ الخَــدِّ طُــرِزٌ بــالــعِــذار؟

---

(١) في الأصول (إن الوصل بدر) وقد آثرنا رواية النفح لاتفاقها مع بيت ابن مسلمة (تطلع لي هلال الهجر بدرا..).

والمعنى إنك تقول: إن الهجر صار بدرًا مكتملاً، والبدور لا بدّ أن تتعرض للنقصان في أواخر الشهر، ولكنها تعود بعد ذلك إلى كمالها.

(٢) اصطبار: تجلد وتكلف للصبر.

(٣) المعنى: إذا كانت الخمر دون صداع تؤثر فيّ، فكيف إذا كانت مع الصداع.

وســاعــاتٍ يَــجُــولُ الــلَّــهْــوُ فــيــهــا

مَــجــالَ الــطَّلِّ في حَــدَقِ الــبَــهــارِ؟[1]

وإنْ يَكُ قَــرَّ عــنكَ الــيَــوْمَ جــســمي

- فُــدِيتَ - فــمــا لــقــلــبي من قَــرارِ[2]

وكــنتَ عــلى الــبِــعــادِ أجَلَّ عِــلْقٍ

لَــدَيَّ، فــكــيفَ إذْ أصــبــحتَ جــاري؟[3]

****

(١) في النفح (مجال الظل في حدق النهار)، والبهار: عين البقر وهو زهر أصفر لنبات طيب الريح ويسمى العرار.

(٢) في النفح ونسخة ز (فرّ عنك.. من فرار).

(٣) في النفح (أجلّ شيء) والعلق: النفيس.

باقة أشعار

وفد أبو العطاف بن حي إلى إشبيلية، فرغب إلى الشاعر أن يريه طائفة من شعره، فمطله، فتوّسل إليه بابن المعتمد عبّاد في رسالة شعرية، فأجاب الشاعر على رويِّ أبياته ووزنها بهذه القصيدة:

أفَــــدْتَــــنِي من نَــــفــــائسِ الــــدُّررِ
مــــا أبْــــرَزَتْهُ غَــــوائِصُ الــــفِــــكَــــرِ
من لــــفــــظــــةٍ قــــارنَتْ نَــــظــــيــــرَتَــــهــــا
قِــــرانَ سُــــقْمِ الجُــــفــــونِ لــــلــــحَــــوَرِ
أبْــــدَعَــــهــــا خــــاطِــــرٌ، بَــــدائــــعُهُ
- في الــــنَّــــظْمِ - حــــازَتْ جَلالَــــةَ الخَــــطَــــرِ
أَعْــــطَــــرُ - مَــــهْــــمــــا سَــــرَى له نَــــفسٌ -
من نــــفَس الــــرّوضِ رَقَّ في الــــسّــــحَــــرِ[1]

✡✡✡✡✡

يــــا راقِمَ الــــوَشْيِ زانَهُ الــــذَّهَبُ الــــرْ
ــــرَقْــــراقِ إذ رفّ مــــنه في الــــطّــــرر[2]
وَنــــاظِمَ الــــعِــــقْــــدِ نَــــظْمَ مُــــقْــــتَــــدِرٍ
يَــــفْــــصِلُ بــــينَ الــــعُــــيــــونِ بــــالــــغُــــرَرِ[3]

---

(١) المعنى: إن خاطرك يسحّ بالنفحات العطرية، فأثره أعطر من نفحات الروض في مستهل الصباح، ومهما كان للروض من أريج فإنه لا يفوق ما أبدعته من روائع القصائد.

(٢) راقم الوشي: مزخرف النقش. الرقراق: الشديد اللمعان. الطرر: الحواشي، والمعنى: أنك تزين كلامك وتزخرفه كما يزخرف النساج الثوب بالنقوش البديعة ويطرّز حواشيه بالذهب الوهّاج المتلألئ.

(٣) عيون الشيء: خياره، أو الذهب المضروب، الغرة: البياض في الجبهة، والمراد: أنه يؤلف عقد الكلام فيجمع فيه بين الذهب والدرر.

لي بــالــنِّــضــالِ الــذي نَــشِــطْتَ لهُ

عَــهْــدُ قــديمٌ مُــسْــتَــعْــجِمُ الأَثَــرِ[1]

هلْ أُنْــصِلُ الــسَّــهْمَ في الجَــفــيــر وقــدْ

تَــعَــطَّــلَتْ فُــوقُهُ منَ الــوَتَــرِ؟[2]

✫✫✫✫✫

مــا الــشِّــعْــرُ إلاّ لِــمَنْ قَــريــحَــتُهُ

غَــريــضَــةُ الــنَّــوْرِ غَــضَّــةُ الــثَّــمَــرِ[3]

تَــبْــسِمُ عن كلِّ زاهِــرٍ أرِجٍ

مِــثْلَ الــكِــمــامِ ابْــتَــسَــمْنَ عن زَهَــرِ[4]

إنَّ الــشَّــفــيــعَ الــهُــمــامَ سَــوَّغَــهُ الــلَّــ

ــهُ اتِّــصــالَ الــتَّــأيــيــدِ بــالــظَّــفَــرِ

الــفــاضلَ الحِــبــرَ في المُــلــوكِ إذا

قَــصَّــرَ خُــبْــرُ عن غــايَــةِ الخَــبَــرِ[5]

نَــجْلُ الــذي نُــصْــحُهُ وطــاعَــتُهُ

كــالحَجِّ تَــتْــلُــوهُ بَــرَّةُ الــعُــمَــرِ[6]

شــاهِــدُ عَــهْــدي لكَ الــصَّــحــيحِ وإخْــ

ـــلاصٍ نَــأَى صَــفْــوُهُ عنِ الــكَــدَرِ[7]

✫✫✫✫✫

---

(١) مستعجم الأثر: مبهم غير واضح.

(٢) نصل الرجل السهم وأنصله: جعل فيه نصلاً، الجفير: الجعبة، الفوق: مشق رأس السهم التي تثبت في الوتر قبل جذبه. والمعنى: لقد بعد عهدي بصياغة الكلام البليغ حتى قلّت دربتي على المصاولة فيه، فكيف أعد سهمًا للرمي به، وأضعه في جعبته، وليس هناك وتر ولا قوس للرماية؟

(٣) غريض: غض طريء، والمعنى: لا يصوغ الشعر إلا من كانت قريحته خصبة قوية.

(٤) أرج: ذو رائحة ذكية، الكمام: جمع كم، وهو الغلاف المحيط بالزهرة.

(٥) الحبر: الرجل الصالح من العلماء، والخبر: العلم بالشيء أو التجربة أو الاختبار. والمعنى: الفاضل الفذ من الملوك تسمع عنه أفضل النعوت، فإذا خبرته صدق الخُبْرُ الخَبَرَ.

(٦) العمر: جمع عمرة، والعمرة: الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة وتسمى الحج الأصغر، والمعنى: إن النصح والطاعة للملك الذي أنجب هذا الأمير واجبان مقدّسان مثل الحج والعمرة.

(٧) معنى البيت والأبيات السابقة: إن الشفيع الهمام الفاضل الحبر نجل الملك... شاهد لي عندك بالعهد الصحيح والإخلاص النقي مما يكدره.

مَـشَـيْتَ في عَـذْلـيَ الـبَـرازَ لِـمَنْ

لم يَـرْضَ في الـعُـذْرِ مِـشْـيَـةَ الخَـمَـرِ[1]

وقـلـتَ: مَـطْلُ الـغَـنِيِّ وِرْدٌ مِنَ الـ

ـظـلـمِ يُـلَـقَّى مَلاوِمَ الـصَّـدَرِ[2]

ولـي مَـعـاذيـرُ لـو تَـطَـلَّعُ في

لَـيْلِ سَـرارٍ أغـنـتْ عنِ الـقَـمَـرِ[3]

مـنـهـا اتّـقـائي لأن أكـونَ أنـا الـ

ـجـالبَ، مـا قـلـتُهُ إلى هَـجَـرِ[4]

لـكنْ سَـيَـأتـيكَ مـا يُـجَـوِّزُهُ

سَـرْوُك دَأَبَ الـمُـسـامِحِ الـيَـسَـرِ[5]

فـاكْـتَفِ مـنه بـنـظـرةٍ عَـنَنٍ

لا حَظَّ فـيهِ لِـكَـرَّةِ الـنَّـظَـرِ[6]

****

(١) البراز: الأرض الفضاء الفسيحة الخلية من الشجر. الخمر: ما يواري الصيد من شجر وغيره. والمعنى: لقد وجهت إليّ اللوم صريحًا، وأنا أوضحت عذري لك صريحًا لأنني لا أرضى التستر وراء المعاذير الكاذبة.

(٢) المطل: التسويف، وفي الأثر «مطل الغنيّ ظلم»، الورد: مورد الماء، والصدر: الصدور عنه، الملاوم: جمع ملامة أو ملومة، والمعنى: إنك لمتني لأنك أحسنت بموهبتي الظن وحسبتني مثل الغني المماطل وأنني لهذا جدير بالعتاب على حين أن لي شتى المعاذير.

(٣) المعنى إن لي معاذير جمة في التقصير عن إجابة طلبك، وهي معاذير ظاهرة واضحة لو برزت في الليالي المظلمة آخر الشهر لأضاءت إضاءة القمر.

(٤) من معاذيري الواضحة أنني أخجل أن أقدم إليك بعض ما تمتاز به أنت مثل جالب التمر إلى (هجر) المشتهرة بتمرها الجيد، وفي المثل «كمستبضع التمر إلى هجر».

(٥) السرو: الفضل والسخاء في المروءة، اليسر: السهل.

(٦) نظرة عنن: نظرة عارضة غير فاحصة، أي أرجو أن تكتفي بإلقاء نظرة عارضة على شعري ولا تدقق في نقده فإنه لا

دواء وشفاء

كتب الوزير الكاتب أبو بكر بن القصيرة إلى الشاعر حينما بلغه مرضه وتناوله الدواء:

[مــولاي نــفــسي إلى مُــطــالَــعَــةِ الـ
ــحُـسْـنَى بـعُـقْـبَى الـدَّواءِ مُـطَّـلِـعَهْ
وكـــيـف ذاك الحِسُّ الــذكيُّ، وقـــد
بــاشَـرَ تـلك الـمَـذاقَـةِ الـبَـشِـعَهْ؟[1]
ودِدْتُ لَــوْ أنَّــني خُــصِــصْتُ بمــا اسْـ
ـتَـبْـشَـعْتَ مـنه، وحُـزْتَ مُـنْـتَـفَـعَهْ[2]
أَعْــقَــبَكَ الــلّـهُ من فَــظــاعَــتِهِ
أَسْــوَغَ صُــنْعٍ في مِــثْــلِهِ صــنَــعَهْ
مَـصَـحَّـةً تَـصْـحَبُ الـزَّمـانَ فَـتُـبْـ
ـلِـيه، وتَـبْـقَى جـديـدةً نَـصَـعَهْ[3]
فــأنتَ روحُ الــعَلاءِ نــسَّـأَهُ الــلّـ
ـهُ، وشَــمْلُ الــوَفــاءِ، لا صَــدَعَهْ][4]

فأجابه ابن زيدون:

قــد أحْــسَنَ الــلّـهُ في الــذي صَــنَــعَهْ
عــارِضُ كَــرْبٍ بــلُــطْــفِهِ رَفَــعَهْ

---

(١) معنى البيتين: يا سيدي إنني مترقب في إشفاق لحسن عاقبة هذا الدواء، فكيف يطيق حسك المرهف الرقيق مذاق الدواء الكريه؟

(٢) المعنى: تمنيت أن أحتمل عنك مرارة الدواء، وأن تفوز أنت بعاقبته الطيبة.

(٣) مصحّة: مجلبة للصحة وحافظة لها، ومنه «الصوم مصحة»، والنصع: ثوب شديد البياض، أو جلد أبيض. ومعنى البيتين: أسأل الله أن يعقبك من مرارة الدواء أحسن عاقبة الشفاء، ويمدك بصحة قشيبة تبلي الزمان وتظل جديدة ناصعة البياض.

تَــــبـــــاركَ الـــلّـهُ، إنّ عـــــادةَ حُـــسْـ

ـنــاهُ - مَعَ الـشُّـكْـرِ - غَـيْـرُ مُـنْـتَـزَعَهْ

✡✡✡✡✡

يــا سَـيِّـدي الــمُـسْـتَـبِـدَّ من مِـقَـتِي

بِــخِــطّـــةٍ فــاتتِ الحِــســابَ سَــعَهْ[1]

وافـــانِـيَ الـــعِـــقْــدُ - زِينَ نــــاظِــمُهُ -

والـــوَشْيُ لا راعَ حــــادِثٌ صَـــنَـــعَهْ[2]

بَـــثَـــثْتَ فــيه الــبَـديعَ مُـنْـتَـقَـيًـا

كــالــرَّوضِ إذْ بَثَّ - في الـرُّبـا - قِـطَـعَهْ

أزاحَ كَـــرْبَ الـــدواء مَـــطــلـــعُهُ

لـــمَّــا بــدا طـــالِعُ الــسُّـــرورِ مَـــعَهْ

كم دَعْــوَةٍ - قـــد حَـــواهُ - صـــالحـــةٍ،

مِنْ أمَــلي أن تــكــونَ مُــســتَــمَــعَهْ

جُــمْـلَــةُ مــا نَــفْـسُكَ الـسَّـريّــةُ مِنْ

حـــالي إلى عـــلمِ كُـــنْـــهِهِ طُــلَـــعَهْ

أنَّ الـــدَّواءَ الــتـــذَّتْ عَـــواقِـــبَهُ

مِــــنّيَ نـــفسٌ تَـــبَـــشَّـــعَتْ جُـــرَعَهْ

فــــالحــــمـــــدُ لـــلّـهِ لا شَــــريكَ لـهُ

إنْ بَــدَأَ الــطَّـوْلَ مُــنْـعِـمًـا شَـفَـعَهْ[3]

✱✱✱✱

---

(١) المقة: الحب، الخطة: الأرض التي تنزلها ولم ينزلها أحد قبلك، والمعنى لقد استوليت من قلبي على مكان فسيح غير محدود لم يحتله أحد من قبلك ولك فيه الحكم وحدك.

(٢) رجل صنع اليدين: حاذق، وصنع اللسان: بليغ. المعنى: وافاني شعرك المنضد كالعقد النظيم، أسأل الله أن يجمل ناظمه، وأن يقي من الأحداث صانعه.

(٣) معنى الأبيات الثلاثة: إن ما كانت نفسك تتطلع إلى معرفته وتأمل أن تكون، قد تم على أحسن حال، فقد كانت عاقبة

سخرية الأقدار[1]

قصد ابن زيدون وابن عمّار وابن وهبون إلى متنزه لبني عبّاد خارج إشبيلية ناوين قضاء يومهم في اللهو والطرب والمسرات، وأرسلوا صاحبًا لهم اسمه خليفة لإحضار النبيذ، فلما عاد إليهم خفّوا إلى لقائه، ولكن فارسًا عابرًا صدمه فهشم أعظمه وكسر آنية النبيذ وفر هارباً فتبدد سرورهم، وضاقت صدورهم، فتطارحوا هذه الأبيات:

ابن زيدون:

أَنَلْهو، والحَتوفُ بنا مُطيفَهْ؟
ونأمَنُ والمَنونُ لنا مُخيفَهْ؟

ابن خلدون:

وفي يومٍ، وما أدراكَ يومٌ؟
مضى قُمْعُولُنا، ومَضَى خَليفَهْ[2]

ابن عمار:

هما فَخّارتا راحٍ ورَوْحٍ
تكسَّرتا، فأشْقافٌ وجِيفَهْ

****

(١) لم ترد هذه المحاورة بالديوان، وقد أوردناها نقلاً عن بدائع البدائه ونفح الطيب، وإن كان صاحب فوات الوفيات نسبها إلى المعتمد وابن عمار وابن وهبون.

(٢) القمعول والقمعل: القدح الضخم أو قعب صغير، وفي الأصلين القمعال، وهو تحريف لأن القمعال هو سيد القوم أو رئيس

مجلس رفيع

أمر المعتضد بن عباد أن يكون مجلس ابنه وولي عهده المعتمد مرتفعًا عن مجلس كبير وزرائه ابن زيدون، فكتب المعتمد إليه معتذرًا:

أيُّها المُنْحَطُّ عنّي مَجْلِسًا
وله في القلبِ أعلى مَجْلِسِ[1]
بفؤادي لك حبٌّ يَقْتَضي
أن تُرى تُحْمَلُ فوقَ الأرؤسِ

فأجابه ابن زيدون:

أسَقيطُ الطَّلِّ فوقَ النَّرْجِسِ
أم نسيمُ الرَّوضِ تحتَ الحِنْدِسِ؟[2]
أم نظامٌ لِلآلٍ نَسَقٍ
جامعٍ كلَّ خطيرٍ مُنْفِسِ؟[3]
أم قريضٌ جاءني عن مَلِكٍ
مالكٍ بالبِرِّ رِقَّ الأنْفُسِ؟
دَلَّهَتْ فِكْرِيَ من إبداعه
حَيْرَةٌ في مَنْطِقٍ لي مُخْرِسِ
بتُّ منه بينَ سَهْلٍ مُطْمِعٍ
خادعٍ يُتْلَى بِجَزْءٍ مُوئِسِ[4]

✡✡✡✡✡

(١) في المطرب «وله في النفس».

(٢) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٣) أم هو عقد منظوم يضم لآلئ منسقة أبدع تنسيق من كل غال نفيس.

(٤) الجَزْء: البعض ومثله الجزء، ومعنى البيتين: لقد استبدت بفكري الدهشة من هذا المنطق البليغ الذي أفحمني، وبت أنظر فيه فتروعني سلاسته السهلة التي تطمعني في تقليده، ثم تطالعني منه عبارات جزلة تؤسني من محاكاتها، وهو ينظر في هذا إلى تعريف الكلام البليغ بأنه السهل الممتنع. وفي ب، ت، ز (بث منه...) والمعنى: أن الشاعر بث في ثنايا كلامه

يا نَدَى يُمنَى «أبي القاسمِ» غِمْ

يا سَنا شمس المُحيَّا أَشْمِسِ[1]

يا بهيجَ الخُلُقِ العَذْبِ ابْتَسِمْ

يا مُهيجَ الآنفِ الصَّعْبِ اعْبِسِ[2]

يا جَمالَ الموكبِ الغادي إذا

سار فيه، يا بَهاءَ المَجْلِسِ

أنتَ لم يُقْنِعْكَ أنْ ألْبَسْتَني

نِعْمَةً تُذْكِرُ عَهْدَ السُّنْدُسِ

فَتَلَطَّفَتْ لأنْ حَلَّيْتَني

مُولِيًا طُولَى مُحَلٍّ مُلْبِسِ[3]

ذاك تَنْويهٌ ثَناني فَخْرُهُ

سامِيَ اللَّحْظِ أَشَمَّ المَعْطِسِ

✲✲✲✲✲

شَرَّفَتْ بِكْرَ المعالي خِطْبَةٌ

منكَ، فانْعَمْ بسُرورِ المُعْرِسِ[4]

تُمْنَحُ التَّأيِيدَ يُجْلَى لكَ عَنْ

ظَفَرٍ حُلْوٍ وعِزٍّ أقْعَسِ

وارتَشِفْ مَعْسولَ نَصْرٍ أشنبٍ

تَجْتَنيهِ من عَجاجٍ أَلْعَسِ[5]

---

(١) في النفح «بشر المحيا».

(٢) في ت «الخلق العزم»، والآنف: ذو الأنفة والحمية.

(٣) معنى البيتين: لم تكتف أيها الأمير بما ألبستني من حلل نعماك السابغة حتى حليتني بدرر شعرك الغالية، فأكرم بك من مُحَلٍّ ملبس.

(٤) المعرس: المتزوج (ويظهر أن الأمير فتح حصنًا فهنأه الشاعر به وجعله بمنزلة الحليلة يملك الزوج أمرها، أو لعله تزوج حقيقة فهنأه بالزواج» فاختلاف الروايات في الأبيات الآتية يحتمل المعنيين)، وفي المطرب:

(شَرُفَتْ بكر المعالي خطبة

بك فانعم بسرور المغرس).

(٥) الشنب: بياض الأسنان أو رقتها أو عذوبتها. وفي القلائد (من مُجاح اللعس) المجاج: الريق، اللعس: الشفة تضرب حمرتها

وارتَفِقْ بالسَّعْدِ في دَسْتِ المُنَى

يُصبحُ الصُّنْعُ دِهاقَ الأكؤسِ[(١)]

فاعْتِراضُ الدَّهْرِ في ما شئتَه

مُرْتَقًى في صَدْرِهِ لم يَهْجِسِ[(٢)]

****

(١) الدست: صدر المجلس أو الوسادة، الصنع: المعروف والإحسان [ولعلها الصبغ بمعنى البسر، وكان العرب يتخذون منه الخمر] دهاق الأكؤس: تتابعها أو امتلاؤها، المعنى: اعتل أيها الأمير عرش الآمال يصبح إحسانك متواليًا كما تتوالى الكؤوس أو فائضًا كما تفيض، أو يتسنى الطرب فتفيض الكؤوس من عصير البسر وتتوالى تباعًا.

(٢) المعنى: لا يستطيع الدهر أن يرقى إلى منزلة يعترض فيها مشيئتك، ولم يهجس له هذا الاعتراض في خاطر.

مطل واعتذار

كتب المعتمد بن عباد إلى الشاعر بعد أن فكَّ مُعمّى تلقّاه منه:

[الــــعَــــيْنُ بَــــعْــــدَكَ تَــــقْــــذَى

بــــــــــكـلِّ شـيءٍ تَـــــــــــراهُ

فَـلْــيُــجْلِ شَــخْــصُكَ عــنــهــا

مــــا بـــالمــــغــــيبِ جَـــنــــاهُ]

وأبطأ الشاعر في الرد، فكتب إليه المعتمد:

وَعَــدْتَ وأخْــلَــفْــتَــني المــوعــدا

وخـالـفتَ بـالـمُـنْـتَـهى الـمُـبْـتَـدا

وأطْـمَــعْــتَــني، ثمَّ أيْـأَسْـتَــني

ويَــمْــنَــعُــني الــوُدُّ أن أحْــقِــدا

وأضْعَفْتَ بـالـمَطْلِ حَبْلَ الـرَّجاءِ

فَــرَثَّ، وأعــهَــدُهُ مُــحْــصَــدا[1]

وعــادَ ضِــيــاءُ ارتـقــابي ظلامًــا

وأصــبحَ مِــصْــبــاحُهُ أرمَــدا

وكــان فَــعــالُكَ قــبل الــمَــقــالِ

فــمــاذا عــدا الآن في مــا بَــدا؟[2]

(١) حبل محصد: مفتول فتلا جيداً.

(٢) المعنى: كان فعلك يسبق قولك، فماذا جد حتى تغيرت الأوضاع؟ وهو ينظر في هذا إلى قول الإمام علي بن أبي طالب

وقـــد كـــان ظَـــنِّيَ في مـــا رَأيْتُ

به أنَّهُ الـــشَّيْءُ بلَّ الـــيَـــدا[1]

وكم قـد تــوكَّـفْـتُـهـا روضـةً

تُـــقَـــرِّبُ لي الأمَلَ الأبْـــعَـــدا[2]

يُـــنَـــوِّرُ عِـــلْـــمُكَ أرجـــاءَهـــا

ويَـقْـطُـرُ طَـبْـعُكَ فـيـهـا نَـدَى

تَـوَكَّـفَـهـا زَمَـنًـا نـاظِـري

إذا مَـــرَّ يـــومٌ تَـــمَـــادَى غَـــدا

عـــلى ذاك أفْـــديكَ من مـــاجـــدٍ

تَـشَـبَّثَ بـالـظَّـرْفِ فـيه الـهُـدَى

فَـــحِـــيـــنًـــا أزورُ به روضـــةً

وحِـيـنًـا أُحَـيِّي به مَـسْـجِـدا

☆☆☆☆

لكَ الـعِـلْمُ مَـهْـمَـا أرِدْ بَـحْـرَهُ

لأروَى به أَحْـــمَـــدُ الـــمَـــوردا

وفـيكَ تَـجَـمَّـعَتِ الـمَـأثُـرا

تُ طُـرّاً، فَـصِـرْتَ بـهـا مُـفْـرَدا

شَـمـائلُ تَـنْـثُـرُ شـضمْلَ الـهُـمُو

م، نَـثْـرَكَ بـالـرَّأيِ شَـمْلَ الـعِـدا

فَـمَـتَّـعَـني الـلّهُ بـالحظِّ مـنكَ

ولا زلتَ لي مُـؤْنِـسًـا سَـرْمَـدا

(١) هكذا بالأصل ولعله (النتح بل اليدا) والنتح هو العرق أو خروجه من الجلد، أو لعلها السِّقْي أي الحظ من الشرب، أو الحِسْيُ أي منقع الماء، والمعنى: لقد أوليتني جميلاً أطمعني في الزيادة فاعتقدت أن ما تلقيته منك قطرةٌ سيعقبها المطر الغزير.

(٢) توكفتها: توقعتها.

ودُمتَ ودُمْــنــا عــلى حــالــنــا

كما يَـصْـحَبُ الـفَرْقَدُ الـفَرْقَدا[1]

فـلـولاكَ كـانتْ ربـوعُ الـسُّـرو

ر، منيٍّ تَجَاوَبَ فيـها الـصَّدى]

فأجابه ابن زيدون:

أفـاضَ سَـمـاحُك بَـحْـرَ الـنّـدى

وأقْـبَسَ هَـدْيُكَ نـورَ الـهُـدَى

وَرَدَّ الـشَّـبـابَ اعْـتِلاقـيكَ بـعـدَ

مـفـارقـتي ظِـلَّهُ الأبْـرَدا[2]

ومـا زال رأيُكَ فِيَّ الجَـمـيلُ

يُـفـتِّحُ لي الأمَلَ الـمُـوصَـدا

وحَسْبِيَ من خـالـدِ الـفَخْرِ أنْ

رضـيتَ قَـبـولِيَ مُـسْـتَـعْـبَـدا

ويـا فَـرْطَ بَـأْوِي إذا مـا طَـلَـعَتَ

فَـقُـمْتُ أُقَـبِّلُ تـلـكَ الـيَـدا[3]

ورَدَّدْتُ لَـحْـظِيَ في غُـرَّةٍ

إذا اجـتُـلِـيَتْ شَـفَتِ الأرمـدا

☆☆☆☆☆

وطـاعـةُ أمْـرِكَ فَـرضٌ أرا

هُ من كلّ مُـفْـتَـرَضٍ أوْكَـدَا

(١) في الأصول (ودمت ودمت) ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) اعتلاقيك: اعتلاقي إياك أي حبي لك، ومنه: اعتلق المرأة وتعلقها وتعلق بها: أحبها.

(٣) البأو: الفخر، والمعنى ما أكثر فخري بتقبيل يدك حينما تهل عليّ بطلعتك الوضاءة.

هِيَ الـشَّرْعُ أصبح دِينَ الـضَّمـيـرِ

فـلـو قـد عَـصـاكَ لـقـد أَلْـحَـدا

وحـاشـايَ من أنْ أضِلَّ الـصِّـراطَ

فَـيَـعْـدُوَنِي الـكُـفْـرُ عَـمَّـا بَـدا[1]

وأُخْـلِـفَ مَـوْعِـدَ مَنْ لا أرى

لِـدَهْـرِيَ إلاّ بـه مَـوْعِـدا

✡✡✡✡✡

أتـانـي عِـتـابٌ مـتى أدَّكِـرْ

هُ، في نَـشَـواتِ الـكَـرَى أَسْـهَـدا[2]

وإنْ كـان أعْـقَـبَـهُ مـا اقْـتَـضَى

شِـفـاءَ الـسَّـقـامِ ونَـقْعَ الـصَّدى[3]

ثَـنـاءٌ ثَـنَـى في سَـنـاءِ الـمَـحَـلْـ

ـلِ زُهْـرَ الـكـواكب لِي حُـسَّـدا

قَـريضٌ مـتى أبْغِ لـلـقَـرْضِ مـنهُ

أداءً أجِـدْ شَـأْوَهُ أبْـعَـدا

لـوِ الـشَّـمْسُ من نَـظْـمِهِ حُـلِّـيَّتْ

أو الـبَـدْرُ قـامَ لـه مُـنْـشِـدا

لَـضَـاعَفَ من شَـرَفِ الـنـيِّـرَيْـ

ـنِ، حـظّـاً بـه قـارنَ الأسْـعَـدا

✡✡✡✡✡

فَـدَيْـتُكَ مَـوْلَى: إذا مـا عَـثَـرْتُ

أقـالَ، ومَـهْـمَـا أَزِغْ أرْشَـدا

---

(١) فيعدوني: فيصرفني، بدا: ظهر من صحة إيماني بك واعتقادي فيك.

(٢) ادكره: أتذكره، والمعنى: كلما تذكرت عتابك جلب عليّ الأرق لشدة ألمي وخجلي منه.

رَكَــنْتُ إلى كــرمِ الــصَّــفْحِ مــنهُ

فــأمَّــنَــنِي ذاكَ أنْ يَــحْــقِــدا

وآنَــسْتُ سُــوقَ احْــتِــمــالٍ أَبَى

لِــمُستَبْضِعِ الـعُذْرِ أنْ يَكْسَدا[1]

شَـفـيـعِي إلــيهِ هَـوًى مُـخْـلِصٌ

كما أخلصَ السَّابِكُ العَسْجَدا

وَمِنْ وُصَــلِي هِــجْــرَةٌ لا أعُــدُّ

لِـحالي سِوَى يَوْمِها مَوْلِدا[2]

ونُــعْــمَى تَــفَــيَّــأتُــهــا أيْــكَــةً

فـشُكْري حَـمَامٌ بِــهــا غَـرَّدا

تَــبــارَكَ مَنْ جَــمَّعَ الخَــيْــرَ فــيكَ

وأشْــعَــرَكَ الخُــلُقَ الأمْــجَــدا

مَضاءَ الجَنانِ، وظَرْفَ اللِّسانِ

وجودَ البَنانِ بِسَكْبِ الجَدا

رأى شِيمَتَيْكَ لِمَا تَسْتَحِقُّ

وَقَــفَّى فــأظْــفَــرَ إذْ أيَّــدا[3]

لِــيَــهْــنِكَ أنَّكَ أزْكَى المُــلــوكِ

بِــفَيءٍ وأشْــرَفُــهُمْ سُــؤْدَدا

سِوى ناجلٍ لكَ سامي الـهُـمو

مِ، داني الـفَواضِلِ نائي الـمَدى[4]

---

(١) مستبضع العذر: جالبه، والمعنى وجدت عنده صدرًا رحبًا يأبى أن يرد عذر معتذر.

(٢) المعنى إنني هجرت وطني هجرة وصلتني بك فبدأت بهذه الهجرة عمرًا جديدًا كأنما ولدت يوم تم اتصالي بك.

(٣) من ألقاب أبي القاسم محمد المعتمد على الله: الظافر بحول الله، والمؤيد بالله.

(٤) معنى البيتين: هنيئًا لك ما اتصفت به من طهارة اليد في ما تغنمه من فتوحاتك، وما اتسمت به من الشرف والرفعة، ففقت الملوك جميعًا عدا والدك العظيم البعيد الهمة الجزيل العطايا السامي المطامح.

هُـمـامٍ أغَـرَّ وَجَـدْنـا الـفَـخـارَ
حَـديـثًـا إلى سَـرْوِهِ مُـسْـنَـدا[1]
سَـلَـكْتَ إلى المجـدِ مِـنْـهـاجَهُ
فـقـد طـابَقَ الأَطْـرَفُ الأَتْـلَـدا[2]
هُـوَ الـلَّـيْثُ قَـلَّـدَ مـنكَ الـنِّـجادَ
لـيـومِ الـوَغَى شِـبـلَـهُ الأَنْـجَـدا[3]
يُـعِـدُّكَ صـارِمَ عَـزْمٍ ورأيٍ
فـتُـرضـيهِ جُـرِّدَ أو أُغْـمِـدا[4]
ومـا اسْـتَـبْـهَمَ الـقُـفْلُ في الحـادثا
تِ إلاّ راكَ لـهُ مِـقْـلَـدا[5]
فَـأَمْـطـاكَ مَـنْـكِبَ طَـرْفِ الـنُّـجـومِ
وأَوْطَـأَ إخْـمَـصَـكَ الـفَـرْقَـدا[6]
فلا زلـتـمـا يَـرْفَعُ الأولـيـا
ءَ، مُـلْـكُـكُـمـا ويَـحُطُّ الـعِـدا
ونَـفْـسي لِـنَـفْـسَـيْـكُـمـا الـبَـرَّتَيـ
ـنِ مِنْ كل مـا يُـتَـوَقَّى الـفِـدا
فـمن قـال: «أنْ لـسـتـمـا أوحَـدَيْـ
ـنِ في الـصّـالحـات» فـمـا وَحَّـدا

****

(١) السرو: المروءة والشرف، حديث مسند: متصل بقائله.

(٢) الأطرف: الأحدث، الأتلد: الأقدم، والمعنى طابق مجده التليد مجدك الطريف.

(٣) النجاد: حمائل السيف، الأنجد: الأشجع، والنجد هو الشجاع الماضي في ما يعجز غيره، والشبل: ولد الأسد.

(٤) يستعين برأيك كما يستعين بقوتك فيرى منك ما يرضيه في الحالين.

(٥) المقلد والمقلاد والإقليد: المفتاح، والمعنى أن فيك تفريجًا لكل كرب وحلاً لكل إشكال.

٢ - إهداء واستهداء

«بعث الشاعر إلى خلاّنه بالهدايا، وتقبّل هداياهم، وبادلهم تحية بتحية، وقارضهم ثناء بثناء، في عبارات رقيقة تنبض بالود وتشعّ بالوفاء».

ريق العذارى

أهدى الشاعر صنفًا من العنب اسمه «أطراف العذارى» إلى جده الوزير صاحب الأحكام أبي بكر محمد بن محمد بن إبراهيم، وكتب معه:

أتـاك مـحـيّـيًـا عـنـي اعْـتـبـارًا
عَــذارَى دُونَـهُ ريقُ الــعَــذارى[1]
تَـخـالُ الـشُّـهْـدَ مـنـه مُـسْـتَـمَـدّاً
ونَـفْحَ الـمِـسْكِ مـنه مُـسْـتَـعـارا
يَــرُوقُ الـعــينَ مــنه جـسـمُ مـاءٍ
غـدا ثـوبُ الـهـواءِ لـه شِـعـارا[2]
ولــولا أنَّــنـي قــد نِــلْتُ مــنهُ
- ولـمْ أسْكَرْ - لَـخِـلْتُ بـه عُـقارا[3]
بَـعَـثْتُ بـهِ، ولـو أهْـدَيْتُ نَـفْـسي
إلـيكَ لـكـان من بِـرّي اقْـتِـصـارا
فـأنـعِـم بـالـقَـبـولِ، فـرُبَّ نُـعْـمَى
أعَـدْتَ بـهـا دُجَى لَـيْـلـي نَـهـارا

****

(١) الاعتبار: الاعتداد بالشيء في ترتيب الحكم مثل «والعبرة بالعقب، أي: والاعتداد في التقدم بالعقب». والمعنى قدمت لك هذا الصنف من العنب فتقدم إليك بالتحية نائبًا عني معتزاً بك مقدمًا لك، وهو أعذب من ريق العذارى.

(٢) المعنى: هذا العنب رقيق الجلد شفاف المنظر كأنه قطرات ماء مغلفة بالهواء وقد ورد هذا المعنى في بيت لأبي تمام:

يـخـفي الـزجـاجـة لـونـهـا فـكـأنـهـا
في الــكف قــائـــمــة بــغــيــر إنــاء

(٣) المعنى: مذاق هذا العنب يبعث في النفس نشوة، ولولا أنني لم أسكر منه لحسبته خمرًا.

غذاء ودواء[1]

أهدى الشاعر هدية أخرى إلى جده وكتب معها:

قــد بَــعَــثْــنــاه يــنــفعُ الأعــضــاءَ
حـين يَـجْـلُـو - بـلُـطفِهِ - الـسَّـحْـنـاءَ[2]

جـــاء يُـــزهَى بمُـــسْـــتَـــشَفٍّ رقـــيقٍ
يـــخـــدعُ الـــعـــينَ رِقَّـــةً وصَـــفـــاءَ[3]

تَـــنْـــفُـــذُ الـــعـــينُ مـنهُ في ظَـرْفِ نـــورٍ
مَلأَتْهُ أيـــدي الـــشّـــمـــوسِ ضِـــيـــاءَ

أكْـــسَـــبَـــتْهُ الأيَّـــامُ بَـــرْدَ هـــواءٍ
فَـــهْـــوَ جـسمٌ قـد صِـيغَ نــارًا ومــاءَ

مَـــنْـــظَـــرٌ يُـــبْـــهِجُ الـــقُـــلـــوبَ، وطَـــعْمٌ
تَـشْـكُـرُ الـنَّـفْسُ عَـهْـدَهُ اسْـتِـمـراءَ[4]

لـــذَّةُ الـــوَصْلِ نـــالَهُ - بَـــعْـــدَ يـــأسٍ -
كَـــلِفٌ طـــالمـــا تَـــشَـــكَّى الجَـــفـــاءَ

---

(١) في الأصول المخطوطة «وكتب إليه في مثل ذلك» وربما كانت الهدية صنفًا آخر من العنب.

(٢) السحناء: الهيئة أو اللون أو النعمة أو لين البشرة، والمعنى: هذه الهدية غذاء ودواء فهي تنفع الأعضاء وتصقل البشرة وتزين هيئة الإنسان.

(٣) المعنى جلد هذا العنب رقيق شفاف حتى تظن العين أنه هواء، وقريب من هذا قول الصاحب بن عبّاد:

رقّ الـــزجـــاج وراقت الخـــمـــر
وتـشـابـهـا فـتـشـاكل الأمـرُ

فـــكـــأنمـــا خـــمـــرٌ ولا قـــدحٌ
وكـــأنمـــا قـــدحٌ ولا خـــمـــرُ

(٤) المعنى: منظره يمنح القلوب بهجة، ومذاقه الحلو يهب القلوب لذة، فتهتف بالثناء عليه، وهي لفتة دقيقة من الشاعر أناب فيها القلوب عن العيون، والنفوس عن المذاق.

يَـفْـضَحُ الـشُّـهْـدَ طـعـمُهُ - كـلـّمـا قِـيـ
ـسَ إلـــيهِ - ويُـــخـــجِلُ الــصَّـــهــبــاءَ
فَـضلَ الــسَّـابِقَ الــمُـقَـدَّمَ - في الـنُّـضـ
ـجِ - فَـــــأَزْرَى بــــــطـــــعــــمـهِ إزْراءَ
غَـــيْـــرَ أنّيَ بَـــعَـــثْتُ هـــذا غـــذاءً
- يَــشْــتَــهــيهِ الــفَــتَى - وذاكَ دَواءَ
مُــلْـــطِفٌ يُـــبْــرِدُ الـــمِــزاجَ إذا جـــا
شَ الْـتِـهـابًـا، ويَـقْـمَعُ الـصَّـفْـراءَ[1]
ومُـــعـــينٌ لـــواصِلِ الـصَّــوْمِ، يَـسْـري
بَـردُهُ في الحَـشـا فَـيُـرْوِي الـظَّـمـاءَ[2]
[فَـــتَـــقَـــبّـــلْهُ] شـــافـــعًـــا لأيـــادِيـ
ـكَ، الـتي بَـعْـضُـهـا يـفـوتُ الـثَّـنـاءَ[3]

****

(١) مزاج الجسم: طبيعته واستعداده. جاش: اضطرب، الصفراء: مرض يصيب الكبد فيكسو البشرة لونًا أصفر، والمعنى: إنه يهدئ التهاب المزاج ويشفي حدّة الصفراء.

(٢) الظماء: الظمأ.

(٣) ورد البيت ناقصًا في أوله، فأكملناه بين القوسين بما يناسب المقام.

ذوب المُـــدام

أهدَى الشاعر إلى المعتضد بن عباد هدية من التفّاح وكتب معها:

يــــا مَنْ تَــــزَيَّـــنَتِ الــــرِّيَـــا
سَـــةُ حـــينَ أُلــــبِسَ ثَـــوْبَـــهـــا
ولَهُ يَـــــدٌ يَــــئِسَ الـــــغَــــمـــا
مُ مِنْ انْ يُــعــارِضَ صَــوْبَـــهـــا[1]
جـــاءتْكَ جـــامِـــدَةُ الــــمُــــدا
مِ فَــخُـــذْ عــلــيــهـــا ذَوْبَـــهـــا[2]

****

(١) الصوب: نزول المطر. والمراد به هنا الكرم، ولعل الأوفق من حيث الصياغة أن يصير البيت:
ولـه يــــــد يــــــئس الحـــــيــــــا
من أن يــــعــــارض صــــوبــــهــــا
(٢) المقصود بجامدة المدام: التفاح، وبذوبها: الخمر.

نفحات الراح

أهدَى المعتضد إلى الشاعر هدية من الراح والفاكهة، وبعث معها بأبيات أجاب عنها الشاعر بقوله:

أمَــــوْلايَ بُــــلِّــــغْتَ أقـــصى الأملْ
وسُـــوِّغْتَ دأبًـــا نَـــسَـــاءَ الأجلْ[1]

وعُــمِّـــرْتَ - مـــا شـــئتَ - في دولـــةٍ
تُـــقَـــصِّـــرُ عـــنـــهـــا طِـــوالُ الـــدولْ

فـــأنتَ الـــذي غُـــرُّ أفـــعـــالـه
تَـحَـلَّى بـهـا الـدهـرُ بـعـد الـعَـطَلْ

لَـشَـرَّفَ مَـمْـلـوكَكَ الـمُـسـتـرقْـ
ـقَ نَـظْمٌ منَ الـكَـلِم الـمُـنْـتَـخَلْ[2]

وراحٌ تُــــعـــيـــدُ إلى من أســـنْـ
ـنَ طِـيب زمـان الـصِّـبـا الـمُـقْـتَـبَلْ

أتَتْ مع أمْـرَاءٍ مـا يُـغْـتَـذَى
وأغـرب بـاكـورةٍ تُـنْـتَـفَلْ[3]

فـأخْـجَـلَـني الـبِـرُّ من فَـرْطه
وإنَّ الجـوابَ لـيُـبْـدي الخَـجَلْ

وقـد يَـقْـبَلُ - الـدهـرَ - مَـوْلَى الأنـا
مِ، جُـهْـدَ الـعـبـيـدِ إذا مـا أقَلْ

سَـعِـدْتَ كـمـا سَـعِـدَ الـمُـشْـتَـري
ونِـلْتَ عُلاً لـم يَـنَـلْـهـا زُحَلْ

****

(١) نَساء الأجل: امتداد العمر.

(٢) المنتخل: المفضل المختار.

نعمة سائغة

أجاب الشاعر عن رسالة المعتضد شاكرًا:

هل يَـشْـكُـرَنَّ «أبـو الـولـيـدْ»

إدْنـاءَكَ الأمَلَ الـبَـعـيـدْ[1]

أوْ أنْ تُـسَـوِّغَ نِـعْـمَـةً

لـلـدَّهْـرِ أسْـهَـرَتِ الحَـسـودْ

إن لم يَـدِنْ بـنـصـيـحَـةٍ

تُـرضِـيكَ فَـهْـوَ مِنَ الـيَـهـودْ

لا زلـتَ رافـعَ رايَـةٍ

تُـضـحي الـسُّـعـودُ لـهـا جُـنـودْ

****

(١) أبو الوليد: كنية ابن زيدون.

روح المدام

استهدى الشاعر المعتضد خمرًا فكتب إليه:

يــــا بــــانِــــيًــــا كلَّ مَــــجْــــدِ
وهــــــادمًــــــا كلَّ وَجْـــــــدِ[1]
جِـــــسْمُ الــــسُّـــــرورِ سَــــوِيٌّ
مِنْ صَــوْغِ نُــعْــمــاكَ عــنــدي
فَـــــــــــــهَــبْ لــهُ رُوحَ راحٍ
يَـــنْـــطِقْ بــــأحْـــفَلَ حَــمْــدِ[2]

****

(١) الوجد: الحزن.

(٢) معنى البيتين: لقد تم جسم السرور، واستوى بفضل نعمك السابغة عليّ، فإذا نفخت في هذا الجسم من روح الخمر فإنه

عطر وطهور

دعا المعتضد الشاعر إلى حمّام قصره، وبعث إليه بطيب وبخور فكتب إليه شاكرًا:

رِضـاكَ لـنـا - قَـبْلَ الـطَّـهـورِ - مُـطَـهِّـرُ
وقُـرْبُكَ - من دون الـبَـخـورِ - مُـعَـطِّـرُ
فـلـوْ عَـزَّ حَـمَّـامٌ لأدْفَـأنـا ذَرًا
يَـفِـيضُ به مـاءُ الـنَّـدَى الـمُـتَـفَـجِّـرُ[1]
ولـوْ لمْ يَـكُنْ طِـيبٌ لأغْـنَتْ حَـفـاوَةٌ
تُـمَـسَّكُ مـنـهـا حـالُـنـا وتُـعَـنْـبَـرُ[2]
فلا فـارقَ الـدنـيـا سَـنـاءٌ مُـقَـدَّسٌ
بِـعَـيْـشِكَ فـيـهـا أو ثَـنـاءٌ مُـجَـمَّـرُ[3]
ودُمْتَ مُـلَـقَّى - كلَّ يـومٍ - صَـبـيـحـةً
يُـغـاديكَ فـيـهـا بـالـفُـتُـوحِ مُـبَـشِّـرُ

****

(١) الذرا: كل ما استذريت به فتقول أنا في ذرا فلان، أي في ظله وكنفه وستره.

(٢) في ب، ز «تمسك منه» والمعنى: حفاوة الأمير تغنينا عن كل طيب من مسك وعنبر.

وافدة الشمول

أهدى الشاعر إلى المعتمد هدّية وكتب معها:

دُونَك الــــرّاحَ جـــــامِــــدَهْ
وَفَــــدَتْ خَـــيْــــرَ وافــــدِهْ[1]
وَجَــــدَتْ سُـــوقَ ذَوْبِــــهـــا
- عـــنــد تَــقْــواكَ - كـــاسِـدَه[2]
فـــاسْـتَـــحـــالتْ إلى الجُـــمــو
دِ، وجـــــاءتْ مُــــكـــــايِـــدَه[3]

ثم عدل عن الأبيات السابقة وكتب الأبيات الآتية:

جـــاءتْكَ وافـــدةُ الـــشَّــمُـــولْ
في الـمَـنْـظَـرِ الحَـسَنِ الجَـمـيلْ[4]
لـم تَـــحْظَ ذائـــبَـــةً لَـــدَيْـ
ـكَ، ولـم تَـــنَلْ حَظَّ الــقَـــبـــول
فــتــجـــامَــدَتْ مُــحْــتـالــةً
والمــرءُ يَــعْــجِــزُ لا الحَـــويلْ[5]

(١) في ت «غير وافدة».

(٢) في النفح «عندك اليوم كاسدة».

(٣) في الأصول «الجموم» والتصويب عن النفح.

(٤) الشمول: الخمر. وفي نسخة ت «البهج الجميل».

(٥) الحويل: الحذق وجودة النظر والقدرة على التصرف، والاسم من حاول، والمعنى: المرء عاجز بقدرته وحدها، ولكنه بحيلته وحذقه يستطيع بلوغ أهدافه، ولما رأت الخمر أنها لا تستطيع الحظوة عندك لتقواك وورعك استحالت من السيولة إلى الجمود فصارت تفاحًا، وفي المثل: المرء يعجز لا المحالة أو لا محالة، ومنه قول دؤاد(*) لزوجه:

حاولت حينَ صَرَمْتَني   وَالـمَرءُ يعجزُ لا الـمَحالَه

لولا انقلابُ العينِ سُدْ
دَتْ - دون بُغْيَتِها - السَّبيلْ[1]

لَهَجَرْتَها صفراءَ في
بيضاءَ، هاجرُها قليل

الكأسُ من رأْدِ الضُّحَى
والرَّاحُ من طَفَلِ الأصيل[2]

أثَرْتَ عائِدَةَ التُّقَى
ورَغِبْتَ في الأجْرِ الجَزيل

☆☆☆☆

يأيّها المَلِكُ الذي
ما في المُلوكِ له عَديل

يا ماءَ مُزْنٍ، يا شِها
ب دُجُنَّةٍ، يا لَيْثَ غِيل[3]

يا مَنْ عَجِبْنا أن يَجُو
دَ، بمثلِهِ الزَّمَنُ البَخيل

بُشْراكَ دنيا غَضَّةٌ
في ظِلِّ إقْبالٍ ظَليل

رَقَّتْ كما سالَ العِذا
رُ، بجانبِ الخَدّ الأسيل

وتَأَوَّدَتْ كالغُصنِ قا
بَلَ عِطْفَهُ نَفَسُ القَبُول[4]

---

(١) العين: الذات، والمعنى: لو لا انقلاب طبيعة الخمر من سائلة إلى جامدة لانسدت في وجهها الطرق فلم تصل إليك لورعك وزهدك.

(٢) رأد الضحى ورائدهُ: ارتفاعه، والطَّفَل: احمرار الشمس عند الغروب، الأصيل: الوقت بمد العصر إلى المغرب، والمعنى: زجاج الكأس وضاء شفاف، والخمر حمراء مائلة للصفرة.

(٣) دجنة: ظلام. ليث غيل: أسد غابة.

يُـصْـبِي مُـقَـبَّـلُـهـا الـشَّـهـيـ
ـيُ وَلَـحْـظُـهـا الـسّـادي الـعـلـيل[1]
فَــتَــمَــلَّــهــا في الــعِــزَّةِ الـ
ـقَـعْـسـاءِ والـعُـمُـرِ الـطَّـويل[2]

****

(١) السادي: مأخوذ من سَدِي البُسر أي استرخت تفاريقه، والمعنى: اللحظ المسترخي الفاتر، وفي الأصول «الشاذي» ومعناها المؤذي، ولعل الصواب ما ذكرناه، أو لعله الساجي بمعنى الهادي الوادع.

(٢) تملّها: استمتع بها، القعساء: الثابتة، وفي ت، ز «بالعزة».

٣ - مجالس الشراب

«طوى شاعرنا مع أصدقائه أيَّامًا باسمة، وليالي حالمة، يعاقرون فيها الصهباء، ويسمعون الغناء، بين الزهر والماء، فتجاوبت ألحانه مع الأوتار والعقار، مرتلة أعذب الأشعار».

ضيف كريم

لما وفد الشاعر على إشبيلية نزل بدار صديقه ذي الوزارتين أبي عامر بن مسلمة[١] وهو يبني فيها مجلساً، فصنع هذه الأبيات لتكتب فيه:

عُمِّرَ من يَعْمُرُ ذا المَجْلِسَا
أطْوَلَ عُمْرٍ يُبهِجُ الأنْفُسَا

وبَعْدَ ذا عُوِّضَ عن دارِه
عَدْنًا، ومن ديباجِه السُّنْدُسا

ووُفّيَ الفَوْزَ بها والرِّضا
ووُقِّيَ الأسْواءَ والأَبْؤُسا[٢]

ودامَ عَبَّادُ لعهد الهدى
يَحْرُسُ حتّى يُفْنِيَ الأَحْرُسا[٣]

✲✲✲✲✲

مُعْتَضِدٌ بالله، إحْسانُهُ
جَمٌّ، إذا ما الدهرُ يَوْمًا أَسَا[٤]

المَلِكُ الغَمْرُ النَّدَى، المُقْتَني
من كلِّ حَمْدٍ عِلْقَهُ الأَنْفَسا[٥]

إنْ رامَ يومًا وَصْفَ عَلْيائه
مُفَوَّهٌ مُقْتَدِرٌ أُخْرِسا

لا زال بدرًا طالعًا نيِّرًا
يكشِفُ عن آمالنا الحِنْدِسا[٦]

✲✲✲✲

(١) في الأصول «أبي علي بن جبلة» ولكنها عادت في المقطوعات التالية فكنته بأبي عامر، وقد صححنا الاسم من نفح الطيب.

(٢) في النفح «ولُقِّي النور».

(٣) في النفح «لعضد الهدى» أي لمعونة الهدى. الأحرس: جمع حرس وهو الدهر، والمعنى: عاش عبّاد يحرس الهدى مدى الزمان.

(٤) المعنى: إذا أساء الزمان يومًا فإن إحسان الأمير جم متصل.

(٥) المعنى: الملك الكثير الجود الذي يحرز من كل مجد أنفسه وأغلاه.

حث الكؤوس

طاب للشاعر الشراب في المجلس السابق فأنشد:

أَدِرْهَـا فـقـد حَـسُنَ الـمَـجْـلِسُ
وقـد آنَ أَنْ تُـتْـرَعَ الأَكْـؤُسُ
ولا بـأسَ إنْ كـان وَلَّى الـرَّبـيعُ
إذا لمْ تَـجِـدْ فَـقْـدَهُ الأَنْـفُسُ[1]
فـإنَّ خِلالَ أبـي عـامـرٍ
بـهـا يَـحْـضُـرُ الـوردُ والـنَّرجسُ[2]

****

---

(١) في بعض نسخ النفح «ولا تنس أن أوان الربيع...» وفي بعضها الآخر «ولا نفس إن أوان الربيع...».

دعوة كريمة[1]

دعا الشاعر صديقه أبا عامر بن مسلمة لقضاء ليلة ممتعة:

طـابَتْ لـنـا لَـيْـلَـتُـنـا الخـالِـيَهْ
فـلـتُـنْـسِـنـاهـا هـذهِ الـتَّـالـيهْ[2]

أبـا الـمَـعـالي نـحنُ في راحـةٍ
فـانـقُلْ إلـيـنـا الـقَـدَمَ الـعـالـيهْ[3]

لَـيْـلَـتُـنـا عـاطِـلَـةٌ إنْ تَـغِبْ
عـنّـا، فـزُرنـا كي تُـرى حـالِـيَهْ[4]

أنتَ الـذي لـو تُـشْـتَـرَى سـاعـةٌ
مـنه بـدَهْـرٍ لم تَـكُنْ غـالِـيَهْ[5]

****

(١) وردت هذه المقطوعة مرتين في نفح الطيب، وقد وردت في الموضع الأول مصدرة بهذه العبارة «وكتب إلى الوزير أبي العالي المهلب بن عامر» وفي الموضع الثاني مصدرة بهذه العبارة «وكتب إلى أبي عامر يستدعيه» والمقصود هو أبو عامر بن مسلمة كما ذكرنا سابقًا.

(٢) في بعض نسخ النفح «فلتتبعها هذه الثانية» وفي بعضها الآخر «فَلْتتبعنها».

(٣) في إحدَى روايتي النفح «في راحة» وفي الرواية الثانية «في روضة»، وفي الخريدة «القدم الغالية».

(٤) في النفح «لأنها عاطلة».

(٥) في إحدى روايتي النفح «لو تُشْتَرى» وفي الرواية الثانية «لو نشتري».

بين الرياض

قضى الشاعر فترة صفاء مع المعتضد بن عباد بين المياه الجارية والأزهار العاطرة فرَتّل هذه الأبيات:

يــا أيّـــهــا الـــمَـــلِكُ الجَـــلــيـ
ـلُ، يُــكِلُّ ألْــسِـنَــتَــنــا جَلالُكْ[1]

انْـــظُـــرْ إلى مُـــحْـــتَـــلِّـــنـــا
قـــد زانَ ســـاحَـــتَهُ احْـــتِلالُكْ

نَـــــهْـــرٌ ورَوْضٌ نـــحنُ بـــيْـ
ـنَـــهُـــمــا تُـــؤَلِّـــفُــنـــا ظِلالُكْ

قـــد فـــاضَ في هـــذا نَـــدا
كَ، ونَـــعَّـــمَتْ هـــذا خِلالُكْ

****

(١) يكلُّ: يضعف، والمعنى: إن جلالك يخرس ألسنتنا في الثناء عليك.

٤ – لذة المناجاة

«رق العتاب فأصبح مناجاة، وطابت المناجاة فصارت نسيبًا، ولا عجب!! فالصداقة عند شاعرنا يمتزج فيها الود بالهيام».

خلع العذار

كتب الشاعر هذه القصيدة في معاتبة أو مناجاة صديقه أبي القاسم بن رفق، ولعلها شخصية رمزية يكمن وراءها مصدر حب وإلهام:

عُــذُرِي – إنْ عَـذَلْتَ في خــلع عُــذري –
غُــصُنٌ أثــمــرتْ ذُراهُ بــبــدْرِ[1]

هَـزَّ مـنه الـصِّـبـا فـقـوَّمَ شـطـرًا
وتـجـافَى – عن الـوِشـاحِ – بـشَـطْرِ[2]

رَشَــأٌ أقْــصَــدَ الجَــوانِحَ قَــصْــدًا
عن جُـفونٍ كُـحِلْنَ – عَمْدًا – بسِحْرِ[3]

كُــسِيَ الحُــسْنَ فَــهْــوَ يَــفْـتَنُّ فـيهِ
سـاحـبًـا ذَيْلَ بُـردِهِ الـمُـسْـبَـكِرِّ[4]

تحت ظِلٍّ – مِنَ الـغَـرارةِ – فَـيْـنـا
نَ، ورَوْقٍ من الـشَّـبـيـبَـةِ نَـضْـرِ[5]

أبْــرَزَ الجِــيــدَ في غَلائلَ بــيضٍ
وَجَلا الخَــدَّ في مَــجـاسِـدَ حُـمْـرِ[6]

---

(١) العذُر: العذْر، وهو ما يحتج به الإنسان في الدفاع عن نفسه، خلع عذري: خلع حيائي واستهتاري، وأصله: عذر: جمع عذار بمعنى الحياء يقال خلع فلان عذاره: ترك حياءه واستهتر في تصرفاته كما يخلع الفرس لجامه ويجمح.

(٢) المعنى: أبرز الشباب منه بعض الأعضاء وأضمر بعضها، ومن مقاييس الجمال عند العرب أن يبرز الصدر والردف ويدق الخصر، وفي هذا يقول الشاعر:

أبت الـروادف والـثُّـديُّ لـقـمـصـهـا
مسَّ الـبـطـون وأن تـمسَّ ظـهـورا

(٣) أقصد: أصاب المقتل.

(٤) المسبكر: المسترسل الممتد.

(٥) الغرارة: قلة الخبرة، الروق: الفسطاط، وروق الشباب أوله، والمعنى: إنها تعيش في سذاجة حلوة محببة، وتخطر في شبيبة ناضرة.

وتَـثَـنَّتْ بـعِـطـفِهِ - إذْ تَـهَـادَى -

خَـطْـرَةٌ تـمـزجُ الـدَّلالَ بـكِـبْـرِ

✲✲✲✲✲

زارني بَـعْـدَ هَـجْـعَـةٍ، والـثُّـرَيّـا

راحَـةٌ تَـقْـدِرُ الـظَّلامُ بـشِـبْـرِ[1]

والـدُّجَى من نجـومه في عُـقـودٍ

يـتـلألأنَ مـن سِـمـاكٍ ونَـسْـرِ

تَـحْـسَبُ الأفْقَ بـيـنَـهـا لا زَوَرْدًا

نُـثِـرَتْ - فـوقَهُ - دنـانـيـرُ تِـبْـرِ[2]

فـرشـفتُ الـرُّضـابَ أعْـذَبَ رَشْفٍ

وهَـصَـرْتُ الـقَـضـيَبَ ألْـطَفَ هَـصْـرِ[3]

ونَـعِـمْـنـا بـلفِّ جِـسمٍ بـجـسمٍ

لـلـتَّـصـافي، وقَـرْعِ ثَـغْـرٍ بـثَـغْـرِ

يـالَـهـا لـيـلـةً تجَـلَّى دُجـاهـا

- من سَنـا وجْـنَـتَـيْهِ - عن ضـوءِ فَـجْـرِ

قَـصَّـرَ الـوصْلُ عُـمْـرَهـا، وبـودّي

أن يـطـولَ الـقصـيـرُ مـنـهـا بـعُـمْـري[4]

✲✲✲✲✲

مَنْ عَـذيـري من رَيْبِ دهـرٍ خـؤونٍ؟

- كلَّ يـومٍ - أُراعُ مـنـهُ بـغَـدْرِ[5]

---

(١) راحة: كف، تقدر: تقيس.

(٢) تظن الأفق بساطًا أزرق نثرت فوقه دنانير ذهبية.

(٣) الرضاب: الريق، هصر: جذب أو أمال، القضيب: المقصود به القدّ المشوق.

(٤) المعنى: إن الوصل جعل ليلتي قصيرة، وإنني لأتمنى أن أطيلها بشطر من عمري.

كــلّــمــا قــلــتُ: «حـــاكَ فـــيهِ مَلامي»
نَــهَــسَــتْــني مــنه عَــقــارِبُ تَــسْــري[1]

وتَـــرَتْـــنِي خُـــطـــوبُهُ في صَـــفيٍّ
فــاضلٍ نـــابهٍ - مِنَ الــدهــر - وِتْـــرِ[2]

بـــانَ عـــنّي - وكـــان روضــةَ عــيــني
فــغــدا الــيــومَ وَهْــوَ روضــةُ فــكــري[3]

فَـــكِهٌ يُـــبـــهجُ الخـــلـــيلَ بـــوجهٍ
تَــرِدُ الــعــينُ مــنه يَــنْــبــوعَ بِــشْــرِ

لَــوذعَيٌّ - إن يَــبْــلُهُ الخُــبْــرُ يــومًــا -
أخْـــجَلَ الـــوَرْدَ عن خِلائِقَ زُهْـــرِ[4]

وإذا غـــازلَـــتْهُ مُـــقْـــلَـــةُ طَـــرفٍ
كــاد - من رقّــةٍ يــذوبُ - فَــيَــجْــري[5]

☆☆☆☆☆

يــا «أبــا الــقــاسمِ» الــذي كــان رِدْئي
وظَــهــيــري - عــلــى الــزَّمــانِ - وذُخْــري[6]

يـــا أحقَّ الـــوَرَى بمَـــمْـــحـــوضِ إخلا
صي، وأوْلاهُمُ بـــغـــايَـــةِ شُـــكـــري[7]

طــرقَ الــدهــرُ ســاحَــتي من تــنــائــيـ
ـكَ بِـــجَـــهْمٍ مِنَ الحَـــوادِثِ نُـــكْـــرِ

☆☆☆☆☆

---

(١) حاك القول في القلب: أخذ، وحاك السيف: أثر، والشفرة، قطعت، نهس: عض، أو أخذ الشيء بمقدم أسنانه.

(٢) وترتني: ظلمتني وأصابتني بما يستدعي الثأر، وتر: مفرد لا نظير له.

(٣) بان عني: فارقني، والمعنى: كان ماثلاً أمام عيني، فأصبح ماثلاً في خواطري.

(٤) لوذعي: ظريف أو شجاع، والمعنى: إنه نابه شجاع إذا جربته تكشفت طباعه عن شمائل رقيقة تخجل الورود.

(٥) المعنى: يكاد يسيل رقة وعذوبة إذا غازلته العيون. وفي نسخ ب، ت، ز «فإذا غازلته مقلة طرفي».

(٦) الردء: العون، الظهير: المساعد والمعين، وفي ت «كان ردفي».

لـيت شِـعْـري! والـنَّـفْسُ تـعـلـمُ أنْ لـيْـ

ـسَ بمُـجْـدٍ عـلـى الـفَـتَى: «لـيت شِـعْري»[(١)]

هلْ لِــحَــالِي زمــانِــنــا من رُجــوعٍ؟

أم لمــاضي زمــانِــنــا من مَــكَــرِّ؟[(٢)]

*****

أينَ أيَّــامُــنــا؟ وأينَ لــيــالٍ

كــريــاضٍ لَــبِــسْنَ أفْــوافَ زَهْــرِ؟

وزمــانٌ كــأنَّــمــا دَبَّ فــيــهِ

وَسَنٌ، أو هَــفَــا بهِ فَــرْطُ سُــكْــرِ[(٣)]؟

حــيــنَ نَــغْــدُو إلى جَــداولَ زُرقٍ

يَـتَـغَـلْـغَـلْنَ في حـدائقَ خُـضْـرِ[(٤)]

في هِـضـابٍ مَـجْـلُـوَّةِ الحُـسْنِ حُـمْـرٍ

وبَـراثٍ مـصـقـولَـةِ الـنَّـبْتِ عُـفْـرِ[(٥)]

نَـتَـعَـاطى الـشَّـمـولَ مُـذْهَـبَـةَ الـسِّرْ

بـالِ، والجَـوُّ في مَـطـارِفَ غُـبْـرِ[(٦)]

---

(١) ليت شعري: ليتني أعلم، ومثله قول ابن الرومي:

يـا لـيت شـعـري، ولـيت غـيـر مـجـديـة
إلا اسـتـراحـة قـلب وهـو أسـوان

لأي أمـر مـراد بـالـفـتى جـمـعت
تـلك الـفـنـون فـضـمـتـهن أفـنـان؟

(٢) مكَّر: رجوع، والمعنى: هل تعود أيامنا الحلوة؟ وهل ترجع ليالينا السالفة؟

(٣) وسن: نوم، هفا: مال.

(٤) في ب، ت، ز «غلائل زرق».

(٥) براث: جمع برث وهي الأرض السهلة اللينة من غير بلل، أو أسهل الأرض وأحسنها، وفي الأساس: حبذا تلك البراث الحمر والدماث العفر: أي الأراضي السهلة الحمر والبقاع ذات الرمال البيض، عفر: مائلات للبياض، وفي أصول الديوان (بداة مصقولة) والبداة هي البادية، ولا يتفق معناها مع البيت السابق، ولعل الصواب ما أثبتناه، وقد تكون (غداة) وهي الأرض الطيبة التربة، الكريمة النبت، البعيدة عن الوباء.

(٦) المطارف: أردية من خز مربعة لها أعلام، والمعنى: نتعاطى الخمر المذهبة في اليوم المطير.

في فُـتُـوٍّ تَـوَشَّـحـوا بـالمـعـالي
وتـردَّوْا بـكلِّ مـجـدٍ وفَـخْـرِ[1]

وُضَّحٍ تَـنْـجَـلي الـغَـيـاهِبُ مـنـهمْ
عن وجـوهٍ - مـثلِ المـصـابـيحِ - غُـرِّ[2]

كلُّ خِـرْقٍ يـكـادُ يَـنْـهَلُّ ظَـرْفًـا
زانَ مِـرآتَـهُ بـأكـرَمِ خُـبْـرِ[3]

[ذي سـمِـاتٍ تَـشِفُّ عن] مَـحْضِ خـالٍ
نَـفَحَ المـسكَ عَـرْفُـهـا طِـيبَ نَـشْـرِ[4]

وسَـجَـايـا كـأنَّـهُنَ كـؤوسٌ
أو ريـاضٌ قـد جـادَهـا صَـوْبُ قَـطْـرِ[5]

يَـتَـلَـقَّى الـقَـبـولَ مـنّي قَـبـولٌ
كـلّـمـا راحَ نَـفْـحُـهـا ارْتـاحَ صَـدْري[6]

فَـهْـوَ يَـسْـري مُـحَـمَّلاً - من سَـجـايـا
كَ - نَـسـيـمًـا يُـزْهَـى بـأفْـوَحِ عِـطْـرِ[7]

✲✲✲✲✲

يـا خَـلـيـلي، وواحِـدي، والـمُـعَـلَّى
من قِـداحي، والـمُـسْـتَـبِـدَّ بِـبِـرّي[8]

لا يَـضِـعْ وُدِّيَ الـصَّـريحُ الـذي أرْ
ضـاكَ مـنه اسـتـواءُ سِـرّي وجَـهْـري

(١) فتوّ: فتيان. والمعنى: نلهو مع فتيان يرتدون أثواب العلا والمجد والفخار.

(٢) المعنى: هم فتيان مشرقو الوجوه، لا تنال منهم الأحداث بل تتكشف عن شبان متهللي الأسارير مثل المصابيح.

(٣) خرق: سخي ظريف، أو حسن الوجه كريم الخليقة، ينهلّ: يسيل، مرآته: منظره الجميل، وفي ب، ت، ز «مرأى به».

(٤) المحض: الخالص، الخال: الرجل الذي يتوسم فيه الخير، والمعنى: إنه يتسم بملامح تشف عن شمائل طيبة يستعير المسك منها رائحته الذكية، وقد ورد البيت ناقصًا بأصول الديوان، فأكملناه بما يناسب المقام بين القوسين.

(٥) في ب. ت. ز «طيب قطر».

(٦) القبول: ريح الصبا، قبول: موافقة، راح نفحها: طاب ريحها.

(٧) في ب. ت. ز «يزهو...»، ومعنى البيتين: إنني أتلقى ريح القبول ببشر وارتياح، لأنها تهب من جهتك حاملة نفحاتك الطيبات.

وتَـــوالي أَذِمَّـــةٍ نَــظَــمَــتْــنــا
نَـظْمَ عِـقْـدِ الجُـمـانِ في نَـحْـرِ بِـكْـرِ[1]
لا يَـــكُنْ قَـــصْـــرُكَ الجَـــفـــاءَ، فــإن الـ
ـودَّ - إن سـاعَـدَتْ حـيـاتِيَ - قَـصْرِي[2]
وأَعِــــدْ - بـــالجَـــواب - دولـــةَ أُنسٍ
قـــد تَـــقَـــضَّتْ إلا عُلالـــةَ ذِكْـــرِ[3]
واكْسُ مَـتْنَ الـقِـرطـاس ديـبـاجَ لـفظٍ
يـــبـــهَـــرُ الـــفـكْـــرَ من نَـظـيمٍ ونَــثْــرِ
غُـــرَرٌ من بـــدائعٍ لا يَـــشُكُّ الـــدْ
ـــدَهْـــرُ في أنَّـــهـــا قَلائِـــدُ دُرِّ
تَـــتَـــوالى عـــلـى الـــنـفـوس دِراكًـا
عن فـتًـى مُـوسِـرٍ من الـطَّـبْعِ مُـثْـرِي[4]
شَـــدَّ في حَـــلْـــبَـــةِ الـــبلاغـــةِ حـــتَّى
بـانَ فـيـهـا عن شَأْوِ «سَـهْلٍ» و«عَـمْرو»[5]
وإذا أنتَ لـم تُـــعـــجِّلْ جَـــوابي
كـان هـذا الـكـتـابُ بَـيْـضَـةَ عُـقْـرِ[6]
فـابْقَ في ذِمَّـةِ الـسَّلامَـةِ مـا انْـجـا
بَ، عنِ الأُفْقِ عـــارضٌ مُـــتَـــسَـــرِّي[7]
وعـــلـــيـكَ الـــسّلامَ مـــا غَـــنَّت الـــوُرْ
قُ ومـــالَتْ بـــهـــا ذَوائِبُ سِـــدْرِ[8]

****

(١) أذمة: حقوق وحرمات، وفي ت «أزمة».

(٢) قصرك وقصاراك: غاية جهدك، والمعنى: لا تحرص على جفائي فإنني حريص على مودتك.

(٣) علالة ذكر: ذكريات يتعزى بها.

(٤) دراكًا: متوالية متتابعة، موسر من الطبع: ذو موهبة خصيبة غنية.

(٥) سهل بن هارون: من أشهر كتاب الدولة العباسية. وكان الجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته ويروي عنه، وقد ضاعت آثاره ولم يبق منها إلا بعض آثار رواها الجاحظ في كتبه، وأوسعها رسالة في تفضيل البخل والاحتجاج له وقد رواها الجاحظ في كتابه البخلاء. وعمرو: هو عمرو بن بحر الجاحظ شيخ كتاب العربية، وما بقي من آثاره يغني عن التنويه.

(٦) بيضة عقر: آخر بيضة للدجاجة، أو بيضة الديك، يزعمون أنه يبيضها في السنة مرة، والمراد إن أنت لم تعجل بالردّ على كتابي كانت هذه القصيدة آخر رسالة مني إليك.

(٧) عارض: سحاب، متسر: ملقح الأرض بمطره مأخوذ من تسرّى الرجل الجارية: عاشرها.

الذكرى الباقية[1]

كتب الشاعر الأبيات الآتية على لسان المعتضد بن عباد في الشوق إلى صهره أبي الجيش الموفق مجاهد بن عبدالله العامري أمير دانية[2]:

عـرفتُ عَـرْفَ الـصِّـبـا إذ هَبَّ عـاطـرُهُ
من أفْقِ مَنْ أنـا في قـلـبي أُشـاطـرُهُ[3]

أرادَ تَـجْـديـدَ ذِكْـراهُ عـلـى شَـحَطٍ
ومـا تَـيَـقَّنَ أنّي الـدَّهْـرَ ذاكِـرُهُ[4]

يَـنْـأَى الـمَـزارُ بهِ، والـدّارُ «دانـيـةٌ»
يـا حـبّذا الـفَأْلُ لـو صَـحَّتْ زَواجِرُهُ!![5]

☼☼☼☼☼

ذُخْرِي أبا الجَيْشِ هلْ يَقْضِي اللقاءُ لنا
فَـيَـشْـتَـفي مـنكَ طـرفٌ أنت نـاظـرُهُ؟[6]

قُـصـارُهُ قـيـصـرٌ إن قـام مـفـتـخـراً
لـلّـهِ أوّلُـهُ مَـجْـدًا وآخِـرُهُ[7]

****

(١) لم ترد هذه المقطوعة بالديوان، وإنما وردت بذيله منسوبة إلى المعتضد بن عباد، وقد نسبها صاحب القلائد إلى الشاعر، كما نسبتها الذخيرة في موضع إلى الشاعر أيضًا وفي موضع آخر إلى المعتضد، ونسبها صاحب المطرب إلى المعتضد، ونرجح أنها كانت ضمن رسالة كتبها الشاعر على لسان المعتضد إلى صهره. ومن المناصب التي تولاها أخيرًا الكتابة للمعتضد في هجرته الثانية إليه.

(٢) دانية: مدينة بشرقي الأندلس على البحر الأبيض المتوسط، وهي حاضرة إمارة أبي الجيش الموفق مجاهد العامري، وتحيط بها البساتين ويجود بها التين والكروم، وبها مصانع لبناء السفن «ترسانة» وكان الأسطول الإسلامي يخرج منها لغزو شواطئ فرنسا وإيطاليا وجزر البحر الأبيض، وكانت فرضة تجارية هامة في أوقات السلام، ودانية: تقع إلى الشرق من إشبيلية.

(٣) العرف: الرائحة الذكية، أو الرائحة مطلقًا، الصبا: ريح عليلة تهبّ من الشرق.

(٤) في القلائد «أرى تجدد ذكراه»، على شحط: على بعد.

(٥) المعنى: بعد عهدي بزيارته مع دنو داره، وأرجو أن يتحقق الفأل الحسن بوجوده في دانية، وفي «دانية» تورية بديعة فهي علم للمدينة، وتأتي بمعنى قريبة. وفي الذخيرة «نأى المزار..»، وفي المطرب «شط المزار».

(٦) في الذخيرة والطرب والقلائد «خليٍّ أبا الجيش...» وفي بعض نسخ الذخيرة «فيشتفي منك قلب أنت هاجره».

الوصف

«أحبّ الشاعر الطبيعة ممتزجة بذكريات هواه، كما شغف بحبيبته بين مجالي الطبيعة الباسمة، فامتزج الوصف عنده بالنسيب، ولهذا أوردنا باقة يانعة من شعره الوصفي في فن النسيب، ونورد هنا باقة أخرى خالصة للوصف وحده، وإن كانت وثيقة الصلة بفن المديح».

تمثال رائع

أباح المعتضد للشاعر النزهة مع بعض نسائه في إحدى حدائقه، فوقع نظر الشاعر على حمّام رخامي مفعم بالماء الحار، وإلى جانبه تمثال مصقول لغادة هيفاء، فراعه المنظر، فصاغ فيه هذه القصيدة:

غَـمَـرَتْـنـي لكَ الأيـادي الـبـيضُ:
نَـشَبٌ وافـرٌ، وجـاهٌ عـريضُ[١]

كلَّ يـوم يـجِـدُّ مـنكَ اهْـتِـبـالٌ
عَـهْـدُ شـكـري عـلـيه غَضٌّ غَـريضُ[٢]

بَـوَّأتْـنِـي نُـعْـمـاكَ جَـنَّـةَ عَـدْنٍ
جـالَ في وَصْـفِـهـا فَـضَلَّ الـقـريضُ[٣]

مُـجـتَـنًى مُـدَّنٍ، وظِلٌّ بَـرُودٌ،
ونـسـيمٌ - يـشـفي الـنـفوسَ - مـريضُ[٤]

ومـيـاهٌ قـد أخـجلَ الـوردَ أنْ عـا
رَضَ، تَـذْهِـيـبَهُ لـهـا تَـفْـضـيضُ

كـلّـمـا غَـنَّتِ الحَـمـائمُ قـلـنـا:
«مَـعْـبَـدٌ - إذْ شَـدا - أجـابَ الـغَـريضُ»[٥]

---

(١) الأيادي: الإنعام والإحسان. النشب: المال.

(٢) اهتبال: اغتنام، وفي الحديث «من اهتبل جوعة مؤمن كان له كيت وكيت» أي من تحيّنها واغتنمها كان له أجر عظيم، والمعنى يتكرر إنعامك عليَّ كل يوم، فيتجدد شكري بتجدد النعم.

(٣) المعنى: أدخلتني جنة عدن فأردت شكرك فعجز القريض عن أن يفيك حقك من الثناء. وفي ت، ز «فضل العريض».

(٤) مجتنى مدن: ثمر غض قريب المتناول، برود: رطب طيب.

جـــاورتْ حَــمَّـــةً مُــشَــيّــدَةَ المــبْـ

ــنَى لــبـرق الــرُّخــامِ فــيه وَمِــيضُ[1]

مَـــرْمَـــرٌ أوْقَـــدَ الـــفِــرِنْــدَ عـــلـــيهِ

سَــلْــسَلٌ بــحـــرُهُ الــزُّلالُ يَـــفــيضُ[2]

وسْــطَـــهـــا دُمــيَـــةٌ يــروقُ اجْــتِلاءُ الـ

ـكلِّ مـنـهـا ويَـفْـتِنُ الـتَّـبْـعـيضُ[3]

بَـــشَـــرٌ نـــاصِعٌ، وخَـــدٌّ أســـيلٌ

ومُـحَـيًّـا طَـلْقٌ، وطـرفٌ غَـضـيضُ[4]

وقَــوامٌ كـمــا اسْــتَـقــامَ قـضـيبُ الـ

ـــبــــان إذ عَـــلَّــهُ ثَـــراهُ الأَريضُ[5]

وابْــتِـســامٌ لــو أنَّــهـا اسْـتَـغْـرَبَتْ فـيـ

ـهِ، أراكَ اتِّـــســـــاقَهُ الإغـــــريضُ[6]

والْــتِــفـــاتٌ كـــأنّـــمـــا هُـــوَ بـــالـ

إيــحــاءِ - من فَـرْطِ لُـطْـفِهِ - تَـعْـريضُ[7]

✲✲✲

لُـــمَعُ طَـــلَّـــةٌ مِنَ الــعَـــيْشِ مـــا إنْ

لــلــهَـوَى عن مَـحـلِّـهـا تَـقْـويضُ[8]

---

(١) الحمة: العين الحارة الماء يستشفي بها المرضى.

(٢) الفرند: صفحة السيف أو وشيه أو جوهره، أو الورد الأحمر، أو حب الرمان، والمعنى: إن هذا الحوض مصنوع من المرمر المصقول ينصب عليه إناء الزلال فينعكس له بريق ولألاء مثل لمعان الحسام.

(٣) وسط هذه البركة يقوم تمثال رائع فتان في جملته وفي تفصيلاته.

(٤) بشرة ناصعة البياض وخد أملس ناعم ووجه طلق بسام وعين فاترة متكسرة.

(٥) وقوام معتدل اعتدال غصن أنبتته تربة طيبة زكته وسقته مرارًا حتى استوى واستقام.

(٦) استغرب «بالبناء للمعلوم أو المجهول» بالغ في الضحك، الإغريض: الطلع أو كل أبيض طري، والمعنى: تفترّ عن ابتسامة لو بالغت فيها لتكشف ثغرها عن أسنان لؤلؤية متسقة بيضاء كالطلع.

(٧) لها لفتات رقيقة توحي إلى النفس بمعان لطيفة كأنها تعرّض بأمور لا تستطيع التصريح بها.

(٨) اللمع: جمع لمعة، وهي القليل من الطعام، أو بريق لون الجسد، تقويض: هدم وارتحال. والمعنى: لمحات ندية طيبة ظفرت بها تحت ظلاله مقرونة دائمًا بنفحات الهوى ولذات الهيام.

سَـوَّغَـتْـني نَـعـيـمَـهـا نَـفَـحـاتٌ
لـلـمُـنَى - من سـحـابـهـا - تَـرْويضُ[1]

تـابَـعَـتْـهـا يَـدُ الـهُـمـام أبي عَـمْـ
ـرو فـمـا غَـمْـرُهـا لَـدَيَّ مَـغـيـضُ[2]

مَـلِكٌ ذادَ عن حِـمَى الـدِّين مـنهُ
مَنْ إلـيهِ في نَـصْـرهِ الـتَّـفـويضُ[3]

وسَـمَـا نـاظِـرٌ من المجـدِ في دنـ
ـيـاه، قـد كـان كَـفَّهُ الـتَّـغـمـيضُ[4]

إنْ أسـاءَ الـزّمـانُ أحْـسَنَ دأبًـا
مـثـلَـمـا بـاينَ الـنَّـقـيضَ الـنَّـقـيضُ[5]

✲✲✲✲✲

يـا مُـعـزَّ الـهُـدَى الـذي مـا لِـمَـسعـا
هُ، إلى غـيـر سَـمْـتِـهِ تَـغْـريضُ[6]

يـا مُـحِـلِّي يَـفـاعَ حـالٍ، مـكـانُ الـنْـ
ـنَجْمِ - مَـهْـمـا يُـقَسْ إلـيهِ - حَـضـيضُ[7]

إنْ أنَلْ أيْـسَـرَ الـرَّغـائب فِـيـهِ
يَـرْضَ فَـوْزَ الـقِـداحِ مـنِّي مُـفـيضُ[8]

---

(١) ترويض: من روَّض المطر الأرض جعلها كالروض، والمعنى: نفحتني بهذه النعم يد الأمير، فازدهرت آمالي وأينعت من فيض سحابها المطير.

(٢) في ت «لديه»، والمعنى: تابعت يد الأمير هذه النعم عليَّ، وسيظل إنعامها متواصلاً لا نقص فيه.

(٣) المعنى: فوض الله إليه نصرة دينه فدافع عن حماه.

(٤) المعنى: استيقظ المجد على يديه، وتفتح ناظره بعد أن اغتمض طويلاً.

(٥) «كلما أساء الزمان بادر بالإحسان، كما يفعل المتناقضان».

(٦) السمت: الطريق أو السير عليه أو الاتجاه إلى الشيء. التغريض: أخذ الشيء أو اجتناؤه طريّاً، والمعنى: يا ناصر الدين الذي قصر مسعاه على الاتجاه إلى إعلاء شأنه.

(٧) اليفاع: ما ارتفع من الأرض، والمعنى: يا من سموت بحالي إلى مكان رفيع ينحط النجم إلى الخفيض إذا قيس به.

(٨) أفاض القداح: ضرب بها، والمعنى: إنك رفعتني إلى مكان إذا ظفرت بأقل متعة منه كانت غاية الرضى، مثلما يسعد الحظ ناثر قداح الميسر فيظفر منها بنصيب موفور.

لـو يَـفـاعُ الـمَـجَـرّةِ اعْـتَـضْتُ مـنهُ

راحَ يـدعـو ثُـبـورَهُ الـمُـسْـتَـعـيضُ[1]

حظُّ سِنِّ امْـرىءٍ نـأى مـنكَ قَـرْعٌ

وقُـصَـارَى بَـنـانهِ تَـعْـضـيضُ[2]

☆☆☆☆☆

حَـسْـبِيَ الـنُّـصْحُ والـوِدادُ وشُـكْـرٌ

عَـطَّـر الـدَّهْـرَ مـنه مِـسْكٌ فَـضـيضُ

دُمْ مُـوَقّىً، وَلِـيُّكَ الـدهـرُ، مَـجْـبـو

رٌ، مَـسـاعـيكَ، والـعـدوُّ مَـهـيضُ[3]

فـاعـتـرافُ المـلـوكِ أنَّكَ مَـوْلا

هُمْ حـديثٌ مـا بـيـنـهمْ مُـسْـتَـفـيضُ

****

---

(١) لم يرد هذا البيت في نسخة ت، والمعنى لو اعتضت من هذا المكان أعلى مكان في المجرة لكنت خاسرًا، فإن المكان الذي أحلني به لا يدانيه مكان.

(٢) كل امرئ بعد عنك سيقرع سنه ويعض بنانه على ما فاته منك من آمال.

(٣) جمل دعائية: دمت محفوظًا، والدهر ناصرك، ومساعيك محققة، وعدوك مكسور الجناح.

وصيفة وكأس

أنـــا ظَــرْفٌ لِـــلَـــهْـــوِ كُلِّ ظَــريفِ
أنـــا مُــسْـتَــودَعٌ لــعِــلْقٍ شَــريفِ[1]

أنـا كـالـصّـدر في الإحـاطَــةِ بـالـرَّا
ح، إذِ الـرَّاحُ كـالـضَّـمـيـر الـلَّـطـيفِ[2]

سَلْ عنِ الــطَّــيِّــبــاتِ فَــهْيَ فُــنـونٌ
أُلِّــفَتْ فِيَّ أحْـــسَنِ الـــتَّــألـــيفِ

أيُّ حُـسْنٍ يَـفِي بـحُـسْـنِيَ مَـحْـمو
لاً، بـكَـفَّيْ وصــيــفــةٍ أو وصــيفِ؟[3]

****

(١) الحديث على لسان الكأس، والمعنى: أنا وعاء جامع للهو الظرفاء، ومستودع حاوٍ لكل غالٍ ثمين.

(٢) المعنى: أنا مثل الصدر، والخمر في داخلي كالروح الخفي الرقيق.

(٣) في ز «يقي بحسنك».

لهو وشفاء[1]

أهدى الشاعر إلى صديقه الأمير أبي الوليد بن جهور هدية تفاح، وكتب معها هذه القصيدة التي زاوجت بين الأوصاف الحسية والمعنوية، وأبرزت المؤثرات الجمالية في جميع الحواس الإنسانية:

أتَتْكَ بلونِ الحبيبِ الخَجِلْ
تُخالطُ لونَ المُحِبِّ الوَجِلْ[2]
ثِمارٌ تَضَمَّنَ إدراكَها
هواءٌ أحاطَ بها مُعْتَدِلْ[3]
تَأتَّى لإلْطافِ تدريجِها
فَمِنْ حَرِّ شمسٍ إلى بَردِ ظِلْ[4]
إلى أنْ تناهَتْ شِفاءَ العليلِ
وأنسَ المَشوقِ ولَهْوَ الغَزِلْ[5]
فلو تجمُدُ الراحُ لم تَعْدُها
وإن هِيَ ذابتْ فخمرٌ تَحِلْ[6]
لها منظرٌ حسنٌ في العيونِ
كدنياكَ لكنَّهُ مُنْتَقِلْ[7]

(١) كان موضع هذه القصيدة جديرًا بأن يكون مع طاقة «إهداء واستهداء» من باب الإخوانيات، ولكن ما فيها من وصف رائع جعلها أجدر بهذا المكان.

(٢) اجتمعت في هذا التفاح الحمرة بالصفرة، فحمرتها مثل خد الحبيب إذا ضرّجه الحياء، وصفرتها مثل لون المحب إذا برح به الوجد واستبد به الخوف.

(٣) أنضج الهواء المعتدل هذه الثمار فجاءت غضة الجنى عذبة المذاق.

(٤) تأتَّى: ترفق وتهيأ، والمعنى إن الهواء حنا عليها وتعهّدها في درجات نموها بعناية ورفق، فأمدَّها حينًا بحرارة الشمس وحينًا ببرد الظل.

(٥) مازال الجو المناسب يتعهدها بحنوه حتى نضجت واستوت، فأصبحت شفاء للمريض، وبهجة للمشتاق، ولهوًا للمحب الغزل.

(٦) إذا تجمدت الخمر فهي التفاح، وإذا ذاب التفاح كان خمرًا، ولكنها حلال.

(٧) منظر هذا التفاح جميل يشبه منظر دنياك الرائعة، ولكنه زائل وهي باقية.

وطَـــــعْمٌ يَـــــلَـــــذُّ لمن ذاقَهُ

كـــلـــذَّةِ ذكـــراكَ لـــوْ لمْ يُـــمَلْ[1]

وريّـــا إذا نَـــفَـــحَتْ خِـــلْـــتُـــهـــا

تُـــمِلُّ ثـــنـــاءَكَ أو تَـــسْـــتَـــهِلْ[2]

يُـــمَـــثِّلُ مَـــلْـــمَـــسُـــهـــا لـلأكـــفـ

ـفِ لـــينَ زمـــانِكَ أو يَـــمْـــتَـــثِلْ[3]

صَـــفَـــوْتُ فـــأدْلَـــلْتُ في عَـــرْضِـــهـــا

ومَنْ يَـصْفُ مـنهُ الـهَـوَى فَـلْـيُـدِلْ[4]

قَـــبُـــولُـــكَـــهَـــا نـــعـــمـــةٌ غَـــضَّـــةٌ

وفـــضلٌ - بمـــا قـــبـــلهُ - مُـــتَّـــصِلْ

ولـو كـنتُ أهْـدَيْتُ نـفـسي اخْـتَـصَـرْ

تُ، عـلـى أنَّـهـا غـايـةُ الـمُـحْـتَـفِلْ[5]

****

(١) هذا التفاح لذيذ المذاق يشبه ذكراك العذبة الحلوة، ولكنّ حلاوته تمل بعد حين، أما ذكراك فعذوبتها مشتهاة على الدوام.

(٢) رائحته الشذية تهب فنحسبها قد اكتسبت طيبها من الثناء عليك، فهي تمليه أو ترتله.

(٣) امتثل أمره: احتذاه، والمعنى: ملمسه الناعم المصقول يشبه زمنك الرقيق الندي أو يقلده.

(٤) المعنى: لقد صفا لك ودي وعظم لك حبي فحملني الإدلال عليك على أن أقدم هذه الهدية إليك، مع أن قدرك فوقها بكثير، ولا عجب فالحب يتبعه الدلال.

(٥) هذه الهدية متواضعة، بل إن حياتي أقل من أن تهدى إليك، ولكنني بذلت غاية الجهد وأقصى الاحتفال.

نهر وزهر[1]

كـأنَّـا - عَشِيَّ الـقَـطـرِ في شـاطئِ الـنَّـهْـرِ
وقــد زَهَــرَتْ فــيه الأزاهِــرُ كــالــزُّهْــرِ [2]
نُــرَشُّ بمــاءِ الــوردِ رَشّــاً، ونَــنْــثَــني
لــتــغـلـيفِ أفْـواهٍ بـطـيِّـبَـةِ الخَـمْـرِ[3]

****

(١) هذان البيتان لم يردا بالديوان وقد أثبتناهما عن القلائد والمغرب.

(٢) زهرت: أخرجت زهرها أو لمعت وتلألأت، الأزاهر: الأزهار (لم نجد في كتب اللغة هذا الجمع وإنما وجدنا الزهرة جمعها زهر وأزهار وجمع الجمع أزاهير) الزُّهر جمع زهراء وهي المرأة المشرقة الوجه، أو صفة للنجوم يقال: «كأن زهر النجوم زُهر النجوم» أي زهر النبات يشبه النجوم المضيئة، أو الزِّهر بكسر الزاي: الوطر.

(٣) معنى البيتين: نعمنا في المجلس الندي على شاطئ النهر الذي أينعت أزهاره كأننا في هذا المجلس نستقبل رذاذ الندى

ليلة حافلة[1]

طوى الشاعر ليلة حافلة بالمسرات في إحدى جنات إشبيلية وسجّل وصفها في هذه الأبيات:

ولــيلٍ أدَمْــنــا فــيهِ شـُـرْبَ مُــدامَــةٍ
إلى أن بَدا للصُّبْحِ - في اللَّيلِ - تأشيرُ[2]
وجاءتْ نجومُ الصبحِ - تضربُ في الدُّجى
- فولّتْ نجومُ الليلِ، والليلُ مَقْهورُ[3]
فحُزْنا منَ اللذّاتِ أطيَبَ طِيبِها
ولم يَعْرُنا هَمٌّ، ولا عاقَ تكديرُ[4]
خَلا أنَّهُ لوْ طالَ دامتْ مَسَرَّتي،
ولكنْ ليالي الوَصْلِ فيهنَّ تَقْصيرُ[5]

****

(١) لم ترد هذه المقطوعة بالديوان، وإنما وردت بذيله منسوبة إلى المعتضد، وقد صححنا نسبتها نقلاً عن القلائد والمطرب ومسالك الأبصار.

(٢) التأشير: التحزيز في الأسنان وحدّة أطرافها.

(٣) في مسالك الأبصار «جاءت بوادي... مغمور».

(٤) في ز «ولم يعدنا».

١ - في عهد أبي الحزم بن جهور

الشكوى والعتاب

أسهم الشاعر في تأسيس الدولة الجهورية بقرطبة، ونال فيها أسنى المناصب، ولكن الدسائس أفسدت ما بينه وبين رئيسها أبي الحزم بن جهور، فسجنه، وأصم أذنيه عن توسلاته، ثم فر الشاعر من سجنه وظفر أخيرًا بالعفو عنه.

ولم تسكت الدسائس عن الشاعر في عهد الحاكم الجديد أبي الوليد بن جهور، ولا في عهد المعتضد بن عباد، ولا في عهد ابنه المعتمد. على الرغم من صداقة الشاعر لهؤلاء الحكام وصلاته الوثيقة بهم.

وهكذا يكون العظماء دائمًا أهدافًا للحقد والبغضاء.

وسنذكر أنات الشاعر مرتبة بحسب الترتيب الزمني لهذه النفثات.

ضراعة وتوسلات

أمَـــا وألحـــاظٍ مِـــراضٍ صِـــحـــاحْ
تُـصْـبي، وأعـطـافٍ نَـشـاوَى صَـواحْ[1]
لِـــبـــائِنٍ بـــالحُـــسْنِ، في خَـــدِّهِ
وردٌ، وأثـــنـــاءَ ثَـــنـــايـــاهُ راحْ[2]
لم أنْسَ إذْ بـــاتتْ يـــدي لـــيـــلـــةً
وشـــاحَهُ اللاصقَ دونَ الـــوِشـــاحْ
ألَـــمَـــمْتُ بـــالألْـــطَفِ مـــنهُ، ولم
أجـنحْ إلى مـا فـيه بـعضُ الجُـنـاحْ[3]
لأُصْـفِـيَنَّ المـصْـطَـفَى «جَـهْـورًا»
عَـهْدًا لِـرَوْضِ الحسن عنه افْـتِـضـاحْ[4]
جـــزاءَ مـــا رَفَّهَ شُـــرْبَ الـــمُـــنَى
وأذَّنَ الـسَّـعْيَ بـوَشْكِ الـنـجـاحْ[5]
يَـــسَّـــرتُ آمـــالي بـــتـــأمـــيـــلهِ
فـمـا عَـداني مـنه فَـوْزُ الـقِـداحْ[6]

---

(١) في بعض نسخ الذخيرة «تسبي»، والشاعر يقسم بالعيون الفاترة المثيرة للصبوة، والقدود المتمايلة كأنها سكرى، وما هي بسكرى، ولكنها مترنحة من الدلال.

(٢) بائن: فائق في الفضل والمزية من بان يبون أو ناء بعيد من بان يبين، وفي بعض نسخ الذخيرة «لفاتن».

(٣) الجناح: الإثم، والمعنى: تمتعت متعة يسيرة بحسنه الفتان، وتعففت عن الآثام.

(٤) افتضاح: ظهور، ومنه افتضح الصبح: ظهر، وفي الذخيرة «المرتضى جهورًا»، وفي أصول الديوان «لروض الحزن عنه انتضاح» والحزن: ما غلظ من الأرض أو موضع لبني يربوع فيه رياض وقيعان، وقيل من تربع بالحزن، وتشتى بالصمان. وتقيظ الشرف فقد أخصب، وانتضاح: تفتح، ومنه نضح الشجر: تفتح ليخرج ورقه، وتفتح الزرع: ابتدأ الدقيق في حبه: وقد آثرنا رواية الذخيرة لسلاستها.

(٥) رفّه الإبل: أوردها الماء متى شاءت.

لم أَشِمِ الــــبـــــرقَ جَـــهـــامًـــا، ولـمْ

أقْـتَـدِحِ الـصُّمَّ بـبِـيضِ الـصِّـفـاحْ[1]

مَنْ مِــثْـــلُهُ؟ لا مـــثلَ يُـــلـــفَى لـه

إنْ فَــسَـدَتْ حـــالُ فــعـــزَّ الــصَّلاحْ[2]

يـــا مُـــرشـــدي جَـــهْلاً إلى غـــيـــرهِ

أغْـنَى عن المـصـبـاحِ ضَـوْءُ الـصَّـبـاحْ

رَكـــينٌ مـــا تُـــثْــنَى عـــلـــيه الحُـــبَــا

يَـهْـفـو بهِ نَـحْـوَ الـثَّـنـاءِ ارْتِـيـاحْ[3]

ذو بـــاطنٍ أُقْـــبِسَ نـــورَ الـــتُّـــقَى

وظـاهـرٍ أُشْـرِبَ مـاءَ الـسَّـمـاحْ[4]

انـظُـر تَـرَ الـبَـدْرَ سَـنًـا، واخْـتَـبِـرْ

تَـجِـدْهُ كـالمسكِ إذا مِـيثَ فـاحْ[5]

*****

إيه «أبـــا الحَـــزْمِ» اهْـــتَـــبِلْ غِـــرَّةً

ألـسـنـةُ الـشـكـرِ عـلـيـهـا فِـصـاحْ[6]

لا طـــــارَ لـي حَـظٌّ إلى غــــــايـــــةٍ

إنْ لمْ أكنْ مـــنكَ مَـــريشَ الجَـــنـــاحْ[7]

---

(١) المعنى: لم أتطلع إلى البرق الخالي من المطر، ولا حاولت قرع الحجارة الصماء بالسيوف لاقتباس جذوة نار، لم أتعلق بهذا العبث لأنك حققت آمالي فيك، وفي الذخيرة وتمام المتون «أقتدح النار بزند شحاح».

(٢) المعنى: أين مثله في الناس؟ هيهات إيجاد نظير له في وقت الشدائد والمحن.

(٣) المعنى: إنه إذا عقد حبوته فقلّما تحركه الأحداث لرزانته ووقاره، ولكنه يهتز للشعر ويطرب للثناء.

(٤) المعنى: لقد امتلأ قلبه بالتقوى والصلاح، وأشع وجهه نور السماح.

(٥) ماث المسك: دعكه بأصابعه، والمعنى إذا نظرته بهرك ضوؤه وسناه، وإذا اختبرته تضوع شذاه.

(٦) اهتبل: اغتنم، غرّة: غفلة «والمقصود هنا فرصة» ومنه «الغرة تجلب الدرة» أي اغتنام الفرص يجلب الرزق، والمعنى: اغتنم أيها الامير فرصة تطلق لساني عليك بأعذب الثناء.

(٧) في تمام المتون «لا طار بي... ما لم أكن»، والمعنى: إن لم أستمد منك القوة فلا كانت لي قوة، وإن لم أظفر منك بأمنية فلا

عُـتْـبـاكَ - بَـعْـدَ الـعَـتْـبِ - أمْـنِـيَّـةٌ

مـا لي عـلـى الـدهـرِ سِـواهـا اقْـتِـراحْ[1]

لم يَــــثْــــنِــــني عن أملٍ مـــا جَـــرَى

قـــد يُـــرقَـعُ الخَـــرْقُ وتُـــؤسَى الجِـــراحْ

فـاشْـحَـذْ بـحـسنِ الـرأيِ عِـزمي يَـرُعْ

- منّي الـعِـدا - أَلْـيَسُ شـاكي الـسِّلاحْ[2]

واشْــفَعْ فَـلـلـشَّـافعِ نُـعْـمَى بمـا

سـنَّـاهُ من عَـقْـدٍ وثـيـقِ الـنَّـواحْ[3]

إنَّ سـحـابَ الأفْقِ مـنـهـا الحَـيَـا

والحَـمْـدُ في تـألـيـفـهـا لـلـرِّيـاحْ[4]

وَقَـاكَ مـا تَـخْـشَى منَ الـدهـرِ مَنْ

تَـعِـبْتَ في تـأمـيـنـهِ واسْـتَـرَاحْ[5]

****

(١) العتبى: الرضا، يُقال أعطاه العتبىَ أي أرضاه، والمعنى: إذا تحقق رضاك عني - بعد عتابي لك - فقد تحقق لي أمل عظيم هو أقصى ما أرجو من الدهر تحقيقه.

(٢) الأليس: الشجاع الذي لا يبالي هولاً، ولا يردعه شيء، أو الأسد، والمعنى: قوّ بحسن رأيك عزمي حتى يصبح مرهفًا بتارًا، فيباغت العدو مني بفارس جبار لا يخشى هولاً ولا يرهب أمرًا، مستعد لأعدائه بأكمل عدة وأمضى سلاح، وفي الذخيرة «يرع.. منه العدا بكل شاكي السلاح».

(٣) في الذخيرة «بما ... تمرّ...» أي بما تحكمه، وفي تمام المتون «بما ... بناه من عهد ..»، سنّى: يسرّ، ومنه:

وأعــلم عــلــمًــا لــيس بــالــظن أنه

إذا الــلـه سـنّى عـقـد أمـر تـيـسـرا

والمعنى: أرجو منك الشفاعة، فللشافع أكبر الفضل بما يدبره من وسائل الصفح والغفران. بقي أن تعرف عند من يشفع الأمير؟ إن الذي يبدو لنا من دراسة تاريخ الشاعر أنه يطلب من الأمير أن يتوسط في الصلح بينه وبين خصمه الذين لفقوا له تهمة اغتصاب عقار، واستصدروا حكمًا من القاضي بسجنه «راجع المقدمة ص ٣٧، ٣٨».

(٤) في الخريدة «سحاب الجو»، الحيا: النبات أو الخصب أو المطر، والمعنى: إذا تم الصلح بيني وبين خصمي وترتب على هذا خلاصي من محنتي فإنك أنت صاحب الفضل الأول في تفريج كربتي كما أن الرياح هي صاحبة الفضل في تكوين السحاب المنتج للخصب والنماء.

(٥) المعنى: أسأل الله أن يجعلني وقاية لك من كل سوء، فقد سعيت في أمني وكفلت لي سبل الراحة من كل عناء.

في غيابة السِّجن

مـا جـالَ بَـعْدَكِ لَـحْـظي في سَنـا الـقَـمَـرِ

إلا ذكـرتُـكِ ذِكْـرَ الـعَـيـنِ بـالأثـرِ[١]

ولا اسْـتَـطَـلْتُ ذَمـاءَ الـلـيل من أسفٍ

إلا عـلـى لـيـلـةٍ سَـرّتْ مع الـقِـصَـرِ[٢]

[في نشـوةٍ من سِنـاتِ الـوَصْلِ مُـوهِـمَـةٍ

ألاّ مـسـافـةَ بـين الـوَهْنِ والـسَّـحَـرِ][٣]

نـاهـيكِ من سَـهَـرٍ بَـرْحٍ تـألَّـفَهُ

شوقٌ إلى ما انْـقَـضَى من ذلك الـسَّـمَـرِ[٤]

فـلـيت ذاك الـسَّـوادَ الجَـوْنَ مُـتَّـصِلٌ

لـو اسْـتـعـارَ سـوادَ الـقلبِ والـبَـصَـرِ[٥]

☆☆☆☆

أمَّـا الـضَّـنَى فَـجَـنَـتْهُ لحـظـةٌ عَـنَنٌ

كـأنّـهـا والـرّدى جـاءا عـلـى قَـدَرِ[٦]

---

(١) المعنى: ما تطلعت إلى وجه القمر إلا ذكرتك، لأن فيه ملامح من طلعتك الوضاءة، فكل غائب عن العين تجلبه إلى الذاكرة آثاره.

(٢) الذماء: بقية الروح، والمعنَى: ما تمنيت أن تطول البقية اليسيرة من الليل إلا لأنها تذكرني بليلة باسمة سعدت فيه بوصل الحبيب وإن كانت مرت مسرعة كلمح البصر، وفي نسخة ت «دماء العين» وفي ذ «دماء الليل» وفي سرح العيون «ليلة مرت».

(٣) هذا البيت زيادة من الذخيرة وتمام المتون وقلائد العقيان، الوهن: منتصف الليل، والمعنى: مرت ليلة الوصال قصيرة كأنها سنة من النوم قضيناها في نشوة أوهمتنا أن الليل في منتصفه قد اتصل بالصباح فانعدمت بينهما المسافات.

(٤) ناهيك: حسبك، برح: شدة، والمعنى: حسبك بما لقيته من سهر مضن أثاره الشوق إلى ما انطوى من السمر اللذيذ في ليلة الوصال.

(٥) في الذخيرة والقلائد وتمام المتون وسرح العيون «ياليت ذاك السواد.. قد استعار» الجون: الأبيض أو الأسود وهو من الأضداد، والمعنى: تمنيت أن يدوم سواد ليلة الوصال ولو أمددتها بسواد قلبي وبصري.

(٦) لحظة عنن: نظرة عارضة، والمعنى: إن هذا الهوى المبرح جنته عليّ نظرة عارضة. كأنها صحبت معها المنية فنزلا بي على

فـهمتُ مَعْنَى الـهَـوَى من وَحْيِ طَرفكِ بي
إنَّ الحـوارَ لَـمَـفـهـومٌ من الحَـوَرِ[1]
والـصَّـدرُ مـذ وَرَدَتْ رِفْـهًـا نـواحـيَهُ
تُـومُ الـقَلائـدِ لم تَـجْـنَحْ إلى صَـدَرِ[2]
حُـسنٌ أفـانـينُ، لم تَـسْـتَوفِ أعْـيُـنـنـا
غـايـاتِه بـأفـانـينٍ من الـنَّـظَـرِ[3]
واهًـا لـثَـغْـرِكِ ثَـغْـرًا بـات يـكـلـؤُهُ
غَـيْـرَانُ تَـسْـري عـوالـيه إلى الـثُّـغَـرِ[4]
يـقـظـانُ لم يـكـتـحِلْ غَـمـضًـا مُـراقَـبَـةً
لِـرابط الجـأشِ مِـقْـدامٍ عـلى الـغِـرَرِ[5]
لا لَـهْـوُ أيّـامِهِ الخـالي بمُـرتَـجَـعٍ
ولا نـعـيمُ لـيـالـيه بمُـنْـتَـظَـرِ[6]
إذ لا الـتَّـحِـيَّـةُ إيمـاءُ مـخـالَـسَـةً
ولا الـزيـارةُ إلمـامٌ عـلى خَـطَـرِ[7]
مُـنًـى كـأنْ لم يـكنْ إلا تـذكُّـرُهـا
إنّ الـغَـرامَ لَـمُـعْـتـادٌ معَ الـذِّكَـرِ[8]

٭٭٭٭٭

(١) في سرح العيون «جمعت معنى الهوى»، وفي الذخيرة «وحي طرفك لي»، والمعنى: أدركت سر الهوى من لمحات طرفك، فما بعينيك من الحور يغني عن حوار الكلمات.

(٢) في نسخ ب، ت، ز «لم تحتج إلى الصدر»، الرفه: أن ترد الإبل الماء متى شاءت، توم القلائد: العقود المزدوجة، لم تجنح: لم تمل، الصدر: الرجوع عن الماء بعد الريّ، والمعنى: لقد تعلقت هذه القلائد بصدرك الجميل فلم تشأ مبارحته لأنها لن تجد أجمل منه موضعًا ولا أفتن موقعًا.

(٣) المعنى: حسنك رائع متعدد المشاهد متجدد المفاتن، كلما تعددت نظراتنا إليه كشفت فيه ألوانًا جديدة من الجمال لا يستطيع النظر ملاحقتها، وهو في هذا ينظر إلى قول أبي نواس:

يـزيـدك وجـهـه حـسـنـا
إذا مـا زدتـه نـظـرا

(٤) يكلؤه: يحفظه ويرعاه، غيران: شديد الغيرة، العوالي: صدور الرماح، الثغر: جمع ثغرة وهي النقرة التي في النحر، والمعنى: واهًا لثغرك العذب يحرسه محب شديد الغيرة يسرع إلى الفتك بمن يتطلع إليك، فما أروع الخطر حول جمالك الفتان.

(٥) الغرر: الخطر، الغرر: جمع غرّة وهي الفرصة، والمعنى الأول أنسب للمقام، والمعنى: هذا الرقيب متيقظ حذر لا يغفل عن مراقبتك لأنه يعلم أن لك محباً رابط الجأش مولعًا باقتحام الأخطار أو بانتهاز الفرص السانحة للوصول إليك.

(٦) المعنى: لقد أدركه اليأس من رجوع ماضيه الحافل بالمسرات، وانقطع أمله من المستقبل المنشود.

(٧) كانت أيامنا حافلة بالسعادة والنعيم، نتلاقى في علانية دون رقيب أو غيور، أما اليوم فتحياتنا مخالسة في رقبة وعلى خوف، وزيارتنا مخاطرة غير مأمونة العواقب.

(٨) المعنى: مضت هذه الآمال سراعًا، ولم تبق منها إلا ذكريات مثيرة تبعث في النفس أعنف البث وأشجى الهيام.

من يسألُ الناسَ عن حالي فشاهدُها
محضُ العِيان الذي يُنبي عن الخَبَرِ[1]

لم تَطْوِ بُردَ شبابي كَبْرةٌ، وأرى
برقَ المشيبِ اعْتلَى في عارضِ الشَّعَر[2]

قَبْلَ الثلاثينَ، إذْ عَهْدُ الصِّبا كَثَبٌ
وللشبيبةِ غُصْنٌ غيرُ مُهْتَصَرِ[3]

ها إنّها لَوْعَةٌ في الصَّدْرِ قادِحَةٌ
نارَ الأسى، ومَشيبي طائرُ الشَّرَرِ[4]

[يا للرزايا!! لقد شافَهْتُ مَنْهَلَها
غَمْرًا، فما أشربُ المكروهَ بالغُمَرِ][5]

حوادثُ اسْتَعْرَضَتْني، ما نَذِرتُ بها
غرارةً [ثم نالتني على غِررٍ][6]

☆☆☆☆☆

لا يُهنِئِ الشَّامتَ المرتاحَ خاطرُهُ
أنِّي مُعَنَّى الأماني ضائعُ الخَطَرِ[7]

هلِ الرِّياحُ بنَجمِ الأرضِ عاصفةٌ؟
أمِ الكُسوفُ لغيرِ الشَّمْسِ والقَمَرِ؟[8]

---

(١) في الذخيرة «يُغنى» والمعنى: لا داعي لاستطلاع أنبائي، فإن حالي الحاضرة بما تحمله من آلام وأشجان تغني السائل عن السؤال وتطالعه بالأنباء.

(٢) المعنى: ما زلت شابًا لم يلحقني الكبر، وعلى الرغم من هذا فقد وخط الشيب عارضيَّ.

(٣) المعنى: لحقني الشيب قبل سن الثلاثين، وأنا غض الشبيبة بض الإهاب قريب العهد بالشباب.

(٤) المعنى: اشتعلت نار الأسى في صدري فطار الشرر إلى رأسي فاشتعلت بالمشيب.

(٥) البيت زيادة من الذخيرة وإعتاب الكُتَّاب وتمام المتون، شافه: وافى وقارب، الغَمر: الماء الكثير، الغُمر: القدح الصغير، والمعنى لقد غمرتني الرزايا وجرعتني غصصها بالأقداح الكبار لا بالصغار.

(٦) ورد البيت ناقصًا في الديوان، وقد أكملناه بما بين القوسين ورأيناه مناسبًا للمقام، استعرض القائد القوم: قتلهم ولم يسأل عن حال أحد منهم، ونذر بالشيء: علمه فحذره. الغرر: جمع غرّة وهي الغفلة، والمعنى: دهمتني الحادثات دون ارتقاب، ونالتني فحطمتني وأنا في غفلات الدهر آمن قرير.

(٧) في إعتاب الكتاب «لا يهنأ» وفي سرح العيون «المرتاح ناظره»، والمعنى: على الشامت الهانئ ألا يسعد إذا رآني مبدّد الآمال ضائع المكانة، فإنها أقدار تبدل الأوضاع والأحوال.

(٨) النجم: ما لا ساق له من النبات، والمعنى: إن الحوادث لا تعصف إلا بالعظماء كما أن الرياح تتجاوز النبات اللاصق بالأرض وتحطم الأشجار الضخمة، والكسوف يعتري الشمس والقمر ولا يعتري النجوم.

إن طـال في الـسِّـجنِ إيـداعي فلا عَـجَبٌ

قـد يُـودَعُ الجَـفْنَ حَـدُّ الـصَّـارمِ الـذَكَـرِ[1]

وإن يُـثـبِّطْ - «أبـا الـحـزمِ» الـرِّضـى - قَـدَرٌ

عن كـشفِ ضُـرّي فلا عَـتْبُ عـلـى الـقَـدَرِ[2]

☆☆☆☆☆

مـا لـلـذُّنـوبِ - الـتـي جـاني كـبـائـرِهـا

غَـيْـري - يُـحَـمِّـلُـني أوزارَهـا وَزَري؟[3]

مَنْ لمْ أزلْ منْ تـأتِّـيـهِ عـلـى ثِـقَـةٍ

ولـم أبِتْ من تجـنّـيـهِ عـلـى حَـذَرِ[4]

[الـكـاظمُ الـغـيظِ يـنـسـاب الـضَّـمـيرُ له

لـولا الأنـاةُ سـقـاهُ من دَمٍ هَـدَرِ][5]

ذو الشِيمَةِ الرَّسْلِ إنْ - هِيجَتْ حَفيظتُهُ -

والجانبِ السَّهلِ والـمُسْتَعْتَبِ اليَسَرِ[6]

من فيه لـلـمُجْتَلي والـمُبْتَلي نسَقًا

جـمـالِ مَـرْأى عـلـيهِ سَـرْوُ مُـخْـتَـبَـرِ[7]

مُـذَلَّلٌ لـلـمَـسـاعي، حُـكْـمَـهـا شَـطَطٌ

عـلـيه، وهْـوَ الـعـزيـزُ الـنَّفْسِ والـنَّفَـرِ[8]

---

(١) المعنى: إذا طال مكثي في السجن فلا داعي للعجب فإنني كالحسام الصقيل يقر في غمده حينا، ثم لا يلبث أن يسل عند الشدائد والأهوال.

(٢) المعنى: إذا أخر القدر أبا الحزم بن جهور عن إنقاذي من محنتي فلست عاتبًا على القدر، فقد يشتد الخطب ثم يهون.

(٣) الأوزار: الأعباء الثقيلة، الوزر: الظهير والمعين، والمعنى: ما بال ناصري ومعيني ينقلب عليّ ويحملني أخطاء لم أجنها، فيهمل الجناة ويبادرني أنا بالعقاب؟

(٤) تأنّى: ترفق أو تثبت أو انتظر، وتأتّى له: ترفق وأتاه من وجهه. فيجوز أن يكون: من تأنيه أو تأتيه، وفي سرح العيون «من تداعيه»، المعنى: على الرغم من أن الأمير حمّلني أوزارًا لم أجنها فإنني ما زلت واثقًا من رفقه، آمنًا من عقابه.

(٥) هذا البيت زائد من الخريدة، ومعناه: إن الأمير يكظم غيظه لأن له ضميرًا يقظًا يحميه من الظلم، ولو انقاد الأمير لغضبه لأهدر الدماء وسلب الأرواح.

(٦) الشيمة الرِّسل: الخلق السمح، الحفيظة: الغضب أو الحمية، اليسر: اللين والانقياد، والمعنى: إنه سمح الأخلاق لا ينقاد للغضب، سهل الرضا سريع الصفح والغفران.

(٧) المجتلي: الناظر، المبتلي: المختبر، النسق: النظام، والنسقان: كوكبان، السرو: المروءة والسخاء، والمعنى: يرى الناظر فيه جمال مظهر ويلمس المختبر فيه أكرم طبع وأشرف خلال.

(٨) المساعي: المآثر والمكرمات، شطط: جائر مجاوز للحد، والمعنى: إنه خاضع للمجد سهل الانقياد للمكارم، مع أنه أبيّ النفس عزيز العشيرة.

وزيـــرُ سِـــلْمٍ كــفــاهُ يُــمْنُ طــائــرِهِ

شُـؤمَ الحُـروبِ ورأيٌ مُـحْـصَـدُ الـمِرَرِ[١]

أغْــنَتْ قــريــحَــتُهُ مَــغْــنَى تجــاربِهِ

ونـابَتِ الـلَّمْـحَـةُ الـعَـجْـلَى عنِ الـفِكَرِ[٢]

كمِ اشْـتَـرى - بِـكَرَى عَـيْـنَـيْهِ - من سَـهَـرٍ

هـدوءَ عــينِ الــهُـدَى في ذلك الــسَّــهَـرِ[٣]

في حضرةٍ غابَ صَرْفُ الدهرِ - خَشْيَتَهُ -

عـنـهـا، ونـام الـقَـطـا فـيـهـا فـلـم يَـثُـرِ[٤]

مُـمَـتَّعٍ بـالـرَّبـيـعِ الـطَّـلْقِ نـازِلُـهـا

يُـلْـهـيـهِ عن طـيـبِ آصـالٍ نَـدَى بُـكَـرِ[٥]

مـا إنْ يـزالُ يَـبُـتُّ الـنَّـبْتَ في جَـلَـدٍ

- مذ ساسَها - ويُفيضُ الماءَ من حَجَرِ[٦]

❊❊❊❊❊

(١) محصد: محكم، المرر: جمع مرة وهي القوة أو حدة الذكاء، والمعنى: إنه وزير مسالم أغناه حظه السعيد ورأيه الحكيم الحازم عن خوض الحروب وما تجلبه من نحس وشؤم وتدمير.

(٢) المعنى: أغناه ذكاؤه الوقاد عن الاتعاظ بالتجارب، وأغنته بديهته اللماحة عن إدمان الفكر وتقليب النظر في الأمور.

(٣) في تمام المتون «عين الورى»، والمعنى: كم كابد السهر ليريح أمته، وكم أذبل السهد عينيه لينام الهدى قرير العين مثلوج الفؤاد.

(٤) المعنى: سهر الأمير لينام قومه وتعب ليرتاحوا. فلم تحاول صروف الدهر أن تمسهم، ونام القطا مطمئنًا في حمايته فلم يثر من مكامنه، وفي نسخ ب، ت، ز، والذخيرة (ولم يثر).

(٥) المعنى: تمتع قومه بالرفاهية والنعيم تحت ظلاله، فكأن أيامهم كلها ربيع دائم يسعدون فيها ما بين رقة الأصيل ونفحات البكور، فينصرفون عن هذا إلى ذاك في غبطة وسرور.

(٦) الجلد: الأرض الصلبة المستوية المتن، ومنه قول النابغة الذبياني:

إلا الأواريّ لأيًــا مــا أبــيــنــهــا

والنـؤي كـالحـوض بـالمظلـومـة الجـلـد

أي عفت الديار وخفيت آثارها فلا تظهر معالمها إلا بعد جهد وعناء. والمعنى: ما زال يجهد في إسعاد قومه حتى أنبت الزرع في الجلد وفجر الماء من الحجر.

[حُـرِمْتُ مـنهُ، وحظُّ الـنّـاسُ كـلُّـهُمُ

لـهذه الـعِبـرَةِ الـكُـبْـرَى منَ الـعِـبَـرِ][(١)]

قـد كـنتُ أحْـسَـبُـني والـنَّـجْمَ في قَـرَنٍ

فـفيمَ أصبـحتُ مُـنْـحَـطّـاً إلى الـعَـفَرِ؟[(٢)]

أحـيـنَ رَفَّ عـلـى الآفـاقِ من أدبي

غَـرْسٌ له من جَـنـاهُ يـانِعُ الـثَّـمَـرِ؟[(٣)]

وسـيـلـةٌ سَـبَـبًـا - إلاّ تـكنْ نَـسَـبًـا -

فَـهْـوَ الـودادُ صَـفـا من غـيـر مـا كَـدَرِ[(٤)]

✡✡✡

وبـائِنٍ من ثَـنـاءٍ حُـسْـنُهُ مَـثَلٌ

وَشْيُ الـمَـحـاسِنِ مـنهُ مُـعْـلَمُ الـطُّـرَرِ[(٥)]

يُـسْـتَـوْدَعُ الـصُّـحْفَ لا تَـخْـفَى نـوافحُهُ

إلاّ خَـفـاءَ نَـسـيمِ الـمِسكِ في الـصُّرَرِ[(٦)]

مِنْ كلِّ مُـخْـتـالَـةٍ بـالحِـبْـرِ رافـلـةٍ

فيه اخـتـيـالَ الـكـعـابِ الـرُّؤْدِ بـالحِـبَـرِ[(٧)]

---

(١) البيت زيادة من الذخيرة، ومعناه: ما بالي شقيت في ظل الأمير على حين سعد به جميع الناس؟ أليست هذه كبرى العجائب؟

(٢) القرن: البعير المقرون بآخر، أو حبل يجمع به البعيران، العفر: وجه الأرض، وفي الذخيرة «وكنت أحسبني»، والمعنى: كنت أحسبني في أوج العلا تحت رعايته، فما بالي أصبحت ملتصقًا بالتراب؟

(٣) في تمام المتون «أحين رفت... غرائس من جناها»، والمعنى: كيف أقاسي الجحود والنكران بعد أن أينع أدبي وازدهر وأتى بأطيب الثمرات؟

(٤) المعنى: إن لم تجمعني بالأمير صلات النسب فقد جمعتني به صلات الأدب وعلاقات الحب النقي الخالص من الشوائب والأكدار.

(٥) بائن: فائق في الحسن والزينة، مأخوذة من بانه يبونه: فاقه في الفضل والمزية، الوشي: الثوب الملون المنقوش، الطرر: الأطراف أو النواصي أو عصائب الرؤوس، والمعنى: من وسائلي إليه ثناء فائق ممتاز تضرب بروعته الأمثال، وترفل المحاسن منه في برود موشاة الأطراف أو الذيول.

(٦) المعنى: يستقر ثنائي عليه في بطون الصفحات فتنبعث نفحاته الذكية كما يتضوع شذا أنسك من خلال الصرر، ولعلها «نوافجه» جمع نافجة: وعاء المسك.

(٧) الحبر: البهاء والحسن أو الوشي أو المداد، وفي الأصول «الخبر» ومعناه العلم بالشيء، ولعل ما أثبتناه هو الصحيح، الكعاب: الفتاة الناهد، الرود: الشابة الحسنة، الحبر: ثياب موشاة من برود اليمن، والمعنى: أسطر في مدح الأمير كل قصيدة تختال في مدادها أو حسنها وبهائها كما تختال الناهد الحسناء في غلائلها الموشاة.

تُجْفَى لـهـا الـروضـةُ الـغَـنّـاءُ أَضْـحَـكَـهـا

مَـجـالُ دمعِ الـنّـدى في أعْـيُـنِ الـزَّهَـرِ[1]

يـا بـهـجـةَ الـدهـر حـيّـاً وهْـوَ - إن فَـنِـيَتْ

حـيـاتُهُ - زيـنـةُ الآثـارِ والـسِّـيَـرِ[2]

لي في اعْـتِـمـادِكَ بـالـتـأمـيل سـابـقـةٌ

وهِـجـرةٌ في الـهَـوَى أَوْلَى مِنَ الـهِـجَرِ[3]

فـفـيمَ غَـضَّتْ هُـمـومي من عُلا هِـمَـمِي؟

وحاصَ بي مَـطْلَـبي عن وِجْـهَـةِ الـظَّفَرِ؟[4]

هل من سبـيـلٍ - فـمـاءُ الـعَـتْبِ لي أَسِنٌ -

إلى الـعـذوبَـةِ من عُـتْـبـاكَ والخَـصَرِ؟[5]

نَـذَرْتُ شـكـرك - لا أنْـسَى الـوفـاءَ بهِ -

إنْ أسْـفَـرَتْ لِيَ عـنـهـا أَوْجُهُ الـبُـشَـرِ[6]

*****

لا تَـلْهُ عـنّي، فـلـم أسـألْكَ مُـعْـتَـسِـفًـا

رَدَّ الـصِّـبـا بَـعْـدَ إيـفـاءٍ عـلـى الـكِـبَـرِ[7]

واسْـتَـوْفِـرِ الحَظَّ من نُـصحٍ وصـاغِـيَـةٍ

كلاهـمـا الـعِـلْقُ لم يُـوهَبْ ولم يُـعَـرِ[8]

---

(١) المعنى: ينصرف الناظر إليها قانعًا بجمالها عن جمال الروضة المتفتحة التي يفتر حسنها ابتسامًا من قطرات الطل المتحدرة من عيون الزهر.

(٢) في الذخيرة «يا زهرة الدهر»، والمعنى: أنت بهجة الدهر في حياتك، وحديث طيب وذكر عاطر بعد مماتك.

(٣) المعنى: لقد تحققت آمالي فيك أولاً، فأولى أن تتحقق ثانياً، وقد هاجر قلبي إليك متعلقًا بك، وهجرة القلوب أحق بالرعاية من هجرة الجسوم، وفي الذخيرة «في التأميل».

(٤) حاص: مال وحاد، والمعنى: ما للهموم العاتية أصابت همتي العالية؟ وما لآمالي الفسيحة انحرفت بي عن الظفر؟

(٥) أسن: آجن راكد، العتبى: الرضا، الخصر: البرد، والمعنى: هل من سبيل إلى أن أتذوق رضاك العذب السائغ بعد أن تكدر صفو العتاب؟

(٦) المعنى: لله علي نذر أن أقوم بشكرك والثناء عليك إذا جاءني البشير بصفحك عني وإقبالك عليّ.

(٧) في تمام المتون «ممتنعا، رد الصبا غب إشفاء» وفي الذخيرة والخريدة وإعتاب الكتاب «غب إيفاء»، والمعنى: لا تتشاغل عني فإنني لا أطلب مستحيلاً أو شبه مستحيل مثل رد الشباب بعد الإشراف على الهرم.

(٨) الصاغية: الحاشية أو الميل، العلق: النفيس، والمعنى: بادر بالصفح والمغفرة لتستكثر من نصحي لك وميلي إليك، فالنصح الخالص والود المتين كلاهما ثمين لا يوهب ولا يعار.

هَـبْـنـي جَـهِـلـتُ فـكـان الـعِـلْـقُ سـيِّـئَـةً
لا عـذرَ مـنـهـا سـوى أنّـي مِنَ الـبَـشَـرِ[1]
إنَّ الـسِّـيـادةَ بـالإغـضـاءِ لابِـسَـةٌ
بـهـاءَهـا، وبـهـاءُ الحُـسْنِ في الخَـفَـرِ[2]
لكَ الـشَّـفـاعَـةُ، لا تُـثْـنَـى أَعِـنَّـتُـهـا
دونَ الـقَـبـولِ بمَـقْـبـولٍ مِنَ الـعُـذُرِ[3]
[فـاشْـفَعْ أَكُنْ مِـثْلَ مَـمْـطـورٍ بـبـلـدتهِ
جَـذْلانَ بـالـوطنِ المـألـوفِ والـوَطَـرِ][4]
والـبَسْ مِنَ الـنِّـعْـمَـةِ الخـضـراءِ أيْـكَـتَـهـا
ظِلاً حَـرامًـا عـلـى [الإرْمـاضِ والخَـدَرِ][5]
نـعـيمَ جَـنَّـةِ دُنْـيـا، إنْ هِيَ انْـصَـرَمَتْ
نَـعِـمْتَ بـالخُـلْـدِ في الجـنّـاتِ والـنَّـهَـرِ[6]

****

(١) في الخريدة «وكان الجهل سيئة» ومعناها ظاهر، العلق: الميل والحب، ومنه علقه وعلق به، والعلق أيضًا: الشتم، ومنه علقه بلسانه، والمعنى: هبني أخطأت فإن عذري في جهالتي أنني من البشر، أو إن عذري عن هيامي وحبي «ولعل في هذا إشارة لاستهتاره، بحب ولادة» أنني بشر مرهف الإحساس، أو إن عذري في إنزلاق لساني بالذم «ولعل في هذا إشارة إلى ما نسب إليه من هجاء ابن جهور» أنني بشر عرضة للأخطاء.

(٢) في الخريدة «وبهاء الخود»، الخود: الشابة الناعمة، الخفر: الحياء. والمعنى: إن السيادة تزدان بالصفح والغفران، كما يزدان الحسن بالحياء.

(٣) العُذُر والعُذْر بمعنى، والمعنى: لك أيها الأمير الشفاعة المطلقة التي لا يقف في سبيلها أي سبب من الأعذار.

(٤) البيت زيادة في الذخيرة وتمام المتون، والمعنى. شفاعتك ستجلب عليَّ الأمان، فأكون مثل من يأتيه الخصب والنماء في وطنه دون اغتراب، فيسعد بالإقامة في وطنه والثروة السابغة فيه، ولعله ينظر في هذا إلى قول ابن الرومي:

أيـعـزب عـنك الـرأي في أن تـثـيـبـني
مـقـيـمًـا مـصـونًـا من عـنـاء المـطـالب؟
وأحـسـن عـرفًـا مـوقـعًـا مـا تـنـالـه
يـدى، وغـرابي بـالـنـوى غـيـر نـاعب

(٥) ورد عجز البيت ناقصًا ومحرفًا في أصول الديوان هكذا (ظلا حرامًا على الأرمات..) وقد أكملناه بما يناسب المعنى، الإرماض. اشتداد الحر ومنه أرمض الحر الخشب: أحرقه، والخدر: اشتداد البرد، أو البرد مع المطر، والمعنى: تمتع بظلال النعيم آمنًا من لفحات الحر ولذعات البرد.

(٦) المعنى: أتمنى لك النعيم في الدنيا حتى إذا رحلت عنها نعمت بجنة الخلد.

مرارة الاعتقال

أَلَمْ يَأْنِ أنْ يبكي الغَمامُ على مِثلي؟
ويطلبَ ثأري البرقُ مُنْصَلِتَ النَّصلِ؟[1]

وهلاّ أقامتْ أنجمُ الليلِ مأتمًا
لِتَنْدُبِ في الآفاقِ ما ضاعَ من تَتْلي[2]

ولو أنْصَفَتْني - وَهْيَ أشكالُ هِمَّتي -
لألْقَتْ بأيدي الذلِّ لمَّا رأتْ ذُلّي[3]

ولافْتَرَقَتْ سَبْعُ الثُّريّا وغاضَها
بمطلعِها ما فرّق الدهرُ من شَمْلي[4]

✲✲✲✲✲

لَعَمْرُ الليالي إنْ يكنْ طالَ نَزعُها
لقد قَرْطَسَتْ بالنَّبلِ في مَوْضِعِ النُّبل[5]

---

(١) في أصول الديوان «يبكي الحمام على قتلي» وقد آثرنا رواية الذخيرة وتمام المتون والوافي لأن البكاء يناسب الغمام والبرق يوائمه، والمعنى: لقد حان للغمام أن يندبني، وللبرق أن يسل سيفه مطالبا بثأري، والشاعر يهيب بالطبيعة - ناطقة وصامتة، حية وجامدة - أن تشاركه في نكبته وتهتم بمصيره.

(٢) التتل: ضرب من الطيب، وفي الفعل «ضاع» تورية لطيفة، فإنه يأتي بمعنى هلك، أو فاح عبيره، والمعنى: هلا أقامت النجوم مأتمًا تندب فيه ذكري الحسن وآثاري الطيبة التي بددتها الأحداث؟ وفي نسختي أ، ت والذخيرة وتمام المتون «ضاع من نبلي» ويوهن هذه الرواية أن كلمة «النبل» وردت في القافية بعد هذا ببيتين، ولا يمكن لشاعرنا أن يقع في هذا العيب الذي يسميه العروضيون الإيطاء، وهو إعادة اللفظة بنطقها ومعناها في القافية قبل مرور سبعة أبيات على الأقل، وفي نسختي ب، ز «ضاع من تبلي»، والتبل: العداوة أو الثأر أو الأسقام، ولا تتسق مع المعنى في هذا المقام.

(٣) المعنى: لو أنصفتني النجوم - وهي عالية مثل همتي - لهوت ذليلة حينما أبصرت ذلي وهواني. وفي الذخيرة «فلو أنصفتني».

(٤) غاض: نقص وقل، والمعنى: لو أنصفتني نجوم الثريا السبع لتفرقت بعد ائتلافها، ونقصت بعد تمامها، حزنًا على ما فرقه الدهر من شملي، وفي بعض نسخ الذخيرة «وغاظها بمجمعها».

(٥) النَّبل: السهام، النُّبل: الفضل والمروءة، النزع: جذب وتر القوس للرمي، قرطستْ: أصابت، والمعنى: لقد بالغت الحادثات في رميي فأصابت مقتل النبل مني بسهامها.

تحـــــلّت بـــــآدابي، وإنَّ مـــــآربي
لـسـانِـحَـةٌ في عَـرْضِ أُمْـنِـيَّـةٍ عُـطْلِ[1]
أُخَصُّ لِـفَـهْـمي بـالـقِـلى، وكـأنَّـمـا
يـبـيتُ لـذي الـفَـهْمِ الـزمـانُ عـلى ذَحْلِ[2]
وأُجْـفَى عـلى نَـظْـمي لـكلِّ قِلادةٍ
مُفَصَّلةِ السِّمْطَيْنِ بالمنطقِ الفَصْلِ[3]
ولو أنَّني أُسطيعُ كي أرضِيَ العِدا
شَرَيْتُ ببعضِ الحِلمِ حظّاً مِنَ الجَهْلِ[4]

✡✡✡✡

أمَقْتولةَ الأجْفانِ ما لكِ والِهًا؟
ألم تُركِ الأيّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلي؟[5]
أَقِلّي بُكاءً، لستِ أوّلَ حُرَّةٍ
طَوَتْ بالأسى كَشحًا على مَضَضِ الثُّكْلِ[6]
وفي «أمِّ موسى» عِبْرَةٌ إذْ رَمَتْ به
إلى اليَمِّ في التّابوتِ، فاعْتَبري واسْلي[7]

---

(١) في إعتاب الكتاب «تجلت بآدابي»، والمعنى: لقد تزينت الليالي بآدابي ولكنها حاربت مواهبي، فكلما اتسعت مطامحي صادفت آمالاً مخيبة للرجاء قاتلة للذكاء.

(٢) القلى: الكره، الذحل: الثأر، وفي إعتاب الكتاب «على دخل» والدّخل: العيب أو الريبة، والمعنى، لقد كان ذكائي حربًا عليّ، فإن الدهر مولع بحرب الأكفاء، كأن بينه وبينهم ثأرًا مبيتًا.

(٣) السمط: الخيط ما دام فيه الخرز، وإلا فهو السلك، والمعنى ما زالت البغضاء تلاحقني حقدًا عليَّ لإبداعي في نظم قلائد الشعر المنسقة بالآراء الحكيمة التي تحسم معضل المشكلات.

(٤) المعنى: أبغضني الأعداء، وحقدوا عليّ لغزارة علمي، ولو استطعت أن أتنازل عن قسط من علمي وأشتري به جهلاً - لأبدّد بذلك غيظهم وأنال رضاءهم - لفعلت.

(٥) مقتولة الأجفان: واهية الجفون كأنها قد نضبت فيها الحياة لغزارة ما ذرفته من الدموع، الوله: ذهاب العقل أو الحيرة من شدة الوجد. والشاعر هنا يناجي أمه داعيًا إياها إلى الصبر، مناشدًا لها أن تتأسَّى بما أصاب غيره من أرزاء.

(٦) الكشح: الجانب ما بين الخاصرة إلى الضلع، وطوى كشحه على الأمر: أضمره وستره، المضض: الوجع، الثكل: فقد الولد، والمعنى: قللي يا أماه من بكائك، فلست أول أم ضمت جوانحها على آلام الثكل.

(٧) آثرنا رواية الذخيرة والوافي وتمام المتون، وفي الأصول «أن رمت»، والمعنى: لك أسوة بأم النبي موسى عليه السلام حينما قذفت به في اليم امتثالاً لأمر الله جل شأنه.

لـعلّ المـلـيكَ الـمُـجْـمِلِ الـصُّـنع قـادرًا

له بـعـد يـأسٍ سـوف يُـجْمِلُ صُـنعًـا لي[١]

ولـله فـيـنـا عـلـمُ غَـيبٍ، وحَـسْـبُـنـا

به - عـنـد جَـوْرِ الـدهـرِ - من حَكَمٍ عَدْلِ[٢]

※※※

[وإنَّ رجـائي في الـهُـمـام ابـنِ جَـهْـوَرٍ

لَـمُسْتَحْكِمُ الأسبـابِ مُسْتَحْصِدُ الحَبْلِ][٣]

هـمـامٌ عـريقٌ في الـكـرام، وقـلَّـمـا

تـرى الـفَـرْعَ إلاّ مُـسْـتَـمِـدّاً منَ الأصْلِ[٤]

نَـهُـوضٌ بـأعـبـاءِ المـروءةِ والـتُّـقَى

سَحُـوبٌ لأذيـالِ الـسِّـيـادةِ والـفَـضْلِ[٥]

إذا أشْـكَلَ الخَـطبُ الـمُـلِـمُّ فـإنَّهُ

وآراءهُ كـالخطّ يـوضَـحُ بـالـشَّـكْلِ[٦]

※※※

وذو تُـدْرَأٍ، لـلـعـزمِ تحتَ أَنـاتِهِ

كُـمـونُ الـرّدى في فَـتـرةِ الأعْـيُنِ الـنُّجْلِ[٧]

---

(١) المعنى: إنني لآمل في أن المليك الصفوح الحليم القادر للصنيعة سيشملني بعطفه ويسدي إليّ أياديه.

(٢) المعنى: لله تعالى حكمة في ما يقضيه من أحداث قد يتكشف عيبها عن خير عميم، وحسبنا عدالته وإنصافه إذا عضنا الدهر بنابه وجار علينا في أحكامه.

(٣) البيت زيادة في الذخيرة، وفي بعض نسخها «مستحصد الفتل»، الأسباب: الحبال أو الوسائل الموصلة إلى غاية، استحصد الحبل: فتل فتلاً محكمًا، والمعنى: إن آمالي في الأمير قوية الوسائل متينة الصلات.

(٤) المعنى: ينحدر الأمير من أصل كريم، والفرع قلّما يشذ عن الأصل، ومن المعروف أن ابن جهور ينحدر من سلالة وزراء وشعراء كبار، وإن كان أصله غير عربي «من الموالي».

(٥) المعنى: يبادر الأمير بالأفعال النبيلة متصفًا بالتقوى والصلاح، ويحتل مكانة سامية يجرر فيها ذيول السيادة والمروءة.

(٦) المعنى: إذا أبهمت الأمور واستعصى كشفها فإن آراءه تبدد غموضها، وتوضح مشكلاتها، كما تتضح معاني الكتابة بوضع الشكل على الحروف.

(٧) التدرأ والتدرأة: العزة والمنعة، والمعنى: الأمير ذو همة عالية وعظمة سامية، يكمن العزم والحزم تحت هدوئه واتزانه كما

يَــرِفُّ عــلـى الـــتـــأمـــيلِ لألاءُ بِـــشْـــرِهِ

كـمـا رفّ لألاءُ الـحُـسـامِ عـلـى الـصَّـقْلِ[1]

مـحـاسنُ مـا لـلـحُـسْنِ في الـبـدر عِـلّـةٌ

سـوى أنّـهـا بـاتتْ تُـملُ فـيَـسْـتَـمْـلي[2]

تُـغِصُ ثَـنـائي مِـثـلَـمـا غصّ جـاهـدًا

سِوارُ الـفتـاة الـرُّؤْد بـالـمِـعْـصَمِ الخَدْلِ[3]

وتَـغْنَـى عن المدحِ - اكـتـفـاءً بـسَرْوِهـا -

غِنَى الـمُقْلَـةِ الـكحلاءِ عن زيـنـةِ الكُحْلِ[4]

✡✡✡✡✡

«أبــا الحــزمِ» إنّي - في عِــتــابِكَ - مــائلٌ

على جـانبٍ - تـأوي إلـيه الـعُلا - سَـهْلِ[5]

حــمـــائمُ شــكــوَى صَــبَّــحْــتَـكَ هَــوادلاً

تُــنـــاديك من أفــنـــانِ آدابيَ الـــهُــدْلِ[6]

جـــوادٌ إذا اســـتنّ الجـــيـــادُ إلى مَـــدًى

تـمـطـرّ فـاسْـتَـوْلَى عـلـى أمَـدِ الخَـصْلِ[7]

(١) رفّ: يلمع ويتلألأ، والمعنى: إذا قصد العفاة الأمير ارتاحت نفسه وتلألأت قسماتُ وجهه كما يلمع السيف القاطع عند صقله.

(٢) أملّ الكتاب: أملاه، والمعنى: إن محاسن الأمير تمدّ البدر بالحسن والبهاء، ولا عيب في البدر إلا أنه يقتبس جماله من بهاء الأمير.

(٣) الرؤد: الشابة الحسناء، الخدل: ممتلئ، والمعنى: يضيق ثنائي عن استيعاب محامده كما يضيق السوار بالمعصم الممتلئ من الغادة الحسناء.

(٤) السرو: السخاء والمروءة، والمعنى: مآثر الأمير ليست بحاجة إلى الثناء، فإن محامده في غنى عن مدائح الشعراء، بما تحمله من مروءة وسخاء، كما تستغني المقلة الكحلاء بزينتها الطبيعية عن زينة الكحل، وفي الذخيرة «ويغني عن المدح اكتفاء بسروه».

(٥) في القلائد «إلى جانب...»، وفي إعتاب الكتاب «على جانب.. مثل»، والمعنى: أيها الأمير إنني في عتابك معتمد على حظ منك سهل الخليقة سمح الجانب.

(٦) في القلائد « .. من أفنانها داني الهدل»، وفي إعتاب الكتاب «أفنان آدابي الهزل»، الهديل: صوت الحمام، الأفنان الهدل: الأغصان المتدلية، والمعنى لقد ضج شعري بالشكوى إليك نادبًا كما تندب الحمام، هاتفًا بك من أيكة آدابي متطلعًا إلى ما أحرزته من مروءة وسماح.

(٧) استنت الجياد: أمعنت في الجري في حلبة السباق، المدى: الغاية، تَمطَّر: أسرع، الخصل: بلوغ الهدف، المعنى: إنني سباق إلى الغايات أبذ غيري من الشعراء، وأحوز قبلهم قصب الرهان.

ثَوَى صافنًا في مَرْبَطِ الهُونِ يشتكي
بتَصْهالهِ ما نالهُ من أذى الشَّكْل[1]

☆☆☆☆☆

أفي العدلِ أنْ وافَتْكَ تَتْرَى رسائلي
فلم تَتَّرِكْ وَضْعًا لها في يَدَيْ عَدل؟[2]
أُعِدُّك للجُلّى، وآملُ أنْ أُرى
بنُعماكَ مَوْسومًا، وما أنا بالغُفل[3]
وما زال وَعْدُ النفسِ لي منكَ بالمُنَى
كأنّي به قد شِمْتُ بارِقَةَ المَحل[4]

☆☆☆☆☆

أئِنْ زعمَ الواشُونَ ما ليس مَزْعَمًا
تُعذِّرُ في نصري وتَعْذِرُ في خَذْلي؟[5]
وأصْدَى إلى إسعافِكَ السائغِ الجَنى؟
وأَضْحَى لدى إنصافكَ السَّابغِ الظِّلّ؟[6]

---

(١) الصافن: القائم على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر، الهون: الذل، شكل الدابة: شدّ قوائمها بالحبل، والمعنى: إنني مثل الجواد المربوط في مكان ضنك وقد شدّت قوائمه بالأغلال فشكا بصهيله ما أصابته به القيود والأغلال، وفي مثل هذا يقول عنترة:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمي

(٢) المعنى: أفي شريعة العدل أن أفزع إليك متوسلاً بالرسائل المتوالية فتصم أذنيك عن سماعها، وتضعها في يد ظالمة؟ ولعله يقصد بهذا ابن المكوى الذي حاكمه فظلمه وزج به في السجن.

(٣) الجلى: الأمر العظيم، موسومًا: معلمًا أي مميزًا، الغفل: الذي لا علامة أو ميزة فيه، والمعنى: إنني أدخرك للأمور الجليلة آملاً أن أتميز عن الجميع بآثار نعمتك عليّ، وإن كنت ممتازًا بمواهبي وآثاري.

(٤) المعنى: لا أزال متعلقًا بآمالي فيك، على الرغم من إعراضك عني، كأني متعلق بالسراب الخادع والسحاب الكاذب.

(٥) في نسختي ب، ز (وإن زعم الواشون) وفي ت (لأن) وفي أ (أئن زعم) وفي الذخيرة ومسالك الأبصار «أأن زعم»، زعم: قال حقًا أو قال باطلاً ضد، وأكثر ما يقال في ما يشك فيه أو يعتقد إنه كذب، وقد ورد في كل موضع من القرآن ذمًا، المزعم: الزعم أو الطمع، ومنه زعم فلان في غير مطمع، عذّر في الأمر: قصر فيه، أعذر: التمس عذرًا، والمعنى، ما بالك أيها الأمير تصغي لأكاذيب الوشاة الواضحة البطلان فتقصر في شد أزري؟ وما لك تلتمس الأعذار في التخلي عني؟

(٦) أصدى: أظمأ، السائغ: السهل الحلو، الجنى: الثمار، أضحى: من الفعل ضحا يضحى إذا برز للشمس، السابغ: الواسع الممتدّ، والمعنى: كيف أظمأ وعندك أعذب الري؟ وكيف تلفحني الشمس وعندك أسبغ الظل؟.

[وغـــيـــرك] رامَ الـــعُـــذْرُ إبلاغَ سَـــمْـــعِهِ

فـصَمَّ [وأصْـغَى لـلـوقـيـعـةِ والـعَذْل][1]

ولــو أنــني واقَـعْتُ عَـمْـدًا خَـطـيـئـةً

لما كـان بِدْعًـا من سجـايـاكَ أن تُـمْلي[2]

فـلـم أسْـتَـثـِرْ حـربَ «الـفِـجـار» ولم أُطِعْ

«مُـسَـيْـلَـمَـةً» إذ قـال: إنّي من الـرُّسل[3]

ومِـثْـليَ قـد تـهـفـو به نـشـوةُ الـصِّبـا

ومِـثـلُكَ من يـعـفـو، ومـا لك من مِـثْل[4]

وإني لــتــنـــهـــانِي نُـــهـــاي عن الـــتي

أشـاد بـهـا الـواشي، ويـعـقِلُني عـقـلي[5]

☆☆☆☆☆

أأنــكُثُ فــيكَ المــدحَ من بـــعـــد قُـــوّةٍ

ولا أقْـتَـدي إلا بـنـاقِـضَـةِ الـغَـزل؟[6]

---

(١) ورد البيت في الأصول محرفا وناقصا هكذا:

وحـاشــاك رام الـعـذر إبلاغ سـمـعه

فـــصم ....

وقد أكملنا، بما يناسب المقام، والمعنى إن غيرك هو الذي يصم أذنيه عن الأعذار ويستمع للوشاة والحساد، وأما مثلك في منزلتك ومروءتك فهو فوق هذا بكثير.

(٢) أملى: أطال، وأملَى الله له: أمهله وطوّل له، وأملاه عمره متعه به، والمعنى: لو كنت مخطئًا حقا لما كان غريبًا من سجاياك الحميدة أن ترجئ عقوبتي أو لا بمتعتي بعفوك.

(٣) حرب الفجار: حرب فجر فيها العرب لأنهم قاتلوا فيها في الأشهر الحرم وقد حدث هذا أربع مرات في الجاهلية آخرها حرب الفجار بين قريش وكنانة من جانب وقيس عيلان من جانب آخر، وشهدها النبي صلوات الله عليه في مستهل شبابه قبل البعثة، مسيلمة: زعيم بني حنيفة ادّعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وزعم أنه شريك له في الولاية على الأمة، وقد استفحل شره في بدء خلافة أبي بكر حتى قضى عليه بعد معركة دامية قادها خالد بن الوليد. والمعنى: مهما كان لي من ذنب فإنه موضع للعفو لأنني لم أثر حرب الفجار، ولم أتابع مسيلمة الكذاب في دعواه، وفي الذخيرة وإعتاب الكتاب «ولم أستثر».

(٤) إذا دفعتني نزوة الصبا إلى الهفوات فإن مثلك جدير بالعفو والغفران، وإن كنت في السمو والمروءة فوق المثيل والنظير.

(٥) في الذخيرة (أشار بها)، وفي إعتاب الكتاب (الذي... أشاد به). النهى: العقل، يعقلني: يمسكني، والمعنى: إن عقلي ليمنعني من الاندفاع إلى الأخطاء التي اخترعها عليّ الوشاة.

(٦) في الذخيرة والمسالك (أأنقض فيك المدح.. فلا) وفي المسالك (فلا أفتضي)، أنكث: أحل ما أبرمته، ناقضة الغزل: هي ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم القرشية كانت خرقاء تحل ما غزلته، وقد أشارت إليها الآية الكريمة (ولا تكونوا كالتي

ذَمَــمْتُ إذًا عَــهْــدَ الحــيــاة، ولا يــزلْ

مُمِراً على الأيامِ طَعْمُهُمَا المُحْلي[١]

وما كنتُ بالمُهدي إلى السُّودَدِ الخَنا

ولا بالمسيءِ القولَ في الحَسَنِ الفِعْلِ[٢]

ومـــا لِيَ لا أُثْـــني بـــآلاءِ مُـــنْـــعِمٍ

إذا الروضُ أثنى بالنسيم على الطَّلِّ؟[٣]

هِيَ النَّعْلُ زلّتْ بي، فهل أنتَ مُكْذِبٌ

لِقِيلِ الأعادي إنّها زلّةُ الحَسْلِ[٤]

وهل لكَ في أنْ تَشفعَ الطَّوْلَ شافعًا

فتُنْجِحَ ميمونَ النقيبَةِ أو تُبْلي[٥]

أَجِرْ أعْدِ آمِنْ احْسِنِ ابدأ عُدِ اكْفِ حُطْ

تَحَفَّ ابسُطِ استأْلفْ صُنِ احْمِ اصْطَنِعْ أَعْلِ[٦]

---

(١) أمر الشيء: صار مرًا، أحلى الشي: جعله حلوًا، والمعنى: إذا كنت قد هجرتك فإنني أستحق أن يجعل الله حياتي الحميدة ذميمة، وطعم إياديك الحلوة مرًا، وفي أصول الديوان (طعمها المحلي) ولعل الصواب ما أثبتناه. لأن الضمير لا يستقيم مع رواية الديوان.

(٢) السؤدد والسودد: المجد والسيادة، الخنا: الفحش، والمعنى: ما كنت لأهجوك فأسب المجد والكرم فيك، وما كنت لأسيء القول في صاحب الفعال الطيبات ومانح المكرمات.

(٣) الآلاء: النعم، والمعنى: كيف أسكت عن شكر أياديك ذات الطول والإحسان؟ وكيف لا أقتدي بالروض حينما يثني على الطل بنفحات النسيم؟

(٤) الحسل: الرذل الخسيس، أو السوَّق الشديد، والحسل: ولد الضب، ويقال إن الضبّ تأكل صغارها، ومن الممكن توجيه المعنى على هذه الوجوه الثلاثة:

أ - لقد زللت رغمًا عني، وعثرات الكرام قليلة وهي أهل للغفران، فلا تستمع لقيل حسادي إنها زلة خسيس لئيم، وهو لهذا جدير بالعقاب.

ب - لقد زللت مع احتراسي، فلا تصدق قول خصمي: إنها زلة مندفع متهور لا قيام له من سقطته.

ج - لقد زللت وإنني لأرجو النهوض من عثرتي، وأعدائي يزعمون أنها سقطة قاتلة لا نجاة منها كما يسقط الحسل فتلتهمه أمه، فلا تصدّقهم في ما يزعمون.

(٥) الطول: الإنعام والإحسان، ميمون النقيبة: مبارك النفس أو الأمر، أبلاه عذرا: أداه إليه فقبله، والمعنى: أتمنى أن تضم إلى أفضالك السابقة فضل الشفاعة لي فتسل أحقاد خصمي، أو تبلي عذرًا بما بذلته من مساعيك الحميدة.

(٦) أجر: ابسط حمايتك على من يستجير بك، أعد: أعن، اكف: أعط كفاية، حط: تعهد، تحفَّ: رحب، اصطنع: اتخذ الصنائع التي تجذب بها القلوب إليك، أعل: ارفع من تشاء.

وقد تنافس بعض الشعراء في حشد أكبر مقدار من الأفعال في البيت الواحد فأسفّوا كما فعل شاعرنا ابن زيدون في هذا البيت، ولعله ينظر فيه إلى قول المتنبي:

أقل، أنِل، أقطع، احمل، علّ، سلّ، أعد

زد، هش، بش، تفضل أدن، سُرَّ، صل

ولعل المتنبي نظر فيه إلى قول أبي العميثل في عبدالله بن ظاهر:

أصدق وعف وجد وأنصف واحتمل

واصفح وكاف ودار واحلم واشجع

مُنًى - لو تَسَنَّى عَقْدُها بيد الرِّضا -

تَيَسَّرَ منها كلُّ مُسْتَصْعَب الحَلِّ[1]

٭٭٭٭٭

ألا إن ظنّي - بين فِعْلَيْكَ - واقفٌ

وُقوفَ الهَوى بينَ القطيعةِ والوَصْلِ[2]

فإن تُمْنَ لي منكَ الأماني فَشِيمَةٌ

لذاك الفَعالِ القَصْدِ والخُلُقِ الرَّسْلِ[3]

وإلاّ جَنَيْتُ الأُنْسَ من وَحْشَةِ النَّوَى

وهَوْلِ السُّرى بينَ المطيَّةِ والرَّحْلِ[4]

٭٭٭٭٭

سَيُعْنَى بما ضَيَّعْتَ منّي حافظٌ

ويُلفى لِمَا أرخَصْتَ من خَطَري مُغْلي[5]

وأين جوابٌ منك تَرضى به العُلا؟

إذا سَألَتْني عنك ألْسِنَةُ الحَفْلِ[6]

****

---

(١) تسنى: تيسر، والمعنى: هذه الآمال لو تيسر وصلها بأسباب القبول لسهلت تيسير كل أمر عسير.

(٢) المعنى: إنني واقف مترقب ما تفعله عن عقاب أو صفح جميل، كما يقف المحب المغرم مترقبا من حبيبته الصد أو الإقبال.

(٣) تُمنى: تقدرُ، مأخوذ من منى له، أي قدر، الفعال: الكرم، القصد: العدل، الرسل: السير اللين السهل، والرسل: الرفق والتؤدة، والمعنى، إذا حققت آمالي فيك فهذا جدير بمآثرك القائمة على العدل، وأخلاقك المتسمة بالرفق والفضل.

(٤) السرى: السير ليلاً، المطية: الركوبة المسرعة، الرحل: مسكن الرجل أو ما يستصحبه من الأثاث، أو رحل البعير وهو أصغر من القتب، والمعنى: إذا لم أحظ منك بالصفح الجميل فسوف أرحل، وأحتمل مرارة الفراق لأظفر بحلاوة الأمان، وأكابد مشقة الأسفار في وحشة الظلام لأظفر بالسكينة والاستقرار بعيدًا عن الذل والهوان.

(٥) في نسخ ب، ت، ز «بما أرخصت»، والمعنى: إذا ضيعتني فسأجد من يحفظني، وإذا أرخصت مكاني فسأجد من يعرفه، ويقدره حق قدره.

(٦) آثرنا رواية القلائد والذخيرة، وفي أصول الديوان.

وأين جوابٌ عنك....

إذا سألتني بعد.....

والمعنى: إذا سألني الناس عنك فبماذا أجيب؟ وهل من سبيل لأن أذكر لهم ما يتسق مع مجدك وعلاك؟

طبائع النفوس[1]

«أرسل الشاعر هذه النفثة الحارة من سجنه إلى صديقه أبي حفص بن برد الأصغر»:

مـــا عـــــلى ظَـــنِّـيَ بـــاسُ
يـــجـــرحُ الـــدهـــرُ ويـــاســو[2]
رُبَّـــمـــا أشـــرفَ بـــالـــمَـــرْ
ءِ عـــــلى الآمـــالِ يـــاسُ[3]
ولَـــقـــدْ يُـــنـــجـــيكَ إغـــفـــا
لٌ ويُـــرديكَ احْـــتِـــراسُ[4]
والـــمَـــحـــاذيـــرُ سِـــهـــامٌ
والمـــقـــاديـــرُ قِـــيـــاسُ[5]
وَلَـــكَمْ أَجْـــدَى قُـــعـــودٌ
ولـــكمْ أكْـــدَى الْـــتِـــمـــاسُ[6]

---

(١) وردت هذه القصيدة في الذخيرة والقلائد مع حذف بعض الأبيات واختلاف في ترتيب الباقي منها، وقد التزمنا رواية أصول الديوان.

(٢) باس: بأس سهلت همزته، ياسو: يأسو أي يداوي، والمعنى: لا بأس عليّ إن أصابني الدهر، فمن شيمته أن يجرح ثم يداوي الجراح.

(٣) المعنى: قد يفتح اليأس أبواب الرجاء، فإذا اشتد الخطب هان. وشبيه به قول الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

(٤) في الذخيرة والقلائد وتمام المتون «ويؤذيك احتراس»، والمعنى: قد يكون قعود المرء سببًا في نجاته، وقد يكون احتراسه سببًا في هلاكه.

(٥) البيت زيادة من الذخيرة، المحاذير: الأمور المخيفة المفزعة، قياس: جمع قوس، والمعنى: إن المقادير هي التي تسبب النكبات كما ترسل الأقواس السهام.

(٦) أكدى الرجل: قلّ خيره أو قطع عطاءه، والمعنى: ربما نفع القعود وربما ضر السعي، فالأقدار بيد الله يصرّفها كيف شاء.

وكـــــذا الـــــدهـــــرُ، إذا مــــا

عَـــــزَّ نـــــاسٌ ذلَّ نـــــــاسُ[١]

وبـــــنـــــو الأيَّـــــام أخْـــــيـــــا

فٌ: سَـــــراةٌ وخِـــــســـــــاسُ[٢]

نَـــلْـــبَسُ الـــدنـــيـــا، ولـــكنْ

مـــتـــعـــةٌ ذاكَ الـــلِّـــبـــاسُ[٣]

☆☆☆☆☆

يـــا أبـــا حَـــفْصٍ ومـــا ســـا

واكَ فـي فـــــهـمٍ إيـــــاسُ[٤]

مِـن سَـــــنـــــا رَأْيِـكَ لـي في

غَـسَقِ الخَـطْبِ اقْـتِـبـاسُ[٥]

وودِادي لــــــك نــــــصٌّ

لم يُـخـالِـفْهُ الـقِـيـاسُ[٦]

---

(١) في القلائد والخريدة «وكذا الحكم»، والمعنى: من شيمة الدهر أن يرفع اقوامًا ليذلّ آخرين، وقد نظر في هذا إلى قول البحتري:

إذا مـا نـسـبت الحـادثـات وجـدتـهـا

بـنـات زمـان أرصـدت لـبـنـيـه

مـتى أرت الـدنـيـا نـبـاهـة خـامل

فلا تـرتـقب إلا خـمـول نـبـيـه

(٢) أخياف: مختلفون، وإخوة أخياف: إذا كانت أمهم واحدة والآباء شتّى، سراة: جمع سريّ وهو الماجد السخي، والمعنى: طباع الناس – على تشابههم في الخلقة – متباينة، فمنهم الأشراف، ومنهم السفلة والأوغاد.

(٣) المعنى: نلبس الدنيا ولكن إلى حين، فهي متعة إلى زوال.

(٤) إياس بن معاوية تولّى قضاء البصرة في زمن عمر بن عبدالعزيز وكان مضرب المثل في الذكاء، وقد عناه أبو تمام في قصيدته التي مدح بها أحمد بن المعتصم بقوله:

إقـدام عـمـرو في سـمـاحـة حـاتم

في حـلم أحـنف في ذكـاء إيـاس

(٥) سناء: ضوء، غسق: ظلام، وفي بعض نسخ الذخيرة «ظلم الخطب».

(٦) النص: القول المحكم من قرآن كريم أو حديث شريف، ولا مجال للرأي معه، فإذا لم يوجد نص قاطع استعمل الفقهاء القياس، وهو أن يقيسوا المشكلة الحاضرة إلى مثيلاتها مما ورد فيها نص صريح، والمعنى: حبي لك توافرت عليه الأدلة النقلية والعقلية، وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة وفي الأصول «قياس».

أنـــــا حَــــــيْـــــرانُ، ولـلأمْـ

ـــــر وضــــوحٌ والْـــتِـــبــــاسُ

مـــا تـــرَى في مَـــعْـــشَـــرٍ حـــا

لـــوا عنِ الـعَـــهْـــدِ وخَـــاســـوا[1]

وَرَأَوْنِــي ســــــــامِـــــــريّـــــــاً

يُـــتَّـــقَى مـــنـه الـــمِـــســـاسُ[2]

أذْؤبٌ هـــــامَتْ بــــلـــحـــمي

فـــانْـــتِـــهـــاشٌ وانْـــتِـــهـــاسُ[3]

كــــلُّـــــهُمْ يَـــسْـــألُ عن حـــا

لـي، ولـــلـــذئبِ اعْـــتِـــســـاسُ[4]

✡✡✡✡✡

إنْ قَـــسَـــا الـــدهـــرُ فـــلـــلـــمـــا

ءِ منَ الـــصَّـــخْـــرِ انْـــبِـــجـــاسُ[5]

ولـــئنْ أمْـــسَـــيْتُ مـــحـــبـــو

سًـــا، فـــلـــلـــغَـــيثِ احْـــتِـــبـــاسُ[6]

---

(١) خاس: غدر ونكث.

(٢) السامري: أحد زعماء بني إسرائيل، لما ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه أضلّ السامري بني إسرائيل ودعاهم إلى الشرك بالله، فعاقبه الله بالوحشة والانفراد فلا يمسّ إنسانًا إلا أدركتهما الحمّى معًا، فكان يتحاشى الناس ويناديهم إذا رآهم «لا مساس»، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإنّ لك موعدًا لن تخلفه﴾.

(٣) في الذخيرة «فالتهام وانتهاس»، وفي القلائد والخريدة «فانتهاب» الانتهاش: القضم بالأضراس، الانتهاس: القضم بأطراف الأسنان.

(٤) اعتساس: تسلل في الظلام، والمعنى: إن الناس ذئاب تحاول أن تفترسني وتتسلل لتنتهز فرصة لالتهامي كما ينسلّ الذئبُ لفريسته في الظلام.

(٥) انبجس: تفجّر، والمعنى: إذا قسا الدهر فقد ينجم عن قسوته النعيم كما يتفجر من الصخر الماء الزلال.

(٦) في الذخيرة «إن أكن أمسيت..»، والمعنى: لا عجب إن كنت مطروحًا في السجن، فالغيث قد يحتبسُ حينًا عن السقوط، ثم لا يلبث أن يهطل فيسقي النبات.

يَــلْــبَــدُ الــوَرْدُ الــسَّــبَــنْــتَى
ولـهُ بَـــــعْـــــدُ افْــــتِــــراسُ[1]

☆☆☆☆☆

فَــــتَــــأمَّلْ كـــيف يَــــغْــــشَى
مُــقــلــةَ المجــد الــنُّــعــاسُ
ويُــــفَــتُّ المــــسكُ في الــــتُّـــرْ
بِ فــــيــــوطَــــا ويُــــداسُ[2]

☆☆☆☆☆

لا يــــكنْ عــــهــــدُكَ وردًا
إنَّ عــــهــــدي لـكَ آسُ
وأَدِرْ ذِكْــــرِيَ كــــأسًــــا
مــا امْــتَــطَتْ كــفَّكَ كــاسُ[3]
واغْــتَــنِمْ صَــفْــوَ الــلــيــالي
إنّــمــا الــعــيشُ اخْــتلاسُ
وعـــسى أن يَــسْــمَحَ الــدهـ
ــرُ، فــقــد طــالَ الــشِّــمــاسُ[4]

****

(١) يلبد: يقيم بمكانه لا يبرحه، الورد: من أسماء الأسد، السبنتى: الأسد او النمر أو الجريء، والمعنى: يسكن الأسد حينًا ثم يثب على فريسته، ومثله قول ابن الرومي:

سـكـنت سـكـونًـا كـان رهـنًـا لـوثـبـة
عـمـاس، كـذاك الـلـيث لـلـوثب يـلـبـد

(٢) معنى البيتين: انظر كيف أغلق الدهر عين المجد بالنعاس؟ وكيف أصبح المسك مطروحًا في التراب تحت النعال؟ وكيف هان مثلي بعد إعزاز؟ الورد مشهور بسرعة الذبول، والآس مشهور بطول احتماله، والمعنى: أرجو أن يكون ودك ثابتًا دائمًا مثل ودي، ومثل هذا قول العباس بن الأحنف:

لا تجـعـلي ودنـا كـالـورد حـين مـضى
ذا طــلــعــة، وأديمي الــود كــالآس

(٣) المعنى: تذكرني كلما صفت لك الحياة، وطاب لك الشراب.

(٤) سمح الرجل وأسمح: اتصف بالجود والسهولة واليسر، الشماس: الجماح والعصيان، وفي الذخيرة والقلائد «فعسى أن يسمح».

عتب ورجاء[1]

«كتب الشاعر في أخريات أيام سجنه رسالته الجدّية وأودعها ما أودعها من عتب وشكوى ورجاء، ثم شفعها بهذه القصيدة الضارعة»:

الـهَـوَى في طُـلـوعِ تـلـكَ الـنُّـجـومِ
والـمُـنَى في هـبـوبِ ذاكَ الـنَّـسـيمِ[2]
سـرَّنـا عَـيْـشُـنـا الـرقـيقُ الحـواشي
لـو يـدومُ الـسُّـرورُ لـلـمُـسْـتَـديمِ

ومنها[3]:

وَطَـرٌ مـا انْـقَـضَى إلى أن تَـقَـضَّى
زمنٌ مـا ذِمـامُهُ بـالـذَّمـيمِ[4]
إذ خِـتـامُ الـرِّضـا الـمُـسَـوَّغِ مِـسْكٌ
ومِـزاجُ الـوِصـالِ من تَـسْـنـيمِ[5]

✡✡✡✡

وغَـريضِ الـدلاّل غضٍّ جَـنَى الـصَّبْـ
ـوَةِ نَـشْـوانَ من سُلافِ الـنَّـعـيمِ[6]

---

(١) يظهر أن القصيدة لم تصلنا بتمامها كما نفهم من الذخيرة.

(٢) المعنى: الهوى معقود بظهور هؤلاء الغيد الحسان المضيئات إضاءة النجوم. والآمال منوطة بهبوب النسيم الذي يحمل إلينا نفحاتهن العطرات.

(٣) وردت هذه الكلمة بالذخيرة مما يوحي بأن هناك أبياتًا محذوفة.

(٤) وطر: أمل مرتقب، الذمام: العهد، والمعنى: لم نظفر بآمالنا حتى انطوى عهدنا السعيد، ومثل هذا قولنا من قصيدة:

حـلم هـنيء مـرحـنـا تحت أيـكـته
ومـا ظـفـرنـا به حـتى فـقـدنـاه

(٥) المسوغ: الهنيء، التسنيم: عين في الجنة، وفي البيت إشارة إلى الآية الكريمة ﴿يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينًا يشرب بها المقربون﴾.

(٦) الغريض: كل أبيض لين الملمس، غض: ناضر طري، الجنى: الثمر، الصبوة: غرة الشباب، نشوان: سكران، السلاف: ما تحلّب وسال قبل العصر، وهو أفضل الخمر، والمعنى: هذا الحبيب رفيق لعوب ناضر الصبا غض الإهاب سكران من حياته المترفة وعيشه اللذيذ الخصيب.

طـــالمـــا نـــافَـــرَ الـــهَـــوَى مـــنه غِـــرٌّ
لم يَـــطُلْ عـــهـــدُ جِـــيـــدهِ بـــالـــتَّـــمـــيم[1]
[زار مُـسْـتَـخْـفِـيًـا، وهـيـهـاتَ أن يَـخْـ
ـفَى سَـنـا الـبـدرِ في الـظّلامِ الـبَـهـيم][2]
[فَـوَشَى الحَـلْيُ إذْ مَـشَى، وهـفـا الـطِـيـ
ـبُ إلى حِسِّ كـــاشحٍ بـــالـــنَّـــمـــيمِ][3]

✲✲✲✲✲

أيّـــهـــا الـــمُـــؤْذِني بـــظُـــلـمِ الـــلَّـــيـــالي
لـــيس يَـــوْمِي بـــواحـــدٍ من ظَـــلـــومِ[4]
مـــا تـــرى الـــبـــدرَ - إن تـــأمّـــلْتَ - والـــشَّـــمْـ
ـسَ هـــمـــا يُـكـسَـفـانِ دونَ الـنُّـجـومِ[5]
وَهُـــوَ الـــدَّهْـــرُ لـــيس يَـــنْـــفَكُّ يَـــنْـــحـــو
بـالـمُـصـابِ الـعـظـيمِ نَـحْـوَ الـعـظـيمِ[6]

✲✲✲✲✲

---

(١) غرّ: ساذج، التميم: مأخوذة من تممت الوالدة المولود إذا علقت عليه التميمة وهي عوذة تعلق على الصبيّ مخافة العين، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي في رثاء بنيه:

وإذا المـــنـــيـــة أنـــشـــبت أظـــفـــارهـــا
ألـــفـــيت كلّ تـــمـــيـــمـــة لا تـــنـــفع

والمعنى: هذا الحبيب اللعوب الذي ما زال قريب العهد بالطفولة طالما تأبّى وتدلل في هواه فأثار القلوب وألهب الوجدان.

(٢) هذا البيت والتالي له زيادة من الذخيرة وتمام المتون ونهاية الأرب، وفي الذخيرة «سرى البدر» وفي نهاية الأرب «يختفي البدر»، البهيم: الشديد الظلمة، والمعنى: زارني الحبيب متسترا تحت أذيال الظلام، ولكن أضواء وجهه كشفته للعيان، فمن العسير أن يتخفّى البدر في ألفاف الظلام.

(٣) الكاشح: العدو الحاقد، والمعنى: أراد الحبيب أن يزورني مستخفيا ولكن وسواس حليه، ونفحات طيبه نمت عليه، ونبهت الرقيب إليه، وفي نهاية الأرب «إلى حيث كاشح».

(٤) في تمام المتون «ليس دهري»، والمعنى: ليست هذه الكارثة بفريدة عندي فلدي من أمثالها الكثير، وهو في هذا ينظر إلى قول العباس بن الأحنف:

لـــيس يـــومي بـــواحـــد من ظـــلـــوم
وابـــتـــلائي من حـــــادث وقـــــديم
لـيـتـهـا تـشـكـر الـنـحـول لمـثـلي
جـــســـدي مـــبـــتـــلـى بـقـلـب مـشـوم

وفي رواية تمام المتون «ليس يستكثر النحول لمثلي».

(٥) آثرنا رواية الذخيرة وتمام المتون. وفي أصول الديوان «قمر الأفق إن تأملت» والمعنى: إن الأحداث لا تصيب إلا العظماء، كما أن الكسوف لا يصيب النجوم، وإنما ينال الشمس والقمر.

(٦) المعنى: لا يفتأ الدهر يرمي العظماء بأحداثه العظام.

بــوّأ الــلّهُ «جَــهْــوَرًا» أشــرفَ الــسُّــو
دَد في الــسَّــرْوِ والــلُّــبــابِ الــصَّــمــيمِ[1]
واحـــــدٌ ســــلّمَ الجــــمـــيعُ له الأمْــ
ــرَ، فكـان الخُـصـوصُ وَفْقَ الـعُـمـومِ[2]
قــلــد الــغُــمْــرُ ذا الــتَّــجــارب فــيه
واكْــتَــفَى جـاهلٌ بــعــلمِ الــعــلــيمِ[3]
خَـطَـر يَـقْـتَـضي الــكـمـالَ بــنــوعَيْ
خُــــلُقٍ بـــــارع وخَـــــلْقٍ وســــيمِ[4]
[أُسْــوَةُ الــرّوضِ تَــطَّــبــيك بــحــظَّيْ
نــظــرٍ - مــا اعْــتَــمَــرْتَهُ - وشَــمــيمِ][5]

☆☆☆☆

أيُّــــهــذا الـــوزيــرُ هـــا أنــا أشــكــو
والــعَــصــا بــدءُ قَــرْعِــهــا لــلــحــلــيمِ[6]

---

(١) في نسخة ب والذخيرة «شرف السؤدد»، وفي الذخيرة وتمام المتون «في السر»، والمعنى: وهب الله الأمير أعز مكان في المجد والمروءة وأنبته من أصل كريم.

(٢) في بعض نسخ الذخيرة «فوق العموم» وفي نهاية الأرب «له الفضل» والمعنى ألقى إليه الجميع زمام أمورهم، واعتمدوا عليه في تدبير شؤونهم، خاصتهم وعامتهم على السواء.

(٣) الغمر «بضم الغين وفتحها وكسرها»: الساذج الجاهل، والمعنى: اعتمد الجميع على الأمير فبايعه الخاصة عن خبرة وتجربة، وتابعهم العامة في هذا التقليد.

(٤) خطر: شرف وفخار، وسيم: جميل، والمعنى: إن الأمير بلغ أقصى غايات المجد وفاق الجميع بأخلاقه السامية وتكوينه الجميل. وفي تمام المتون «بارع باهر».

(٥) هذا البيت زيادة من تمام المتون، أسوة: قدوة ومثال، تطبيك: تدعوك، اعتمر المكان: قصده، والمعنى: فقت الناس بجلالك وجمالك مثل الروض يدعو قاصديه ومنحهم متعة المنظر الجميل والنفح الطيب العبير.

(٦) في البيت إشارة إلى المثل «إن العصا قرعت لذي الحلم» ومنه قول المتلمس:

لـذي الحلم قـبل اليـوم مـا تـقـرع الـعـصـا
ومـــا عــلـم الإنــســـان إلا لــيــعــلــمــا

وذو الحلم: هو عامر بن الظرب كان من حكماء العرب لا تعدل بفهمه فهمًا، فلما تقدمت به السن أنكر من عقله شيئًا، فقال لبنيه: قد كبرت سنيّ فإذا رأيتموني خرجت عن كلامي فاقرعوا لي المجن بالعصا، وقيل: إن ذا الحلم هو عمرو بن حُممة الدوسي الذي عناه الحارث بن وعلة بقوله:

وزعــــمـــــتُم ألا حــــلــــوم لـــنـــا
إن الــعــصـــا قـــرعت لـــذي الحـــلم

وقيل هو قيس بن خالد الشيباني، والمثل يضرب لمن يتنبه إذا نبه. والمعنى: أيها الوزير لقد ضرعت إليك بالشكوى لأنبهك إلى ما وقع عليّ من ظلم، وآمل أن تتنبه إليه فتزيله.

مــا عَــسِيٌّ أنْ يــألفَ الــسَّــابقُ الــمَــرْ
بَطَ في الــعِــتْقِ مــنه والــتَّــطْــهِــيمِ[1]
وبــقــاءُ الحُــســامِ في الجَــفْنِ يَــثْــنِي
مــنه بــعــد الــمَــضــاءِ والــتَّــصــمــيمِ[2]
أفَــصَــبْــرٌ مِــئــينَ خَــمْــسًــا من الأيّــا
مِ، نـــاهـــيكَ من عـــذابٍ ألـــيمِ!![3]
ومُـــعَـــنًّى مِنَ الــضَّــنَى بـــهَــنــاتٍ
نــكــأتْ بــالــكُــلــومِ قَــرْحَ الــكُــلــومِ[4]
سَـــقَمٌ لا أُعـــادُ فـــيه، وفي الـــعـــا
ئــدِ أُنْسٌ يـــفي بـــبُـــرءِ الــسَّــقــيمِ[5]
نـــارُ بَـــغْيٍ سَـــرَى إلى جـــنَّـــة الأمْـ
ـنِ لـظـاهـا، فـأصـبـحتْ كـالـصَّـريمِ[6]

✲✲✲✲✲

(١) ورد البيت ناقصًا في نسخة أ (.. يأنف المربط في العتق منه والتطهيم) وفي تمام المتون (ما غناء أن..) وفي نسخة ب «أن يأنف..» وقد اعتمدنا روايتي نسختي ت، ز، عسي: جدير، السابق: الجواد، العتق: الحسن، التطهيم: الجمال البارع، والمعنى: إن الجواد السابق المطهم غير جدير بالحبس والتقييد في مربطه، ومثل هذا قول المتنبي:

يــقــول لي الــطــبــيب: أكــلــت شــيــئًــا
وداؤك في شـــــرابك والـــــطـــــعـــــام
ومـــــا في طـــــبــه أني جـــــواد
أضـــر بــجــســمــه طــول الجــمــام

والجمام: الراحة.

(٢) في تمام المتون «وثواء الحسام»، والمعنى: إن بقاء الحسام في جفنه يوهيه بعد أن كان مرهفًا بتارًا.

(٣) المعنى: لقد صبرت على محنتي خمسمائة يوم، وحسبك بما أصابني من عذاب أليم.

(٤) معنى: متعب، الضنى: المرض، هنات: دواهي، الكلوم: الجروح، والمعنى: وأنا مصاب من الأمراض بنكبات أدمت جروحي قبل أن تلتئم. وفي ت «قلب الكلوم».

(٥) في الذخيرة وتمام المتون ونهاية الأرب ونسخة ز «لا أعاد منه»، والمعنى: اجتمع عليَّ المرض والوحشة فما يجرؤ زائر على عيادتي، وطالما خفف العائد آلام المريض.

(٦) الصريم: الزرع المحصود أو الليل المظلم، والمعنى: إن نار الظلم أصابت جنة أمني واطمئناني فأحالتها إلى هشيم، وفي البيت إشارة إلى قصة أصحاب الجنة الأشحاء الواردة في سورة (نون) وقد حاولوا الاستئثار بثمار جنتهم ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾. وفي تمام المتون «نار بغي سعى...» وفي نهاية الأرب «سرت إلى جنة الأرض بياتا» وفي الذخيرة «نار بغي سرت.. الأمن بياتا ...».

بـــــأبي أنت!! إنْ تَـــــشَـــــأْ تَكُ بَـــــردًا

وسلامًـــــا كـــــنــــار إبــــــراهـــــيمِ[1]

لـلـشَّـفـيـعِ الـثّـنـاءُ، والحَـمْـدُ في صَـوْ

بِ الحـيـا لـلـريـاح، لا لـلـغُـيـومِ[2]

وزَعـــيمٌ بـــأن يُـــذلَّلَ لِي الـــصّـــعـ

ـبَ، مَـثـابي إلى الـهُـمـامِ الـزّعـيمِ[3]

[أملٌ يَــــرْعَـمُ الجَــــفـــاءُ إلــــيه

وَهْـوَ ثَـبتُ الـمَـقـامِ مـاضي الـعـزيمِ][4]

ووِدادٌ يُـــغـــيِّـــرُ الـــدهـــرَ مـــا شـــا

ءَ ويَـبْـقَى بـقـاءَ عـهـدِ الـكـريمِ[5]

وثـــنـــاءٌ أرْسَـــلْـــتُهُ سَـــلْـــوَةَ الـــظـــا

عِنِ عن شَـوْقِه ولَـهْـوَ الـمُـقـيمِ[6]

فَـهْـوَ ريـحـانـةُ الجـلـيسِ - ولا فَـخْـ

ـرَ - وفــيه مِـزاجُ كـأسِ الـنـديمِ[7]

---

(١) المعنى: أفديك بأبي، إن شئت الإحسان إليّ استطعت أن تحول نكبتي إلى جنة وارفة الظلال، وفي هذا إشارة إلى الآية الكريمة ﴿قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم﴾.

(٢) المعنى: إن شفعت لي فأنت جدير بالحمد، حريّ بالثناء، فالشافع هو أصل النعمة وسببها، كما أن الرياح هي باعثة السحاب وحاملته من مكان إلى مكان، وفي الذخيرة و ت «للشفيع الغناء».

(٣) المعنى: إن لجوئي إلى الهمام الزعيم كفيل بأن يذلل أمامي العقبات، وأن ينيلني أطيب الأمنيات وفي تمام المتون «يذل لي الصعب».

(٤) رعم الشيء رعمًا: رعاه وراقبه، ورعم الشمس: رقب مغيبها، العزيم: العزم والتصميم، والمعنى: إن رجائي فيك ثابت لا يتغير وإن تطلع الجفاء إليه ارتكانًا على إبطائك في نصرتي.

(٥) المعنى: حبي لك باق على الدهر مهما تغيرت القلوب وتبدلت الأحوال وفي تمام المتون «ووِدادي يغير الدهر».

(٦) المعنى: إن ثنائي عليك يتسلى به عن شوقه الراحل ويسعد به المقيم.

(٧) المعنى: مدائحي فيك يتسامر بها السامرون، فهي ريحان للأصدقاء ومزاج لكؤوس الندماء، وفي تمام المتون «ومنه مزاج».

لم يـزل مُـغْـضِـيًـا عـلـى هَـفْـوَةِ الجـا

نـي مُـصـيـخًـا إلـى اعـتـذارِ الـكـريمِ[(١)]

ومـتـى تـبـدأِ الـصَّـنـيـعَـةَ يُـولِـعْ

كَ تَـمـامُ الخِـصـالِ بـالـتَّـتْـمـيمِ[(٢)]

****

(١) أغضى على هفوته: أعرض عن زلته، مصيخًا: مستمعًا، والمعنى: لم تزل أيها الأمير صفوحًا عن زلات العاثرين، مصغيًا إلى اعتذار الكرماء، وفي تمام المتون اعتذار «المليم» والمليم من ألام الرجل: أتى ما يلام عليه، أو المليم: الملوم: الذي وقع عليه اللوم.

(٢) الصنيعة: الإحسان، والمعنى: متى بدأت الإحسان فإن مروءتك توجب عليك أن تتمم ما بدأت به، ومثله قول أبي تمام في مدح محمد بن أبي ربعي:

هـذا سـحـاب أنت سـقت غـمـامه

فـعـلـيك بـعـد الـله فـيض غـمـامه

إن ابـتـداء الـعـرف مـجـد بـاسق

والمجـد كل المجـد في اسـتـتـمـامه

شفاعة مَرجوّة

«فرّ الشاعر من سجنه بقرطبة لاجئًا إلى إشبيلية، ولكن هواه إلى حبيبته وحنينه إلى وطنه جذباه إلى قرطبة فرجع إليها مستخفيًا بضاحيتها «الزهراء». ومنها كتب إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي رسالة مسهبة شرح فيها حالته. ثم أتبعها بهذه القصيدة ملتمسًا شفاعته».

شَحَطْنا، وما للدار نأيٌ ولا شَحْطُ
وشَطَّ بمن نَهْوى المَزارُ، وما شطّوا[١]

أأحْبابَنا ألْوَتْ بحادثِ عَهْدِنا
حوادثُ لا عَقدٌ عليها ولا شَرْطُ[٢]

لَعَمرُكُمُ إنّ الزمانَ الذي قَضَى
بِشَتِّ جميعِ الشَّمْلِ منّا لَمُشْتَطُّ[٣]

وأما الكَرى مُذْ لم أزركمْ فهاجرٌ
زيارتُهُ غِبٌّ، وإلمامُهُ فَرْط[٤]

وما شوقُ مقتولِ الجَوانحِ بالصَّدى
إلى نُطفةٍ زرقاءَ أضْمَرَها وَقْط[٥]

---

(١) في القلائد والخريدة وتمام المتون «وما بالدار»، شحطنا: بعدنا، نأي: بعد، وفي نسخة ت «وشط بما نهوى» وفي الخريدة «وشط بمن أهوى»، والمعنى: نأينا عن أحبابنا وإن كانت ديارهم قريبة منا، وتعسر مزارهم وإن لم يبعدوا عنا.

(٢) ألوت بحادث عهدنا: ذهبت به، العقد: العهد الوثيق، والمعنى أيها الأحباب لقد بدد الزمان عهد نعيمنا القريب، وما لأحكام الدهر عقد تلتزمه ولا شرط ترعاه. وفي الذخيرة «أأحبابنا ولّت...» وفي الذخيرة والقلائد «لا عهد عليها».

(٣) شت الشمل: تفريق الجمع، مشتط: موغل في الجور، والمعنى: وحقك إن الزمان الذي فرق شملنا لغاشم ظلوم.

(٤) الكرى: النوم، زيارته غب: متفرقة قليلة، ومنه «زر غبًا تزدد حبًا»، الإلمام: الزيارة الخفيفة ومنه قول. جعفر بن علبة الحارثي:

ألمت فحيّت، ثم قامت فودّعت
فلما تولت كادت النفس تزهق

الفرط: التقصير، أو الحين، أو ألا تزور إنسانًا إلا بعد أيام لا تزيد عن خمسة عشر يومًا ولا تقل عن ثلاثة، والمعنى: لقد هجرني النوم منذ هجرتكم فما يزورني إلا لمامًا.

(٥) في تمام المتون «بالظما»، نطفة: ماء صاف قليل أو كثير، وقط: حفرة في الصخر يجتمع فيها ماء المطر، والمعنى مرتبط بالبيت التالي.

بــأبــرحَ من شَــوْقي إلـــيــكمْ، ودُونَ مــا

أُديـرُ الــمُـنى عـنه الـقَـتـادَةُ والخَـرْط[1]

وفي الـرَّبْــرَبِ الإنــسيِّ أَحْـوَى، كِـنـاسُهُ

نَواحي ضميري، لا الكثيبُ ولا السَّقط[2]

غــريبُ فــنــونِ الحُــسْنِ يــرتــاحُ دِرعُهُ

متى ضاق ذَرْعًا بالذي حازهُ المِرْط[3]

كــأن فــؤادي يــومَ أهْــوَى مــودِّعًــا

هوى خافقًا منه بحيثُ هَوَى القُرْط[4]

إذا مـا كـتـابُ الـوَجْـدِ أشْـكَلَ سَـطْـرُهُ

فمن زَفرتي شَكلٌ ومن عَبرتي نَقط[5]

ألا هل أتى الــفــتــيــانَ أنَّ فــتــاهمُ

فريسةُ مَنْ يعدو ونُهزَةُ من يسطو؟[6]

وأنَّ الجــوادَ الــفــائتَ الـشَّــأْوِ صــافنٌ

تَــخَــوَّنَهُ شَــكلٌ وأزرى به رَبْط؟[7]

---

(١) بأبرح: بأشد إيلامًا، القتادة: شجرة متشابكة الأغصان مليئة بالأشواك الحادة، وخرط القتاد: جذب شوكه بالأيدي وهو عسير مؤذ، وفي المثل «دونه خرط القتاد»، ومعنى البيتين، إن شوقي إليكم أعنف من شوق الصادي الذي برح به الظمأ إلى نهلة من الماء العذب النمير، ولكن بيني وبين تحقيق آمالي فيكم أهوال وأهوال، ودونها جني الأشواك، وفي الذخيرة «أريد المنى عنه» وفي تمام المتون «شوك القتادة والخرط».

(٢) في القلائد «أهوى كناسه. نواجي»، وفي تمام المتون «ظبي كناسه...» الربرب: سرب البقر الوحشي، أحوى: في شفتيه حمرة ضاربة للسواد، كناس الظبي: مأواه في الشجر يكتن فيه ويستتر، الكثيب: الرمل المكدس، السقط: رقة الرمل حتى ينقطع، والمعنى: في هذا السرب من الأناسي ظبي لا يحتل البيداء وإنما يحتل جوانب قلبي الرحيب.

(٣) في الخريدة «فنون السحر»، درع المرأة: قميصها، المرط: كساء من صوف أو خز تأتزر به النساء، وهو ما نسميه الآن «جونلة» ويشمل الجزء الأسفل من الجسم، والمعنى: لقد رق خصره فجال فوقه القميص، وثقل ردفه فضاق به الإزار.

(٤) المعنى: سقط قلبي خافقًا مضطربًا كما يضطرب قرطه حينما مال عليّ للوداع.

(٥) أشكل: التبس، والمعنى: إذا كان كتاب الحب عسير القراءة فإن حالتي توضحه كل الوضوح فإن لحروفه من زفراتي شكلا يوضح حركاتها ونقطًا تميز الحروف المعجمة عن المهملة فيها.

(٦) يعدو: يعتدي، نهزة: فرصة، والمعنى: أيعلم الفتيان أن الفتى المرموق فيهم أصبح فريسة لكل معتد أثيم؟

(٧) الشأو: الغاية والأمد، صافن: قائم على ثلاثة قوائم ولامس بحرف الرابعة الأرض، تخونه: ذمه وعابه، الشكل: القيد، من

وأن الحُسام العَضْبَ ثاوٍ بجَفْنه
ومـا ذُمّ من غَرْبَيْهِ قَدٌّ ولا قَطُّ[1]؟

☆☆☆☆☆

عليك (أبا بكر) بَكَرْتُ بهمّةٍ
لها الخَطرُ العالي، وإنْ نالها حَطُّ[2]
أبي بَعْدَ ما هِيلَ التُّرابُ على أبي
ورهْطِيَ فَذّاً حيثُ لم يبقَ لي رَهط[3]
لك النّعمةُ الخَضراءُ تَنْدى ظلالُها
عليَّ، ولا جَحْدٌ لديَّ ولا غَمْط[4]
ولولاك لم تثقُبْ زِنادُ قريحتي
فَيَنْتَهِبُ الظلماءَ من نارها سِقْط[5]
ولا ألَّفَتْ أيدي الربيعِ بَدائعي
فمن خاطري نَثْرٌ ومن رَوْضِهِ لَقْط[6]
هرِمتُ وما للشَّيْب وَخْطٌ بِمَفْرِقي
ولكنْ لشَيْبِ الهمّ في كَبِدي وَخْط[7]

---

(١) العضب: القاطع، ثاو: مستقر، غربيه: حديه، قد: قطع طولي، قط: قطع عرضي، والمعنى: وهل علموا أن الحسام المرهف مستقر في غمده مع أنه قاطع بتار، والمراد: إنه جواد سباق، لكن لا ينتفع به في الميدان، وسيف بتار ولكن لا ينتضى في القتال. وفي الخريدة «ولا ذم».

(٢) المعنى: لقد قصدتك يا أبا بكر متجهًا إليك بهمة عالية رفيعة، وإن هوت بها الأحداث الجسام، وفي تمام المتون «لها الخطر الغالي».

(٣) آثرنا رواية الذخيرة والخريدة والقلائد وتمام المتون، وفي أصول الديوان «ورهطي مدًا حين لم يهوني» والمد: هو المدد، وفي الذخيرة والقلائد «حين لم يبق لي» وفي أصول الديوان «حين لم يهوني رهط»، والمعنى: أنت أبي بعد وفاة أبي وأنت أهلي حين فقدت أهلي.

(٤) الجحد: الإنكار، الغمط كفران النعمة واحتقارها، والمعنى: لك أياد سابغة ونعم عديدة ترف ظلالها عليّ فلا أستطيع إنكارها أو بخسها حقها، فإنني أهل للإحسان وجدير بأن أشكر مسديه.

(٥) في الذخيرة «تقدح زناد» ثقب: اتقد، سقط: شرر، والمعنى: لولاك ما ذكت قريحتي فبددت غواشي الجهل وهتك نورها أستار الظلام.

(٦) في الخريدة «... الربيع بدائعي» وفي القلائد «فمن خاطري نظم»، لقط: تناول الشيء بلا مشقة، والمعنى: لولاك ما أبدعت آثارًا فاضت بها خواطري فالتقطها الربيع فأبرزها للأعين نوارًا وأزهارًا.

(٧) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة وتمام المتون، وفي الأصول «وكائن لشيب الهم»، الوخط: انتشار المشيب: المفرق «بفتح الراء وكسرها»: وسط الراس الذي يفرق منه الشعر، والمعنى: لقد ضعفت ولحق الشيب قلبي، وإن لم يلحق بشعري.

وطـاولَ سـوءُ الحـال نـفـسي فـأذكـرتْ
مَنَى الـروضةِ الـغـنّاءِ طاولـهـا الـقَحْط[1]

مـئـينٌ من الأيـام خـمسٌ قـطـعـتُـهـا
أسـيـرًا، وإن لـم يَـبْـدُ شَـدٌّ ولا قَـمْط[2]

أتتْ بي كــمــا مِــيصَ الإنــاءُ منَ الأذى
وأذهب مــا بــالـثَّـوْبِ من دَرَنٍ مَـسْط[3]

أتـدنـو قُـطـوفُ الجـنَّـتَـين لِـمَـعْـشَـرٍ
وغـايـتي الـسِّـدْرُ الـقـلـيلُ أوِ الخَـمْط؟[4]

ومـا كـان ظـنّي أن تُـغَـرِّرَ بي الـمُـنَى
ولـلـغِـرِّ في الـعَـشْـواءِ من ظـنّه خَـبْط[5]

أمَـا وأرتْـنِي الـنـجمَ مـوطئَ أخْـمَـصِي
لـقد وطَّـأتْ خـدّي لأخْـمَصِ من يـخـطـو[6]

ومُـسـتَـبْـطـأِ الـعُـتْـبَى إذا قـلـتُ قـد أنَى
رِضاهُ تَـمـادى الـعَـتْبُ واتَّـصَلَ الـسُّخْط[7]

---

(١) في الخريدة «.. نفسي فأدركت»، المنى: الموت أو القدر. والمعنى: لقد طالت المصائب عليّ فذكرتني هلاك الروضة الغناء إذا طال عليها القحط، وفي الأصول «من الروضة الغناء» ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) في القلائد والخريدة «مئون» ومع أنها تعرب إعراب المذكر السالم فقد أجاز النحويون إعرابها بالحركات مع التزام الياء، وأجاز المبرد التزام الواو، وفي القلائد «عن الأذى... شد ولا ربط» وفي الخريدة «سر ولا نشط»، القمط: ربط يدي الأسير ورجليه، والقمط: حبل تشد به قوائم الشاة للذبح، والمعنى: طويت خمسمائة يوم أسيرًا بالسجن وإن لم تلتف حولي القيود والأغلال.

(٣) في القلائد والخريدة «كما ميط الإناء» وفي الخريدة «من دنس»، ميص: غسل برفق، ميط: أبعد، الدرن: الوسخ، مسط: بلّ الثوب وعصره لتنظيفه، والمعنى: لقد نقتني هذه المحن وأخلصت نفسي من شوائبها كما ينقى الوعاء من القذى والثوب من الأقذار. ولعل صحة البيت « .. كما ميص الإناء من القذى».

(٤) قطوف: ثمار. السدر: النبق، الخمط: المرّ أو الحامض أو شجر كالسدر، والمعنى: أيظفر بالثمار اليانعة الحلوة قوم لا يستحقونها، ولا أظفر إلا بالنبق أو بكل مر حامض من الثمار؟.

(٥) في أصول الديوان والقلائد «أن تغرّ بيَ المنى» وفي الخريدة «أن تغرنيَ المنى» ولعل الأصح ما أثبتناه، غرّر فلان بنفسه وماله: عرّضهما للهلاك، الغر: الأحمق أو قليل التجربة، العشواء الناقة التي لا تبصر فتتخبط في سيرها، والمعنى: ما كنت أظنني أنخدع بالآمال الكاذبة، وأتخبط في شؤوني كما يتخبط الأعمى في الظلام.

(٦) في الخريدة «أوطأت»، الأخمص: باطن القدم، وطأت: مهدت وهيّأت، والمعنى: لقد خدعتني الآمال فحلقت بي في عنان السماء ثم هبطت بي إلى الحضيض، فجعلت خدّي موطئًا للأقدام.

(٧) في القلائد «أتى رضاه» العتبَى: الرضى، أنى: حان، المعنى: إن صفح الأمير بطيء القدوم، وكلما توقعت حدوثه أمعن في البعاد فاتصل عتابي وتمادى غضبه.

ومــا زال يُــدنــيــنــي ويُــنْــئِي قَــبــولَهُ
هَــوًى سَــرَفٌ مــنه وصــاغِــيَــةٌ فَــرْطُ[١]

ونَــــظْمُ ثَــــنــــاءٍ في نِــــظــــام وَلائه
تَــحَــلّتْ به الــدنــيــا، لآلــئُهُ وَسْط[٢]

عــلى خَــصْــرهــا مــنه وِشــاحٌ مُــفَــصَّلٌ
وفي رأســهــا تــاجٌ، وفي جــيدهــا سِمْط[٣]

عــدا سَــمْــعَهُ عــنّي، وأصْــغَى إلى عِــدًا
لــهم في أديمي كلّــمــا اسْــتَــمْــكنــوا عَطٌّ[٤]

بــلــغتُ الــمَدَى – إذ قــصّروا – فــقــلــوبُــهُمْ
مَــكــامِنُ أضْــغــانٍ أَســاوِدُهــا رُقْط[٥]

يُــوَلُّــونَــنِي عُــرْضَ الــكــراهَــةِ والــقِــلى
ومــا دهــرُهُمْ إلا الــنَّــفــاسَــةُ والــغَــمْط[٦]

وقــد وَسَــمــوني بــالــتي لــستُ أهْــلَــهــا
ولم يُــمْنَ أمْــثــالي بــأمْــثــالِــهــا قَطُّ[٧]

(١) في القلائد «فينئي قبوله»، وفي الخريدة «فيأبى قبوله»، سرف: مبالغ، صاغية: حاشية وبطانة، فرط: مجاوز الحد، والمعنى: حب الأمير يقربني منه ويطمعني فيه، ولكن حاشية الأمير وبطانته يدسون لي عنده فيتنكر لي ويبادرني بالعقاب.

(٢) في أصول الديوان «ولاية» وقد آثرنا رواية القلائد، وفي نسخة ز والخريدة «تجلت به الدنيا»، لآلائه وسط: كل لؤلؤة منه جديرة أن تكون واسطة العقد أو خير ما فيه، المعنى: أبعدني الأمير عنه استجابة للوشاة والحساد مع أنني نظمت أبدع القصائد منسقة في ولائي له، فكانت حلية على جيد الزمان.

(٣) وشاح: قلادة مرصعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقها وكشحها، سمط: عقد، والمعنى: تحلت الدنيا بقصائدي في مدحه، فهي وشاح يضم خصرها وتاج يزين رأسها وعقد يحلي عنقها.

(٤) الأديم: الجلد، عط: تمزيق، والمعنى: أصم سمعه عن عتابي وأصغَى إلى وشايات الأعداء الذين يمزقون سمعتي كلما وجدوا إليها سبيلاً.

(٥) المدى: الغاية، الأضغان: الأحقاد، الأساود: جمع أسود وهو الحية العظيمة، رقط: جمع رقطاء وهي الحية المختلطة السواد بالبياض وتعد من أخبث الحيات.

(٦) القلى: الكره، الغبط: الحسد، وقيل أن يتمنى الإنسان الحصول على مثل نعمة غيره دون أن تزول عن صاحبها، والمعنى: أولاني الحاسدون جانب البغض، ولا عجب فإن حياتهم قائمة على الحقد والحسد.

(٧) في الذخيرة والقلائد والخريدة وتمام المتون «ولما انتموني بالتي...»، لم يمن: لم يختبر، والمعنى: وقد نعتوني بالخيانة ولستُ لها أهلاً، وليس من شأن أمثالي أن يرموا بهذا الخلق الذميم.

فَــرَرْتُ، فــإن قــالــوا الــفِــرارُ إرابَــةٌ
فـقـد فـرّ مـوسى حـين همَّ به الـقِـبْطُ[1]
وإنّي لـــراجٍ أنْ تـــعــودَ كَــبَــدْئــهــا
ليَ الـشّـيـمَـةُ الـزهـراءُ والخُـلُقُ الـسَّبْط[2]
وحـلـمُ امـرئٍ تـعـفـو الـذنـوبُ بـعَـفْـوه
وتُـمْـحَى الخطـايـا مِـثْلَ ما مُـحِيَ الخَطُّ[3]
فـمـا لكَ لا تَـخْـتَـصُّـني بـشَـفـاعَـةٍ
يـلـوحُ على دهـري لـمَـيْـسَـمِـهـا عَلْطُ؟[4]
يَـفِي بـنـسـيمِ الـعَـنْـبَـرِ الـوَردِ نَـفْـحُـهـا
إذا شَــعْــشَـعَ المـسكَ الأحَـمَّ بهِ خَــلْطُ[5]
فـإن يُـسْـعِفِ المـولى فَـنُـعْـمى هـنـيـئـةٌ
تُـنَـفِّسُ عن نـفسٍ أَلَظّ بــهــا ضَــغْطُ[6]
وإنْ يَــأْبَ إلاّ قَـبْضَ مَـبْـسـوط فَـضـلـه
ففي يـدِ مَـوْلًى فَـوْقَهُ الـقَـبْضُ والـبَـسْطُ[7]

****

(١) في تمام المتون «فإن قيل.. أرابه»، وفي الخريدة «أرى به»، إرابة: اتهام وشك، والمعنى: فررت مضطراً، فإن جعلوا فراري مثبتا للشك في أمري فقد وهموا لأن سيدنا موسى عليه السلام فرّ من مصر خوفاً من فتك الأقباط.

(٢) السبط: السهل أو الحسن أو الكريم، المعنى: إنني أتمنى أن أسترد مكانتي عنده فتزدهرَ طباعي وتكرم خلائقي.

(٣) في القلائد «تعفى الذنوب» وفي الخريدة «وحكم... بعفوه»، وفي الأصول «لعفوه»، تعفو: تزول، المعنى: أرجو أن يشملني الأمير بعفوه فيمحو ذنوبي كما تمحى من الصحف.

(٤) الميسم: المكواة، علط: كيٌّ في العنق، وفي الخريدة «بميسمها غبط»، والمعنى: ما بالك أيها الأمير لا تشملني بشفاعة تردّ عني غوائل الدهر، وتذل لي قياده وتسمه بسمة الذل والهوان؟.

(٥) في الخريدة «... الورد ريحها»، العنبر: الطيب المعروف، أو الزعفران، الورد: الأحمر، شعشع: مزج، الأحمّ: الأسود، والمعنى: أتمنى أن تخصني بشفاعة يفوح أريجها كما يفوح أريج العنبر إذا اختلط به المسك الأسود.

(٦) في القلائد «فنعمى كريمة» وفي الخريدة «لنفسي عن نفس»، وفي نسخة ز «ألظّ بها ضغط»، ألظّ بالأمر: لزمه، وألظ: دام وأقام ومنه قول المعري:

ألــظّــوا بــالــقــبــيح وتــابــعــوه
ولــو أمــروا به لــتــجــنــبــوه
نــهــاهــم عن طلاب المــال زهــدٌ
ونــادى الحــرص: ويــبــكم اطــلــبــوه

ضغط: ضيق، والمعنى: إذا أسعفني المولى بشفاعته، فهي نعمى كريمة منه تفرج عن نفسي ما لازمها وبرح بها من ضيق.

(٧) المعنى: أما إذا أصرّ، الأمير على أن يبخل عليّ بالشفاعة - وهو الجواد الكريم - فإنني سأسلم أمري إلى خالقي فهو الذي بيده الضر والنفع.

٢ – في عهد أبي الوليد بن جهور

إعراض بعد إقبال[١]

ذهب الشاعر إلى إدريس الثاني الملقب بالعالي سفيرًا لابن جهور، فأطال المكث عنده، وخف على نفسه، وأحضره مجالس أنسه، واستحث الأمير سفيره على العودة فمطله، فعزله الأمير، وأعرض عنه عند عودته، فتزلف إليه الشاعر بهذه الأبيات:

بَـنَـيْتَ فلا تـهـدِمْ، ورِشْتَ فلا تَـبْـرِي
وأمْرَضْتَ حُسّادي، وحاشاك أن تُبْري[٢]

أرى نَـبـوةً لـم أدر سِـرَّ اعْـتِـراضِـهـا
وقد كان يجلو عارضَ الهمِّ أنْ أدري[٣]

جـفـاءٌ هُـوَ الـلـيلُ ادلـهمَّ ظلامُهُ
فلا كوكبٌ للعُذرِ في أُفْقِهِ يَسْري[٤]

هَبِ الـعَـزْلَ أضحى للولايةِ غايةً
كما غايَةُ المُوفي مِنَ الظلِّ أن يُكري[٥]

---

(١) هذه القصيدة ساقطة في نسخة ب.

(٢) راش الصديق: أطعمه وكساه وأصلح حاله، وراش السهم: ركب عليه الريش، وبراه: حدّده ونحته، براه السفر: أهزله وأنحله، وحاشاك أن تبري: أنزهك أن تبرئ حسادي وتشفيهم من مرض الحقد عليّ، والمعنى: لقد بنيت مجدي فلا تهدمه، وأصلحت حالي فلا تفسده، وأشقيت حسادي بعطفك عليّ فلا تسعدهم بالإساءة إليّ، ومثله قول عمير بن حباب:

فرِشني بخير طالما قد بريتني
وخير الموالي من يريش ولا يبري

(٣) نبوة: جفوة وبعد، عارض: سحاب معترض في الأفق، والمعنى: أرى منك جفاءً لا أعرف له سببًا، ولو عرفت سببه لاسترحت من الهواجس والظنون.

(٤) في الأصل «حياء هو الليل...» وقد تكون محرفة عن «خفاء» بمعنى غموض موقف الأمير. وقد يكون الصواب ما ذكرناه، والمعنى: إعراضك عنّي جعل حياتي مظلمة كالليل ولا مجال للعذر أن يشرق في هذا الظلام كما تشرق النجوم فتبدد الظلمات.

(٥) يكري: ينقص أو يزيد ضد، والمقصود هنا هو المعنى الأول، والمعنى: إذا كانت الولاية تنتهي بالعزل فهذا أمر متوقع، ولكن ما بال ظلال نعمك السابغة تنحسر عني دون ذنب أو تقصير؟

فَفِيمَ أرى رَدَّ السّلامِ إشارةً
تُسَوِّغُ بي إزراءَ من شاءَ أنْ يُزري؟[1]

أناسٌ همُ أَخْشَى لِلَذعَةِ مِقْوَلِي
إذا لم يكن ممّا فعلتَ لهم مُضْرِ[2]

فإن عاقتِ الأقدارُ فالنفسُ حُرّةٌ
وإن تَكُنِ العُتْبَى فأحْرِ بها أَحْرِ[3]

****

(١) في الأصول «تسوّغ بي الإزراء» ولعل الصواب ما أثبتناه، تسوّغ: تجيز، والمعنى، أراك تتثاقل في رد تحيتي فتتيح بهذا لخصومي أن يتناولوني بالزراية والاستخفاف.

(٢) في نسخة ت «فيما فعلت»، مضْري: مغري مأخوذة من أضراه بالصيد إذا أغراه به، والمعنى: لقد أغربت بي حسادي وأتحت لهم فرصة النيل مني، مع أنهم يرهبون بأسي ويخشون لذعات لساني.

(٣) العتبَى: الرضاء، أحر بها: أجدر بها، والمعنى: إذا أصررت أيها الأمير على موقفك مني فإنني لن أقبل الضيم والإذلال لأنني حرٌّ أبيٌّ، وإذا بادرت بالصفح والغفران فأنت أجدر بهما من كل إنسان.

رجاء وإشفاق

ثارت بقرطبة فتنة ضد أبي الوليد بن جهور سنة ٤٤٠هـ تولى كبرها أحمد بن محمد ابن ذكوان وأسرته وابن حذام، وقد لفحت جذوتها ابن زيدون، ففزع إلى الأمير متبرئًا من هذه الفتنة معلنًا ما يضمره له بنو ذكوان من البغض والشنآن.

هَلِ النداءُ - الذي أعلنتُ - مُستَمَعُ؟

أم في المئات التي قَدَّمْتُ مُنْتَفَعُ؟[(١)]

إنّي - لأعْجَبُ من حظٍّ يُسَوِّفُ بي

كاليأس من نَيْلِهِ أن يَجْذِبَ الطَّمع[(٢)]

تأبَى السُّكونَ إلى تَعْليلِ دَهْرِيَ لي

نفسٌ - إذا خودِعَتْ - لم تُرضِها الخُدَع[(٣)]

ليس الركونُ إلى الدنيا دليلَ حِجًا

فإنّها دولٌ أيامها مُتَع[(٤)]

تأتي الرزايا نِظامًا من حوادثها

إذِ الفَوائدُ في أثنائها لُمَع[(٥)]

(١) المعنى: هل تصغي أيها الأمير إلى ندائي فتستجيب له؟ وهلا ترى نفعًا لي في مئات الأبيات التي صغتها في الثناء عليك أو في مئات الخدمات التي قدمتها لك؟

(٢) المعنى: حظي من رضاء الأمير مضطرب مبهم لا يكاد يجذبني الطمع إليه حتى يصدّني اليأس عنه، فلا أجد راحة اليأس ولا برد الرجاء.

(٣) في نسخة ت «تعليل دهريَ بي»، والمعنى: إنني لا أغتر بالآمال الكاذبة، ولا تنخدع نفسي بما ينخدع به غيري من معسول الوعود.

(٤) المعنى: لا ينخدع العاقل الحكيم بإقبال الأيام عليه، فإنها لا تلبث أن تدبر عنه، فلكل زمان دولة ورجال، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

(٥) المعنى: تأتي الرّزايا متوالية متتابعة وتأتي النعم في أثنائها كالومضات الخاطفة في سواد الليل البهيم، ومثله قول الشاعر:

تأتي المصائب - حين تأتي - جملةً

وأرى السرور يجيء في الفلتات

أهلُ الـنَّـبـاهـةِ أمـثـالي لـدهـرهمُ
بِـقَـصْـرِهِمْ دون غـايـاتِ الـمُـنَى وَلَعُ[1]

☆☆☆☆☆

لـولا بـنـو «جَـهْـوَرٍ» مـا أشْـرَقَتْ هِـمَـمي
غِـيـدَ الـسّـوالِفِ، في أجْـيـادِهـا تَـلَعُ[2]
هُمُ المـلـوكُ، مـلـوكُ الأرض دونـهمُ
كـمـثلِ بـيض الـلـيـالي دُونَـهـا الـدُّرَعُ[3]
مِنَ الـوَرى، إن يـفـوقـوهمْ فلا عَـجَبٌ
لـذلك الـشَّـهْـرُ من أيّـامِهِ الجُـمَعُ[4]
قـومٌ مـتى يُـحـتـفَلْ في وصف سُـؤدُدِهمْ
لا يـأخُـذِ الـوصفُ إلاّ بَـعْـضَ مـا يَـدَعُ[5]
تَـجَـهَّمَ الـدهـرُ فـانـصـاتَتْ لـهمْ غُـرَرٌ
مـاءُ الـطلاقـة في أسْـرارِهـا دُفَعُ[6]

(١) بقصرهم: بحبسهم ومنعهم، والمعنى: لقد شغف الدهر بأن يحول بين النابهين وبين بلوغ ما يحبون.

(٢) ورد هذا البيت والبيت التالي له في أصول الديوان بهذا الترتيب:

لـولا بـنـو جـهـور مـا أشـرقت هـمـمي
كـمـثل بـيض الـلـيـالي دونـهـا الـدرع
هـم المـلـوك مـلـوك الأرض دونـهـمـو
غـيـد الـسـوالف في أجـيـادهـا تـلـع

وبهذا الوضع يضطرب المعنى، وقد أصلحنا ترتيبهما بما ينتظم به السياق، وقد ورد البيت الأول في الذخيرة كما أصلحناه، أما البيت الثاني فلم يرد بها، وفي الذخيرة «ما أشرقت هِمم»، غيد: جمع غيداء وهي الوسنى المائلة العنق، السالفة: جانب العنق من موضع القرط إلى الترقوة، التلع: طول العنق، المعنى: لولا بنو جهور ما ظهرت آثاري رائعة فتانة مختالة كما تختال الغيداء بجيدها الطويل، وتميل بعنقها في تيه ودلال.

(٣) الدرع: سواد الليلة حتى يطلع القمر في أخرياتها، والمعنى: يمتاز بنو جهور عن ملوك الأرض كما تمتاز الليالي المقمرة من أولها إلى آخرها على ليالي السرار التي لا يظهر القمر إلا في أخرياتها.

(٤) المعنى: لقد فاقوا البشر وإن كانوا منهم، كما تفوق أيام الجمع باقي أيام الشهر، ومثل هذا قول المتنبي:

فـإن تـفـق الأنـام وأنت مـنـهم
فـإنّ المـسك بـعض دم الـغـزال

(٥) في الذخيرة «متى تحتفل»، والمعنى: مهما تفنن الواصفون في الثناء عليهم فإنهم لا يستطيعون أن يتناولوا إلا بعض ما يستحقونه من حمد وثناء.

(٦) في الأصول «فانصاتت لهم غدر» ولعل الصواب ما أثبتناه، تجهم: عبس، انصات: أجاب وأقبل، الغرر: جمع غرّة وهي الجبين، أسرار: جمع سر وهو الخط بالكف أو الجبهة وجمع الجمع أسارير، دفع: جمع دفعة أي دفقة من الماء أو المطر، والمعنى: تجهم الدهر فتبلجت أسارير وجوهم وترقرق فيها ماء السماحة والجود.

بـــاهَتْ وجـــوهُـــهمُ الأعـــراضَ من كـــرمٍ
فـكُـلّـمـا راقَ مَـرْأى طـابَ مُـسْـتَـمَعُ[1]
سَـــرْوٌ تَـــزاحمَ في نَـــظْمِ المـــديحِ لهُ
مَـحـاسِنُ الـشِّـعْـرِ، حـتّى بـيـنـهـا قُرَعُ[2]

☆☆☆☆☆

«أبـو الـولـيـد» قد اسْـتَـوْفَى مـنـاقـبَـهُمْ
فـلـلـتـفـاريق مـنـهـا فـيه مُـجْـتَـمَعُ[3]
هُـــوَ الـــكـــريمُ الـــذي سَنَّ الـــكـــرامُ لهُ
زُهْـرَ المسـاعي فـلم تَـسْـتَـهْوِهِ الـبِدَعُ[4]
من عِـتْـرَةٍ أوْهَـمَـتْهُ في تَـعـاقُـبِـهـا
أنّ المـكـارمَ إيـصـاءً بـهـا شِـرَعُ[5]
مُـــهَـــذَّبٌ أخْـــلَـــصَـــتْهُ أوَّلِـــيَّـــتُهُ
كـالـسَّـيْفِ بـالـغَ في إخلاصِهِ الـصَّنَعُ[6]
إنَّ الـسُّـيـوفَ إذا مـا طـابَ جَـوْهَـرُهـا
في أولِ الـطَّـبعِ لـمْ يَـعْـلَقْ بـهـا طَـبَعُ[7]

(١) المعنى: طابت أخلاقهم كما ازدانت وجوههم، فزكت أخبارهم في المسامع وراقت مشاهدهم للأبصار.

(٢) سرو: شرف، قُرع: جمع قرعة، وهي السهمة التي يقترع عليها لاستخراج النصيب في الميسر وأمثاله، والمعنى: تتزاحم القصائد في الثناء على مكارمه، فإذا اشتد بينها الزحام اقترعت فيما بينها على من يفوز به.

(٣) في الذخيرة «استوفى مناقبه»، والمعنى: إن المكارم المتفرقة في شتى الملوك قد اجتمعت فيه وحده فاستوفى جميع المكرمات.

(٤) البدع: المستحدثات المخالفة للتقاليد، وفي الحديث الشريف «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، والمعنى: لقد تابع الأمير – في الحرص على المآثر والمكرمات – ما سنّه له اباؤه السابقون، فلم يندفع وراء المستحدثات التي تستهوي بمظاهرها السطحيين.

(٥) العترة: الأهل الأقربون، شِرع: جمع شرعة أي مذهب أو منهج، والمعنى: لقد انحدر هذا الأمير من سلالة كريمة لقنته أن أداء المكرمات واجب لا يقل عن أداء مناسك الدين.

(٦) الصنع: الماهر الحاذق، والمعنى: إن آباءه هذبوه وربوه على أنبل الطباع وأجمل السجايا كما يتفنن الصانع الماهر في صياغة السيف نقيًا من الشوائب والعيوب.

(٧) الطبع: الصنع مأخوذ من طبع الصانع السيف والدرهم وعملهما، الطبَع: الصدأ أو العيب والشين، والمعنى: إن ابن جهور كريم الأصل عريق النسب، لا تلحق به شائبة، كالسيوف النقية العنصر، تأتي عند تمام صناعتها بديعة الجوهر صقيلة

جـذلانُ يَـسْـتَـضْـحِكُ الأيّـامَ عن شِـيَمٍ

كـالـرَّوض تـضـحكُ مـنه في الـرُّبـا قِـطَعُ[1]

كـالـبـاردِ الـعَـذْبِ لـذّتْ من مَـوارده

لـشـاربٍ – غِبَّ تَـبْـريحِ الـصَّدى – جُـرَعُ[2]

٭٭٭٭٭

قُلْ لـلـوزيـر الـذي تـأمـيـلُهُ وَزَري

إنْ ضـاقَ مُـضْـطَـرَبٌ أو هـالَ مُـطَّـلَعُ[3]

أصِخْ لِـهَـمْسِ عِـتـاب تَـحْـتَهُ مِـقَـةٌ

تُـكَـلَّفُ الـنـفسُ مـنه فـوق مـا تَـسَعُ[4]

مـا لـلـمَـتـابِ – الـذي أحْـصَـفْتَ عُـقْدَتَهُ –

قد خـامَـرَ الـقلبَ من تـضـيـيـعهِ جَـزَعُ؟[5]

لي في الـمُـوالاة أتْـبـاعٌ يـسـرّهمُ

أني لـهم – في الـذي نُـجْـزَى به – تَـبَعُ[6]

ألـستُ أهلَ اخـتـصـاصٍ مـنكَ يُـلْـبِـسُني

جـمـالَ سـيـمـاهُ؟ أم مـا فِيَّ مُـصْـطَـنَعُ؟[7]

---

(١) المعنى: متهلل الوجه ضاحك الأسارير يهزّ الأيام بأريحيته فتفتر عن خلائق باسمة كما تفتر الربا عن أزهار الرياض.

(٢) غب: عقب، الصدى: الظمأ، المعنى: أفضال الأمير تشارف النفوس الوالهة فتسعدها كما ينقع الماء العذب الزلال غلة العطشان.

(٣) الوزر: الملجأ، مضطرب: مكان السير في الأرض، مطلع: مكان الصعود أو موضع عال، المعنى: إن الوزير هو ملجئي ومفزعي إذا اكتنفتني الأحداث وروعتني الخطوب.

(٤) أصخ: أصغ، مقة: حب، في الأصول «وكلف النفس منها» وقد آثرنا رواية الذخيرة، وفي بعض نسخ الذخيرة «تكلف النفس فيه»، والمعنى: آمل أن تستمع أيها الأمير إلى عتابي المنبعث عن حبي لك وإعجابي بك هذا الحب الذي يجعلني أحتمل في سبيلك فوق ما أطيق من كيد الحاسدين.

(٥) في الذخيرة «ما للمتات...» المتات: الرابطة أو الصلة أو النسبة، أحصف: أحكم، والمعنى: لقد عقدت توبتي على يديك فتوثقت بيننا العهود، ولكنني أصبحت أشفق من أن تفصم ما بيننا من صلات.

(٦) المعنى: لقد سبقت كثيرين في خدمتك والولاء لك، وهم يجدون السرور البالغ في أن يسبقوني في نيل برك والظفر بنعمائك فيكيدون لي عندك لتتصرف عني إليهم.

(٧) السيما والسيمياء: المظهر والعلامة، مصطنع: موضع للإحسان، المعنى: كيف تتصرف عني إلى هؤلاء الحاسدين؟ ألست من خاصتك المتميزين بجمال موالاتك؟ أم أنا غير جدير منك بالرعاية والإحسان؟

لم أُوتَ في الحالِ - من سعيي لديك - وَنًى

بل بـالجُـدود تَـطـيـرُ الحـالُ أو تَـقَعُ[1]

لا تَـسْـتَـجِـزْ وَضْعَ قَـدْري بـعـد رَفْـعِـكَهُ

فـالـلّـهُ لا يـرفعُ الـقَـدْرَ الـذي تَـضَعُ[2]

تـقـدّمَتْ لك نُـعْـمَـى رادَهـا أمـلي

في جـانبٍ هُـوَ للإنـسـانِ مُـنْـتَـجَعُ[3]

مـا زال يُـونِقُ شُـكـري في مـواقـعـهـا

كـالـمُـزْنِ تُـونِقُ في آثـارهِ الـتُّـرَعُ[4]

شُـكْـرٌ يـروقُ ويُـرضي طـيبُ طُـعْـمَـتِهِ

في طَـيِّـهِ نَـفَـحـاتٌ بـيـنَـهـا خِـلَعُ[5]

ظنّ الـعـدا - إذْ أَغَـبَّتْ - أنّـهـا انـقـطـعتْ،

هـيـهـاتَ لـيس لِـمَـدِّ الـبـحـرِ مُـنْـقَـطَعُ[6]

لا بـأسَ بـالأمـر - إنْ سـاءتْ مـبـادئُهُ

نَـفْسَ الـشَّـقـيقِ - إذا مـا سَـرَّتِ الـرُّجَعُ[7]

✵✵✵✵✵

(١) الونى: الفتور أو التواني أو الكلال، الجدود: الحظوظ، المعنى: لم أقصر في سعي إليك ولا توانيت في خدماتك، ولكن الحظوظ ترفع من ترفع وتخفض من تخفض دون تقدير أو حساب.

(٢) المعنى: لقد رفعتني إليك وقربتني منك فلا تبدل إحسانك إليّ، فإن الله لا يرفع من تخفضه ولا يقرب من تبعده.

(٣) رادها: تقدمها مأخوذة من راد المكان حاول كشفه ومعرفة ما به من الكلأ، منتجع: مكان النجعة وهي المرعى، والمعنى: لقد قادني أملي إليك فصادفت عندك مكانًا مأهولاً ومرتعًا خصيبًا.

(٤) يونق: يعجب، المزن: السحاب أو المطر، الترع: جمع ترعة وهي الروضة في المكان العالي، أو فوهة الجدول، والمعنى: كلما غمرني إحسانك أينع شعري في الثناء عليك كما تونق الرياض في أعقاب الأمطار.

(٥) المعنى: رق شكري وراق لأفضالك السابغة عليّ، فأصبح طيب المذاق عذب النفحات، يخلع على الممدوح حللاً فاخرة من الثناء لا يبليها الزمان.

(٦) أغبّت: تأخرت حينًا، المعنى: إذا أعرضت عني حينًا فلا يظنن الأعداء أنها جفوة منك، فإن إحسانك إليّ سيتصل كما يتصل المدّ بعد الجزر على ساحل البحار.

(٧) المعنى: قد تسوء المبادئ ثم تحسن الخواتم، ولا بأس في هذا فالعبرة بحسن الخواتيم.

إنّ الأُلى كـنتُ – من قَـبْلِ افْـتِـضـاحِـهِمُ –

مِثلَ الـشَّجَى في لُـهاهُمْ لـيس يُـنْـتَـزَعُ[١]

لم أحْظَ – إذ هم عِـدًا بــادٍ نــفـاقُــهمُ –

إلاّ كــمــا كــنتُ أحْــظَى إذ همُ شِــيَعُ[٢]

مــا غــاظـهم غـيـر مـا سَـيَّـرْتُ من مِـدَحٍ

في صـائِكِ المسكِ من أنـفـاسـهـا كَـنَعُ[٣]

كم غُــرّةٍ لي تَــلــقَّــتْــهــا قــلــوبُــهُمُ

كمـا تـلـقّى شـهـابَ الـمُـوقِدِ الـشَّمَعُ[٤]

إذا تــأمَّــلْتَ [نــصــحي] غِبَّ غِــشِّــهمُ

لم يَـخْفَ من فَلَقِ الإصْبـاحِ مُـنـصَدِعُ[٥]

تـلك الـعَـرانـينُ لم يـصـلُحْ لــهـا شَـمَمٌ

فـكــان أهْــوَنَ مــا نِــيـلَتْ بـهِ الجَـدَعُ[٦]

أوْدَعْتَ نُـعْـمَـاكَ مِـنـهمْ شَـرَّ مُـغْـتَـرَسٍ

لن يَـكْـرُمَ الـغَـرْسُ حـتى تَـكْـرُمَ الـبُـقَعُ[٧]

---

(١) يعرض في هذا البيت ببني ذكوان ويذكر أنه كان موضع عداوتهم أو كالغصة في حلوقهم قبل أن يفتضح أمرهم ويجاهروا الأمير بالعداء.

(٢) المعنى: مالي لا أظفر بالحظوة عندك بعد انكشاف أمر بني ذكوان؟ فإن حظي منك بعد افتضاح أمرهم هو حظي منك قبل تظاهرهم لك بالمحبة والولاء.

(٣) صائك: لاصق، كنع المسك بالثوب: لزق به، والمعنى: إن بني ذكوان يحسدونني على ما أبدعت في مدحك من قصائد طيبة النفحات تنفح أنفاسها المسك فتمنحه أذكى العبير.

(٤) المعنى: إن قلوبهم تتلظى بالحقد عليّ فكلما أبصروا طلعتي ذابت قلوبهم حسدًا وضغينة كما يذوب الشمع في النار.

(٥) المعنى: إذا تأملت ولائي لك بعد انكشاف نفاقهم وغشهم أدركت من هو الجدير بالرعاية والتكريم، فهيهات يخفى انبلاج الصباح، وكلمة «نصحي» وردت ناقصة في الأصول.

(٦) العرانين: جمع عرنين، وهو أعلى الأنف أو ما صلب منه، الشمم: ارتفاع قصبة الأنف، الجدع: القطع، والمعنى: إن أنوفهم لم تخلق لترتفع في شمم وإباء، فإذا حاولوا هذا فإن أخف عقاب يستحقونه هو قطع هذه الأنوف.

(٧) مغترس: مكان الغرس، المعنى: لقد غرست جميلك منهم في أرض خبيثة غير صالحة للإنبات، ولن يثمر الغرس إلا إذا طابت التربة والمناخ.

لـقـد جَـزتْـهُمْ جَـوازي الـدَّهْـرِ عن مِـنَنٍ

عَـفَتْ، فـلـم يـثـنِـهِمْ عن غَـمْـطِـها وَرَعُ[1]

لا زال جَـدُّكَ بـالأعـداءِ يَـصْـرَعُـهُمْ

إنْ كـان بـينَ جُـدودِ الـنّـاسِ مُـصْـطَرَعُ[2]

****

(١) عفت: كثرت وطالت، أو درست وبليت، والمقصود هنا هو المعنى الأول، غمطها: بخسها، والمعنى: لقد استحقوا شر الجزاء لأنهم كفروا بأنعمك السابغة عليهم، ولم يحجزهم عن جحود إحسانك إليهم ورع أو تقوى أو ضمير.

(٢) جدك: حظك، المعنى: أسأل الله أن ينصرك على أعدائك ويرفع حظك فوق جميع الحظوظ.

٣ - في عهد المعتضد بن عباد

نفي وإعراض

على الرغم من مكانة الشاعر عند المعتضد فقد لفحته إحدى نزواته، فأقصاه إلى مكان مقفر، فعاتبه الشاعر بقصيدة ضاع معظمها، ولم يبق منها إلا هذه الأبيات:

ولما قَضَيْنا من «دُوَيْرٍ» إجازةً
تَحَدَّرَ دمعُ المُقْلَةِ المُتَرَقْرِقُ[1]

ومنها:

أعبَّادُ حتّى من هِباتِكَ مُخْلِصٌ
وَدودٌ؟ ومِنْ عافيكَ بَيْداءُ سَمْلَقُ؟[2]
تَعَوَّدْتَ بَذْلَ المُنْفِساتِ فجُدْتَ بي
وإنّي بصَوْنٍ منكَ أَحْرَى وأخْلَقُ[3]

ومنها:

وما كان ظنّي أن أُرى مُتَقَحِّمًا
مُسَنّاةَ مَحْمومٍ أَخُبُّ وأُعْنِقُ[4]

****

(١) المعنى: حينما اجتزنا دويرا – لعله النهير الصغير الموجود بالشمال الغربي لشبه جزيرة إيبيريا – فاضت دموعي.

(٢) العافي: الفقير السائل، بيداء سملق: صحراء مقفرة، والمعنى: لقد تعوّدت أيها الأمير الكرم والسخاء، ولكن أيبلغ بك السخاء أن تجود بتابعك المخلص الوفيّ على الصحارى المجدبة؟

(٣) المعنى: لقد اعتدت أن تهب كل غال ثمين، وجريت على عادتك فجدت بي على الصحراء مع أنني جدير منك بالحفظ والصيان.

(٤) التقحم: الدخول في الأمر دون رويّة أو تفكير، المسناة: السد المائي، الخبب والإعناق ضربان من السيرّ السريع، والمعنى: ما كنت أتوقع أن تبعدني عنك فأجد نفسي أتخبط في البوادي منتقلاً منها إلى «مسناة محموم» مسرعًا في السير في عجلة وإشفاق.

٤ - في عهد المعتمد بن عباد

انتهز حساد الشاعر فرصة موت المعتضد بن عباد وولاية ابنه المعتمد الحكم، فنسبوا إلى الشاعر بيتين في هجاء المعتضد، ثم قدموا إلى المعتمد رقعة حرضوه فيها على الفتك بشاعره ووزيره وكانت الرقعة تحمل هذه الأبيات:

(يــأيــهــا المــلــكُ الــعــلــيُّ الأعــظمُ
إقــطَعْ وريــدَيْ كلِّ بــاغٍ يَــنْــئِمُ[(١)]

واحِــسمْ بــســيــفكَ داءَ كلِّ مــنــافقٍ
يُــبْـدي الجــمـيلَ، وضِـدَّ ذلك يَـكْـتُمُ[(٢)]

✵✵✵✵

لا تحــقِــرنَّ منَ الــكلامِ قــلــيــلَهُ
إنَّ الــكلامَ لـه ســيــوفٌ تَــكْــلِمُ[(٣)]

والــمَـلْكُ يــحـمي مُـلـكهُ من لـفـظـةٍ
تــسـري فـتُـجـلَى عن دواهٍ تَـعْـظُمُ[(٤)]

فــضلاً عنِ الــكِـلم الـذي قـد أصـبـحتْ
غــوغــاؤنــا جــهــرًا به تــتــكــلَّمُ[(٥)]

(١) في الإحاطة «الأعز الأعظم»، الوريدان: عرقان من العنق، باغ: ظالم، ينم وينأم: يئن أو يصوّت، والمعنى: أيها الملك السامي الرفيع اضرب عنق كل ظالم دساس.

(٢) احسم: اقطع، والمعنى: عالج بسيفك أمراض المنافقين الذين يظهرون الود ويخفون ألد العداء.

(٣) تكلم: تجرح، والمعنى: لا تستخفن بالكلام اليسير، فمن الكلام ما يقود إلى الهلاك والوبال.

(٤) المعنى: إن الملك الحصيف العاقل هو الذي يحمي عرشه من كلمة تذاع وتنتشر بين الرعية فتتكشف عن أخطار جسيمة لم تكن في الحسبان، وفي الإحاطة «عن لفظة».

(٥) يشيرون بهذا إلى ما نسبه الرواة إلى ابن زيدون في هجاء المعتضد إذ يقول:

لــقــد ســرّنــا أن الــنــعــيّ مــوكّلٌ
بــطــاغــيــة قــد حُمَّ مــنه حِــمــامُ

تجانف صوب الغيث عن ذلك الصدى
ومــرّ عــلــيه الــبــرق وهــو جــهــام

ويذكرون أن هذا الهجاء ذاع على ألسنة العامة والغوغاء، والكلم: جمع كلمة ولا يقل عن ثلاث كلمات، ويجوز فيه التذكير والتأنيث.

فـــالـــــلهُ يـــعــــلمُ أنَّ كلَّ مُـــؤمِّلٍ

مـثـلـي عـلـى حـذَرٍ وخـوفٍ مـنـهمُ[1]

فـالـدمعُ من أجـفـانـنـا مـتـهـلّلٌ

والـنـارُ في أحـشـائـنـا تَـتَـضَـرَّمُ[2]

✲✲✲✲✲

ولـقـد عـلـمتَ - ولـن نـبـصِّـرك الـهُـدَى

فلأنتَ أهْـــدَى في الأمـــورِ وأحْـــزَمُ[3]

أنَّ المـلـوكَ تـخـافُ من أبـنـائـهـا

فـتُـحِلُّ من مُـهْـجـاتِـهمْ مـا يَـحْـرُمُ[4]

ولـذاك قـيل: «الـمُـلْكُ أعـقمُ، لم يـزلْ

فـيه الـوليُّ يـديـر حـربًـا تُـضـرَمُ»[5]

فـــاحـــسِمْ دواعِيَ كلِّ شـــرٍّ دونهُ

فـالـداءُ يـسـري إن غـدا لا يُـحـسَمُ[6]

كم سَـقْطِ زنـدٍ قـد نمـا حـتى غـدا

بُـركـانَ نـارٍ كلَّ شيءٍ يَـحْـطِمُ[7]

---

(١) المعنى: يعلم الله أنَّ كل محب لكم أصبح يشفق من تداول هذا الهجاء على ألسنة الغوغاء.

(٢) المعنى. لقد فاضت أجفاننا بالدموع والتهبت قلوبنا بالآلام حذرًا على هذا الملك الشامخ وغيظًا من الشاعر الجاحد للجميل.

(٣) في القلائد والإحاطة «أهدى في الأمور وأعلم».

(٤) المعنى: كثيرًا ما يبطش الملوك بأبنائهم إذا رأوا في بقائهم خطرًا على عروشهم، وهم في هذا يعرضون بفتكة المعتضد بابنه وولي عهده إسماعيل بن عباد.

(٥) في القلائد «يثير حربا»، الملك أعقم: في الأمثال «الملك عقيم» أي لا ينفع فيه نسب لأنه يقتل في طلبه الأب والولد والأخ والعم، والمعنى: لا ترع في المحافظة على ملكك روابط الصداقة والمودة، فإن حماية الملك تستدعي أن يتنكر الإنسان في سبيلها لأقرب المقربين إليه من ولده وعشيرته، فكيف بالأصدقاء؟

(٦) احسم: اقطع، والمعنى: بادر بحسم الداء قبل أن يستحكم ويستشري فيعز الدواء.

(٧) السقط: ما يتطاير من الشرر، الزند: العود الذي تقدح به النار، والمعنى كم تنبعث النيران اللافحة من شرارة صغيرة يستهين بشأنها الإنسان، «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

وكـذلك الـسَّـيلُ الجُـحـافُ، فـإنمـا
أُولاه طلٌّ ثـمَّ وَبـلٌ يُـثْـجِمُ[١]
والمـالُ يُـخْـرِجُ أهـلَه عن حـدِّهمْ
فـافـهمْ فـإنك بـالـبـواطنِ أفْـهَمُ[٢]
واذكُـرْ صـنـيعَ أبـيك أوّلَ أمـرهِ
في كلِّ مـتَّـهَمٍ فـإنك تَـعْـلَمُ[٣]
لم يُـبْقِ مـنـهمْ من تـوقَّعَ شـرَّهُ
فـصـفتْ له الـدنـيـا، ولَـذَّ الـمَـطـعمُ[٤]
فـعلامَ تـنـكُلُ عن صـنـيعٍ مـثـلهِ
ولأنت أمـضى في الخـطـوب وأشْـهَمُ[٥]
وَجَـنـانُكَ الـثَّـبْتُ الـذي لا يـنـثـني
وحُـسـامُكَ الـعَـضْبُ الـذي لا يَـكـهَمُ[٦]
والحـالُ أوسعُ، والـعـوالي جـمّـةٌ
والمجـدُ أشـمخُ، والـصَّـريمـةُ ضَـيْـغَمُ[٧]
لا تـتـركَنْ لـلـنـاس مـوضعَ شـبـهـةٍ
واحـزِمْ، فـمِـثـلُكَ في الـعـظـائم أحْـزَمُ[٨]

(١) آثرنا رواية القلائد والإحاطة وفي الأصول «ولذلك السيل»، السيل الجحاف: الذي يجرف في سبيله كل شيء، الطلّ: أضعف المطر، الوبل والوابل: المطر الشديد، أنجمت السماء: أسرع مطرها ودام، وفي القلائد والإحاطة «وبل يسجم» من سجم الدمع أو السحاب إذا سال، والمعنى: إن المطر الخفيف إذا دام أصبح سيلاً جارفًا، وكذلك المطر يبدأ خفيفًا ثم يهطل غزيرًا، فلا تستهن بكلمات قليلة تجر بلاء كثيرًا.

(٢) المعنى: لقد غمرت الشاعر بنعمائك فكفر بها، ولا عجب فوفرة الأموال تدفع الإنسان إلى الغرور وتغيّر طبائعه فتورده موارد الهلاك.

(٣) في القلائد «أول مرة»، والمعنى: اقتد بأبيك في فتكه بحاشيته في بدء ولايته، فقد فتك بوزير أبيه حبيب كما قضى على كثير من بطانته وأقاربه، وأخبار فتكاته مشهورة «راجع كتابنا: ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه ص ٤١ - ٤٣».

(٤) المعنى: لم يترك أبوك أحدًا من حوله يخشى انتقاضه عليه، ولهذا صفت له الدنيا واستقرّ السلطان.

(٥) تنكل: تجبن أو تتأخر، والمعنى: كيف تتأخر عن الاقتداء بأبيك؟ مع أنك أمضى عزمًا وأشجع قلبًا.

(٦) الجنان: القلب، العضب: القاطع، يكهم: يكل، والمعنى: كيف يفلت منك هذا الجاحد؟ مع أن قلبك شجاع لا ينثني، وسيفك قاطع بتار لا يكل ولا ينثني ولا يلين.

(٧) العوالي: جمع عالية وهي أعلى القناة أو رأسها أو النصف الذي يلي السنان، أشمخ: أعلى، الصريمة: العزيمة، الضيغم: الأسد، والمعنى: كيف تقرّ هذا وملكك أوسع مدى، وسلاحك أكثر عددا، ومجدك أرفع منزلة، وعزيمتك كعزيمة الأسد في المضاء؟

(٨) في الذخيرة «لا تتركن للنشء»، وفي القلائد «موضع تهمة»، وفيها وفي الإحاطة «مثلك في العظائم يحزم»، والمعنى: لا تبق للنفوس مجالاً للشك في عزمك ومضائك، وخذ الأمور بالحزم فأنت بالحزم جدير.

قـد قــال شــاعِـرُ كـنـدةٍ في مــا مـضـى

بــيــتًــا عــلـى مــرّ الــلــيــالي يُــعــلَمُ[1]

«لا يــســلـمُ الــشَّــرفُ الــرفــيعُ من الأذى

حــتـى يــراقَ عـــلـى جـــوانِــبـه الـــدمُ»[2]

فـــأجــعـــلـه قُــدوتَـكَ الـــتي تــعـــتـــادهـــا

في كلِّ من يـــــبـــــغـي، ورأيُكَ أحْــــكَمُ[3]

واســـلـم عـــلـى الأيَّــــامِ، إنَّك زَيْـــنُـــهـــا

وجــمـــالُــهـــا، والـــدهـــرُ دونَكَ مـــأتمُ[4]

✲✲✲✲✲

لا زلت بـــالـــنـصـــر الـــعـــزيـــز مُـــهَـــنَّـــأً

والـدِينُ عن مَـحْـمـودِ سَـعْـيِكَ يَـبْـسِمُ[5]

وعَـــدَتْ عـــلــى الاعـــداء مـــنـك رزيّـــةٌ

لا يُـــســتـقَلُّ بــهـــا، وخــطبٌ صَـيْـلَمُ[6]

وُوقــيتَ مــكــروهَ الــحــوادثِ، واغْــتَــدَتْ

طــيــرُ الــسُّــعــود بــأيْـكِـكُمْ تَــتَــرَنَّمُ[7]

---

(١) في الذخيرة «إذ قال شاعر كندة» وفي الإحاطة «قولاً على مرّ الليالي»، وشاعر كندة هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، منسوب إلى المحلة التي ولد بها «كندة» قرب الكوفة.

(٢) البيت من قصيدة للمتنبي، في هجاء ابن كيغلغ ومدح أبي العشائر، ومعناه: لا يسلم الشريف من ملاحاة الأعداء حتى يريق منهم في سبيل المحافظة على شرفه الدماء.

(٣) المعنى: اقتد بهذا البيت الحكيم، واتبعه في تأديب كل باغ أثيم.

(٤) المأتم كل مجتمع في حزن أو فرح، أو خاص بالنساء أو الثواب، وقد أصبح يستعمل في المناحات، والمعنى: نرجو لك السلامة من الفتن والدسائس مدى الحياة فإنك بهجتها وجمالها، والدهر مثل المأتم إذا خلا منك.

(٥) آثرنا رواية القلائد وفي الأصول «فالدين عن محمود سعيك»، المعنى: ندعو لك بأن تظلّ أبدًا مهنأ بالنصر على الأعداء، حاميًا للدين معزّاً له حتى يزدهر في عهدك السعيد.

(٦) في القلائد: لا تستقل بها، الصيلم: الداهية أو الأمر الشديد، والمعنى: نسأل الله أن يجعلك نكبة على الأعداء لا يستطيعون النهوض بعدها، وأن يرميهم منك بداهية تقضي عليهم كل القضاء.

(٧) الأيك: الشجر الكثير الملتفّ، والمعنى: ندعو الله أن يحميك من الحوادث الكريهة، وأن يجعل طيور السعادة تشدو في رياضك الفيحاء.

فلما قرأها المعتمد أبى عليه نبله ووفاؤه لشاعره وأستاذه ووزيره أن يتأثر بهذه الدسيسة، ووقع على ظهر الرقعة بهذه الأبيات:

[كـذبتْ مُـنـاكمْ، صَـرِّحـوا أو جَـمْـجـمـوا
الــدِينُ أمــتنُ، والــســجــيّــةُ أكــرم[(١)]

خُــنــتُمْ، ورُمْــتُمْ أن أخــونَ، وإنمــا
حــاولـتـمـو أن يُـسـتـخَفَّ يَـلَـمْـلَمُ[(٢)]

وأردتـمـو تـضـيـيقَ صـدرٍ لم يـضقْ
والـسُّـمْـرُ في ثُـغَـرِ الـصُّدور تُـحَـطَّمُ[(٣)]

وزحــفـتـمــو بمِـحــالِـكُمْ لمجـرِّبٍ
مـا زال يـثـبتُ لـلـمِـحـالِ فَـيَـهْـزِمُ[(٤)]

أنَّى رجــوتمْ غــدرَ من جــرّبـتـمــو
مــنه الــوفـاءَ. وظـلـمَ من لا يـظـلِمُ؟[(٥)]

أنــا ذلـكم، لا الـبَـغْيُ يُـثـمـرُ غـرسُهُ
عـنـدي، ولا مَبْـنَى الـصّـنـيـعَـةِ يُـثلمُ[(٦)]

كُــفّــوا، وإلا فــارقـبــوا ليَ بـطـشـةً
يُـلـقَى الـسَّـفـيهُ بمـثـلـهـا فَـيُـحَـلَّمُ][(٧)]

---

(١) في بعض نسخ الذخيرة «والمروءة أكرم»، وفي الإحاطة «فالدين أمتن»، جمجم الكلام، لم يبينه، المعنى: لقد خابت آمالكم في حملي على الغدر بالصديق سواء صرحتم بأهدافكم أو أخفيتموها، فإن لي دينا يعصمني من الظلم ومروءة تحميني من الغدر.

(٢) في القلائد «وربما.. حاولتمو»، يلملم: جبل على مرحلتين من مكة، المعنى: جاهرتم بالخيانة، وحاولتم حملي عليها دون جدوى فهيهات أن تخف الجبال الراسيات.

(٣) القلائد والإحاطة «والسمر في ثغر النحور»، السمر: الرماح، المعنى: حاولتم إثارتي مع أن صدري واسع وحلمي راسخ وجناني ثابت إذا قامت الحروب وأزهقت فيها النفوس.

(٤) آثرنا رواية القلائد والإحاطة وفي الأصول «وزحفتم، بمجالكم»، في الذخيرة «ورجعتمو بمجالكم.. في المجال فيهزم» المحال: الكيد والمكر والدسّ، أو القوة والشدة، المعنى: لقد حشدتم كيدكم وحاولتم التأثير فيّ بمكركم ودسائسكم، وفاتكم أنني خبرت الدهر وتمرست بالشدائد فلا تؤثر في نفسي المكائد والوشايات.

(٥) في الذخيرة «وجور من لا يظلم»، المعنى: لقد جربتم وفائي وعدلي فكيف تحاولون حملي على الغدر والظلم وأنا منهما بعيد؟

(٦) آثرنا رواية القلائد والإحاطة وفي الأصول «أنا ذاكم» وفي بعض نسخ الذخيرة والقلائد والإحاطة «ولا مبنى الصنيعة يهدم»، الصنيعة: الإحسان، المعنى: أنا الوفي العادل لا أصغي للدسائس ولا أهدم ما شيدت من إحسان.

(٧) في الإحاطة «يبقى السفيه بمثلها يتحلم»، المعنى: كفوا عن دسائسكم وإلا فترقبوا مني عقابا صارما يردع عن غيه كل

فلما علم ابن زيدون بهذا الموقف النبيل من صديقه وأميره اهتزت نفسه لهذه الاريحية العظيمة وصاغ فيه هذه القصيدة:

الدهر - إنْ أمْلَى - فصيحٌ أعجمُ
يُعطي اعتباري ما جهلتُ فأعلمُ(١)

إن الذي قدَر الحوادثَ قَدْرَها
ساوى لديه الشُّهدَ منها العَلقمُ(٢)

ولقد نظرتُ فلا اغترارٌ يقتضي
كَدَرَ المآلِ ولا توقٍّ يَعْصِمِ(٣)

كم قاعدٍ يحظى تَعَجَّبُ حالُهُ
من جاهدٍ يصلُ الدؤوبَ فيُحْرَم(٤)

وأرى المساعي كالسيوف تبادرتْ
شأوَ المَضاء، فمُنْثَنٍ ومُصَمِّم(٥)

ولَكَمْ تَسَامى بالرفيع نِصابُهُ
خطرٌ فناصبَهُ الوضيعُ الألأم(٦)

وأشدَّ فاجئةِ الدواهي محسنٌ
يسعى ليُعْلِقَهُ الجريمةَ مُجرمُ(٧)

---

(١) الاعتبار: الاتعاظ أو القياس العقلي، المعنى: الدهر أبلغ الحكماء وإن كان صامتا، فإن أحداثه وعظاته تنير أمامي السبل وتعلمني ما لم أكن أعلم، وفي القلائد «الدهر إن أسأل...».

(٢) المعنى: إن الذي يتعمق في فهم الأمور ويدقق النظر في فلسفة الحياة يجد الحلو فيها مثل المرّ، والشقاء كالنعيم، فكثيرا ما تتكشف بواطن الأمور عما يناقض ظواهرها، فمن الحكمة ألا يغتر الإنسان بالظواهر، وفي القلائد «وإذا الفتى...».

(٣) الاغترار: عدم الاحتراس، المعنى: لقد تدبرت الأمور فوجدت أنّ عدم الحذر لا يجلب العطب، وأن الاحتراس لا يكفل السلامة ولا يعصم من الأقدار، وفي القلائد «وإذا نظرت... كنه المال».

(٤) في القلائد «.. تعجل حظه... يصل الدروب»، والمعنى: كم قاعد ينال أوفر الحظوظ، وكم مكافح مجاهد تكون نتيجة سعيه الحرمان.

(٥) المعنى: قد تصيب المساعي الحثيثة، وقد تخيب، شأنها في هذا شأن السيوف المرهفة، فمنها ما ينفذ في الجسوم ومنها ما ينثني أو يصيبه الكلال.

(٦) الخطر: الشرف وارتفاع القدر، والمعنى: كم ارتفع شأن الرجل الخطير فنافسه الوضيع اللئيم، وربما امتاز عنه لاختلال موازين الحظوظ.